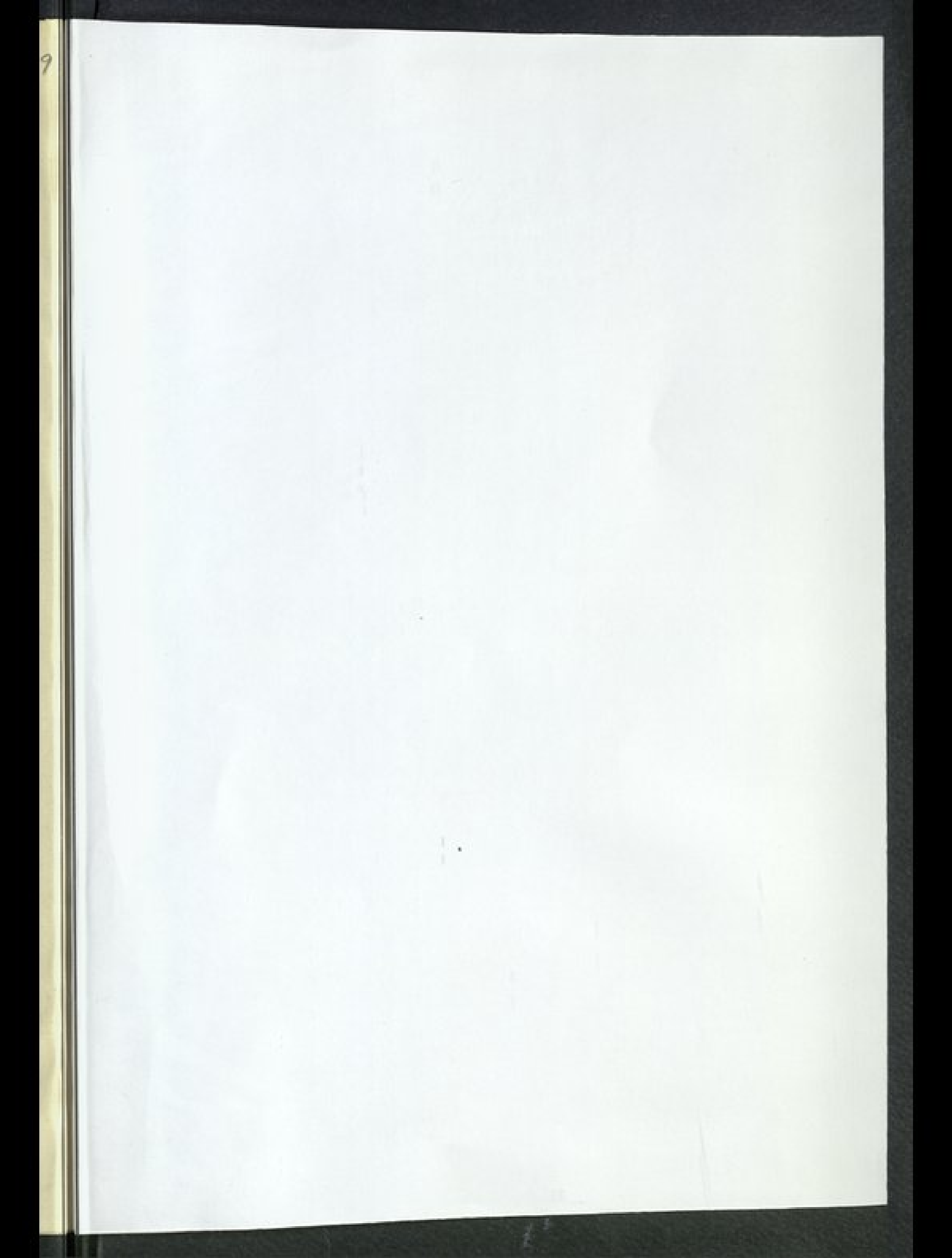



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
UNIVERSITY
LIBRARY





الجزء الاول

وفيه قسم من المحاضرات التي القيت في ردهة المجمع العلمي
الكبرى في المدرسة العادلية بدمشق سنة ١٩٢١ و١٩٢٢م
(الموافقة لسنة ١٣٣٩ و ١٣٤٠ و ١٣٤١ هـ)

طبعت على نفقة المجمع العلمي العربي

المطبعة الحديثة في دمشق سنة ١٣٤٣ هـ و (١٩٢٥) م



اما بعد فان مجمعنا العلمي العربي بدمشق مازال منذ اول عهده يقيم في ردهته الكبرى حفلات اسبوعية للمحاضرات يشهدها جمهور كبير من اهل الفضل والادب ثم عزز محاضرات الرجال بمحاضرات اخرى تلقى على السيدات وجعل لها مواقيت معلومة . ولم يخص المجمع اعضاءه بالقاء هذه المحاضرات بل كان يدعو احياناً كثيرة غيرهم من الفضلاء المقيمين بدمشق والطارئين عليها ممن عرف بالاخصاء في الفنون المختلفة ان يتفضلوا بمحاضرات يلقونها على من يجتمع في ردهته كل اسبوع للاستفادة . وكلما كان المجمع يجتهد في تنظيم هذه المحاضرات وتنويع موضوعاتها كان الجمهور يزداد اقبالاً عليها . واعجاباً بفائدتها . حتى تمنوا لو تنشر في المجلة او في كتاب على حدة وما كان يتيسر للمجمع نشرها في المجلة لكثرتها وضيق مجلته الشهرية عن استيعابها . ولم يكن يستحسن نشرها على حدة لان طبعها كلها يقتضي نفقات طائلة . ولان معظم هـذه المحاضرات لم تكن اثراً من آثار المجمع الخاصة وانما

هو محصول عقول الطبقة المستنيرة من فضلاء ابناء الوطن . على
ان كثيراً من هذه المحاضرات كان يكتب بلغة مراعىً فيها حالة
الجمهور المستمع . وفيهم من يعسر عليه فهم الكلام الجزل . والاسلوب
الفحل . فطائفة من هذه المحاضرات ــ وحالها ما وصفنا ــ لا يمكن
طبعه ونشره الا بعد حذف ما طال من ذيوله .

غير ان المجمع اخيراً لما لم يرعذره هذا مقبولا لدى الفضلاء الذين
كانوا يلحون في طبع محاضراته قرر في جلسته المنعقدة في ٣١ تشرين
الاول سنة ١٩٢٤ ان يكتفي بطبع ماوصل اليه من نسخ المحاضرات
الجديرة بالنشر وها هو يقدم لقراء العربية الكرام الجزء الاول
منها وفيه سبع عشرة محاضرة راجياً تحقيق ما يؤمله من النفع العام
والله المستعان .

دمشق : في رجب ١٣٤٣ ﻫ و كانون الثاني سنة ١٩٢٥ م

المجمع العلمي
العربي

معلقة طرفة بن العبد[1]

ايها السادة !

كُلفت ان اتكلم على مئة بيت شعر ونيّف من كلام عرب الجاهلية • وضُربت لي مدة للكلام لا أُراها تكفي لذلك لان الابيات تحتاج الى شرح وتفسير معنى • ومن دون ذلك لا يكون للمحاضرة معنى • مئة البيت هذه هي التي تسمى (معلقة طرفة بن العبد) •

ومعلقة طرفة واحدة من معلقات سبع • والمعلقات السبع بعض شعر الجاهلية • وشعر الجاهلية طائفة من الشعر العربي • والشعر العربي فن من فنون الآداب العربية •

فاذا حاولنا ان نلم بهذه المقدمات نفد الوقت قبل الوصول الى (معلقة طرفة) •

فالاجدر بنا اذن ان نعمد الى تلك المعلقة التي هي موضوع محاضرتنا ونهجم عليها تواً من دون تعريج على شيء آخر سواها :

(لماذا سميت المعلقات معلقات ؟)

غير ان هناك أمراً احببت التعرض له وهو لماذا سميت هذه القصائد بالمعلقات ؟ المشهور انها سميت بذلك لانها كانت معلقة على جدران الكعبة او مرقومة على ستائرها وانكر قوم ذلك • ومنهم (ابوجعفر النحاس النحوي) من رجال القرن الرابع للهجرة • فقالوا — في سبب التسمية — كان الملك في الجاهلية اذا أعجبته قصيدة قال لهم علقوا لنا هذه • يعني اكتبوها لتبقى محفوظة في خزائنه مع الاعلاق النفيسة •

وربما أيد هذا القول ان قريشاً كانوا قوماً حمساً اي شديدي الحماسة والتعصب لديانتهم • وناهيكم بمنزلة الكعبة وقداستها في نفوسهم • فيبعد ان يسمحوا بتعليق شعر فيه تصريح بالفحش والعهر احياناً — على كعبتهم المقدسة •

---

(1) اول محاضرة أُلقيت في قاعة مجمعنا العلمي لاحد اعضائه «المغربي» وذلك مساء الاحد الواقع في ١٧ نيسان سنة ١٩٢١

وزد على ذلك أن كتّاب السيرة النبوية ذكروا ان النبي (صلعم) والصحابة في فتح مكة دخلوا الكعبة وحطموا الاصنام التي فيها وأزالوا عنها كل معالم الجاهلية حتى انهم كانوا يحملون الماء بتروسهم ويصبونه على جدرانها لمحو الصور المنقوشة عليها بالاصباغ . ولم يذكروا ان المعلقات كانت مما أزيل او أنزل عن الجدران .

(الاسباب التي نُظمت معلقة طرفة من اجلها)

ليست محاضرتنا في (طرفة) نفسه لنسهب في ترجمته . وانما نلم من سيرته بما له تعلق في سبب نظم المعلقة .

كان (طرفة) من قبيلة بكر بن وائل التي يضرب بها المثل في العزة والكثرة وكان بيته في الذروة والسنام من تلك القبيلة . وكان هو شاباً جميلاً فصيحاً جريئاً . ومن كان في مثل حالته ومنزلته لا يلبث ان يتصل بالملوك فيكون نديماً لهم وجليساً . وكان ملك العرب اذ ذاك عمرو بن هند . وعاصمته (الحيرة) . فاتصل به طرفة ونادمه . ثم نقم منه الملك بعد ذلك اشياء وحقد عليه من أجلها :

قالوا : رآه يوماً يمشي بين يديه وهو يتخلج في مشيته اي يتمايل ويتبختر غير حاسب للملك حساباً .

وكانا مرةً يشربان فرأى طرفة في الجام (اي الكأس) الذي بيده خيال اخت الملك وكأنها كانت تطل عليهم متوارية فانشد طرفة :

(يا بأبي الظبي الذي تبرق شفتاه   ولولا الملك الجالس ألثمني فاه)

ويروى (شنفاه) مكان (شفتاه) فسمع الملك قوله فسكت على غيظ .

وبدرت من الملك بوادر منكرة في سياسة بلاده : منها اليومان الملعونان : يوم البؤس الذي كان يقتل فيه كل من يصادفه . ويوم النعيم الذي كان يكرم فيه كل من يصادفه . فنظم طرفة قصيدة انتقدهُ فيها — وكان جريئاً على النقد — منها قوله :

(فليت لنا مكان الملك عمرو   رغوثاً حول قبتنا تدور)

(لعمرك ان قابوس بن هند   ليخلط ملكه نوك كثير)

و (الرغوث) الناقة او النعجة الحلوب . و (النوك) الحمق . فصمم الملك على قتله

فحذره بعض رجاله عاقبة الامر . وخوّفه عشيرة طرفة وخاله المتلمس الشاعر الكبير المشهور : فإن هذا اذا هجاه أسقطه في القبائل .

فرأى الملك ان يتخلص منهما جميعاً فدعاهما اليه واعطاهما كتابين الى المكعبر عامله بالبحرين يأمره بقتلهما وأوهمهما انه يأمر لهما بصلة وجائزة . ثم فطن المتلمس للامر فمزق كتابه في حكاية ليس هنا محلها وقال لابن اخته مزق كتابك انت ايضاً وانج معي . فحملت طرفة غرارة الشباب على عدم المبالاة وقال لخاله : « لئن كان اجترأ عليك فما كان ليجترئ عليّ » ثم ذهب طرفة الى عامل البحرين فأطلعه العامل على جلية الامر . وفسح له مجال الهرب . فلم يفعل أنفة واستكبارا . واشار على شبان عبد القيس — وهي قبيلة بالبحرين — ان يسقوه الخمر وان يفصدوا أكحله وهو تميل . والاكحل عرق في القدم . ففعلوا فمات . وكان في حدود العشرين من العمر . ولذلك يقال له (ابن العشرين) وقيل انه بلغ ستاً وعشرين بدليل قول اخته في رثائه :

(عددنا له ستاً وعشرين حجةً   فلما توفاها استوى سيداً ضخما)

(فُجعنا به لما رجونا إيابه   على خير حالٍ : لا وليداً ولا قحما)

و (القحم) المتناهي في السن .

وفي معلقة طرفة ابيات اشار بها الى حادثة شربه الخمر في البحرين مع فتيان عبد القيس :

لكن ليس هذا كل السبب الذي حمل طرفة على نظم معلقته . فإن هناك سبباً آخر هاج من قريحته . وحرك من أنفته :

كان لطرفة أخ اسمه معبد وكان لمعبد إبل ضلت فذهب طرفة الى ابن عم لهم اسمه مالك يسأله ان يساعده في استرداد الابل . ولا يخفى مايكون في بعض ابناء الاعمام احياناً من الصلف والجفاء اذا رأوا ابن عم لهم يدانيهم و يتحبّب اليهم من اجل قضاء أمر ما . فانتهره ابن عمه وقال له « فرطتم في ابلكم ثم جئتم تتعبونني في طلبها » فتأثر طرفة من قوله . وهاجت شاعريته . فقال معلقته . ومن أحسن ما جاء فيها ابياته في معاتبة ابن عمه مالك كما سيجيء .

والتحقيق ان كل ابيات معلقة طرفة لم تُقل في سبب واحد · ولا في زمن واحد ومثلها المعلقات الاخرى : فكان الواحد من اربابها يعرض له السبب الآن فينظم فيه ابياتاً · ثم يعرض له سبب آخر فيقول فيه قطعة من البحر والقافية · حتى اذا كثرت الابيات ضم بعضها الى بعض · او فعل هذا بعض رواة شعره · وبهذه الصورة تتألف المعلقة وتبرز الى الوجود · ومن قلّب نظره في المعلقات وسياقاتها وجد الامر كما قلنا ·

وقد ذهب اكثر علماء الادب الى ان (طرفة) في الطبقة الثانية من ارباب المعلقات : اي انه بعد امرئ القيس وزهير والنابغة · لكن (عمرو بن العلاء) — وهو اكبر علماء اللغة — كان يقول : ان طرفة اشعرهم واحدةً · يعني اشعرهم معلقة · بل ذهب ابن مقبل الى ابعد من هذا فقال : (ان طرفة اشعر الناس) ·

اما مذهب (طرفة) في الشعر وحسن تصرفه في فنونه وشعاب اساليبه ومنزلته في ذلك بين رفاقه اصحاب المعلقات — فيتجلى لنا من إعمال مقارنة إجمالية بين معلقته ومعلقة امرئ القيس · وحبذا لو اتسع الوقت للمقارنة بينها وبين سائر المعلقات ·

(مقارنة اجمالية بين معلقتي طرفة وامرئ القيس)

معلقة طرفة مئة وثلاثة ابيات · ومطلعها :

(لخولة اطلال ببُرقة ثَهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد)

هلموا بنا ايها الافاضل نقف مع طرفة على اطلال محبوبته (خولة) ثم نسير معه فنطوف حيث طاف · ونسمع منه ما أتى على ذكره من الاحوال والاوصاف :

ها نحن نسمعه يصف اطلال خولة ببيتين من الشعر ·
ثم نسمعه يصف نياق الظعائن فيشبهها بالسفن بثلاثة ابيات ·
ثم وصف محبوبته — بخمسة ابيات ·
ثم الناقة التي ساعدته على نيل مقاصده — بثلاثين بيتاً ·
ثم الفلاة التي اجتازها وانها مهلكة — بثلاثة ابيات ·
ثم نفسه بنشاط العزيمة وكفاية المهم — بستة ابيات ·

ثم عاد الى ناقته ووصف سرعتها — بثلاثة ابيات ٠

ثم عاد الى نفسه فوصفها بالجود والشرف وانه يجمع بين الجدّ والهزل — بثلاثة ابيات ايضاً ٠

ثم وصف مجلس لهوه مع قينته وندمائه — باربعة ابيات ٠

ثم ذكر رأيه في هذه الحياة الدنيا وقال : انما هي شرب ولعب ومسرات ٠ وذم البخل والبخلاء الذين يضنون باموالهم فلا ينفقونها في هذا السبيل ٠ وردّ على الذين يلومونه في رأيه هذا — كل ذلك بستة عشر بيتاً ٠

ثم عاتب ابن عمه (مالك) وقص ما وقع بينهما — باربعة عشر بيتاً ٠

ثم رجع الى وصف نفسه وسيفه ونحره النياق في سبيل اللهو ومانصحه ابوه به — باحد عشر بيتاً ٠

ثم انتهى الى نهاية كل حيّ وهي الموت فاستوقفنا على مصرعه ٠ وعلّم ابنة اخيه (معبد) كيف تندبه ٠ وتبكي عليه ٠ وترثيه بماهو جدير به من القول : لا بما ترثّي به لئام الناس وذوي البخل والشح منهم — بتسعة ابيات ٠

ثم ختم معلقته بابيات حكمية بليغة سارت مسير الامثال ٠

ويمكن إرجاع هذه المواضيع كلها الى موضوعات ثلاثة كبرى :

(١) وصف نفسه واطواره — باربعة وثلاثين بيتاً ٠

(٢) أخلاقه خاصة ٠ وآداب عامة ٠ بثلاثة وثلاثين بيتاً ٠

(٣) وصف الناقة بخمسة وثلاثين بيتاً ٠

بهذه المواضيع يمكن ان نعرف الفرق الادبي بين معلقته ومعلقة امرئ القيس : فان امرأ القيس لم يضرب بسهم في وصف الاخلاق وتقرير الحكم والآداب كما فعل طرفة وانما هو اسهب في وصف أمور قد لا تكون مفيدة كالافادة التي نشعر بها في معلقة طرفة ٠

لنقف مع امرئ القيس بسقط اللوى بين الدخول فحومل ٠ ثم نطوف مطافه ونسمع اوصافه :

(١) أسهب امرؤ القيس في وصف النساء ووقائعه معهن — بسبعة وثلاثين بيتاً ٠

(٢) وفي وصف فرسه ـ بثمانية عشر بيتاً .

(٣) وفي وصف السحب والامطار ـ بثلاثة عشر بيتاً .

هذه هي أمهات الموضوعات التي اتى عليها امرؤ القيس في معلقته وقد استغرقت سبعةً وستين بيتاً من الواحد والثمانين بيتاً التي هي مجموع ابيات معلقته فبقي اربعة عشر بيتاً : وصف نفسه ببيت . والاطلال بستة . والليل باربعة . والمفاوز بثلاثة . ولم نسمعه قال بيتاً واحداً في الآداب العامة ولا الاخلاق ولا الحكم . على العكس من طرفة الذي أسمعنا من ذلك الكثير الطيب . وكان من اكبر مزايا معلقته ما تضمنته من هذه الحكم والامثال .

ففائدتنا الادبية والاجتماعية من معلقة (طرفة) اعظم وأجزل منها في معلقة امريء القيس . اللهم الا ان يدّعي مدّعٍ بافضلية هذه من حيث الصناعة الشعرية . وربما كان في هذا التفضيل ايضاً نظر تحقق لكم أيها السادة بعرض نموذجات عليكم من معلقة طرفة مفصلة ومتمايزة بعناوين خاصة بها .

(توارد المعلقة اي موافقتها لغيرها)

توارد طرفة مع امريء القيس في قوله :

(وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم   يقولون لاتهلك أسىً وتجلّد)

وقال امرؤ القيس :

(وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم   يقولون لا تهلك اسىً وتحمل)

فهل هذا من قبيل توارد الخواطر على معنى واحد من دون ان يسمع احدهما ما قاله الآخر . او هو سرقة . وبعبارة أنزه اقتباس ! وأيها الذي اقتبس من الآخر ؟ .

ووفاة طرفة كانت سنة ٥٥٠ للميلاد . وفي دائرة المعارف الفرنسوية سنة ٥٧٠ وهي السنة التي ولد فيها محمد «ص» . اما امرؤ القيس فكانت وفاته سنة ٥٦٠

(أرق بيت في معلقة طرفة)

(ووجهٍ كأن الشمس ألقت رداءها   عليه . نقيّ اللون . لم يتخدّد)

اي لم يتشقق وتخف ويلتصق لحمه بعظمه · بل هو بَض ممتلئ سمناً ·

(تشبيهاتها البديعة)

هي كثيرة وأحلاها موقعاً قوله يصف النياق والظعائن :

(كأنّ حدوج المالكية غدوةً   خلايا سفينٍ بالنواصف من دَدِ)

يريد بالحدوج النياق وماعليها من الهوادج · وبالخلايا السفن العظام · وبالنواصف الاماكن الرحبة او الاباطح · و « دد » مكان ·

وقوله في وصف السفائن :

(يشق حبابَ الماء حيزومها بها   كما قسم التربَ المفايلُ باليدِ)

« حباب الماء » سطحه او فقاقيعه · و « حيزوم السفينة » صدرها وجؤجؤها · و «المفايل» اسم فاعل من «الفيال» ضرب من اللعب عند الاعراب : يجمع اللاعب التراب ويدفن فيه شيئاً كخاتم مثلاً ثم يقسمه باليد نصفين · ويسأل الآخر عن الدفين في ايهما ؟ فمن أصاب قمَر · ومن اخطأ قُمر · فالفيال على هذا مشتق من مادة (الفأل) ·

وقوله في صفة عيني الناقة :

(وعينان كالماويتين استكنّتا   بكهفي حجاجي صخرةٍ قَلْتِ موردِ)

« الماويتان » المرآتان و « استكنتا » استقرتا و« الحجاج» بفتح اوله العظم الذي ينبت عليه شعر الحاجب وا« قلت » نقرة في الصخرة يستنقع فيها ماء المطر ·

يقول ان عينيها صافيتان كالمرآتين · وقد اودعتا حجاجين من رأس كصخرة ذات نقرة كالنقرة التي تجمع فيها ماء المطر : فيكون قد شبه عينيها بالمرآتين اولاً ثم بماء القلات « جمع قلت » ثانياً عدا ما فيه من تشبيه حجاجيها بالكهفين ورأسها بالصخرة ·

وقوله في صفة تبختر الناقة في المشي :

(فذالت كما ذالت وليدة مجلس   تُري ربها أذيال سحل ممدّدِ)

«ذالت» مأخوذ من الذيل وهو ان يمشي المرء وهو يجر ذيله و« السحل » ثوب قطن ابيض ·

كانت ناقة طرفة اذا ضربها بسوطه ذالت اي نشرت ذيلها على فخذيها . كما تفعل الوليدة وهي الجويرية في مجلس تسقي فيه ربها اي سيدها الخمر . أو انها تفعل ذلك حين ترقص أمامه . فهي تجر ذيل ثوبها من القطن الابيض .

وقوله في صفة وثاقة خلق الناقة .

(كقنطرة الروميّ اقسم ربُّها لتُكتنفَنْ حتى تُشاد بقَرْمد)

بقرمد متعلق بتكتنفن . وتشاد ترفع . اي لا يزال بناؤها الرومي يحيطها بالآجرّ حتى ترتفع .

وقوله في وصف ذنبها .

(كأنّ جناحَي مضرَحيٍّ تكنّفا حفافيْه شُكّا في العسيب بمسرد)

(المضرحي) النسر الابيض و (حفافيه) اي في جانبي الذنب و (العسيب) عظم الذنب و (المسرد) المخرز .

وقوله في صفة القينة . وهي المغنية

(اذا رجّعت في صوتها خلتَ صوتها تجاوُبَ أظآرٍ على رُبعٍ ردي)

يقول اذا رددت تلك القينة صوتها وهي تغني حسبته لحسنه حنين نياق تجاوب من أجل فصيل لها مات .

ومما تفحّش به قوله .

(ندامايَ بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين بُرْدٍ ومجسدِ)

(رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجسّ الندامى بضّةُ المتجرّدِ)

(المجسد) قميص يلي الجسد او قد صبغ بالجساد وهو الزعفران و (قطاب الجيب) مخرج الرأس منه .

يقول ان شق جيب صدرها واسع حتى اذا مدّ الندامى أيديهم للجس رفقت ورضيت . وهذا كل ما جاء فيها من الهنات .

ومن تعابيره الرشيقة قوله في صفة إسراع الناقة وأدبها وخوفها من لذع سوطه .

(وإن شئتُ لم ترقل وإن شئتُ أرقلت مخافة ملويٍّ من القِدّ محصدِ)

(ترقل) تسرع و (الملوي) يعني به السوط و (محصد) محكم الفتل

(وإن شئت سامى واسط الكور رأسها وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد)

(سامى) بلغ في الارتفاع (واسط الكور) أعلى الحدج . والحدج للبعير كالسرج للفرس و (نجاء الخفيدد) اي مثل اسراع الظليم وهو ذكر النعام .

(تباري عتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد)

(تباري) تعارض وتسابق (ناجيات) نياقاً سريعات و (الوظيف) مستدق عظم الساق و (المور) الطريق المستوي الموطوء .

وقوله في صفة حالته مع ابن عمه (مالك) .

(فمالي أراني وابن عمي مالكا متى أدن منه ينأ عني و يبعد)

وقوله في صفة سيفه :

(حسام اذا ما قمت منتصراً به كفى العود منه البدء ليس بمعضد)

(منتصراً به) اي منتقماً به لنفسي ، يقول : ان الضربة الاولى به تغني عن ضربة ثانية . وليس هو بمعضد اي سيف يمتهن وتقطع به الاشجار .

(ما فيها من الشؤون التي تهم الباحث في تاريخ العرب)

(يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد)

مر شرح هذا البيت وهو يفيدنا شيئاً مما كانت عليه العرب في ألعابهم وملاهيهم .

وقوله :

(كقنطرة الرومي أقسم ربها لتكتنفن حتى تشاد بقرمد)

يفيدنا هذا البيت ان اليونانيين كانوا مشهورين بالحذق في فن المعمار لدى عرب الجاهلية بحيث يضرب بهم المثل .

وقوله في صفة الناقة :

(وأتلع نهاض اذا صعدت به كسكان بومي بدجلة مصعد)
(وخد كقرطاس الشآمي ومشفر كسبت اليماني : قده لم يجرد)
(وأروع نباض أحذ ململم كمرداة صخر في صفيح مصمد)

(اتلع) عنق (سكانّ) دفة السفينة (بوصي) معرب (بوزي) السفينة او النوتي (مشفر) شفة (سبت) الجلد المدبوغ (قده لم يجرد) اي لم يقع في قطعه اضطراب (اروع) يعني به قلب الناقة الذي يرتاع من كل شيء (أحذ) سريع الحركة (مرداة) حجر مستطيل يكسر به الصخر (صفيح) حجارة رقيقة و يعني بها اضلاع الناقة ·

وقد استفدنا من هذه الابيات اموراً من الاعمال والصناعات :

الملاحة في دجلة · وصنع الورق في الشام · والجلد المدبوغ في اليمن · وأن العرب قبل الاسلام كانوا يكسرون الصخور بالمرداة كما كان شأنهم في الدور الحجري ·

(ما في المعلقة من الادب والحكمة)

هذا الضرب من الشعر استوفاه طرفة وأجاد فيه ، وتقسم ابيات الادب في قصيدته الى أقسام : منها ما جرى مجرى الامثال :

(الا أيها هذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي)

(لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى — لكالطول المرخى وثنياه باليد)

(ما) هي المصدرية التوقيتية · اي ان شأن الانسان في هذه الحياة الدنيا كشأن ناقة لها زمام مرخي أطيل لها لترعى · ولكن طرفيه مثنيان في يد صاحبها فهو لا يلبث ان يجذبها اليه · وهكذا الموت ما دام هو لا يصيب الفتى لا يقال إنه ناج منه · فهو في صدد أن يجذبه اليه : كصاحب الدابة والدابة :

(وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند)

(أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً : ما أقرب اليوم من غد)

(أعداد) جمع عدّ بكسر العين وهو الماء لا ينقطع مدده · ومراده بالغد المستقبل الذي يموت فيه الانسان · يقول ان الموت كالمناهل للورّاد : يردونها واحداً بعد آخر · وهي لا ينفد مددها ·

(ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالاخبار من لم تزوّد)

(ويأتيك بالاخبار من لم تبع له بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد)

(تبع له) تشتري وتبتاع لاجله (بتاتاً) هو كساء المسافر وأداته · و يروى أنه

(صلعم) أنشد هذا البيت (ستبدي الخ) بين يديه فقال : (هو من كلام النبوة) اي على طريقة كلام النبوة ·

(أرى الموت يعتام الكرام و يصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدّد)
(أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ وما تنقص الايام والدهر ينفد)

(يعتام) يختار وهذا على حد قوله والموت نقّاد الخ (الفاحش) المبالغ في البخل و « عقيلته » ماله العزيز عليه · والمعنى أن ايام العمر كالكنز من المال : يؤخذ منه للنفقة كل يوم · وما كان هذا شأنه لا بد ان ينفد أخيراً ·

(التمدح والفخر)

(اذا القوم قالوا : مَن فتى ؟ خلتُ أنني عُنيتُ فلم أكسل ولم أتبلّد)

(اتبلد) اي اتحير او أخمل · وهذا على حد قول الحماسي : —

لو كان في الالف منا واحد فدعوا من فارس ؟ خالهم إياه يعنونا

(فان تبغني في حلقة القوم تلقني وان تلتمسني في الحوانيت تصطد)
(وان يلتق الحيُّ الجميع تلاقني الى ذروة البيت الشريف المصمّد)

قوله « في حلقة القوم » اي للسامرة او لأدارة الرأي و« الحوانيت » يريد بها الحانات · وقوله « وان يلتق الخ » اي يلتقون للمفاخرة في أعمال المجد · وقوله «الى ذروة » اي في ذروة فإلى نابت مناب (في) كما هي في كقول النابغة :

فلا تتركنّي بالوعيد كأنني الى الناس مطليّ به القار أجرب

فقوله « الى الناس » اي في الناس · ومنه قولهم « جلست الى القوم » اي فيهم وقوله « المصمّد) اي المقصود كثيراً ·

(انا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقّد)

« الضرب » اي الماضي الندب واصله الخفيف اللحم · وقوله « خشاش » اي كثير الدخول في الامور الصعبة ·

وقال موصياً ابنة أخيه « معبد » ومعرّضاً بآخرين من منافسيه :

(فان مت فانعيني بما أنا اهله وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبد)

(ولا تجعليني كامرىء ليس همه كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي)

(بطيء عن الجلى سريع الى الخنا ذلول بأجماع الرجال ملهّد)

قوله « ذلول باجماع » اي أذلته او ذللته كثرة ضرب الرجال له بجمع ايديهم فهو « ملهد » اي كثيراً ما يضربونه في ظهره او صدره بقبضات أيديهم ٠

(فلو كنت وغلاً في الرجال لضرّني عداوةُ ذي الاصحاب والمتوحّد)

« وغلاً » اي لئيماً جباناً ٠

(ولكن نفى عني الرجال جراءتي عليهم و إقدامي وصدقي ومحتدي)

قوله « نفى عني الخ » اي كشفهم وتحاماهم عن مباراتي في حلبة المجد ٠

(لعمرك ما أمري عليّ بغمة نهاري ولا ليلي عليّ بسرمد)

اي لا تعمى عليّ وجوه إنفاذ اموري وقضاء مصالحي في النهار ٠ كما انه لا يطول ليلي في الغم والحسرة على ما فاتني قضاؤه : لاني أكون قد قضيت ونفذت كل ما يلزمني عمله ٠ فلم يفتني شيء أتحسر عليه ٠

(رأيه في الحياة او مذهبه الابيكوري)

« أبيكور » فيلسوف يوناني مشهور ٠ وخلاصة فلسفته أن اللذة أساس السعادة في الحياة الانسانية ٠ وانه يجب علينا ان نبذل كل مساعينا في سبيل نيلها والحصول عليها ٠

قال فينيلون «الافرنسي» مؤلف كتاب تلياك : ان الناس نظروا الى «ابيكور» كرجل يرى الانغماس في اللذات وتقحم الشهوات ولو كانت سافلة — مذهباً له — وهذا ناشئ عن عدم فهم حقيقة فلسفته ٠

وحقيقتها ان الملذوذ عنده يجب ان يساعد على ترقية الفكر البشري وان يكون تناول اللذات ضمن دائرة الفضيلة والحكمة ٠

ومع هذا فقد فهم معظم الناس ان أبيكور يقول بتناول الملذوذات على أية

صورة وقعت . واخذوا يطلقون كلمة ابيكوري على كل رجل منغمس في اللذات والشهوات من دون مبالاة فضيحة أو عار .

ويظهر ان (طرفة بن العبد) كان ابيكورياً بدليل ابياته الآتية :

(وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي)

اي ما زال هذا دأبي وديدني .

(الى ان تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبَّد)

(رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطراف الممدَّد)

(بني غبراء) عني بهم الفقراء الذين ينامون على الغبراء وهي الارض . و(اهل هذاك) الخ عني بهم الاغنياء و (الطراف) الخباء من جلد . يقول ان اكبر دليل على شرفه ومجده وحسن طريقته ان فريقي الفقراء والاغنياء يألفونه ولا ينفرون منه: الاولون لغمره لهم بالعطايا والصلات . واما الآخرون فلمشاركته لهم في الشرب واقتطاف اللذات . وما بقي من الناس غير هذين الفريقين فهم حسدة أغبياء .

(فان كنتَ لا تسطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي)

(فان كنت) أيها اللائم الحاسد من الفريق الثالث .

(ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدِّك لم احفل متى قام عودي)

(هنَّ من عيشة الفتى) اي عيشته اللذيذة او المعنى هن مما تتوقف عليه لذة عيشه يقول :

لولا هذه الاشياء التي هي منتهى لذة الحياة وسعادتها عندي لما باليت الموت واذا كنت أرغب في الحياة واتمنى طولها فذلك لاني مولع بهذه الاشياء الثلاثة :

(فمنهن سبق العاذلات بشربة كميت متى ما تُعلَ بالماء تزبد)

(وكرّي اذا نادى المضاف محنباً كسيد الغضا نبهته المتورِّد)

(المضاف) الخائف المذعور و(محنباً) فرساً في عظامه انعطاف و (السيد) الذئب و (المتورد) العطشان وارد الماء .

(وتقصيرُ يوم الدجن والدجنُ معجب ببهكنة تحت الخباء المعمَّد)

(كريم يروّي نفسه في حياته : ستعلم إن متنا غداً أينا الصدي؟)

و يظهر من هذا ان عرب الجاهلية كانوا يتأثمون من شرب الخمر و يعتقدون ان من يشربها في الدنيا يعطش في الآخرة ·

(أرى قبر نحّام بخيل بماله كقبر غويٍّ في البطالة مفسد)

(النحام) البخيل لانه ينحم اي يسعل كلما سئل صدقة · و (الغوي) المستهتر لايبالي اللائمين · و (المفسد) المبذر ·

(ترى جثوتين من تراب عليهما صفائحُ صمٌّ في صفيحٍ منضد)

(الجثوة) كومة الحجارة وقوله في (صفيح) اي انك ترى القبرين في جملة قبور منضدة كثيرة · واذا كان قبر البخيل كقبر المنفق في لذاته · وكان مآل كل منهما أن تكون كومتان من صفائح على قبريهما فلماذا يبخل البخيل ولايحذو حذو الغوي؟

(عتاب ابن عمه مالك)

(يلوم وما أدري على م يلومني ؟ كما لامني في الحي قرط بن معبد)

(فمالي أراني وابن عمي مالكاً متى أدن منه ينأ عني ويبعد)

(وأيأسني من كل خير طلبته كأنا وضعناه الى رأس ملحد)

قوله (كأنا وضعناه الخ) اي كأنا وضعنا طلبنا وقدمناه الى ملحد اي ميت مدفون في اللحد ·

(وان أدع للجلى أكن من حماتها وان يأتك الاعداء بالجهد أجهد)

(أدعَ) أي إن دعوتني يا ابن عمي و (الجُلّى) الخطب العظيم · بالجهد اي بمشقة لا تطيقها أنت و (أجهد) أجتهد في دفعها عنك ·

(وان يقذفوا بالقذع عرضك أسقهم بشرب حياض الموت قبل التهدد)

اي اذا سبّوك أبادرهم فاسقيهم من مشروب الموت وأوردهم حياضه قبل ان أهددهم بالاقوال · اي ان فعلي يسبق قولي ·

(فلو كان مولاي امرءاً هو غيره لفرّج كربي أو لأنظرني غد)

(مولاي) اي ابن عمي وقوله (لانظرني) اي لامهلني ·

(ولكنّ مولاي امرؤٌ هو خانقي على الشكر والتسآل أو أنا مفتدي)

يقول ولكن ابن عمي خانقي وآخذ باكظامي على كل حال : سواء شكرتُ له· او سألته العفو · او افتديت منه بمال ·

(وظلم ذوي القربى أشدُّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند)

(فذرني و ُخلقي إنني لك شاكر ولو حل بيتي نائياً عند ضرغد)

اي اتركني على ما أنا عليه من الاخلاق والطباع : فانا راضٍ بها · ولاطاقة لي بتغييرها · واذا فعلتَ هذا يا ابن عمي أكون شاكراً لك · مهما كنتُ بعيداً عنك · ولو في جبل ضرغد ·

(حال ابيه معه وصبره عليه)

(يقول — وقد ترّ الوظيف ُوساقها ألست ترى أن قد أتيتَ بمؤيد)

(تر) سقط و(الوظيف) مستدق الساق و(مؤيد) داهية بثقل وقعها على النفس (يقول) اي ذلك الشيخ ·وقدمرَّ ذكره في الابيات السابقة· قال الزوزني هو ابوه· لكن ورد في ترجمة طرفة ان اباه مات وتركه صغيراً · وعلى هذا يكون المراد بالشيخ عمه او وصيُّ إبيه عليه ·

(وقال: الا ! ماذا ترون بشارب شديد علينـا بغيه متعمد ؟)

اي وقال ـــ عمه ايضاً لجلسائه المشاهدين عقر طرفة للنياق · و (ترون) اي تشيرون ·

(وقال : ذروه إنما نفعها له وإلا تكفُّوا قاصي البَرْك يزدد)

كأن الشيخ بعدما استشار جلساءه عاد فقال : دعوه فان النياق إرثه ونفعها عائد اليه · فدونكم ردُّوا عليه تلك النياق القاصية الشاردة البعيدة عنه · اوالتي أبعدناها وأقصيناها نحن عنه · واني اخشى ان لم تفعلوا أن يزداد غضبه فيعقر النياق كلها · ولا ُيبقي على شيء منها تشفياً وانتقاماً ·

(الأبيات المغلقة في المعلّقة)

ما كان من هذا القبيل في معلقة طرفة قليل جداً ويمكن أن يُعدّ منه قوله :

(جماليّة وجناء تردي كأنها سفنّجة تبري لأزعر أربد)

(كأن علوب النسع في دأياتها موارد من خلقاء في ظهر قردد)

(وتبسم عن ألمي كأن منوّرا تخلل حُرّ الرمل دعص له ندي)

هذه هي النموذجات التي أحببت عرضها على مسامعكم أيها الافاضل — من معلقة طرفة وهي نصف أبياتها . واذا لاحظنا معها أن طرفة لما قالها كان في حدود العشرين من عمره حكمنا مع (ابن مقبل) بان طرفة اشعر الناس . أو لا قل مع (عمرو ابن العلاء) بانه أشعر اصحاب المعلقات .

الحسبة في الاسلام

لم يقصر العرب في شأن من شؤون المدنية بالنسبة لاعصارهم وكلما ارتقت حضارة الغرب وتوفر العاملون من ابنائه اليوم على استخراج دفائن هذه المدنية العربية الاسلامية تتجلى لنا امور منها ما كنا نحن اصحاب تلك المدنية نعلمه من قبل .

من المعلوم ان المدنية انتقلت الى العرب من الفرس واليونان والهند . ولكن جاء الاسلام بما فيه من العوامل القوية والنظام المدني البديع الذي استخرجه اهل الصدر الاول من روح الكتاب والسنة باجمل مدنية عرفها البشر وما نظنه معها ارتقى في الازمان التالية يخرج عن حدها الا قليلاً .

لم يترك العرب باباً من ابواب المدنية الا وطرقوه ولا علماً من العلوم والصناعات الا وعانوه وبرزوا فيه . وقد تجلت مدنيتهم باجلى مظاهرها في فارس والعراق ومصر والشام والاندلس اكثر من غيرها من الاقطار التي هذبها الاسلام وكانت العرب اساتذة ابنائها . والغالب ان قيام دول عظمى اسلامية في تلك الاقطار كان من اول الدواعي الى تجويد مدنيتها ورفع شأنها بين الامصار على اختلاف القرون والاعصار وللاقليم وطبيعته دخل كبير في تثقيف العقول وتعويد القرائح الابداع والاختراع .

ضاعت واأسفاه اوضاع مدنيتنا القديمة ومشخصاتها لان العرب تمزقوا وتفرقوا بعد استيلاء أناس من الفاتحين على بلادهم كانوا دونهم في سلامة الذوق وجودة الفطرة فافسدوا اخلاقهم بما حملوه اليهم من عاداتهم وتقاليدهم المختلفة حتى اوصلوهم الى درجة من الجهالة لو لم يتداركها في القرن الماضي محمد علي باشا في مصر وخير الدين باشا في تونس ومدحت باشا في الشام والعراق لاضمحل عمرانهم وباد سلطانهم .

وبعد فان الناظر في اصول الحسبة في الحكومات الاسلامية السالفة يعلم ان اجدادنا هيأوا لمدنهم وسكانها جميع ضروب الراحة والهناء وحاولوا ان يبعدوا عنها

ما امكن الجور والشقاء . والحسبة بالكسر الاجر وهواسم من الاحتساب اي احتساب الاجر على الله تقول فعلته حسبة واحتسب فيه احتساباً والاحتساب طلب الاجر وكانت الحسبة وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بامور المسلمين يعين لذلك من يراه اهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين واهل السفن من الاكثار في الحمل والحكم على اهل المباني المتداعية بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على ايدي المعلمين في الكتاتيب وغيرها من الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين — قاله ابن خلدون وقال ابن تيمية: وبنو آدم لا يعيشون الا باجتماع بعضهم مع بعض واذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد ان يكون بينهما ائتمار بامر وتناه عن امر واولو الامر اصحاب الامر وذوو القدرة واهل العلم والكلام فلهذا كان اولو الامر صنفين العلماء والامراء فاذا صلحوا صلح الناس واذا فسدوا فسد الناس كما قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه للاحمسية لما سألته مابقاؤنا على هذا الامر قال : ما استقامت لكم ائمتكم . ويدخل فيهم الملوك والمشايخ واهل الديوان وكل من كان متبوعاً فانه من اولي الامر .

وقال ابن الاخوة : الحسبة من قواعد الامور الدينية وقد كان ائمة الصدر الاول يباشرونها بانفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها وهي امر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله واصلاح بين الناس والمحتسب من نصبه الامام او نائبه للنظر في احوال الرعية والكشف عن امورهم ومصالحهم وبياعاتهم ومأكولهم ومشروبهم وملبوسهم ومساكنهم وطرقاتهم وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

وكانت الحسبة (المقتبس م٣ ص٥٣٧ و٦٠٩) في الحكومات العربية وحكومات الطوائف ضرباً من ضروب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا يكون من تسند اليه الا من وجوه المسلمين واعيان المعدلين ولا يحال بين المحتسب وبين مصلحته اذا رآها والولاة تشد معه اذا احتاج الى ذلك . وقد قسمت الحسبة الى ثلاثة اقسام : احدها ما يتعلق بحقوق الله تعالى والثاني ما يتعلق بحقوق الآدميين والثالث مايكون

مشتركاً بينهما ويمكن ان نقسم الحسبة الى دينية ومدنية فالديني منها بطل من بلاد الاسلام منذ اصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات. والمدنية استعيض عنها في القرن الماضي في البلاد العثمانية بالمجالس البلدية وبقيت الحسبة معروفة في مصر الى اواسط القرن الثالث عشر. ولا عجب فمصر آخر ما اضمحل من اقطار العرب واول من نهض .

فالحسبة والحالة هذه اشبه بديوان الشرطة والصحة والبلديات لعهدنا وكان المحتسب او صاحب الحسبة يشرف على المعاملات المنكرة في الدين ويجازي عليها في الحال فينكر ما يجده مثلاً من المنكرات في الاسواق ويشدد على السوقة والباعة في صحة القناطير والارطال والمثاقيل والدراهم والموازين والمكاييل والاذرع ويجري قواعد الحسبة على الطحانين والعلافين والفرانين والخبازين والشوائين والنقانقيين والكبوديين والبواريين والجزارين والرواسين والطباخين والشرايحيين والهراسين وقلائي السمك والزلابية والحلاويين والشرابيين والعطارين والشماعين واللبانين والبزازين والدلالين والحاكة والخياطين والرفائين والقصارين والحريريين والصباغين والقطانين والكتانيين والصيارف والصاغة والنحاسين والحدادين والاساكفة والبياطرة وسماسرة العبيد والجواري والدواب والدور والحمامات والسدارين (١) والفصادين والحجامين والاطباء والكحالين والمجبرين ومؤدبي الصبيان والقومة والمؤذنين والوعاظ والمنجمين وعلى اصحاب السفن والمراكب وباعة قدور الخزف والكيزان والفاخرانيين والغضاريين والابارين والمسلاتيين والمرادنيين والحناويين والامشاطيين وعلى معاصر السيرج والزيت الحار والغرابليين والدباغين والبططيين واللبوديين والحصريين والتبانين والخشابين والقشاشين والنجارين والنشارين والبنائين الى غير ذلك مما يقصد منه منع غش المبيعات وتدليس ارباب الصناعات .

---

(١) السدارون الذين يطحنون السدر وهو من المطهرات كالصابون اذا غش يضر ولا ينفع والفاخرانيون والغضاريون وهم الذين يصنعون الصحاف (الزبادي او السلطانيات) والمرادنيون الذين يعملون المرادن آلات الغزل القديمة تعمل من خشب السامر اومن سنط الاحمر والمسلاتيون صناع المسلات .

وكانوا يختصون المحتسب بالنظر في امور احداها اراقة الخمور كلها وكسر المعازف واصلاح الشوارع وذلك باب كبير فيه مسائل احداها امر الميزاب والاوحال والارداغ والدكانجة على الباب ومنع جلوس الباعة عليهما ومنع سوق الحمر والبقر للخشابين والآجريين ونحوهم ومنع ربط الناس دوابهم فيها ومنع عمارة الحيطان في شيء من الشوارع ومنع شغل هواء الشارع بالجناح ويسمى (برون داشت) ومنع المبرز في الجوار بحيث تكون ازالة النجاسة منه بالوقوف في الشارع ومنع الظلة الى غير ذلك من المصالح مثل النظر بين الجيران في التصرفات المضرة كالنظر وسد الضوء الا فيما يرجع الى الملك كغصب قطعة من الارض ومنع اسبال الازار ونحوه على الكعبين وزجر الرجال عن التشبه بالنساء ومنع النساء عن التشبه بالرجال وامر الانبوليين بطهارة مائهم وانقية نورتهم عن الحصاة ومنع الناس عن تطيير الحمام ومنع البغايا وتعزيرهن ومنع اوليائهن ومواليهن وازواجهن وامر غير المسلمين بتطهير الاواني التي يبيعون فيها المائعات من الدهن واللبن وامر الغسالين باقامة السنة واجتناب البدعة في غسل الموتى وحفر القبور والحمل وزجرهم عن الغلاء في اخذ الاجرة ونصب الصلحاء وذوي الخبرة بهذه الامور وتفحص الجامع يوم الجمعة والمصلى يوم العيدين واخلاؤهما عن البيع والشراء ومنع الفقراء عن التخطي ومنع القصاص عن القصص المفتراة ومنع النساء السائلات عن الدخول في المصلى ومنع الصبيان والمجانين منه ودفع الحيوانات المؤذية عن العمرانات كالكلاب العقور والنهي عن النجس والامر بالتنظيف ومنع الناس عن الوقوف في مواضع التهم كتحدث الرجال مع النساء في الشوارع ومنع النقاشين والصباغين والصواغين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح(١) وكبر الصور ومنع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كاتخاذ الاصنام والمعازف والصنج وبيع النبيذ والبختج(٢) ومنع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة وخروج الناس الى زيارة بعض المتبركين او بعض المساجد على مشابهة الخروج الى الحج ومنع النساء عن التبرج والتزرج بالخروج الى النظارات وزيارة القبور ومنع الناس عن التصرفات في المقابر

(١) المنهي عنه الصور المجسمة للتعظيم اما الصور النصفية فلا مانع منها .
(٢) البختج كقنفذ عصير مطبوخ واصله بالفارسية «پخته» .

بلا ملك ومنع المطلسمة والسحار والكهان عن منكراتهم ونهي اصحاب الحمامات عن منكراتهم بتطهير المياه واخلاء الحمام عن المرد ودخول العراة فيه وامرهم باتخاذ الحجب بين الرجال والنساء ومنع الناس عن تعلم علم التنجيم مما لا يحتاج اليه في الدين وتصديق الناس الكهان والمنجمين ومنع الناس عن بدعة ليلة البراءة ومنع الناس اللاعبين بالنرد والشطرنج وتفريق جمعهم واخذ بساطهم وتماثيلهم ومنع القوابل عن اسقاط جنين الحوامل ومنع الجراحين عن الجب والخصاء في الناس ومنع الناس من الاقامة في المساجد ووضع الامتعة فيها ومنع الذي اصابه الم عن التكلم بالغيب واجتماع الناس عنده زاعمين انه صادق في اخباره بالغيب ومنع الخطاط ومعلم القرآن ومعلم النحو باجر عن الجلوس في المساجد ومنع المعلم عن اخذ شيء باسم النيروز والمهرجان و ينذر المحتسب معلمي الكتاتيب ان لا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا في مقتل وكذلك معلمو العلوم بتحذيرهم من التغرير باولاد الناس و يقفون من يكون سيء المعاملة فينهونه بالردع والادب .

وكانت وظائف المحتسب تزيد وتنقص بحسب البلد ولا تعدو وظائف المحتسب الامور المشتركة بين اهل كل مجتمع فالمحتسب في بيروت يقضى عليه ان ينظر في امور لا ينظر فيها محتسب دمشق مثلاً ففي بيروت يعنى المحتسب بالاحتساب على السماكين والملح والصبر والبوري وقلائي السمك والطيور وصياديها ومجاري المراكب وتقديرات المراكب وجميع المدن مشتركة مثلاً في الحسبة على الصيادلة والعقاقير والاشربة والمعاجين والقلانسيين والخرازين وصناع الشراك والاساكفة وصناع الخفاف وصنعة السرابات والزفاتين والنحاتين والدهانين وغشهم والمكارين وغشهم وكساحي السماد وحمالته والغرابيل ومناخل الشعر والوراقين والمبهرجين وفيمن يكتب الرسائل على الطرق والرقاع والدروج وكتاب الشروط والولاة والقضاة وتدليسهم والمياز يب ومضرتها والمراصد والمراقب وطباخي الولائم والمحامل وصناعها والزوايا والقرب الى غير ذلك مما كان يستدعيه مجتمعهم ودينهم وعاداتهم ومدنيتهم .

وليس هذا كل ما يطلب من المحتسب فقد كان يطلب منه ان يسيطر على العقول ذكر ابن الاثير في المثل السائر من تقليد انشأه لمنصب الحسبة : .... واعلم ان

الناس قد اماتوا سنناً واحيوا بدعاً ، وتفرقوا فيما احدثوه من المحدثات شيعاً ، واظلم منهم من اقوّمهم على امرهم ، ولم يأخذهم بقوارع زجرهم ، فان السكوت عن البدعة رضا بمكانها ، وترك النهي عنها كالامر باتيانها ، ولم يأت بنا الله الا يعيد الدين قائماً على اصوله ، صادعاً بحكم الله فيه وحكم رسوله ، ونحن نأمرك ان تتصفح احوال الناس في امر دينهم ، الذي هو عصمة مالهم وامر معاشهم ، الذي يتميز به حرامهم من حلالهم ، فابدأ اولاً بالنظر في العقائد ، واهد فيها الى سبيل الفرقة الناجية الذي هو سبيل واحد ، وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا مواطن الحق فاقاموا ، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ومن عداهم شعب دانوا اديانا ، وعبدوا من الاهواء اوثاناً ، واتبعوا ما لم ينزل به الله سلطاناً ، ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم اعمالكم ، فمن انتهى من هؤلاء الى فلسفة فاقتله ، ولا تسمع له قولا ، ولا تقبل منه صرفاً ولا عدلا ، وليكن قتله على رؤوس الاشهاد ، ما بين حاضر و باد ، فما تكدرت الشرائع بمثل مقالته ، ولا تدنست علومها بمثل اثر جهالته ، والمنتمي اليها يعرف بنكره ، و يستدل عليه بظلمة كفره ، وتلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالابصار ، وتظهر زيادتها ونقصها بحسب ما عندرائيها من الانوار ، وما تجده من كتبها التي هي سموم ناقعة ، لا علوم نافعة ، وافاعي ملفقة ، لا اقوال مؤلفة ، فاستأصل شأفتها بالتمزيق ، وافعل بها ما يفعله الله باهلها من التمريق ، ولا يقنعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها ، والكشف عن مكامن اسرارها ، فمن وجدت في بيته فليؤخذ جهاراً ، ولينكل به اشهاراً ، وليقل هذا من استكبر استكباراً ، ولم يرج لله وقاراً ، ....

قلنا وتطبيق هذه الشدة في بعض الحكومات الاسلامية و باللاسف قد دعت الى التقول على كل مخالف وذهب كثير من ارباب العقل والفلسفة طعمة الضغط والاستبداد فتأخرت بذلك الامة واشبه المسلمون في كثير من ايامهم المسيحيين في القرون الوسطى بما منوا به من دعوى السحر والكفر فأهلكوا باحكام دواوين التفتيش الديني الوفاً ذهبوا جزاء عقولهم التي ارادت ان تخرج عن مستوى محيطهم الضيق .

ومن اجمل التقاليد تقليد رشيد الوطواط في الحسبة وفيه ان اولى الامور بان تصرف اعنة العناية الى ترتيب نظامه وتقصر غايات الهمم عن تنمية اتمامه امر يتعلق به ثبات الدين و ينعطف عليه صلاح المسلمين وهو امر الاحتساب فان فيه تثقيف الزائغين

عن الحق وتأديب المنهمكين في الفسق وتقوية اعضاد ارباب الشرع وسواعدها، واجراء اعمال الدين على قوانينها وقواعدها، و ينبغي ان يكون متقلد هذا الامر موصوفاً بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مراصد الريب ، بعيداً عن مواقف التهم والعيب، لابساً مدارع السداد سالكاً مناهج الرشاد .... وامرناه ان يجعل الزهد شعاره ، والتقوى دثاره ، والعلم معلمه والدين مناره ، ثم يأمر بالمعروف و ينهي عن المنكر و يقيم حدود الشرع على موجب النصوص والاخبار، ومقتضى السنن والآثار، من غير ان يتسور الحيطان، او يتسلق الجدران، او يرفع الحجب المسدولة، و يكسر الابواب المسدودة، و يسلط الاو باش على دور المسلمين ، وحرم المؤمنين، حتى يغيروا على اموالهم ويمدوا الايدي الى عوراتهم واطفالهم، و يظهروا ما امر الله بستره واخفائه ونهى عن اشاعته وافشائه، فان عبادة الاوثان خير من ذلك الاحتساب، والعقوبة الابدية اولى بمباشره من الاجر والثواب .

قال ابن فضل الله في التعريف وصية محتسب : وقد ولي امر هذه الرتبة ووكل اليه النظر في مصالح المسلمين حسبة لله فلينظر في الدقيق والجليل والكثير والقليل وما يحصر بالمقادير وما لا يحصر، وما لا يؤمر فيه بمعروف او ينهى عن منكر، وما يشترى و يباع ، وما يقرب بتحريره الى الجنة و يبعد من النار ولو لم يكن قد بقي بينه و بينها الا قدر باع او ذراع ، وكل ما يعمل من المعايش في نهار اوليل ، وما لا يعرف قدره الا اذا نطق لسان الميزان اوتكلم فم الكيل، وليعمل لديه معدلاً لكل عمل، وعياراً اذا عرضت عليه المعاير يعرف من جار ومن عدل ، وليتفقد اكثر هذه الاسباب، و يحذر من الغش فان الداء اكثره من الطعام اوالشراب، وليتعرف الاسعار، و يستعلم الاخبار، في كل سوق من غير اعلام لاهله ولا اشعار، ليقيم عليهم من الامناء من ينوب عنه في النظر، و يطمئن به وان غاب اذا حضر، و يأمره باعلامه بما اعضل، ومراجعته مهما امكن فان رأي مثله افضل ، ودار الضرب والنقود التي منها تنبث ، وقد يكون فيها من الزيف ما لا يظهر الا بعد طول اللبث ، فليتصد لها بصدره الذي لا يحرج ، وليعرض منها على المحك من رأيه ما لا يجوز عليه بهرج ، وما يعلق من الذهب المكسور و يروبص من الفضة و يخرج ، وما اكلت النار كل لحامه ولا بعضه و يقيم عليه من جهته الرقباء، وليقم على شمس ذهبه من يرقب منه ما ترقب من الشمس الحرباء ، وليقم

الضمان على العطارين والطرقية في بيع غرائب العقاقير الا ممن لايستراب فيه وهو معروف، و يخط مطبب ماهر لمريض معين في دواء موصوف ، والطرقية واهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة الى ساسان، ومن يأخذ اموال الرجال بالحيلة و يأكلهم باللسان، وكل انسان سوء من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لا انسان، امنعهم كل المنع ، واصدعهم مثل الزجاج حتى لا ينجبر له صدع ، وصب عليهم النكال والا فما تجدي في تأديبهم اداة التأديب والصفع ، واحسم كل هذه المواد الخبيثة ، واقطع مايجر ضعفاء الناس من هذه الاسباب الرثيثة ، ومن وجدته قد غش مسلماً ، او اكل بباطل درهماً ، او اخبر مشترياً بزائد ، اوخرج عن معهود العوائد ، اشهره في البلد ، واركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلد ، وغير هؤلاء من فقهاء المكاتب وعالمات النساء وغيرهما من الانواع (؟) ممن يخاف من ذئبه العائث في سرب الظباء والجآذر ومن يقدم على ذلك ومثله وما يحاذر ، ارشقهم بسهامك ، وزلزل اقدامهم باقدامك ، ولا تدع منهم الا من جربت امانته ، واختبرت صيانته ، والنواب لا ترضى منهم الا من يحسن نفاذاً ، و يحسب لك اجر استنابته اذا قيل لك من استنبت فقلت هذا . وتقوى الله هي نعم المسالك ، وما لك في كل ما ذكرناه بل اكثره الا اذا عملت فيه بمذهب مالك اه .

ولقد حدثنا التاريخ ان الناس كانوا يتولون الحسبة بانفسهم عندما تضعف الحكومات لان مصلحة اهل كل بلد لاتتم الا بدفع الاذى بعضهم عن بعض والتواصي بالحق والجاهل في ذمة العالم والضعيف من حصة القوي . واهل البلد الواحد متضامنون معنى وضمناً اذا لم يتضامنوا هلكوا وهيهات ان تتم للفرد فيه سعادة لاتتناول المجموع .

نعم ان تلك الاوضاع قد بلغت عند غيرنا في هذا العصر مبلغاً عالياً من الرقي بفضل قاعدة توزيع الاعمال وكثرة الاختصاصيين في كل فرع من الفروع التي تشتد حاجة المدنية اليها ولكن ديوان الحسبة وحده كان يقوم باكثر هذه المقومات في المدن الفاضلة فكانت الحسبة آخذة برقاب المنافع داقة اعناق المضار . ومن الغريب ان عصرنا على رقيه لم يصل في بلادنا الى بعض ما كان يتمتع به اهلها في القرون الوسطى وهذا سر الفرق بيننا فسبحان الملهم العظيم .

محمد كرد علي

الوبالة (الملاريا)

« وكيفية الوقاية منها (١) »

ايها السادة :

انتدبني حضرة استاذنا الكبير رئيس المجمع العلمي المحترم لاحادثكم في هذا المساء فلم اجد بداً من الامتثال لرغبته فأتيت أفتش في حقيبتي عن موضوع يدور عليه محور كلامي فوجدتها حافلة بالمواضيع الطبية والعلمية والصحية . ولا عجب فهي بضاعة الطبيب ومنها ينفق ويفيد . وقد كنت اود لو انفسح لي الوقت فالقي على مسامعكم سلسلة من المحاضرات في الفلسفة الطبية والعجائب الفسيولوجية والتشريحية التي تتراءى للمدقق حين يجري كل خلية من الخلايا التي يتركب منها هذا البناء البشري والنظر اليها وهي تتبع نظاماً دقيقاً لا تخرج عنه حتى ليتمثل للانسان عندئذ ان في جسده عالماً آخر جديداً يتبع انظمة انّى لعالمنا هذا الظاهر ان يماثلها دقة وانتظاماً . ولكن البحث في تلك الموضوعات يستغرق طويلاً من الزمن ويستدعي عشرات من المحاضرات ارجئ القاءها الى زمن آخر لانني أرغب رغبة شديدة بان اطلع ناشئتنا الجديدة التي يرجى منها تقدم البلاد ورقيها على ما يجري فيهم من الاسرار والعجائب الخارقات التي يقف عندها اكبر مفكري العالم وهم لا يجدون لحل الغازها سبيلا، وعار على الانسان أن يطمح بعقله الى إدراك ما يحيط به ومعرفة ما هو بعيد بالنسبة اليه وهو يجهل ما فيه من الغوامض، وعليه فانني اترك هذه المواضيع الى وقت آخر واختار موضوعاً لكلامي في هذا المساء « الوبالة وكيفية الوقاية منها »

***

موضوع رحب متسع الاطراف يتمكن الباحث من الجولان فيه ساعات طويلة

---

(١) محاضرة الدكتور مرشد بك خاطر احد أعضاء المجمع العلمي ألقاها في اول تموز سنة ١٩٢١

وموضوع جزيل الفائدة اذا روعي كان سبباً لنجاة مئات الالوف في هذه البلاد السورية وحدها على الرغم من قلة سكانها — ولست اريد ان القي عليكم الآن درساً طبياً في هذه الحمى واعراضها وكيفية تكونها وعاملها المرضي واختلاطاتها وغير ذلك من الابحاث التي يطول بنا شرحها ولا يلذ لكم سماعها لانها من الاختصاصات الطبية الصرفة ولكنني أحصر كلامي فقط بالقسم الصحي من الموضوع اي بالنقطة التي يجب على كل فرد من الامة طبيباً كان أم غير طبيب ان يعرفها و يراعيها لان من الواجب على كل انسان أن يكون طبيباً صغيراً أي طبيباً في بيته يُدخل اليه من العادات كل حسن و يستأصل منه كل فاسد فاذا حصرت موضوعي بنقط ثلاث اكون قد بلغت الغاية التي اتوخاها فاولى هذه النقاط : حدّ الوبالة وأضرارها وانتشارها الجغرافي • وثانيتها : طريقة انتقالها ولمحة في حيوة العامل الناقل • وثالثتها : كيفية الوقاية منها •

الوبالة او (الملاريا) مرض عفني ناتج عن دخول الطفيلي — الذي كشفه لافران سنة ١٨٨٠ وسمي باسمه — الى دم الانسان وهذا العامل أيها السادة متى وجد في الدم لا يرضى غذاء له الا اشرف ما في الانسان • لا يرضى الا بذلك العنصر الحيوي الاساسي ، تلك الكريات الحمراء التي تأخذ بخضابها الدموي (هاموغلوبين) اوكسجين الهواء متممة في الانسان وظيفـةَ التمحض والاحتراق وهي اس لكل حيوة بشرية وحيوانية ونباتيـة ومتى التهمت هذه الجرثومة تلك الكريات الحية الناشرة الحيوة في البناء البشري حدثت اعراض في البنيـة يطول بنا وصفها واهمها فقر دم عميق يليه ضعف كل وظيفة جسدية لان الاعضاء التي في الجسد تحتاج الى غذائها وقوتها • وغذاؤها وقوتها يقومان بتقديمها الكريات الحمراء فاذا نقصت هـذه الكريات عدداً أو اختل تركيبها الكيمي فنقصت جوهراً مع محافظتها على عددها ضعفت الاعضاء جميعها التي نقص غذاؤها فبدت في البنية اختلالات في الوظيفة اهمها ضخامة الطحال الذي يبلغ احياناً عشرة اضعاف حجمه العادي فيملأ البطن ويصل حتى حدوده السافلى وترافقه غالباً ضخامة الكبد وهي وإن تكن أخف من ضخامة الطحال لان الكبد لا تبلغ إلا نادراً ثلاثة اضعـاف حجمها الفيسيولوجي ، لا يزال حجمها المطلق أكبر من حجم الطحال لان وزنها يعادل اربعة كيلو غرامات مع ان وزن الطحال حين ضخامته

الكبرى لا يزيد على كيلو غرام واحد . هذا عدا التشوشات العظيمة التي تظهر في الكليتين والنقي (المخ العظمي) والمراكز العصبية فيمتقع بسببها لون الوجه ويعلوه شحوب شديد فتذبل نضرة الوجنتين ويشبه المصاب بهذه الوبالة انساناً نشر من بين الاموات .

هذه هي الوبالة أيها السادة وهذا تأثيرها بالبنية وهذه هي أضرارها الجسيمة وهذه هي أثقالها التي يرزح تحت وقرها جسدنا الحي فاذا صورتها لكم بهذه الصورة القبيحة أو مثلتها لكم بصورة سنالك عظيم يفتك بمليارات الكريات في الدقيقة الواحدة فانني لا أدرك الحقيقة . وكما ان ضحاياها في الجسد الواحد تعد بالملايين فلست أبالغ اذا قلت ان ضحاياها في جسد المجموع البشري لا تقل عدداً عن ضحاياها في البنية الواحدة من ذلك المجموع فكم من القرى التي اقفرت بتأثير الوبالة وكم من الجيوش التي أبيدت لحلولها في البطائح والحرب التي مرت هي اكبر برهان على صحة ما أقول ولعل عدداً غير قليل منكم أيها السادة رافق الجيوش التركية في غزواتها ووجد معها في تلك المستنقعات السورية والفلسطينية والاناضولية والعراقية فرأى بأم عينه تلك النوب الخبيثة التي لم تكن لتمهل المصاب بها الا عشرات من الساعات . وكم من المدن التي وهبتها الطبيعة من مائها وجمالها ما ضنت به على سواها فلم تستفد من هبات الطبيعة بل شوهتها فجعلت الماء مرتعاً للبعوض فكانت تلك الهبة من البلايا العظيمة على سكان تلك المدينة .

ولو نظرتم نظرة عامة أيها السادة الى الكرة الارضية لوجدتم ان للوبالة مستعمرة في كل قارة من القارات فهي لم تترك مملكة الا غرست فيها علمها وشادت قلاعها وان من الممالك ما ناوأها وأعلن عليها الحرب الحامية الوطيس وأضعف سيطرتها وحصرها حتى كاد يخنقها ويقلص ظلها من بلاده ومثال هذه البلاد البلاد الاوربية فان فرنسة مثلاً بعد ان كانت تدفع للوبالة الضرائب الشديدة توصلت اليوم الى نزع نيرها والقائه بعيداً وبعد ان كانت ولاياتها الواقعة في الوسط لا سيا (السولونيه) (Sologne) من البلاد التي تتفشى فيها الوبالة أصبحت اليوم آمنة منها بفضل علماء الصحة الخبيرين وهمة الحكومة ونشاطها وهكذا فان اوربة جميعها قد خطت خطوة

كبيرة في هذا الامر فما يقال عن فرنسة ينطبق ايضاً على انكلترة والمانية وسواهما حتى اننا لو زرنا البلاد الاوربية لا نرى الا اصابات قليلة لا نكاد تذكر في كورسكة (Corse) وساردانية واسبانية واليونان ولم يبق من البلاد الاوربية مملكة متأخرة عن خنق الوبالة الا البلاد الايطالية التي تكثر فيها المناقع ولا تزال هذا الحمى ضاربة فيها اطنابها ومزيلة من وجنات شبيبتها نضارة الحياة ٠

وكذلك اميركة فإنها قد حذت حذو اوربة في خطتها لا سيما الشمالية منها وهي، وان تكن لا تزال متأخرة في هذا العمل عن مجاراة اوربة القديمة العهد والعريقة في العلم ، قد أزالت قسماً كبيراً من سيطرة هذا البلاء في اميركة الشمالية لم تعد تذكر الوبالة الا في مقاطعات لوزيانا (Lousiane) وفلوريدا (Floride) وتاكساس (Te:as) واركنساس (Arkansas) وجورجية (Géorgie) واما في المكسيك فانها لا تزال مستولية استيلاء غريباً كما انها في بناما وغاتمالا (Guatémala) وجزر الانتيل لا تزال شديدة الوطأة ٠

واما أميركة الجنوبية فلا تزال وكراً للوبالة فان البرازيل والبيرو عدا الصرود منها ، وغيوانه (Guyanes) وفنازويلا وكولومبية وبوليفية تتفشى فيها الوبالة تفشياً شديداً ٠

والقارات الاخرى من الكرة تلك القارات التي كتب لها الشقاء لا تزال متأخرة ترزح تحت نير هذه الحمى وسواها من الاوبئة المتفشية فأفريقية على الرغم مما بذل فيها من العناء لا تزال مرتعاً للوبالة ولا ينجو منها الا المدن والقرى الواقعة على المرتفعات وان للمحيط تأثيراً كبيراً في نمو بيض البعوض الذي ينقل هذه الحمى ويجعل تلك البلاد رغم اليد العاملة فيها من اكبر الينابيع التي يتدفق منها هذا البلاء على البشرية لان هذه الحمى تهوى البلاد الحارة اكثر من الباردة ٠

واما اوقيانية (جزائر الاوقيانوس الكبير) فان اكثر جزرها لا تزال معرضة لهذه الحمى أخصها مالازية (Malaisie) وجاوا (Java) وسوترا وبورنايو ومولك (Moluques) وفيلبين ٠

واما آسيا هذه القارة التي نحن فيها وتحت سمائها نحيا فإنها القارة التي لم تخط حتى

الآن خطوة تذكر في سبيل الخلاص من ربقة هذا المرض فان الكوشانشين وتونكين والقسم الشمالي الشرقي من الصين وكامبودج والعجم وهندستان وسيلان ملوثة بالوبالة تلوثاً لا يرجى منه شفاء الا اذا بذلت الحكومة اقصى ما في وسعها في هذا الصدد .
ولو نظرنا الى المحيط الذي نحيا فيه بعد ان أرسلنا بنظرنا الى أطراف الكرة الارضية لوجدنا أنفسنا في تأخر عظيم ولست أقصد ان أضع لكم الآن إحصاء عن الوبالة في كل مقاطعة من البلاد السورية فان هذه الاحصاآت لا وجود لها لسوء الحظ واذا وجدت فلا تكون حقيقية بل لا تكاد تبلغ عشر الارقام الحقيقيـة لان كثيراً من الاصابات لا يذكرها الاطباء فضلاً عن ان العدد الكبير من المرضى يتداوى عند الدجالين او عند نفسه فلا تصل اسماؤهم الى ادارة الصحة العامة لتضع احصاءها الحقيقي . ولكني اقول كلة موجزة تحققت صحتها بنفسي وبواسطة زملائي وهذه الكلمة تهمكم معرفتها كما انها تهم كل سوري ضنين بصحة اهل بلاده وهي ان ثلث سكان هذه المدينة وثلثي سكان القرى المجاورة لها يصابون بهذه الحمى .

ولو اخذت مقياساً لكلامي لفيفكم المجتمع هنا أيها السادة وسألت كلاً منكم اذا كان أصيب بنوبة وبالة فمر بادوارها الثلاثة الدائض (البرداء) والحرارة والعرق لما وجدت عشرة في المائة سالمين منها مع انكم من الذين يحافظون على صحتهم و يراعون القواعد الصحية مراعاة دقيقة ولكن ليس الذنب ذنبكم . ولو اخذتم انتم على سبيل الاختبار اي مجتمع كان كما لو اخذ أب الاسرة افراد أسرته ورئيس المدرسة عامة تلامذته ورئيس الدائرة جماع مأموريه ورئيس النادي جميع اعضائه ومدير المعمل لفيف مستخدميه لرأيتم ان النسبة تبقى محفوظة او تكاد . إذاً اذا جعلت نسبة الاحصاآت ٣٣ بالمائة اكون قد وضعت رقماً دون الحقيقة .

هذا هو انتشار الوبالة في الارض أيها السادة رسمته لكم بايجاز فما هو السبب يا ترى في انتقالها وما هو عاملها الناقل ؟ ان السبب الوحيد في انتقال هذه الحمى البعوض والشرط الاساسي في حياة البعوض هو المستنقعات والمياه الراكدة اوذات السير البطيء فاذا أزلنا الشرط الثاني اتلفنا بيوض البعوض وقضينا على هذه الحمى وخلصنا هذه البلاد من شر عظيم يتهددها و يذهب بقوة ابنائها . أجل : المستنقعات هي النقطة

الاساسية التي يجب ان نوجه اليها انظارنا ولو أخذت مدينة دمشق مثالاً على كلامي وذكرت لكم البطائح المتعددة الفسيحة المحيطة بهذه المدينة والموجودة في داخلها لما عجبتم بعد ذاك لكثرة الوبالة وشدة انتشارها ما بيننا ٠

في دمشق مستنقعات فسيحة مملوءة سمّاً زعافاً تنشر في الفضاء ذلك العامل القاتل فلا يدع منزلاً إلا يدخله ويلقح سكانه بلقاحه المضر فنيها مستنقع (الجبخانة) وجنينة النعنع والمرج و(الدفتردار) والزفتية والساحة والقاعة والمستنقع الواقع خارج بوابة الله قرب القدم والمستنقع الواقع في جوار مدافن النصارى واليهود والنهر الابيض الذي يبتدئ من الشاغور ويمر بالحقلة والزفتية والساحة حتى المزل — وحرج الغوطة الواقع شرقي الشام ٠ وفي ضواحي دمشق مستنقعات عديدة وبطائح تفسد هواء القرى الواقعة قربها منها ثلاث بطائح قرب بحيرة العتيبة والقرية المسماة باسمها تبلغ مساحتها ٢٤٠٠ متر مربع ٠

ومستنقع قرب قرية حران العواميد والمستنقعات المتكونة في سفح جبل حرمون كالمستنقع الواقع على بعد خمسة كيلو مترات من قطنا في ذلك الوادي الخصب ٠ ومستنقعات عرطوز وسعسع المتكونة من نهر الاعوج وغير هذه من المستنقعات الصغيرة التي لا تعد وكلها ناتجة عن إختلال قنوات الانهر وتسرب المياه منها الى الاراضي المنخفضة ومتى عرفنا أيها السادة ان المستنقع يمتد ضرره الى مساحة لا يقل قطر دائرتها عن ثلاثة كيلومترات وهي المسافة التي يقوى البعوض على قطعها اذا كان الهواء هادئاً ادركنا اذ ذاك ان دمشق وقراها جميعاً دخلت ضمن نطاق الوبالة ٠

ولا نظنن ان بقية المدن السورية اكبر حظاً من دمشق فلو أرسلت بنظري الى حمص وحماه وجسر الشغور وقراها ولم أتجاوز حدود دولة دمشق لوجدت من المستنقعات عدداً عديداً يبث جراثيم هذه الحمى الفتاكة ويبث الالوف ومئات الالوف من سكان القرى المجاورة منها :

مستنقع الغاب : ويسمى ايضاً غارة وجه الحجر دعي غاباً لكثرة ما ينبت فيه من الاعشاب المائية والقصب حتى أصبح حرجاً كثيفاً تأوي اليه الوحوش وهو بؤرة الوبالة

تجيش فيه جيوش البعوض فتنتشر على الجهات المجاورة وتبعث بين سكانها سمومها . طوله ستة كيلو مترات وعرضه كيلومتران ونصف كيلو متر ومساحة سطحه الف وخمسمائة هكتار وسبب تكونه ارتفاع سطح المياه التي طغت من بحيرة القطينة على الاراضي المنخفضة الواقعة في الجهة الغربية .

ومستنقع نهر السبح : الذي ينبع تحت خرابة اسمها معيان قائمة على سفح جبل لبنان الشرقي ويمتد هذا المستنقع على طول مجرى النهر البطيء ويجتاز قرى مطرية وسفرجه والناعم والبويضة الغربية ودبين وينتهي بمستنقع الغاب فيسم هواء هذه القرى كلها .

ومستنقع كائن قرب حمص بين سد أنشئ حديثاً للعاصي والجسر الحديدي الذي يمر فوقه قطار حمص وطرابلس الحديدي طوله خمسمائة متر وعرضه خمسون متراً .

ومستنقع المياس : وهو منتزه مدينة حمص وسبب وبالتها .

ومستنقع السبح : وهو مستنقع آخر يكونه النهر متسع الاطراف يبلغ طوله عشرة كيلومترات وعرضه عشرة أيضاً ومساحة سطحه عشرة آلاف هكتار تحيط به قرى العشرانة والعونية وجلة وتريمسة وصلبا والصفصافية . وهي من اعمال حماه وسلحب وجب رملة وديرو من اعمال قضاء العمرانية من منطقة العلويين .

ومستنقع الغاب : وهو بطيحة أخرى غير البطيحة الاولى المسماة بهذا الاسم واقعة قرب جسر الشغور واسمها القديم بحيرة افاميا مساحتها اربعون الف هكتار وطولها ٤٠ كيلومتراً وعرضها عشرة كيلومترات وهي كائنة في الاراضي الفاصلة بين حكومة دمشق وحلب وجبل العلويين تقع في اولها قرية العشارنة وهي من اعمال حماه وفي آخرها قرية قرقور من اعمال قضاء الشغور وتحدها قرى جلاب وعمورين والسقيلبية وقلعة المضيق (وهي مدينة افاميا القديمة) والشريعة وحويز والتوبني والناصرية وقرقور وتل الغار وحورات ورسم الجرن وتل كمثري وكريم والبارد ورصيف شطه . ومما زاد في الطين بلة إقامة سد في معبر المستنقع قرب قرية قرقور سمحت بانشائه الحكومة العثمانية لشركة ملتزمي الصيد منعاً لمرور الجري (الحنكليس) من الفرار .

خطر عظيم يتهدد الامة ونحن عنه متغاضون وبلاء جسيم سببته المياه الغزيرة ذلك العنصر الحيوي الذي يلقي الحياة حيث مر اذا احسن استعماله و يسبب الامراض والاوبئة اذا لم ينتبه اليه ونحن عنه لاهون · خير لسورية ان تكون ظمأى وبنوها اشداء اقوياء من ان تتدفق الجداول في كل منعرجاتها وتسيل المياه في دورها وبنوها مرضى شاحبون — وعار علينا ان ندع تلك الهبة التي خصت الطبيعة بها مدينتنا الزاهرة تنقلب الى بلاء وخطر · عار علينا نحن أحفاد الامو يين ان نقف وقفة المتفرج إزاء هذا الخطر الخفي كأن الدم الذي يلتهم ليس بدم ابنائنا والقوة التي تبعثر ليست بقوة نسلنا ، لابل يليق بنا ان نضع حداً لهذا الداء وان نحمل اولي الامر على إتمام ما لا طاقة لنا بصنعه منفردين ·

المستنقعات مضرة أيها السادة لانها البيئة التي ينمو فيها البعوض و يلقي فيها بيوضه فلا تلبث هذه البيوض متى وجدت من الحرارة وركود الهواء مايلائمها ان تفقس وتنقلب الى سرفة فحشرة فبالغة · فتصبح قادرة على الطيران · و بهذه المناسبة أنبهكم الى امر اساسي خوفاً من الالتباس وهو ان البعوض ينقسم نوعين مهمين وان نوعاً واحداً منها يحيا فيه عامل الوبالة وهذا النوع يسمى (الانوفال) · والنوع الآخر عديم الخطر يسمى (كيلاكس) · واليكم بعض الاوصاف المميزة للانوفال عن الكيلاكس البالغتين : يكون جسم الانوفال عندما تحط على سطح مائل مكوناً مع السطح الذي تستوي عليه زاوية تبلغ أحياناً الدرجة التسعين · واما الكيلاكس فان جسمها يكاد يكون موازياً للسطح فاذا رأيتم بعوضة حاطة على حائط او سرير ووجدتم ان رأسها اكثر انخفاضاً من ذنبها اي اذا وجدتموها مائلة فاعلموا ان في خرطومها سماً زعافاً وان لدغها لا يقل خطراً عن لدغ الافعي واذا رأيتموها موازية للحائط او لسطح السرير فلا تخافوها فهي تلدغ وتؤلم مكان اللدغة ولا ينتج عن لدغتها الا الم موضعي لا يلبث ان يزول وما قلته لكم من الاوصاف المميزة بين النوعين البالغين من البعوض نجد شبيهاً له بين الحشرتين والسرفتين الا انني اضرب صفحاً عنها لان ما يقع تحت اعينكم من البعوض هو البعوض البالغ وقلما تندفعون الى تتبع البعوض في وكره والنظر الى سرفاته وهو على وجه المياه — فالانوفال اذاً بعد ان تصبح قادرة على الطيران يبقى الذكر منها قريباً من

المكان الذي ولد فيه فيتغذى بعصير بعض الاشجار واما أنثاه فانها نهمة لاترضى بسوى الدم غذاء لها فتغتنم فرصة الليل واستغراق الانسان في نومه فتهاجمه وتمص من دمه غذاءها ولما كانت لاتميز بين السليم والمريض فانها متى امتصت من دم مريض مصاب بالوبالة تأخذ مع الدم طفيلي الحمى وبعد ان يمر هذا الطفيلي بادوار متعددة في جسمها تلقحه به السليم مع اللعاب حين غرز خرطومها فيه والاغتذاء بدمه وهكذا يتم انتقال هذه الحمى من المريض الى السليم . وبدون البعوض لاسبيل الى العدوى وبدون المستنقعات لاسبيل الى حيوة البعوض .

وبما ان الانوفال هي العامل الناقل وهي الفج الوحيد الذي ينقل العامل المرضي من العليل الى السليم رأيت من الواجب ان اعطيكم لمحة عن حياتها واخلاقها فاقول :

للبعوض دور من الحيوة يسمى الدور السرفي وهو الدور الذي يلي فقس البيضة ويسبق زمن البلوغ وهذا الدور من ادوار حياة الانوفال مائي صرف اي ان الانوفال تقضيه في الماء . اذاً لا أنوفال بدون ماء .

تنتخب الانوفال المستنقعات الصغيرة حيث الماء نقي صاف لتلقي بيوضها فيها غير ان ركود الماء ليس شرطاً لازماً فان الماء اذا كان هادئاً او خفيف الجريان كان موافقاً لها ايضاً وعليه فان قسماً كبيراً من الانهر التي تخترق دمشق مارة في بقع مستوية من الارض او خفيفة الميل يكون سيرها هادئاً جداً حتى انه يخيل للناظر اليها انها بركة لاجريان فيها فهذه الغدران جميعها ملائمة كل الملائمة للانوفال وفيها تلقي بيوضها وتفقس نتاجها بمئات الملايين وما يقال في هذه الغدران يقال ايضاً في ضفاف الشواطيء التي تنمو عليها الاشجار المائية فتعوق سير الماء السريع وتولد قرب جذع كل شجرة مستنقعاً صغيراً لا بل تفضل الانوفال هذه المستنقعات الصغيرة على تلك نظراً الى قلة عمقها وصفاء مائها وهذه كثيرة بدمشق تعد بمئات الالوف لان كثرتها معادلة لعدد الاشجار النامية على الضفاف .

وكذلك المستنقعات المعشبة والمستنقعات المائية الواقعة في الاراضي الزرقية وكل مستنقعات دمشق التي ذكرت اسماءها منذ هنيهة هي من هذين النوعين ، هي وسط موافق كل الموافقة لنمو الانوفال . ولا ننس ان البرك والمجاري الصناعية التي تحفر

في الجنائن والمنعرجات الواقعة في جوار الجداول وثقوب الحوافر الملقاة حول المسالخ والانفاق التي يحفرها السرطان المائي والمجامع المائية مهما صغرت لاسيما ما ينتج عن فيضان خزانات الماء كما هي الحالة قرب خزان من خزانات ماء الفيجة في دمشق وكسرات القناني وآنية الازهار وشقوق الصخور كل هذه اذا اجتمع الماء فيها كانت موافقة لفقس بيض البعوض وبكلمة واحدة فان الانوفال لا تترك بقعة ماء هادئة او راكدة الا تلقي فيها بيوضها ٠

ولا تعجبوا أيها السادة اذا أضفت الى كل مامضى ماشاهده بعض علماء الصحة المدققين في فلسطين ولعلنا نشاهده نحن ايضاً اذا جرّنا حب الاختبار الى التدقيق: ان بعض الآبار البيتية تتخذها الانوفال مقراً لها وتلقي فيها بيوضها فتأملوا اذاً ما أعظم صولة هذا العدو الخفي الذي يتهددنا وكم ينبغي ان نعد من العدد لمقاتلته وتخريب معاقله المتعددة ٠ ولكن متى عرف الانسان مكان عدوه وادرك طريق عيشته ودرس اخلاقه جيداً سهل عليه الفتك به فمهما كانت الوظيفة شاقة فان من الواجب اللازم علينا ان نقوم بها لاننا بدونها لانتوصل الى قطع شأفة الانوفال واذا لم نمح البعوض من هذا المحيط بقي هواؤنا ملوثاً واجسادنا عليلة مهما توفرت الاسباب الصحية الاخرى لدينا فكلكم يعلم ذلك المصيف الجميل الذي يؤمه الشاميون لصرف اشهر الصيف فيه وما هي عليه بلودان تلك القرية التي بنيت على علو شامخ فاخذت من الهواء نقيه وأتلعت بعنقها الى السهول المنبسطة على اقدامها فاخذت من ازهارها ذلك الشذا الشذي فعطرت به هواءها وانعشت صدور ساكنيها ومع ذلك فلم يغنها موقعها الطبيعي ولا جودة هوائها شيئاً بعد ان أهملت مياهها فولدت مستنقعات في اراضيها أصبحت مأوى للانوفال ومصدراً للوبالة التي تفشت بين السكان والمصطافين في السنة الماضية حتى ان السواد الاعظم من الذين قصدوا تلك البلدة طلباً للصحة عادوا منها وقد علا وجناتهم اصفرار فقر الدم الوبالي ونهكت قواهم تلك الحمى الشديدة الوطأة ٠ فاذا لم تتدارك الحكومة امر هذا المستنقع وتجره او تجففه في هذه السنة كان انتجاع تلك القرية خطراً عظيماً على المصطافين ٠

وها انا أمرّ على النقطة الاخرى من موضوعي وهي كيفية الوقاية من هذه الحمى ٠

الوقاية من الحمى تقوم بامور ثلاثة : اولها اتلاف سرفات البعوض وثانيها توقي البعوض البالغ حين وجوده وثالثها ادخال علاج الى الدم لايتمكن طفيلي الوبالة من ان يعيش فيه وبكلمة أخرى جعل الوسط الدموي غير ملائم لحيوة العامل المرضي ·

اما الامر الاول اي اتلاف سرفات البعوض فيقسم قسمين قسم منه وهوالاكبر يترتب على الحكومة القيام به والقسم الآخر وهوالصغير يترتب على كل فرد من افرادالامة اتمامه · فواجبات الحكومة ان ترسم مصوراً مفصلاً للبلادالتي تتولى شؤونها وان تدرس درساً دقيقاً مجاري الانهر وما يتولد عنها من المستنقعات فتصلح القنوات اصلاحاً متقناً وتجعل بناء السدود محكماً كي لا تتسرب المياه منها في الاراضي المنخفضة الواقعة تحتها وتنظر في امر المستنقعات المنفصلة عن مجاري الانهر فاذا كانت المياه التي تصل اليها قابلة للتحويل ، حولتها عنها فجففتها واذا لم تكن قابلة للتحويل ملأتها أو ردمتها اوحفرت فيها خنادق عميقة متصلة بمجرى من المجاري النهرية الاكثر قرباً منها ثم غرست فيها اشجاراً سريعة النمو محبة للماء كشجر الاوكاليبتوس مثلاً فلا يمر عليها وقت قصير الا تجف وتصبح الانوفال عاجزة عن ان تجد لها مقراً لتلقي فيه بيوضها· ومن واجبات الحكومة ايضاً ان تصلح ضفاف الانهر وتجعل مجرى النهر عميقاً وتقتلع الاشجار التي تعوق سير الماء فلاتدع سبيلاً لتولد تلك المستنقعات الصغيرة التي ذكرتها لكم قرب جذع كل شجرة من الاشجار · ومن واجباتها ايضاً معاينة المسالخ وجوارها والمعامل ومايحيط بها والشوارع والازقة وخزانات المياه فلاتدع فيها مجمعاً صغيراً من الماء تتمكن الانوفال من إلقاء بيوضها فيه · ومن واجباتها وضع قانون يقضي على كل ملاك او مستأجر او مزارع ان يضع في البركة التي في داره اوملكه من زيت الكاز او التربنتينا كل اسبوع كمية تناسب سطح تلك البركة اي كمية كافية لتكوين طبقة من الزيت على سطح الماء تمنع السرفات عن استنشاق الهواء وتقضي عليها وهي في اوكارها وتقدر هذه الكمية بعشرين سانتيمتراً مكعباً من الكاز في المتر المربع من الماء · وعليها ان تعين مأمورين مختصين لهذه الغاية وان تعاقب العقاب الشديد كل من يجرأ على المخالفة · وعليها ايضاً ان تعاين مياه الآبار وترى اذا كانت سرفات الانوفال عائشة فيها فتأمر اما بتجفيفها او بوضع الكاز فيها عادة اياها كالبرك الملوثة ·

فواجبات الحكومة كبيرة أيها السادة واذا هي لم تبدأ بالعمل اولاً وتقوم بواجباتها فان مايصنعه افرادالامة منفردين لا يأتي بالفائدة وان حكومتنا الحاضرة وان لم تتم حتى الآن واجباً من الواجبات الصحية المسؤولة عنها فانها قدوضعت القضية تحت الدرس ورسمت الخطط المنوي تطبيقها ولعل الغرامة الحربية التي جعلتها الحكومة المنتدبة تحت تصرف الحكومة الوطنية تصرف لهذه الغاية وكل آت قريب .

اما واجباتنا نحن أيها السادة فبسيطة للغاية يجب علينا ان نساعد الحكومة على اتمام ما تضعه لنا من القوانين الصحية . يجب على كل فرد منا ان ينظر نظرة دقيقة الى بيته فلا يدع في بستانه او داره مجمعاً من الماء الا ملاه والقى فيه كازاً . يجب علينا ان ننظر الى المراحيض فان الانوفال وان تكن ترغب رغبة شديدة بالماء الصافي فانها لا تستنكف عن المالح او القذر فاذا وجدنا تلك المراحيض قد ولدت مجامع مائية فيجب علينا ان نلقي كية من الكاز فيها . يجب علينا ان نعتبر الاقسام المحيطة ببيوتنا كأنها ملك لنا يترتب علينا ان نحافظ عليها محافظتنا على ما كنتنا فنعاملها معاملة دورنا ذاتها ونخفف عن الحكومة قسماً من الاتعاب . هكذا يصنع الشعب الراقي المتمدن في كل قطر من اقطار العالم .

واما الامر الثاني من الوقاية وهو اتقاء البعوض البالغ حين وجوده فاننا لا نحتاج اليه الا اذا أهملنا الامر الاول كما هي الحالة اليوم في مدينتنا التاعسة ويقوم هذا الامر بوضع شبكة من الخيوط المعدنية الرفيعة على الابواب والنوافذ لاتتمكن البعوض من المرور منها ووضع كلات ذات شبكات رقيقة ايضاً على الاسرة و يجب ان تكون هذه الكلات طويلة كي تصل الى الارض وان اثبت حول السرير بقطع من الرصاص كي لا يرفعها الهواء فيدخلها البعوض ويجب علينا ايضاً ان نعاين الكلات في كل يوم فاذا حدث فيها ثقب صغير يجب ان يرتق حالاً لان البعوض لا يدع منفذاً مهما كان صغيراً الا دخله . ان الكلة أيها السادة كافية في حالتنا الحاضرة للتوقي من شر هذه الحمى الشديدة فمهما غلا ثمنها ومهما قيل فيها فان اهمالها بعد جريمة لاتغتفر . ومعها الحمت عليكم بتعميم هذه العادة الحسنة في المحيط الذي أنتم فيه فلا أفي واجب التبشير بهذه القضية حقه . فليكن كل منكم رسولاً في بيته وبين اصدقائه ومبشراً

في كل مجتمع ومعلماً للسذج الذين لا يقدّرون هذا الامر قدره فلا تمر مدة قصيرة الا يعمّ استعمال الكلات عند الفقير والغني فتتحسن اذ ذاك الحالة الصحية تحسناً يذكر يعود الفضل فيه اليكم ٠

وأما النقطة الاخيرة من الوقاية فنقوم بادخال علاج الى الدم لا يمكن طفيلي الوبالة من النمو فيه ٠ وهذا العلاج أيها السادة يعرفه جميعكم ولكن قلّ من يستعمله منكم ٠ هذا العلاج هو الكينين هو الدواء الذي يحق لنا أن نحتفل اليوم بيوبيله الماسي لان السنوات التي مرت على كشفه مائة سنة وسنة ٠ وهذا العلاج الذي اوجدته العناية الآلهية شفاء للوبالة له خاصة واقية أيضاً ٠ فكما انه يطفئ نار الحمى حين تأججها فانه يجعل ايضاً المحيط الذي يدخله غير قابل للاشتعال ٠ فهو رحمة للبشرية جاء بها بلاتيه وكافانتو سنة (١٨٢٠) وان التاريخ الطبي يحفظ مع الفخر اسمي هذين الكاشفين الجيدين اما استعمال الكينين للوقاية ففضلى طرقه طريقة لافران كاشف الطفيلي وهي تقوم باخذ عشرين سانتيغراماً من كبريتات الكينين في كل يوم او اربعين سانتيغراماً كل يومين مادام الفصل الخطر موجوداً ٠ والفصل الخطر حسب تحديد علماء الصحة هو خمسة اشهر أولها حزيران وآخرها تشرين الاول هذا ما أريد أن أقوله لكم أيها السادة عن الوبالة وقاكم الله منها بفضل ما أسدي اليكم من النصائح المفيدة والسلام عليكم ٠



الجباية في الشام [1]

أهم مسألة في قيام الدول وسقوطها ان تفرض الاموال على الرعايا بالعقل وتجبى منهم بالعدل ويحسن التصرف في انفاقها على المصالح العامة · وقد كانت الحكومات الاسلامية تعنى بهذا الشأن كل العناية وكانت اذا غفلت عن هذا الامر المهم ايام ضعفها تكثر الثورات أو تنقطع عن العمل الرغبات فتخرب البلاد وتنتشر الفوضى وتعم البلوى ·

اعتمدت العرب أول الفتح في تنظيم دواوين اموالها على الروم في الشام ينظرون لهم في مسائل الدخل والخرج ووضع التوازن بحسب عرف تلك الايام وذلك لان العرب كانوا لاول امرهم نصف أميين او نصف متحضرين وأهل الشام اعرق منهم في الحضارة وما ينبغي لها حتى كان زياد يقول ينبغي ان يكون كتاب الخراج من رؤساء الاعاجم العالمين بأمور الخراج ·

ولقد كان الاسراف يبدو في الاموال ايام الترف والنعيم ويتجلى الاقتصاد فيها على عهد الجدّ والاصلاح وذلك يرجع على الاغلب الى من يتولى امر الامة من خليفة او سلطان او ملك او امير فاذا صلح الرأس صلح الجسد كله · واذ كانت دواعي الانفاق محصورة داخل البلاد وكان النقد أقل من هذه الايام بالطبع والتفنن في ضبط الشؤون الاقتصادية لم يبلغ مبلغه في القرون الاخيرة وحركة المعاملات والمقايضات محدودة وأضعف من العصور الحديثة كانت المسائل المالية لعهد العرب الى السذاجة لاول الامر شأنهم في عامة أمورهم ·

والجباية أول الدولة كما قال ابن خلدون تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة فان كانت الدولة على سنن الدين فليست الا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لان مقدار الزكاة

(١) ألقيت في ٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٣٩ هـ و ٢٦ آب سنة ١٩٢١ م ·

من المال قليل وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تتعدى وإن كانت على سنن التغلب والعصبية فلا بد من البداوة في اولها . والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر . قال والدولة تكون في أولها قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وإنفاقها قليلاً ويكون في الجباية حينئذٍ وفاء بازيد منها بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم ثم لا تلبث ان تأخذ بدين الحضارة في الترف فيكثر لذلك خراج اهل الدولة ويكثر خراج السلطان خصوصاً كثرة بالغة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع ويستحدث أنواعاً من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدراً معلوماً على الاثمان في الاسواق وعلى أعيان السلع في المدينة .

وبعد فلم يتصل بنا سند صحيح عن مقادير الجباية في هذه الديار قبل العرب أما على عهد حكومتهم فكانت الجباية في الصدر الاول تجمع من الخراج والعشور والصدقات والجوالي أي الجزية أي ان لها اربعة موارد رئيسة ثم صارت اصول جهات الاموال السلطانية عشرة الجزية والخراج والعشور والاجور والزكوات وأثمان المبيعات والمقاسمات والغنيمة والفيء والمعادن . وزادت أنواع الجباية على عهد انحطاط هذه البلاد ونسي المتغلبون أو الفاتحون « ان تكثير المالك ماله باموال رعيته بمنزلة من يحصن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه » .

قال الظاهري : ان كثرة الاموال وقلتها بقدر المعرفة باجتلابها من جزى مقررة ، ومتاجر معشرة ، وأخرجة محضرة ، وعشور محررة ، وقسم مقدرة ، وغنائم موفرة ، وفيء من جهات غير محصورة ، هذا الى زكوات واجبة ، وأجور لازمة ، وديات دماء ذاهبة ، وبحور مباحات راتبة ، ومستخرج معادن غير ناهبة ، وعداد نعم سائمة لا سائبة ، ووظائف على أكرة عاملة ناصبة ، الى غير ذلك من تربيع مزارع ، وتوزيع قطائع ، وتوسيع مراتع ، وتفريع مواضع ، وترجيع طوالع ، فهذه جهات أموال جعل الشرع بيد السلطنة زمام استخراجها ، ومكن من استيفائها بسلوك طريقها ومنهاجها ، وفوض فيها حقوقاً تجب رعايتها ، عند صرفها واخراجها ، اه .

وقال الغزالي : وكل مايحمل للسلطان سوى الاحياء وما يشترك فيه الرعية

قسمان قسم مأخوذ من الاعداء وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر والفيء وهو الذي حصل من مالهم في يده من غير قتال والجزية واموال المصالحة وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاقدة والقسم الثاني المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه إلاّ قسمان المواريث وسائر الاموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك والاوقاف التي لا متولي لها اما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان — اي في القرن الخامس — وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وانواع الرشوة كلها حرام . وقال ايضاً ان اموال السلاطين في عصرنا حرام كلها او اكثرها وكيف لا والحلال هو الصدقات والفيء والغنيمة ولا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ولم يبق الا الجزية وانما تؤخذ بانواع من الظلم لا يحل اخذها به فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء له بالشرط ثم اذا نسبت ذلك الى ما ينصب اليهم من الخراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره .

واول شيء من المال فرض على اهل دومة الجندل وهي في طرف الشام ومعدودة منه يعرف من الكتاب الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم مع حارثة بن قطن الكلبي من اهل دومة الجندل يقول فيه : هذا كتاب من محمد رسول الله الى اهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب لنا الناجية من النخل ولكم الصامتة من النخل على الجارية العشر وعلى الغايرة نصف العشر لا تجمع سارحتكم ولا تعد فاردتكم تقيمون لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها لا يحظر عليكم النبات ولا يؤخذ منكم عشر النبات لكم بذلك عهد الله والميثاق ولنا عليكم النصح والوفاء وذمة الله ورسوله شهد الله ومن حضر من المسلمين اه .

واختلف مقدار الجبايات باختلاف العصور وكان لاول الفتح ضرب الخراج على الارض والجزية على الرقاب وراعى الخليفة الثاني حال الشام فعمل في نواحيها غير ما عمل في غيرها من البلاد التي فتحت في عهده راعى في كل ارض ما تحتمله وكانت الجزية في بدء الامر ديناراً في كل حول على كل جمجمة (١) ثم وضعها عمر بن

(١) يقول لامنس ان الرومان ضربوا الجزية على اهالي سورية على الذكور من سن الرابعة عشرة وعلى الاناث من الثانية عشرة الى سن ٦٥ من عمرهم جميعاً وفرضوا عليهم

الخطاب على الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهماً وجعلهم طبقات لغنى الغني وإقلال المقل وتوسط المتوسط وقيل جعل على كل رأس موسر ثمانية وأربعين درهماً ومن الوسط اربعة وعشرين درهماً ومن الفقير اثني عشر درهماً والجزية تؤخذ من غير المسلمين والخراج يشترك فيه كل من يملك أرضاً · وصالح ابو عبيدة بن الجراح نصارى الشام حين دخلها على ان تترك لهم كنائسهم وبيعهم وعليهم ارشاد الضال وبناء القناطر على الانهار من أموالهم وأن يضيفوا من مرَّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام وصالحهم عمر على ضيافة من مرَّ بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة او دجاجة وتبييت دوابهم على غير شعير وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن ·

خراجاً جبوه من الاملاك يبلغ في المئة واحداً ورسموا ايضاً ضرائب ومكوساً على الواردات والصادرات من السلع الا ان هذه الرسوم مع ثقلها كانت أخف على عاتق السوريين من المغارم والسخر التي حملهم إياها ملوكهم سابقاً وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي أي آن شاؤوا اه ·

وقال غيره كان أهل الولايات الرومانية يؤدون للرومان الجزية وعشر غلاتهم وإتاوة من المال ورسماً على كل رأس وعليهم أن يخضعوا لجماع مايؤمرون به قال شيشرون ان الولايات أملاك الشعب الروماني فاذا اخضع هذا الامم بأسرها لسلطانه فذلك طمعاً بفائدتها لا لاجل منفعة الشعوب ولذلك لايتوخى ان يدير تلك الولايات بل يحرص على استثمارها · قالوا وكان للشعب الروماني في كل ولاية مواد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزرع الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات متعهدين يسمونهم العشارين يبتاعون من الحكومة حق جباية الخراج ويجب على سكان الولايات أن يطيعوهم كأنهم وفود الشعب الروماني ويتناول هؤلاء العشارون اكثر مما يجب لهم أخذه يسلبون الاهلين وكثيراً ما كانوا يبيعونهم كما يباع الرقيق · قال سنيوبوس وكثيراً ما كانوا يأخذون في آسيا حتى السكان بدون سبب وجمع الرومان في بلادهم ثروات الامم المغلوبة ولذلك كانت الدراهم كثيرة جداً في رومية ونادرة كل الندرة في الولايات واضطر سكان الولايات أن يبيعوا حتى التحف والطرف · وقد شوهد أبوان يبيعان ابناءهما وبناتهما ·

ولما مسح عمر السواد وضع على كل جريب (١) عامر او غامر يناله الماء بدلو او بغيره زُرع او عطل درهماً وقفيزاً (٢) واحداً والغى عمر النخل عوناً لاهل السواد واخذ من جريب الكرم عشرة دراهم ومن جريب السمسم خمسة دراهم ومن الخضر من غلة الصيف من كل جريب ثلاثة دراهم ومن جريب القطن خمسة دراهم ثم حمل الاموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً وعلى كل الف اصل كرم مما قرب ديناراً وعلى كل الفي اصل كرم مما بعد ديناراً وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم او اليومين واكثر من ذلك وما دون اليوم فهو في القرب وحملت الشام على مثل ذلك . وقد ذُكر عن بعض اهل المدينة واهل الشام انه تخرج زكاة الخضر من اثمانها على حساب مائتي درهم خمسة دراهم .

ولما رأى اهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا اشداء على عدو المسلمين وعوناً للمسلمين على اعدائهم فبعث اهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجلاً من قبلهم يتجسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم فكتب ابو عبيدة الى كل والٍ ممن خلفه في المدن التي صالح اهلها يأمره ان يرد ما جبي منهم من الجزية والخراج وكتب اليهم ان يقولوا لهم انما رددنا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع

(١) الجريب عشر قصبات في عشر قصبات والقفيز عشر قصبات في قصبة والعشير قصبة في قصبة والقصبة ستة اذرع فيكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسرة واما الذراع فسبعة اصناف وهو يختلف باصطلاح كل بلد وقطر . (٢) القفيز مكيال ثمانية مكاكيك جمع مكوك وفي القاموس المكوك مكيال يسع صاعاً ونصفاً او نصف رطل الى ثمان اواقي او نصف الويبة والويبة اثنان وعشرون او اربعة وعشرون مداً بمد النبي صلى الله عليه وسلم او ثلاث كيلجات والكيلجة تسع منا وسبعة اثمان منا والمنا رطلان والرطل اثنا عشرة اوقية والاوقية استار وثلثا استار والاستار اربعة مثاقيل ونصف والمثقال درهم وثلاثة اسباع درهم والدرهم ستة دوانق والدانق قيراطان والقيراط طسوجان والطسوج حبتان والحبة سدس ثُمن درهم وهو جزء من ثمانية واربعين جزءاً من درهم .

وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم . فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الاموال التي جبوها منهم قالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً واخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا شيئاً .

اول من وضع العشور عمر لقوله عليه الصلاة والسلام ليس على المسلمين عشر وانما العشور على اليهود والنصارى وقال يا معشر العرب احمدوا الله الذي وضع عنكم العشور . ولا تؤخذ الصدقات الا مرة في السنة الا ان يجد الامام فضلاً . وفرض عمر سنة خمس عشرة الفروض ودون الدواوين واعطى العطايا على السابقة في الاسلام وفرض لاهل الشام الفين الفين وكانوا يسمون ما يجمعون من الغنائم الاقباض ويقسمونها بين الفاتحين . وأمر عمر عثمان بن حنيف لما ارسله لمسح السواد ان لا يمسح تلاً ولا أجمة ولا مستنقع ماء ولا ما لا يبلغه الماء ولما فرض على الرقاب وجعل على من لا يجد اي الفقير اثني عشر درهماً في السنة قال درهم في الشهر لا يعوز رجلاً وكان يأخذ الجزية من اهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة ما يجب عليهم وكذلك فعل علي . ذكروا في الفيء والخراج ان من صولحوا اذا عجزوا يخفف عنهم وان احتملوا اكثر من ذلك فلا يزاد عليهم وان تظالموا فيما بينهم حملهم امام المسلمين على العدل ووضع ذلك الصلح عليهم جميعاً بقدر ما يطيقون في اموالهم واراضيهم ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات ولا لاسلام من اسلم منهم ويؤخذ بذلك كل من بقي منهم ما كانوا يطيقونه ويحتملونه قاله يحيى بن آدم . كتب عمر الى سعد حين افتتح العراق : اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم مغانمهم وما افاء الله عليهم فاذا اتاك كتابي هذا فانظر ما اجلب الناس به الى العسكر من كراع او مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء وقد كنت امرتك ان تدعو الناس الى الاسلام فمن أسلم واستجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لهم وله سهم في الاسلام ومن استجاب لك بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل المسلمين وماله لاهل الاسلام لانهم قد احرزوه قبل الاسلام . ولما ولى عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن جذيم حمص

وما يليها من الشام كتب اليه كتاباً يوصيه فيه بتقوى الله والجد في امر الله والقيام بالحق الذي يجب عليه . ويأمره بوضع الخراج والرفق بالرعية فأجابه سعيد بن عامر على نحو من كتابه . ولما طعن عمر قال : أوصي الخليفة من بعدي باهل الامصار خيراً فانهم جباة المال وغيظ العدو ورد المسلمين وان يقسم بينهم فيئهم بالعدل وان لايحمل من عندهم فضل الا بطيب انفسهم . واوصى الخليفة من بعده باهل الذمة وان يوفي لهم بعهدهم وان يقاتل من ورائهم وان لا يكلفوا فوق طاقتهم . وكان كثيراً ما يصادر عماله ويجعل اموالهم في بيت المال فممن صادر خالد بن الوليد فاتح الشام لانه اجاز رجالاً انتجعوه منهم الاشعث بن قيس اجازه بعشرة آلاف وسأله عمر من اين هذا الثراء قال : من الانفال والسهمان مازاد على ستين الفاً فلك فقوّم عمر ماله فزاد عشرين الفاً فجعلها في بيت المال .

قال الصولي في ادب الكتاب : ارتفع خراج الشام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه خمسمائة الف دينار فلما أفضى الامر الى معاوية قطع الوظائف على اهل المدن فوظف على اهل قنسرين اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان وعلى اهل دمشق اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان وعلى الاردن مائة وثمانين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان وعلى فلسطين مثل ذلك ثم جعل بعد ذلك يصطفي الارض الجيدة و يدفعها الى الرجل بخراجها وعلوجها والخراج على اصله لا ينقص منه شيء .

وقد تغير الحال على عهد الخليفة الثالث لانه نشأت له ثروة واعطى بعض ولاته حريتهم ومنهم معاوية بن ابي سفيان فصاروا يجمعون المال و يبذرونه وقد دفع هو الى ثلاثة انفس من قريش زوجهم بناته ثلاثمائة الف دينار فيما قال المسعودي لكل واحد مائة الف دينار وأقطع بني أمية قطائع لمصلحة تعود على المسلمين لان تلك الضياع كانت خراباً لا عامر لها فسلمها الى من يعمرها و يؤدي الحق عنها واقتنى هو وجماعته الضياع والدور وكان في نهاية الجود والبذل في القريب والبعيد فسلك عماله و كثير من اهله طريقته وتأسوا بفعله وكان عثمان على ما يظهر على شيء من السعة قبل الخلافة و كثرت في ايامه اموال الانفال والغنائم بكثرة الفتوح .

والغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة والفيء ما صولحوا عليه من الجزية والخراج . قال الذهبي في حوادث سنة ٣٢ : ان الدنيا اتسعت على الصحابة حتى كان الفرس يشترى بمئة الف وحتى كان البستان بالمدينة يباع باربعمائة الف وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والاموال والناس يجبي اليها خراج الممالك وهي دار الامارة وقبة الاسلام فبطر الناس بكثرة الاموال والخيل والنعم وفتحوا اقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا اهـ .

واراد الخليفة الرابع ان يرجع في معاملة العمال الى طريقة الشيخين ابي بكر وعمر الا انه لم يوفق الى ذلك . استأثر معاوية بامارة الشام عشرين سنة وبالخلافة عشرين سنة وما كان لعلي بل ولا لعثمان حكم على هذه الديار مع معاوية الداهية الذي دعي بكسرى العرب لكثرة أبهته وتفقته وكان يبذل المال لمن وافقه ولمن خالفه فانشأ للأمويين ملكاً بالشام توارثوه وبنوا القصور والمصانع والمرافق وهذا لا يكون بالطبع الا بتوفر الجباية والتطلع ولو بعض الشيء الى ما في ايدي الناس من الاموال والاغضاء عن بعض الحقوق ولا مجال للانكار ان من خلفاء الامويين من كانوا يجورون على الرعية ومنهم من كانوا يقطعون انفسهم او بعض ابناء بيتهم او خاصتهم الاقطاعات الكثيرة . والجباية كانت تكثر في عهد العادلين اكثر من زمن الجائرين وما نقص من مال السلطان زاد في مال الرعية . والاقطاع اقطاعان اقطاع تمليك وهو موات وعامر ومعادن واقطاع استغلال وهو عشر وخراج . واللقاح البلد الذي لا يؤدي الى الملوك الاربان والاربان هو الخراج وهو الاتاوة . قال مكحول : كل عشري بالشام فهو مما جلا عنه اهله فاقطعه المسلمون فاحيوه وكان مواتاً لا حق فيه لاحد فاحيوه باذن الولاة . واول من اقطع الارضين وباعها عثمان ولم يقطعها ابو بكر ولا عمر ولا علي .

اوصى الخليفة الرابع احد عماله باهل عمله فقال : اذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفاً ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ولا تضرب احداً منهم سوطاً واحداً في درهم ولا تقمه على رجله في طلب درهم ولا تبع لاحدمنهم عرضاً في شيء من الخراج فانا أُمرنا ان نأخذ منهم العفو . وكتب للاشتر النخعي : وتفقد امر

الخراج بما يصلح اهله فان في اصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لان الناس كلهم عيال على الخراج واهله وليكن نظرك في عمارة الارض ابلغ من نظرك في استجلاب الخراج لان ذلك لا يدرك إلاّ بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم امره إلاّ قليلاً فان شكوا ثقلاً او علة او انقطاع شرب او وبالة او إحالة أرض اغتمرها غرق او أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو ان يصلح به امرهم ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فانه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلاب حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم فربما حدث من الامور ما اذا عوّلت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة انفسهم به فان العمران محتمل ما حملته وانما يؤتى خراب الارض من اعواز أهلها وانما يعوز اهلها لاشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة إنتفاعهم بالعبر » .

هكذا كان قانون آخر الخلفاء الراشدين وهو من اهم القوانين في اصول الجباية الا ان الأمويين الذين قلبوا الخلافة الى ملك عضوض كانوا يهتمون بتوفير الجباية مع الظلم ليتمكنوا من اعال العمران التي اقاموها واطعام الجيوش التي فتحوا بها القاصية وكانت الجباية تقل عندما ينكسر الخراج فلا يحمل شيء كثير منه لقحط او زلزال او وباء .
ولقد كان عمال معاوية يحملون اليه هدايا النيروز والمهرجان فيحمل اليه في النيروز وغيره وفي المهرجان عشرة آلاف الف . وهدايا النيروز والمهرجان مما رده عمر بن عبد العزيز كما رد السخرة والعطاء على قدر ما استحق الرجل من السنة وورّث العيالات على ما جرت به السنة غير انه اقر القطائع التي اقطعها اهل بيته والعطاء في الشرف لم ينقصه ولم يزد فيه وزاد اهل الشام في اعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى ان ينكثها وسماها مظالم . وكتب الى عماله عامة : « اما بعد فان الناس قد اصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله وسنن سيئة سنتها عليهم عمال السوء قلما قصدوا قصد الحق والرفق والاحسان » . وبقي العطاء على حاله حتى نقص يزيد بن الوليد الناس من عطائهم فسمي يزيد الناقص .

وبينما كان عمر بن عبد العزيز يقول لأسامة بن زيد وكان على ديوان الجند بدمشق لما بعثه سليمان بن عبد الملك على مصر يتولى خراجها : ويحك يا أسامة انك تأتي قوماً قد الحّ عليهم البلاء منذ دهر طويل فان قدرت ان تنعشهم فانعشهم كان سليمان يقول لعامله أسامة : احلب حتى ينفيك الدم فاذا نفاك فاحلب حتى ينفيك القيح لا تبقيها لاحد بعدي . فعمل أسامة في مصر اعمالاً جائرة حتى استخرج من اهلها اثني عشر الف الف دينار .

اما عمر بن عبد العزيز فانه لما ولي الخلافة جعل لا يدع شيئاً مما كان في ايدي اهل بيته من المظالم الا ردها مظلمة مظلمة خطب على المنبر ذات يوم فقال : اما بعد فان هؤلاء يعني خلفاء بني أمية قد كانوا اعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا ان نأخذها منهم وما كان ينبغي لهم ان يعطونا اياها واني قد رأيت الآن انه ليس عليّ في ذلك دون الله حسيب وقد بدأت بنفسي والاقربين من اهل بيتي اقرأ يا مزاحم فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً فيه الاقطاعات بالضياع والنواحي ثم يأخذه عمر بيده فيقصه بالجلم اي المقراض .

ولما اجتمع اليه بنو أمية لما عزم عمر بن عبد العزيز على اخذ ما في ايديهم من حقوق الناس ورده على اهله وكلموه فقال : انكم أعطيتم في هذه الدنيا حظاً فلا تنسوا حظكم من الله واني لاحسب شطر اموال بني الدنيا وأمة محمد في ايديكم ظلماً والله لا تركت في يد احد منكم حقاً لمسلم ولا معاهد الا رددته . قال ابن سعد لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل ارض ووضع الجزية عن كل مسلم وابلغ الاحماء كلها الا النقيع وفرض عمر بن عبد العزيز للناس الا للتاجر لان التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين وسوى بين الناس في طعام الجار وكان اكثر ما يكون طعام الجار اربعة ارادب ونصف لكل انسان . وكتب الى احد عماله ان استبرئ الدواوين فانظر الى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم او معاهد فردها عليه فان كان اهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه الى ورثتهم وما زال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم من لدن معاوية الى ان استخلف . اخرج من ايدي ورثة معاوية ويزيد بن معاوية حقوقاً . وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن ارطاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين : اما بعد فانظر اهل الذمة فارفق بهم واذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه فان كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه وقاصه من

جراحه كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بعد من ان تنفق عليه حتى يموت او يعتق ٠ وكتب اليه ان ضع عن الناس المائدة والنوبة والمكس ولعمري ما هو بالمكس ولكنه البخس الذي قال الله ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين فمن أدى زكاة ماله فاقبل منه ومن لم يأت فالله حسيبه ٠ وحرم عمر بن عبد العزيز الكلأ في كل ارض ٠ وان عمر بن عبد العزيز لم يزل رأيه والذي يشير به على من ولي هذا الامر من اهل بيته توفير هذا الخمس على اهله فكانوا لا يفعلون ذلك فلما ولي الخلافة نظر فيه فوضعه مواضعه الخمسة وآثر به اهل الحاجة من الاخماس حيث كانوا فان كانت الحاجة سواء وسع في ذلك بقدر ما يبلغ الخمس وانه ربما اعطى المال من يستألف على الاسلام وانه اعطى بطريقاً الف دينار استألفه على الاسلام ٠ وامر ان لا يؤخذ من المعادن الخمس وتؤخذ منها الصدقة وانكر التسخير في سلطانه وضرب احدهم اربعين سوطاً لانه سخر دواب النبط ٠ ومما كتبه الى احد عماله : اما بعد نخل بين اهل الارض وبين مبيع ما في ايديهم من ارض الخراج فانهم انما يبيعون فيء المسلمين والجزية الراتبة ٠ وكتب باباحة الجزائر وقال انما هو شيء انبته الله فليس احد أحق به من احد ٠ دخل عامل لعمر بن عبد العزيز عليه فقال كم جمعت من الصدقة فقال كذا وكذا قال فكم جمع الذي كان قبلك قال كذا وكذا فسمى شيئاً كثيراً من ذلك فقال عمر : من اين ذاك قال : يا امير المؤمنين انه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدان خمسة دراهم وانك طرحت ذلك كله قال لا والله ما القيته ولكن الله القاه ٠ وكتب اني ظننت ان جُعل العمال على الجسور والمعابر ان يأخذوا الصدقة على وجهها فتعدى عمال السوء ما أمروا به وقد رأيت ان اجعل في كل مدينة رجلاً يأخذ الزكاة من اهلها فخلوا سبيل الناس في الجسور والمعابر ٠ وكتب الى عامله ان لا تقاتلن حصناً من حصون الروم ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم الى الاسلام فان قبلوا فاكفف عنهم وان ابوا فالجزية فان ابوا فانبذ اليهم على سواء ٠

وفي عهد عمر بن عبد العزيز وقد اصبحت عادة للخلفاء « اذا جاءتهم جبايات الامصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا اله الا هو ما فيها

دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل اعطيات اهل البلد من المقاتلة والذرية بعد ان اخذ كل ذي حق حقه » اي فضل اعطيات الاجناد وفرائض الناس. قال ابن ابي الحديد: ردعمر بن عبدالعزيز المظالم التي احتقبها بنومروان فابغضوه وذموه وقيل انهم سموه فمات . امامن جاؤا من قبل ومن بعد من بني أمية فكانوا اشكالاً ومشارب منهم الجماعة ومنهم المبدد فقد كان في بيت مال الوليد يوم قتل سنة ١٢٦ ﻫ سبعة وسبعون الف الف دينار . ففرقها يزيد عن آخرها .

وكذلك كانت سيرة العباسيين بعد فقد اخذ المنصور اموال الناس حتى ماترك عند احد فضلاً وكان مبلغ مااخذهم ثمانمائة الف الف درهم وعدل ابوجعفر المنصور ارض الغوطة غوطة دمشق فجعل كل ثلاثين مداً بدينار بالقاسمي وكان اداء الناس على ذلك وكان الخلفاء من بني العباس يعمدون الى ابطال الرسوم عندما تجلى لم ضررها ولا يقطعون امراً بدون اخذ آراء جلة الفقهاء في عصرهم فقدامر المعتضد سنة ٢٨٣ بالكتابة الى جميع البلدان ان يرد الفاضل من سهام المواريث الى ذوي الارحام وابطل ديوان المواريث . وخلف المعتضد هذا في بيوت الاموال تسعة آلاف الف دينار ومن الورق الف الف درهم . ومن خلف هذه القناطير المقنطرة من الذهب لابدله ان يظلم أمته وان لا يصرف اموالها في وجوه مصالحها وقد كنت ترى في ايام العباسيين عدلاً شاملاً لا مثيل له حيناً وتجد ظلماً شائناً في دور آخر فعهد الرشيد والمأمون والمهدي والظاهر والمتوكل كان عجباً في العدل وانتظام الجباية . فقد كتب المأمون سنة ٢١٨ الى اسحق بن يحيى بن معاذ عامله على جند دمشق في التقدم الى « عماله في حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكف الاذى » عن اهل عمله قائلاً فتقدم الى عمالك في ذلك اشد التقدمة واكتب الى عمال الخراج مثل ذلك . وكتب الى جميع عماله في اجناد الشام جند حمص والاردن وفلسطين بمثل ذلك .

والمهدي مثلاً افتتح امره بالنظر في المظالم و بسط يده في العطاء فاذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ستمائة الف الف درهم واربعة عشر الف الف دينار سوى ماجباه في ايامه . والمأمون العباسي أقام سنة بدمشق (٢١٤) لمساحة اراضي الشام واجتلب لتعديله مساح العراق والاهواز والري وكان جده ابوجعفر المنصور تشبث بذلك فلم يتم له فبعث بقية بن الوليد ليمسح اراضي دمشق كما كان بعث اسماعيل بن عياش العنسي الحمصي

الى دمشق فعدل ارضها الخراجية وعدّل احمد بن محمد ارض دمشق والاردن وكان على ديوان الخراج سنة ٢٤٠ وحمل كل ارض ما تستحقه . والخلفاء الأُول من بني العباس كانوا اقرب الى الرفق بالرعية فقد كان اسماعيل بن صبيح الكاتب يحدث عن الرشيد انه قال للحسن بن عمران يوم أدخل عليه في الحديد : وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غدر تتكفأ أمواجها على رياض كالزرابي واردة منها كفايات المؤن الى بيوت اموالي فابرح بك التعدي لارفاقهم فيما امرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر واوحش من القفر قال : والله يا امير المؤمنين ما قصدت لغير التوفير من جهته ولكني وليت اقواماً ثقل على اعناقهم الحق فتفرقوا في ميدان التعدي ورأوا المراغمة بترك العمارة اوقع باضرار الملك وانوه بالشنعة على الولاة فلا جرم ان امير المؤمنين قد اخذهم بالحظ الاوفر من مساءتي .

والمهدي اول من نقل الخراج الى المقاسمة وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً مقرراً ولا يقاسم وجعل الخراج على النخل والشجر . واعاد الظاهر بامر الله سنة ٦٢٢ سيرة العمرين . قال ابن الاثير فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً فانه أعاد من الاموال المغصوبة في ايام ابيه شيئاً كثيراً واطلق المكوس في البلاد جميعها وامر باعادة الخراج القديم وان يسقط جميع ما جدده ابوه وكان كثيراً لا يحصى وفي ايام ابيه خربت العراق وتفرق اهله في البلاد .

خربت العراق وما اليها من الامصار والاقطار للشدة في تقاضي الجباية والتفنن في الضرائب وعدم اطرادها على وتيرة واحدة . كتب علي بن عيسى الى عامل ديار ربيعة وقد ورد الحضرة قوم من اهلها يتظلمون من حيف لحقهم في معاملاتهم : « بسم الله الرحمن الرحيم . في علمك اكرمك الله بما امر الله به من العدل والاحسان ونهى عنه من الجور والعدوان وعاقب به الظالمين في سالف الازمان غنى لك عن التنبيه والتوقيف والوعظ والتخويف وفيما رسمته لك مشافهة ومكاتبة في انكار الظلم وازالته واظهار العدل وافاضته كفاية وبلاغ . وقد ورد الحضرة اكرمك الله جماعة من وجوه التناء والمزارعين بديار ربيعة متظلمين مما عوملوا به في سني ثلث عشرة وثلثمائة من اكراههم على تضمين غلات يبادرهم بالحزر والتقدير والزامهم حق الاعشار في ضياعهم على التربيع واستخراج الخراج منهم على اوفر عبرة قبل ادراك غلاتهم وثمارهم واكراه وجوههم وتجارهم على

ابتياع الغلات السلطانية باسعار مسرفة مجحفة فاقلقني ما افاضوا فيه من الشكوى وآلمني ما انتهوا الى وضعه من عظيم البلوى ووجدته مع قبح ذكره وعظيم وزره عائداً بخراب الضياع ونقصان الارتفاع فينبغي اكرمك الله ان تجري سائر رعيتك على المعاملات القديمة وتحملهم على الرسوم السليمة حتى يعودوا الى افضل حال عهدوها واجمل سيرة حمدوها وتزيل السنن الجائرة وتبطلها وتقطع اسبابها وتحسمها وتكتب اليَّ بما يكون منك في ذلك فانني على اهتمام به ومراعاة له ان شاء الله · »

ولو رجعت الى كتب التاريخ والسير لرأيت شيئاً كثيراً من هذا القبيل وفي الكتاب الذي كتبه الامام ابو يوسف صاحب الامام ابي حنيفة الى الخليفة هرون الرشيد صورة لطيفة من تلطف العلماء في نصح الملوك والخلفاء · وكتابه دستور في الجباية تستدل به على ترقي العقول في عصره · وما خلا عصر من علماء ينعون على العمال اعمالهم وتجانفهم عن طرق الحق في معاملة الامة وقلما كانت المواعظ تفعل الا في المستعدين للخير من الخلفاء فمن دونهم ·

وكثيراً ما كان الناس يعذبون في الخراج وقد وقع ذلك في اوائل دولة الأمويين بالشام فاخذ جباة الجزية يعذبون بعض اهل الذمة ويجعلونهم في الشمس ساعات عقوبة لهم فنهى عن ذلك الفقهاء وبطل تعذيب المكلفين من ذاك اليوم · ونص الفقهاء انه لا يؤخذ شيء من نصراني اتجر في بلاده من اعلاها الى اسفلها ولم يخرج منها واذا خرج من بلاده الى غيرها من بلاد المسلمين تاجراً لم يؤخذ منه مما حمل قليل ولا كثير حتى يبيع وقال مالك في النصراني يكري ابله من الشام الى المدينة ايؤخذ منه في كرائهم العشر بالمدينة قال لا · فان اكرى من المدينة الى الشام راجعاً يؤخذ منه و يؤخذ من اهل الحرب ما صالحوا عليه في سلعهم و يؤخذ من عبيدهم كما يؤخذ من ساداتهم · ذكروا ان عمر بن الخطاب قال لاهل الذمة الذين كانوا يتجرون الى المدينة : ان تجرتم في بلادكم فليس عليكم في اموالكم زكاة وليس عليكم الا جزيتكم التي فرضنا عليكم وان خرجتم وضربتم في البلاد وادرتم اموالكم اخذنا منكم وفرضنا عليكم كما فرضنا جزيتكم فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كلما قدموا من مرة ولا يكتب لهم براءة مما اخذ منهم كما تكتب للمسلمين الى الحول فيأخذ

منهم كلما جاءوا وان جاءوا في السنة مائة مرة ولا يكتب لهم براءة بما اخذ منهم ٠

زاد الاجحاف بحقوق الرعية لما توزع ملوك الطوائف البلاد واخذ كل مليك او امير يستولي على اقليم صغير من الارض ويجحف على الناس في الجباية ويسمي نفسه ملكاً من ذلك بنو حمدان في حلب وما اليها فانهم كانوا على جانب من البطش والظلم فقد لجوا في الظلم والاستئثار بالاموال وكانت فتنهم مع الروم لا تنقطع فاستأثر القضاء بهلاك العباد وخراب البلاد على ايدي المدافعين والمهاجمين (كما سنقف على ذلك في الكلام على حلب) ٠ ولي خلافة الراضي سنة ٣٢٤ فبطلت الدواوين والوزارة فكان كل من تولى امرة الامراء تحمل اليه الاموال فيتصرف فيها جميعاً كما يريد ويطلق للخليفة ما يريد وبطلت بيوت الاموال وكانت الشام اذذاك في يد محمد بن طغج ٠ وبينا كانت الشام تدافع القرامطة وتشتغل بفتن بني حمدان لتقع في ايدي الاخشيدية اصحاب مصر كانت بغداد في شغب وتعب واذ كانت هي العاصمة فاحر بالاطراف ان تكون اسوأ حالاً ٠

وهكذا اختلت احوال المملكة العربية وطرق الجباية فيها لما نال الناس من المغارم والمظالم والحكومات لا تعرف واجبها ولا تدري ان الجباية في الدولة اجرة الحماية ولذلك تأفف ابو العلاء المعري في النصف الاول من المئة الخامسة من ملوك عصره فقال:

	واري ملوكاً لا تحوط رعية	فعلام تؤخذ جزية ومكوس
وقال :	عجم وعرب دائلون وكلنا	في الظلم اهل تشابه وجناس
وقال :	ارى امراء الناس يمسون شرهم	اذا خطفوا خطف البزاة اللوامع
	وفي كل مصر حاكم فموفق	وطاغ يحابي في اخس المطامع
وقال ايضاً:	يقولون في المصر العدول وانما	حقيقة ما قالوا العدول عن الحق
	ولست بمختار لقومي كونهم	قضاةً ولا وضع الشهادة في رق
وقال :	بكل ارض امير سوء	يضرب للناس شر سكة
وقال :	ان العراق وان الشام مذ زمن	صفران ما بهما للملك سلطان
	ساس الانام شياطين مسلطة	في كل مصر من الوالين شيطان
	من ليس يحفل خمص الناس كلهم	ان بات يشرب خمراً وهو مبطان

وقال : وجدت غنائم الاسلام نهباً لاصحاب المعازف والملاهي

وقال : ملّ المقـام فكم أُعاشر امة امرت بغير صلاحها امراؤها

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

ومن قوله : فشأن ملوكهم عزف ونزف واصحاب الامور جباة خرج

وهمّ زعيمهم إنهاب مال حرام النهب او إحلال فرج

وبعد فقد استقر خراج فلسطين على عهد معاوية على اربعمائة وخمسين الف دينار واستقر خراج الأردن على مائة وثمانين الف دينار وخراج دمشق على اربعمائة الف وخمسين الف دينار وخراج جند حمص على ثلاثمائة وخمسين الف دينار وخراج قنسرين والعواصم على اربعمائة الف وخمسين الف دينار وفعل معاوية بالشام والجزيرة واليمن مثل ما فعل بالعراق من استصفاء ما كان للملوك من الضياع وتصييرها لنفسه خالصة واقطعها اهل بيته وخاصته وهو اول من كانت له الصوافي في جميع البلاد . قال البلاذري وكانت وظيفة الأردن التي اقطعها معاوية مائة الف وثمانين الف دينار ووظيفة فلسطين ثلاثمائة الف وخمسين الف دينار ووظيفة دمشق اربعمائة الف دينار ووظيفة حمص مع قنسرين والكور التي كانت تدعى بالعواصم ثلاثمائة الف دينار و يقال سبعمائة الف دينار . وكان ارتفاع الشام سنة ٢٠٤ هـ وهي اول سنة وجد حسابها في الدواوين بالحضرة لان الدواوين احرقت في الفتنة فتنة الامين على ما رواه قدامة — ثلاثمائة الف وستين الف دينار ارتفاع قنسرين والعواصم وارتفاع جند حمص مائتي الف وثمانية عشر الف دينار وارتفاع جند دمشق مائة الف وعشرة آلاف دينار وارتفاع جند الاردن مائة الف وتسعة آلاف دينار وارتفاع جند فلسطين مائتي الف وتسعة وخمسين الف دينار .

قال اليعقوبي ان خراج دمشق سوى الضياع يبلغ ثلثمائة الف دينار وخراج جند الاردن يبلغ سوى الضياع مائة الف دينار و يبلغ خراج جند فلسطين مع ما صار في الضياع ثلثمائة الف دينار وخراج حمص سوى الضياع ايضاً مائتي الف وعشرين الف دينار . وكان خراج الاردن زمن عبد الملك بن مروان مائة وثمانين الف دينار وكان خراج قنسرين على عهد المأمون اربعمائة الف دينار ومن الزيت الف حمل وخراج دمشق اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار وخراج الاردن سبعة

وتسعين الف دينار وخراج فلسطين ثلثمائة الف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثمائة الف رطل ·

ولما تغلب الموالي من الاتراك وتناثر سلك الخلافة وبقيت الدولة العباسية في الترف وقوي عامل كل جهة على ما يليه كثرت النفقات وقلت المجابي بتغلب الولاة على الاطراف قال المقدسي كانت الضرائب ثقيلة على قنسرين والعواصم زمن سيف الدولة بن حمدان فكان خراج هذا الاقليم ثلثمائة الف وستين الف دينار وعلى الاردن مائة الف وسبعون الف دينار وعلى فلسطين مائة الف وتسعة وخمسون الف دينار وعلى دمشق اربعمائة الف ونيف ·

وانت ترى ان الجباية في الشام كانت تختلف باختلاف العصور والادوار والتقلبات الجوية ومن الاراضي الخراجية والعشرية التي تدفع العشر لانها مما فتحه المسلمون عنوة قال ابو يوسف: كل ارض اقطعها الامام مما فتحت عنوة ففيها الخراج الا ان يصيرها الامام عشرية والشام في ذلك كمصر والعراق ولانها كلها فتحت عنوة وفي التتارخانية ان السلطان اذا دفع اراضي لامالك لها وهي تسمى الاراضي المملكة الى قوم ليعطوا الخراج جاز وطريق الجواز احد شيئين اما اقامتهم مقام الملاك في الزراعة واعطاء الخراج او الاجارة بقدر الخراج ويكون المأخوذ منهم خراجاً في حق الامام اجرة في حقهم وقال ابن عابدين ومن هذا القبيل الاراضي المصرية والشامية ويؤخذ من هذا انه لا عشر على المزارعين في بلادنا اذا كانت اراضيهم غير مملوكة لهم لان ما يأخذه منهم نائب السلطان وهو المسمى بالزعيم او التيماري ان كان عشراً فلا شيء عليهم غيره وان كان خراجاً فكذلك ·

قال الغزالي ان الاموال المنصبة الى الخزائن المعمورة اربعة اصناف الصنف الاول ارتفاع المستغلات وهي مأخوذة من اموال موروثة له والصنف الثاني اموال الجزية والصنف الثالث اموال التركات والصنف الرابع اموال الخراج فهذه هي الاموال المأخوذة واخذها جائز وبقي النظر في مصارفها وهي مع اختلاف جهاتها تحويها اربع جهات وفيها تنحصر مصالح الاسلام والمسلمين · الجهة الاولى المرتزقة من جند الاسلام الجهة الثانية علماء الدين وفقهاء المسلمين القائمون بعلوم الشريعة فانهم حراس الدين

بالدليل والبرهان كما ان الجنود حراسه بالسيف والسنان والجهة الثالثة محاويج الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال وطوارق الزمان عن اكتساب قدر الكفاية · الجهة الرابعة المصالح العامة من عمارة الرباطات والقناطر والمساجد والمدارس · وهذا وجه الدخل والخرج ·

ولم تكثر الاقطاعات الا في القرون الوسطى قال المقريزي : وكانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان تجبى اموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الامراء والعمال والاجناد على قدر رتبهم و بحسب مقاديرهم وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء وما زال الامر على ذلك الى ان كانت دولة العجم فغير هذا الرسم وفرقت الاراضي اقطاعات على الجند واول من عرف انه فرق الاقطاعات على الجند نظام الملك وزير السلجوقيين وذلك ان مملكته اتسعت فرأى ان يسلم الى كل مقطع قرية او اكثر او اقل على قدر اقطاعه فعمرت البلاد وكثرت الغلات واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من اعوام بضع وثمانين واربعمائة الى اوائل القرن التاسع ·

وكانت اقطاعات الشام اقل من اقطاعات مصر في القرن الثامن والتاسع وليس في الشام من يبلغ شأو اكابر الامراء المقدمين بالديار المصرية الا نائب الشام فانه يقاربهم في ذلك · ولخاصة الامراء المقدمين انواع من الانعامات ماعدا المقررات من المشاهرات والاكل والعليق والكساوي كالعقار والابنية الضخمة التي ربما أُنفق على بعضها فوق مائة الف دينار · قال التاج السبكي المتوفى سنة ٧٧١ : ومن قبائح ديوان الجيش الزامهم الفلاحين بالاقطاعات بالفلاحة والفلاح حر لا يد لآدمي عليه وهو امير نفسه وقد جرت عادة الشام بان من نزح من دون ثلاث سنين يلزم و يعاد الى القرية قهراً و يلزم بشد الفلاحة والحال في غير الشام اشد منه فيها وكل ذلك لا يحل اعتقاده والبلاد تعمر بدون ذلك بل انما تخرب البلاد بذلك لانهم يضيقون على الناس ·

وماعدا الاراضي التي كان الملوك يوغرونها اي التي يدفع عنها اربابها قدراً من المال مرة واحدة فتعفى من الخراج وماخلا الاقطاعات التي يستأثر بها اصحابها من ارباب الدولة ولا يؤدون عنها خراجاً وعدا ضياع كثيرة تعفى من الضرائب وعدا الصوافي واحدها

صافية وهو ما استخلصه السلطان لخاصته او هي الاملاك والاراضي التي جلا عنها اهلها اوماتوا ولاوارث لها — ماعدا هذا كان هناك نوع من الاراضي يسمى الجاه اي يلجأ صاحب الارض الى بعض الكبراء فيسجل ضيعته باسمه تعززاً به من عمال الخراج حتى لايجوروا عليه فتصبح الضيعة مع الزمن ملكاً لذاك الكبير ·

قال ابن ابي الحديد : ان من اهل الخراج من يلجئ بعض ارضه وضياعه الى خاصة الملك وبطانته لاحد امرين اما لامتناع من جور العمال وظلم الولاة وتلك منزلة يظهر بها سوء اثر العمال وضعف الملك واخلاله بما تحت يده واما للدفاع عما يلزمهم من الحق والتيسير له وهذه خلة تفسد بها آداب الرعية و ينتقص بها اموال الملك · وكان العادلون من الملوك يعاقبون الملتجئين والملجأ اليهم ولكن الناس يلجئون املاكهم عند دار باب الصولة وكم من مرة خربت سورية اوصقع كبير من اصقاعها بظلم ظالم من عمالها · ذكروا ان الخليفة الحاكم اعفى ولاية حلب من الخراج سنة ٤٠٧ لانها كانت ضعفت بالفتن المتواصلة وان الب ارسلان لما ولي امرة حلب رفع عن اهلها الكلف التي كانت مجددة عليهم وان نجم الدين ايل غازي بن ارتق (٥١٤) رفع المكوس عن اهل حلب والمؤن والكلف وابطل ما جدده الظلمة من الجور والرسوم المكروهة و بالغ الامير حصن الدولة معلى بن حيدرة بن منزو الكتامي الذي ولي دمشق سنة ٤٦١ في المصادرات وارتكاب المظالم فلم يلق اهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش ابن الصمصامة في ولايته مالقوه من ظلمه وسوء فعله فخربت اعمال دمشق وجلا عنها اهلها وخلت الاماكن من قاطنيها والغوطة من فلاحيها ·

والغالب ان المكوس والضرائب كثرت اواخر حكم العباسيين والعبيديين في الشام وبقي في البلاد رسوم كثيرة حتى ابطلها نور الدين وابطل ابق الصوفي الاقساط في دمشق وما كان يؤخذ في الكور من الباعة جملة وابطل صلاح الدين مثل مكس مكة وعوض اميرها بجلاب غلة تحمل اليه كل سنة وتعيين ضياع موقوفة عليها بالديار المصرية · قال ابن ابي طي : ان الذي اسقطه السلطان صلاح الدين والذي سامح به لعدة سنين آخرها سنة اربع وستين وخمسمائة مبلغه عن نيف الف الف دينار والفي الف اردب سامح بذلك وابطله من الدواوين واسقطه من المعاملين وكذلك فعل

اخوه ابو بكر بن ايوب فانه ابطل كثيراً من المظالم والمكوس وطهر بلاده من الفواحش والخمور والقمار وكان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصاً مائة الف دينار الا ان المكوس عادت فأُحدثت . ولما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠ ازال المكوس وكانت الولاية في اهلها قد ساءت وأسرفت واليد المتعدية قد امتدت الى اموالهم وأجحفت . قال العماد : اقتصر صلاح الدين في جميع البلاد على الرسوم التي ابيحها الشرع وهي الخراج والاجور والزرع . وكذلك كانت من قبل سيرة نور الدين محمود بن زنكي فانه منع ما كان يؤخذ من دمشق من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها وكان والده زنكي ينهى اصحابه عن اقتناء الاملاك ويقول مهما كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم الى الاملاك فان الاقطاعات تغني عنها وان خرجت البلاد من ايدينا فان الاملاك تذهب معها ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم املاكهم . قال ابو يعلى : تجمع قوم من السفهاء العوام وعزموا على التحريض لنور الدين على اعادة ما كان ابطل وسامح به اهل دمشق من رسوم دار البطيخ وعرصة البقل والاثمار وصانهم من اعنات شرار الضمان وصولة الاجناد وكرروا لسخف عقولهم الخطاب وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بيض وكتبوا بذلك حتى أُجيبوا الى ما راموا وشرعوا في فرضها على ارباب الاملاك من المقدمين والاعيان والرعايا فما اهتدوا الى صواب ولا نجح لهم قصد في خطاب ولا جواب وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا واكثروا الضجيج والاستغاثة الى نور الدين فصرف همه الى النظر في هذا الامر فنتجت له السعادة وايثار العدل في الرعية الى اعادة ما كان عليه فأمر باعادة الرسوم المعتادة الى ما كانت من اماتتها وتعفية اثر ضمانها وأضاف الى ذلك تبرعاً من نفسه ابطال ضمان الهريسة والجبن واللبن ورسم بكتب منشور يقرأ على كافة الناس بابطال هذه الرسوم جميعها وتعفية ذكرها . قال السبكي : وقد علم ان المكوس حرام فان ضم الوزير الى اخذها الاجحاف في ذلك وتشديد الامر فيه والعقوبة عليه فقد ضم حراماً الى حرام .

ومع كثرة احتياج البلاد للمال زمن نور الدين وصلاح الدين للاستعانة به على قتال الصليبيين كانت الجباية الى الرفق في الجملة ببلاد الشام فاطلق نور الدين المكوس والضرائب واكتفى بالخراج والجزية . واسقط صلاح الدين فريضة الاتبان المقسطة على

اعمال دمشق وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور والعقيبة ومزارعها ولما فتح حلب اطلق المكوس والضرائب وسامح باموال عظيمة « ومنها ما هو على الاثواب المجلوبة ، ومنها ما هو على الدواب المركوبة ، ومنها ما هو في المعايش المطلوبة » ومما كتب عنه من منشور انا شق الامراء من ثمن كيسه واهزل الخلق ، وابعدهم من الحق من اخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وكان هذان الملكان من ازهد الناس فلم يخلفا في خزائنها الا التافه وقد خلف الملك العادل ابو بكر بن ايوب اخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف في خزائنه وكان يحب ادخار المال ليصرفه حين الحاجة — سبعمائة الف الف دينار وخلف الملك الافضل ستمائة الف الف دينار عيناً ومائة وخمسين اردباً دراهم نقد مصر ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير وصندوقان كبيران فيهما ابرذهب برسم الجواري والنساء عدا الثياب والطرائف والقطعان والخيل والبغال والرقيق . وهذا مالا يمكن ان يحوزه ملك صغير الا بالضغط على الرعية ولو قليلاً لاستخراج هذه الاموال والتوقف في صرفها على مصالح الامة ومرافقها . وقد استعمل ملوك الطوائف الشدة في تكثير الجباية وكان ينال المنكر لها من العلماء اذى من ذلك ان فخر الدين بن عساكر انكر على الملك المعظم تضمين المكوس والخمور فعاقبه بان انتزع منه المدرسة التقوية والصلاحية بدمشق . وقد فعل عكس ذلك الاتابك طغرل الظاهري صاحب حلب فقد امر سنة ٦١٨ برفع الجبايات ومحو اسمها واهراق كل خمر في المدينة ورفع ضمانها وكتب الى النواحي . قال القفطي : وكان المحصول من ضمان ما اطلق ما مقداره مائتا الف درهم في السنة وان اضيف اليه ما يستغل في السنة الآتية من رخص الكروم وتعطيل ضماناتها وقلة دخلها بهذا السبب كان الف الف درهم او ما يقاربها .

ولم تعثر لدمشق عاصمة البلاد على ارتفاع لها خاصة وقد قال ابن ابي طي : حدثني كريم الدولة بن شرارة النصراني وكان مستوفي دار حلب يومئذ انه عمل ارتفاع سنة تسع وستمائة في الايام الظاهرية دون البلاد الخارجة عنها والضياع والاعمال فبلغ ستة آلاف وتسعمائة الف واربعة وثمانين الفاً وخمس مائة درهم قال : ومما

احطت به علماً في ايام الملك الناصر ان ارتفاعها على القاعدة في الارتفاع في آخر دولته مع حلوله بدمشق وخلوها منه كان على ما يفصل . ثم فصل الارتفاع فكان ستة واربعين صنفاً وسطر المجموع بـ ٧٦٣٠٥٦٠٠٠ درهم . وكان مسافة ما بيد مالك حلب في ايامه وهو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي من المشرق الى المغرب مسيرة خمسة ايام ومن الجنوب الى الشمال مثل ذلك وفيها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية ملك لاهلها ليس للسلطان فيها الا مقاطعات يسيرة ونحو مائتي قرية ونيف مشتركة بين الرعية والسلطان قال ياقوت الحموي: اوقفني الوزير الصاحب القاضي الاكرم جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي ادام الله تعالى ايامه وختم بالصالحات اعماله وهو يومئذ وزير صاحبها ومدبر دواوينها على الجريدة بذلك واسماء القرى واسماء املاكها وهي بعد تقوم برزق خمسة آلاف فارس مزاحي العلة موسع عليهم قال لي الوزير الاكرم ادام الله تعالى علوه : لو لم يقع اسراف في خواص الامراء وجماعة من اعيان المفاريد لقامت بارزاق سبعة آلاف فارس لان فيها من الطواشية المفاريد ما يزيد على الف فارس يحصل للواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم الى خمسة عشر الف درهم ويمكن ان يستخدم من خواص الامراء الف فارس وفي اعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بذخائرها وارزاق مستحفظيها خارجاً عن جميع ما ذكرناه وهو جملة اخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الاقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات الى قلعتها عيناً وحبوباً ما يقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم وقد ارتفع في العام الماضي وهو سنة ٦٢٥ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي تجبى فيها العشور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمائة الف درهم وهذا مع العدل الكامل والرفق الشامل بحيث لا يرى فيها متظلم ولا متهضم ولا مهتضم وهذا من بركة العدل وحسن النية اهـ .

ومن هذه النقول تعرف درجة الجباية والثروة في تلك العصور . ولما قبض الاتراك والجراكسة على زمام الاحكام في الشام في القرن السابع والثامن والتاسع كانت المكوس كثيرة جداً وزادوها هم وتفننوا في ضروبها حتى صعب احصاؤها وحفظها وكانت الخمور في سنة ٦٤٣ مضمنة والمكوس شديدة وكان الصاحب امين الدولة في مدة وزارته للملك الصالح اسمعيل حصل له اموالاً عظيمة جداً من اهل دمشق وقبض على كثير من

املاكهم وابطل الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ ضمان الحشيشة وامر باحراقها والغالب ان بعض الملوك لم يكونوا يستنكفون من اخذ الضرائب عن الخمور والمكيفات بل تعدوا ذلك في تلك الحقبة من الزمن الى اخذ الرسوم عن البغايا والمواخير فقد ابطل الظاهر برقوق في جملة ما ابطل من المظالم والمكوس في بر الشام ضمان المغاني اي المغنين والمغنيات في الكرك والشوبك . وضمان المغاني كان معروفاً في مصر فابطل سنة ٧٧٨ زمن الاشرف قلاوون ابطله من جميع اعمال مملكته وكان عبارة عن مال كثير مقرر على المغاني من رجال ونساء يؤدونه كل سنة الى الخزانة . وابطل الناصر قلاوون ضمان المغاني ايضاً وهو عبارة عن اخذ مال من النساء البغايا وذلك لو خرجت اجل امرأة تقصد البغاء ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة واقامت بما يلزمها من القدر المعين عليها لما قدر اكبر من في مصر ان يمنعها عن البغاء وعمل الفاحشة وكان يتحصل من ذلك جملة كثيرة من المال .

لا جرم ان دولة الترك والجراكسة في مصر والشام تشبه في كثير من الوجوه دولة الترك العثمانيين التي جاءت بعدها وكانت مراسيم ملوكها تصدر الحين بعد الآخر بابطال بعض الرسوم والضرائب ولكن مع هذا تجد من الامراء من كانوا يصادرون على ملايين من الدنانير دع سائر اسباب الثروة من ناطق وصامت . والدولة التي تخفف عن رعاياها بالاقوال ، والافعال على خلاف ذلك ، هي دولة سيئة ادارتها المالية فقد كان الملك المؤيد شيخ كثير المصادرات للرعية وهو الذي قطع داير النواب العصاة الذين اخربوا غالب البلاد الشامية واحدث في ايامه اشياء كثيرة من ابواب المظالم لما كان يخرج الى التجار بدء . والخروج الى التجار بدا او الحملات كان من جملة الاسباب التي تنبهاً لملوك الجراكسة ليسلبوا الناس اموالهم ولا تتكلف التجريدة اقل من نصف مليون دينار فاذا جرد السلطان في حياته عشرين تجريدة كان المصروف من ذلك في هذا السبيل عشرة ملايين لا تصل الى خزانة السلطان حتى يجبي مثلها من الرعايا المساكين .

وفي سنة سبعمائة استخرجت الحكومة مالاً عظيماً من جميع الاملاك والاوقاف بدمشق وظاهرها فكان من داخل دمشق حق اربعة اشهر واخذوا من الغوطة من كل قرية تكثر اموالها ثلث ضمانها واخذوا من القرى التي لزراعة القمح والشعير والقطن والحبوب على نسبة مغل سنة ثمان وتسعين وستمائة فعظم ذلك على الناس وهرب

خلق كثير واستخفى جماعة والذين وقعوا بايديهم قطعوا اشجار الباقين واباعوها حطباً بحيث اباعوا القنطار الدمشقي بثلاثة دراهم . فكان خراب الغوطة بهذا السبب ومن شدة الطلب وكثرة الظلم والجور .

وفي سنة ٧١٤ اصدر الملك المؤيد صاحب حماة امراً الى جميع نوابه ان لا يقبل احد حماية لاحد بل الكل متساوون في الحقوق ودفع ما عليهم وذلك لان الاسماعيليين كانوا في مصياف لا يدفعون لسلفه اموالاً بدعوى الحماية فأخذت الاموال من الجميع .

وفي سنة ٧٢٤ برزت المراسيم الشريفة الى نائب حلب بان يروك البلاد الحلبية اي يمسحها ويعين عليها مالاً كما فعل في البلاد الشامية فراكوا جميع البلاد الحلبية وجميع البلاد الشامية والحلبية والمصرية في الروك الناصري وابطل في هذه السنة مكوس الغلة بالشام وكان مبلغاً عظيماً يؤخذ من ثمن الغرارة ثلاثة دراهم ونصف .

ومن جملة ما أبطلوه في أدوار مختلفة من الرسوم وهو ما نورده مثالاً من حالة تلك الايام ما ابطله برقوق مما كان مقرراً على البرددارية في كل شهر من المال وما كان يأخذه السماسرة على الغلال والكيالة وعن الملح في عين تاب وعلى الدقيق في البيرة وما كان مقرراً لنائب طرابلس عندما يتولى على كل قاض من قضاة البر والولاة بغلة او ثمنها خمسمائة درهم . وأبطل المنصور قلاوون من جملة ما ابطل من المظالم وظيفة ناظر الزكاة وهو ان يؤخذ ممن عنده مال زكاته فان مات الرجل صاحب المال او عدم ماله يبقى ذلك القدر المقرر عليه في الدفاتر يؤخذ من اولاده او من ورثته او من اقاربه ولو بقي منهم واحد . وابطل الاشرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل باب الجابية بدمشق من القمح خمسة دراهم من المكس بل ابطل المكوس والضرائب عن سائر اصناف الغلة بجميع الشام وكان ذلك جملة تخرج عن الاحصاء . وتجد الى اليوم على السواري الاربع القائمة في مدخل جامع بني أمية بدمشق من الغرب اربع وثائق في ابطال المكوس كتبت كل وثيقة على سارية . تاريخ الاولى سنة ٨٦٣ على عهد قايتباي الحمزاوي كافل الممالك الشامية ابطل بها الرسم المقرر على الاسواق والطواحين وغيرها من المكوس بدمشق . والثانية كتبت سنة ٨١٥ وهي مما امر به الظاهر ابو سعيد بن جقمق بابطال المكوس على الاقمشة الحمصية وفرع الاردبة وفرع القطن وغيرها والثالثة

بتاريخ سنة ٨٥٢ نقول بانه ورد مرسوم شريف من مولانا السلطان الملك الظاهر ابوسعيد جقمق بابطال بعض المكوس ومنها التمر والعفص والسمك البوري والحنا والقماش المصري . قال وهذا في صحائف الدولة العادلة ! والرابعة فيها ذكر القلي والخروع والقلقاس وجلود الجاموس والماعز .

وكانت العادة ان تنقش على الرخام صورة الامر الصادر من الملك في رفع مثل هذه المظالم فنقش الملك الظاهر ابوسعيد ططر رخامة والصقها على باب الجامع الاموي في هذه المدينة بابطال ما كان لنائب الشام على المحتسب في كل سنة وكذلك ابطل في القدس ما كان يجبى لنائب القدس في كل سنة من المال ونقش ذلك على رخامة والصقها بباب الجامع الاقصى . وفي سنة ٧٤٦ كتب على باب قلعة حلب وغيرها من القلاع ما مضمونه : مسامحة الجند بما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الجندي وذلك احد عشر يوماً وبعض يوم في كل سنة وهذه مسامحة بمال عظيم وكتب بالمسامحة بمثل ذلك على حائط قلعة طرابلس وهذا التفاوت ايام الدوران ما بين السنين الشمسية والقمرية . وكثيراً ما كان يصدر الامر في زمن الجراكسة بجمع الذهب اذا قل او الفضة وتسليمها الى الملك ليضرب بها سكة ونقوداً وكثر في ايامهم غش الفضة حتى كان سعر الدرهم ينزل كثيراً ويصاب الناس في الشام ومصر بخسائر فادحة وكثيراً ما كانوا يخسرون ثلث اموالهم لان بعض ملوكهم كانوا يغشون الفضة وينزلون عيار الذهب فكانت المصيبة بالفضة والذهب لعهدهم كالمصيبة بالاوراق النقدية لعهدنا كل يوم في ارتفاع وانخفاض . ولا عجب فقد كانت الدول بعد عصر صلاح الدين وآله في هذه الديار تخبط بدون قاعدة مستقرة والدول التي ينصب لها ملك وهو لم يبلغ الحولين ويتولى المماليك امره لا يصدر منها اكثر من هذا كما وقع في سلطنة الملك المظفر ابي السعادات احمد بن الملك المظفر فاركبوه فرس النوبة وهو ابن سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام وهو يزعق من البكاء ومشت قدامه الامراء حتى دخل القصر الكبير وهو في حجر المرضعة وقبلوا الارض امامه ولما دقت الكوسات بهت الطفل وصار احول العين .

وكانت ايام الجراكسة فريدة بثروة عمالها والغالب ان الواحد منهم كان يأخذ رزق مئة الف اومئتي الف انسان على نحو ما كانت الحال في مصر قبل اربعين سنة ولكن

الثروة كانت شيئاً كثيراً في تلك الايام محصورة في الافراد فقد اخذ تيمور من دمشق لما جاءها سنة ٨٠٣ عدا المأكول والمشروب وغيره الف الف دينار فقام بها اهل دمشق من غير مشقة فلم يرض تيمور بذلك وقال ان المطلوب بحساب بلاده وهو عشرة آلاف الف دينار اوالف تومان والتومان عشرة آلاف دينار من الذهب فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم ولما حمل الى تيمور قال هذا المال لحسابنا انما هو ثلاثة آلاف الف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف الف دينار وظهر لي انكم عجزتم ثم اخذ اموال المصر بين حكام البلاد والتجار الغائبين عن دمشق وافرد على كل رأس من كبير وصغير عشرة دراهم شامية وافرد على اوقاف الجوامع والمساجد اجرة ثلاثة اشهر فتزايدت البلايا وكانت دمشق يومئذ احسن مدن الدنيا واعمرها على ماقال ابن تغري بردي ولذلك هان عليها ان تجمع عشرة ملايين دينار وهو اذا قيس اعتباره بنسبة هذه الايام لايقل عن مثني مليون ليرة ٠

رجع الى الرسوم والمكوس في القطر الشامي فقد تنوعت انواعها في عهد الجراكسة ومنها ما كان الخلف يلغيه على غير ارادة السلف فقد وضعوا على اهل محلة قبر عاتكة ومحلة القبيبات وقرية القابون في دمشق سنة ٨٣٢ رجالاً على جاري عادة الفتن فبلغ علاء الدين البخاري احد صلحاء المدينة فانكره وارسل الى النائب فأبطله وفي سنة ٨٣٦ ركب السلطان برسباي الاشرف الى صالحية دمشق لزيارة الشيخ علاء الدين البخاري فوعظه الشيخ وكلمه كلاماً غليظاً فرسم السلطان بابطال طرح السكر ونودي في المحرم سنة ٨٣٧ بمرسوم السلطان بان يبطل طرح السكر وان ينقش ذلك في الجامع الاموي والقلعة ودار السعادة قال الاسدي فنقش ذلك وعلى الظن الغالب انهم لايفوا بذلك لما علم من عادة السلطان ٠ وترى الى اليوم في جامع حلب الكبير عدة سوار في الفناء الرسوم فالسارية الاولى كتب عليها ان الملك دمرداش أبطل سنة ٨١١ مكس البيض من المملكة الحلبية ٠ الثانية أبطل فيها الملك جقمق سنة ٨٥٢ ما كان يؤخذ ظلماً من الدلالين في سوق الخراج ٠ الثالثة في سنة ٨٤٦ بابطال الملك الظاهر جقمق مكس الكتان ٠ الرابعة سنة ٨٤٦ بابطال ما كان يؤخذ من اهل سرمين ٠ الخامسة بتاريخ سنة ٨٥٧ بابطال مكس الزيتون من قرى عزاز ٠ السادسة سنة ٨٦٤ بابطال ماتجدد

على المصبغة بقلعة القصير عن كل خابية عشرة دراهم وان لا يؤخذ سوى درهم واحد عن كل خابية . وغيرها بابطال مكس السلاح في جميع سوق السلاح ومنها ما كتب سنة ٨٨٢ بابطال مكس الملح الداخل مدينة حلب ومنها بابطال ما على الدباغين بدير كوش من المكس ومنها ماصدر سنة ٨٩٣ بابطال ما كان يأخذ ناظر الجنة من سوق الحناوية ومنها ماصدر سنة ٩٠٢ بابطال ما كان يؤخذ من مكس القطن ومنها ماصدر سنة ٩٠٢ بابطال مكس المسك والزعفران ومنها بابطال مكس السماق ومنها ابطال ما هو معين عن ختم القماش العراقي والدمشقي والقدسي . ومعظم هذه الاوامر المسطورة على الاعمدة مشفوعة بجملة ملعون ابن ملعون من جددها او يعيدها الى غير ذلك من استجلاب اللعنات على من يجددها ومنها كان الله ورسوله خصمه يوم القيامة الى غير ذلك من القيود والعقود .

ويحق لنا ان نستنتج مما تقدم ان المكوس كانت تختلف باختلاف البلاد فما كان في طرابلس لا يجيء مثله في حمص وما كان في القدس لا عهد لحلب به وما في دمشق لا مثيل له في المدن الاخرى . وهناك أمثلة أخرى من هذا القبيل ففي مدخل جامع طرابلس امر بابطال المظالم المحدثات على اهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم والخبز والفراخ وغير ذلك وذلك في ايام ابي النصر شيخ سنة ٨١٧ وفي مدخل هذا الجامع أمر من صاحب طرابلس بابطال منع استيفاء رسم الدخان وما يستأديه من يكون متكلماً في ديوان الحجوبية الكبرى واستاد دارية الديوان الشريف من سكر وخل وغير ذلك ومن طرح الصابون والزيت والبلس (البوتاس) ومن جميع ما يحدث من ديوان النيابة والديوان الشريف وغيرها ومن جميع الكلف والمخادم الجارية بها العادة قديماً والحادثة مستقبلاً وعلى حائط مدرسة الشمسية امر كتب سنة ٨٢٦ بابطال الملك اشرف برسباي ما على البلاد الطرابلسية من الخيل بالبريد ورسم الملك الاشرف بابطال التحكير بالخانات والمكوس على الحطب والتبن وغيره وجهر بالنداء بذلك بدمشق بالجامع الاموي ونقش به رخامة وفي سنة ٨٤٦ سومح عوام القدموس بما على انوال الحياكة وخراج الكروم بالقدموس مسامحة مستمرة على الدوام ونقش رخامة على حائط الجامع الكبير وفي سنة ٨٥١ ابطل ما تجدد على عوام القدموس

والكهف والمنيقة والعليقة والخوابي من الاعمال الطرابلسية من الثياب الخام ودورة الاستاددار · وفي مدرسة طرابلس رسم بابطال ما على النحيرة (المسلخ) بطرابلس من الموجب لديوان النيابة وقدره في كل يوم ثمانون درهماً و بابطال معلوم كتابة السر احد وعشرون درهماً ومعلوم الحجوبية ثلاثة عشر درهماً وفي حائط تلك المدرسة ايضاً كتابة بتاريخ ٨٨٨ بابطال المظالم وهي الطروحات التي كانت تطرح من التجار والمتسببين بمدينة طرابلس وذلك عن الصابون والكرم والزيت وغير ذلك وفي سنة ٨٨٨ أبطل مكس الدواليب الحرير والقصابة بالكهف والقدموس وابطل مكس نحيرة البقر والجاموس وقطع الضأن وقرم الاساكفة بالقدموس والخوابي وعلى ذلك الحائط كتب سنة ٩٠٩ بابطال المظالم والحوادث عن فلاحي الوقف ان لا يكرءبوا فلاحي الوقف الا الجزية الشرعية والمال المقرر وفي سنة ٨٢١ ابطل ضمان المكس بسوق العطار بن بطرابلس الشام و كتب على حائط مدرسة الرفاعية سنة ٨٧٠ ان لا يؤخذ من تجار حماة وغيرها من السمسرة والترجمة الا ما جرت به العادة القديمة وهي على الالف عشرة دراهم لاغير وان لايتناول الاجرة الا من باشر العمل بنفسه من ابناء السبيل ومنع النصارى من الترجمة والسمسرة وان لا يؤخذ شيء ممن باع سلعته بغير دلال · والغى قانصوه الغوري المكس عن حاكة حمص ·

و بذلك رأينا ان الغاء المظالم والمغارم كان على اشده في آخر ايام الجراكسة وكان من اسوإ ملوكهم شعبان قال المؤرخون فيه انه كان متطلعاً الى جمع المال واقام ديواناً برأسه للبدل وفتح باب قبول البدل في الاقطاعات والوظائف وجعل لذلك ديواناً قائماً بالذات وكان يعين البدل في المناشير وهو مبلغ ثلثمائة درهم فما فوقها والخلاصة فان الجراكسة تفننوا في طرح المكوس ومن غريبها في ايامهم مكس القرعان وذلك ان شخصاً من المماليك الجراكسة كشف رأسه في سنة ٨٣٠ بين يدي السلطان فاذا هو اقرع فضحك منه السلطان فقال ذلك المملوك: اجعلني والي القرعان يامولانا السلطان فاجابه السلطان الى ذلك واخرج له مرسوم سلطاني به وان يكون شيخ القرعان وخلع عليه خلعة فصار يدور في الاسواق والحارات و يكشف رؤوس الناس فمن وجده اقرع يأخذ منه ديناراً حتى اعيان الناس فضج منه الناس وشكوه للسلطان فضحك ونادى

بالامان للقرعان وان كل شيء على حاله وكسب ذلك الرجل في هذه الحركة مالاً عظيماً ·

***

انتهى دور الجراكسة المحزن المرمض واملت الامة بدخولها في حوزة الترك العثمانيين ان ترى ايام رغد وسعادة لانها دولة جديدة تتحامى ما امكن الاغلاط التي وقعت فيها الحكومة قبلها ولكن جاء الامر على العكس من ذلك على ما تراه · لما فتح السلطان سليم العثماني الشام ومصر بعد ان كان في ضائقة شديدة اضطر معها الى الاستدانة من بعض التجار قال وقد ملأ خزائنه من اموال الجراكسة : اني ملأت الانابير بالذهب وكل من يستطيع من اخلافي ان يملأها دراهم فليختم عليها بطابعه والا فتبقى الخزينة السلطانية مختومة بطابعي · هذه كانت وصيته ولذلك كانت خزينة « الاندرون » مختومة بخاتم سليم · لاجرم ان اكثر فتوح السلاطين العثمانيين كان السائق اليها حب الغنائم والنهب ولذلك كانوا يرجحون فتح البلاد في جهات اوربا على الفتح في آسيا لان تلك كانت اغنى في نظرهم وعلى شيء من الانتظام في الجملة تسد مغانمها نهمة جيوشهم وخواصهم وفيها من الجمال ما يكافئ الاتعاب فيتمتع السلطان واهل دولته بمن شاؤا من بنات المغلوبين وبنيهم ولذلك جاء النسل التركي في الاستانة فقط مزيجاً من الروم والكرج والبشناق والارناؤد والرومان والصرب والبلغار والمجر والطليان والروس والبولونيين وغيرهم من امم اوربا ·

ولما فتح السلطان سليم دمشق (٩٢٢) فوض نيابة دمشق وما اليها من بلاد الشرق الى عريش مصر الى جان بردي الغزالي على مال معين قال ابن طولون قيل قدره مائتا الف دينار وثلاثون الف دينار · وذكر النجم الغزي ان هذا السلطان تفنن في ضرب المكوس ومن جملتها المكس على المومسات فتأسف العقلاء واكبر الامر اهل الدين والورع · ومن وصل به الطمع في مال الامة الى هذه الدرجة وهو في مبدإ تغلبه على البلاد يجب عليه ان يريها شيئاً من العدل ينسيها مظالم الدولة الجركسية فحدث ما شئت ان تحدث عما احدثه اخلافه من البدع في الارتفاعات بعده حتى قال مؤرخو الترك انفسهم ان خراج ايالة الشام كله كان يعطي للمرأة السابعة من نساء السلطان ابراهيم وكان الجابي يأتي دمشق فيجبيها بنفسه لان نساء القصر لم يكن يأمن احداً

من الولاة والمتصرفين على جبايتها من الأمة . فتأمل ايالة بل مملكة كهذه تعطى جبايتها لامرأة واحدة من نساء القصر تنفقها على زينتها وازيائها كيف تكون مجابيها عادلة مصروفة في سبلها !

وذكر مؤلفو الترك ان اقطاع الشام كله كان مسانهة مليون اقجه (١) ولامير لوائها من مئتين الى ثلثمائة الف اقجه وفيها ١٢٨ زعامة و ٨٦٦ اقطاعاً وعدد جندها ٢٦٠٠ من الفرسان . وكانت ايالة طرابلس وارتفاعها السنوي خمسة يوكات (٢) ولديوان الخاص من ٢١٠ الى ٣٩٠ الف اقجه وحاميتها من الفرسان ١٤٠٠ وايالة حلب وخراجها ثمانمائة وسبعة عشر الف اقجه وديوانها الخاص يرتفع من ٢٠٠ الى ٥٠٠ الف اقجه وفي هذه الايالة ١٠٤ زعامات و٧٩٩ اقطاعاً وحاميتها ٢٥٠٠ فارس يخرج منها عشرة يوكات كان يدفعها اولاد رمضان حكام اذنة .

وكانت الدولة تستوفي نصف ايراد الشام على عهد السلطان سليمان الاول اعني في سنة ٩٩٩ هـ ١٥٥٣ م ٢٠٠٫٠٠٠ دوكا والدوكا عشر اقجات والبارة ثلاث اقجات وتصرف الباقي على وقاية البلاد ومحافظتها وكذلك كانت تفعل في مصر تأخذ نصف ريعها وتصرف النصف الآخر في حمايتها .

(١) كل ثلاث اقجات بارة وكل ٤٠ بارة قرش والكيس خمسمائة قرش ذهباً او فضة . وذكر لامنس ان القرش كان يساوي في القرن الثامن عشر في سورية نحو خمسة فرنكات وفي منتخبات الجوائب ان نقود الدولة العثمانية كانت قبل القرن الحادي عشر للهجرة من صنف الدوكات المنسوبة الى البندقية التي كانت مملكة عظيمة مستقلة وكان وزن كل مئة دوكات ذهباً ١١٠ دراهم اما نقود الفضة فكانت من صنف الريال الجرماني الذي كان يجلب من المانيا وكان وزنه تسعة دراهم وقيمته ٨٠ اقجه . واول من استعمل الاقجه السلطان بايزيد الاول وذلك في سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠) اما استعمال البارة فاشتهر في سنة ١٠٦٦ هـ وفي سنة ١٠٩١ قر الرأي ان كل ٤٠ بارة تحسب قرشاً وكانت البارة تساوي ثلاث اقجات اما الكيس الذي كان يساوي ٥٠٠ قرشاً ذهباً او فضة على حساب المعاملات فكان يساوي الف دوكات .

(٢) اليوك مبلغ خمسمائة الف قرش .

ومابرحت الحال المالية في هذه الديار في ادبار وهي تبع للوالي الذي يتولى زمام الحكم فقدذكروا ان والي الشام رفع في سنة ٩٩٤ المظالم وأبطل المكوس الزائدة فابطل مكس الخمارات وكان هذا المكس لكل من كان حاكماً على بر الشام ثم ابطل اليسق من باب صاحب الشحنة. واليسق كبير الانكشارية يلتزم هذه الوظيفة بمال كبير يدفعه للآغا وللباشا ويكون في باب صاحب الشحنة يقطع الجرائم و يدفع المال عن اربابة بريع دينار آعثمانياً كل يوم فاذا كانت الجريمة خمسين ديناراً مثلاً دفعها عمن ألزم بها وله ربحها في كل يوم خمسون عثمانياً فاذا بقيت عليه اياماً حتى يسعى في تحصيلها تضاعفت عليه حتى لا يقدر على الوفاء والتخلص منها فان كان له اسباب او عقار اووقف اوغير ذلك باعها أوملكها لذلك اليسق كيفااراد فادى ذلك الى تمول الانكشارية وتملكهم كثيراً من الاملاك وابطل اليسق من باب القاضي ورتبت الانكشارية مالاً على البضائع المجلوبة. وابطلت المكوس التي كانت تؤخذ على اللبن الداخل الى دمشق وعلى الموازين.

وفي سنة ١٠٠٤ طالبت الحكومة الرعايا بعوارض سنتين جديدة وعتيقة وطالبوا الامرائيليين بمال عظيم. وهذا كثيراً ما كانت تعمداليه حتى الى عهد قريب تطلب المال قبل استحقاقه وتسلب اموال الصيارف والمرابين بحجة الاستدانة منهم وحدث ان بعض الامراء والملوك صادروا النصارى واليهود خاصة كما فعل الملك الاشرف قايتباي فصادرهم مرتين في ايامه. وفي سنة ١٠٠٨ تولى السيد محمد باشا ولاية دمشق وامر بتغيير المعاملة فيها وجعل كل سلطاني بثمانين قطعة جديدة زنة كل قطعة قيراطان ونصف قيراط وهبطت الاسعار وحصل الرخاء. وذكر بعضهم ان فخر الدين المعني كان يجبي تسعمائة الف ليرة ويزيد ذلك بزيادة التجارة فكان دخل صيدا يأتي الدولة سنوياً بمائتي الف ليرة. ويدفع من جبايته للسلطان ثلاثمائة واربعين الف ليرة فقط وكان الامير بشير كالامير فخر الدين يحب البذخ وقد ضاعف خراج لبنان اربعة أضعاف. وغرّم احمد حافظ باشا سنة ١٠١٨ وكان كافل الشام اموالاً طائلة وصادر جماعات في دمشق واخذ اموالاً منهم بغير حق ولذلك كانت المصادرة عامة تتناول من في صندوقه مال اياً كان مذهبه.

وهكذا انقضى القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر في سلسلة مغارم

ومظالم فقد تولى احمد باشا الجزار دمشق لاول مرة سنة ١٢٠٠ وكانت مدة حكمه فيها خمس سنين لم يرتح شهراً واحداً من طلب المال ظلماً ومن طرح النقود وطرح البضائع المتنوعة ينهبها من جهات ويطرحها على أخرى باسعار زائدة ومن مظالمه انه اذا وجد قتيل في احد الانهار يلحقون جميع القرى التي تشرب من ذاك النهر ويأخذون منهم مالاً غزيراً وكان لا عمل له الا القبض على الاغنياء ومصادرتهم على ابشع صورة فصدق فيه قول الشاعر :

قد بلينا بامير ظلم الناس وسبح فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويذبح

قال ابن آق يبق في حوادث سنة ١٢١٧ شغل الشام بالظلم واكامية الباشا من البلاد واشتغل حسن آغا بالظلم في دمشق وارهاق القرى بالطرحة والاكاميات واقراض الذخائر ومعاونة الجردة وغير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها اثر في السابق . وفي سنة ١٢٤٧ كانت محاولة سليم باشا والي الشام وضع «مصريتين» ضريبة على كل سكرة اي عقار في دمشق من جملة اسباب قتله حرقاً مع جماعته .

وقال ابن عابدين : ان غالب الغرامات الواردة على القرى في هذا الزمان (اي في اوائل القرن الثالث عشر) ليست لحفظ املاك ولا لحفظ ابدان وانما هي مجرد ظلم وعدوان فان غالب مصارف الوالي واتباعه وعمارات منزله ومنزل عساكره ومايدفعه الى رسل السلطان الواردين باوامر ونواهٍ وامثال ذلك كله يأخذه من القرى ويسمون ذلك بالذخيرة تؤخذ في بلادنا في السنة مرتين ويزيد فيها دراهم كثيرة رشوة لاعوانه وحواشيه من اعيان البلدة وقد جرت العادة بقسمة ذلك كله على عدد فدن القرية وتارة يقسمونه على مقدار حق الشرب بالساعات الرملية فمن كان له فدان مثلاً يؤخذ منه مايخصه اومن له ساعة يؤخذ منه مايخصه سواء كان رجلاً اوامرأةً اوصبياً وكذا يجعلون منها على رقاب الرجال الساكنين في القرية الذين لاملك لهم فيها .

ومما اخترعه العثمانيون « الزعامة » وهي عبارة عن قرى يقطعها من يعطاها وتخمن على الاقل بعشرين الف درهم عثماني كل سنة واخترعوا العوارض وهي مظلمة سلطانية تؤخذ من البيوت في الشام في كل سنة ويقال انها من محدثات الملك الظاهر بيبرس اشار اليها الاكرمي بقوله :

لحا الله ايام العوارض انها هموم لرؤياها تشيب العوارض
يضيق لها صدري واني لشاعر ضليع وبيتي ما عليه عوارض

قلنا وهذا من جملة الدواعي التي انتقلت بها في القرن الماضي قرى ومزارع كثيرة في سهول الشام وجباله الى ارباب النفوذ فخرج اهلها عن ملكها ورضوا بالاستعباد على ان يكونوا احراراً مالكين وذلك فراراً من ظلم الحكومة وتخلصاً من الضرائب الثقيلة التي لا تحملها نفس بشرية ، وكثيراً ما كان الشيوخ يقصون علينا قصة الطبلة يوم تدق في قريتهم ويجيء اعوان الظلمة لاخذ المظالم من اهلها وهناك كنت تسمع من المؤلمات وضروب الظلم في طرق الجباية ما تسأل الله معه السلامة وتستغرب كل الغرابة من جنس هذا الناطق المتمرد ومن طرز ادارة العثمانيين التي تعرف كيف تستنزف دماء الامة واموالها وقلما فكرت فيما يجلب لها الثروة ويحفظ عليها الحق ويقيم بينها قسطاط العدل .

ولما فتح جيش محمد علي باشا المصري بلاد الشام كان الاجنبي اذ ذاك يعطي رسوم كمارك وضرائب اقل مما يدفع الوطني بكثير ولذلك اضطر بعض التجار الى ابتياع حماية الاجانب حتى يستطيعوا ان يتجروا وهذا كان مبدأ اشتداد الامتيازات الاجنبية . كتب اللورد دوفرين الى حكومته سنة ١٨٦٠ يقول : في مقدمة اسباب ضعف الادارة العثمانية في الشام ان الباب العالي كان يعتبر هذه الولاية منذ بضع سنوات كأيالة اجنبية يقتضي الانتفاع منها ما امكن ولذلك طرح منصبها في المزاد ولم يول عليها الا الزائد الاخير ومن الطبيعي ان كل وال جديد لم يكن يفكر الا في تعويض ما دفعه من المال ، وبجمع الثروة فيسلب اهالي ولايته لدن وصوله مبتزاً منهم الاموال ومثقلاً كاهلهم بالضرائب الجديدة . وبعد ان ذكر كيف كان الوالي يرشي جماعة الاستانة لتستقيم له الولاية مدة يواصل فيها استنزاف الاموال واملاء جيوبهم بها . قال : فنشأ عن ذلك مظالم لا تطاق وابتزاز اموال لا تحصى وتعاقب على الايالة ولاة غير اكفاء للمنصب جائرون مرتشون طامعون في جمع المال لا تشبع بطونهم خالون من ادنى اهتمام بالمصلحة العامة اهـ .

تبدلت الاوضاع الادارية في هذا القطر مرات على عهد العثمانيين وفي سنة ١٢٧٢هـ

كانت تقسم الى ايالتين ايالةدمشق وايالةصيدا ودخل الاولى التي هي عبارة عن دمشق ومرج الغوطة ووادي العجم ووادي بردى وجبل قلمون وحماة وحمص وبعلبك ومعرة النعمان وعجلون والبقاع وحاصيبا وراشيا وحوران وجبل الدروز وحصن الاكراد والقنيطرة وابكي قبولي من الخراج والاعشار والبدل العسكري والرسوم المختلفة ٤١٨٠٥ اكياس يضاف اليها ٩٠٠ كيس كانت تدفعها الخزينة الى الاوقاف وذلك عدا ما كان يؤخذ من حماة وحوران وحمص وجبل الدروز وحصن الاكراد ومعرة النعمان وعجلون عيناً من الاعشار والرسوم وهو ١٨٧٥٩ اردباً من القمح و٢٥٨٨٤ اردباً من الشعير و٩٥١ من الذرة و١٣٣٩٣ اوقة سمن و٣٢٠ اوقة حرير و١٣٠٠ رأس غنم . وكان دخل ايالة صيدا وقائم مقاميتي لبنان الدرزية والمسيحية ويدخل فيها بيروت وطرابلس واللاذقية ونابلس وعكا وحيفا وساحل عتليت والاقضية الشمسية ٣١١٥٤ كيساً ماعدا المستوفى عيناً من القمح والشعير والذرة والكرسنة والسمسم والعدس والسمن والزيت والفيالج والقطن .

وكان مجموع دخل ايالة دمشق ١٨٥ الف ليرة على ذاك العهد وايالةصيدا ٥٠ الفاً وكان لبنان يؤدي للدولة سنوياً ٣٥٠٠ كيس جزيةً وخراجاً . كتب المستر برانت قنصل انكلترا في دمشق الى سفيردولته في الاستانة عن حالة ايالةدمشق في ٤ حزيران ١٨٥٨ من كتاب ما يأتي : «ان الضرائب كانت باهظة على عهد الحكومة المصرية على ان استتباب الامن وعدم بخل الحكومة على الشعب كانا يكفيان لاقناعه ان في وسعه تحمل وقرها دون ان يرزح تحتها وكان الدخل يدار بنزاهة واقتصاد ولدى الحكومة المصرية جيش وافر العدد وتقوم بكل نفقات ادارة الايالة المتوقع ازديادها تدريجاً اما حالة اليوم (اي على عهد الحكم التركي) فهي على عكس ما تقدم من جميع الوجوه فالضرائب عبء ثقيل لا يطاق(١) مع انها أقل من ذي قبل والامن مفقود والدخل يقل كل يوم لاهمال القرويين حراثة الاراضي وكل ما يتم جمعه ينفق باسراف او يسرقه

(١) قال بيريه ان الضرائب التي وضعها ابراهيم باشا المصري على السوريين كانت شديدة وما كان القوم ليتحملوها لو لم يكونوا من عناصر واديان مختلفة قلنا ومن حسنات ابراهيم باشا انه ابطل الرشى والاصطناع وابطل المصادرات وقرر حق التملك .

الموظفون والاموال اللازمة لادارة الحكومة تطلب من الاستانة وصار من الجلي ان المالية تزداد اختلالاً وفساد الادارة مستمر ·

«كانت حكومة محمد علي فرضت على كل ذكر ساكن في المدينة ضريبة جديدة تدعى ضريبة الفردة تختلف بين ١٥ قرشاً الى ٥٠٠ قرش حسب حالة كل انسان وكان مجموعها يبلغ عشرين الف ليرة انكليزية ولما عاد الاتراك الى البلاد لقوا مقاومة شديدة في جبايتها فابدلوها بضريبة على البيوت تستوفى دون حدوث اضطراب كبير او قتال على ان مجموعها لا يتجاوز العشرة آلاف ليرة انكليزية وقد جرت بعض احتكارات وفرضت ضرائب جديدة على البنايات المحدثة للاستعاضة عن الدخل الذي اسرفوا به وكانت الحكومة المصرية تستوفي نحو ٥٥ الف كيس ولا يتأخر لها بارة وهذا المبلغ يساوي ٢٧٥ الف جنيه فهبط الدخل اليوم الى ٣٥ الف كيس قيمتها ١٤٣ الفاً وخمسمائة جنيه يجبى منها عشرة آلاف كيس ويبقى زهاء ٤١ الف جنيه في ذمة الاهالي وهذه يتعذر جباية قسم منها ·

هذا ما قاله رجل غريب عن البلاد واصرح منه ما كتبه مدحت باشا ايام كان والياً على الشام بتاريخ ١٧ آذار ١٢٩٥ شرقية من لائحة في سياسة الشام واموالها ومما قاله : ان الاوامر التي تصدر من الاستانة الى الشام محصورة في طلب المال والجند فقط وبذلك بطل العمل بالقانون والاصول المرعية وفتحت ابواب سوء الاستعمال وماعدا بعض الرجال من الموظفين اصبح كبار العمال وصغارهم لايلتفتون الى غير مصالحهم فطرأ على المعاملات خلل وبسوء تأثير ذلك فسدت اخلاق الناس وكثر القتل والنهب والغارة على الاموال والعروض في كل مكان واختل الامن كل الاختلال · قال واذا ألقينا نظرة على واردات الدولة نرى الخراج والاموال قد نزل ارتفاعها الى النصف وخربت مسائل الاعشار البلاد وقلّ البدل العسكري وحدث ماشئت عن بلية «القائمة» فمن اجل سقوط اسعارها نزلت الواردات في العام الماضي الى النصف وبقي النصف الآخر في باب النفقات بدون تسديد ·

وكلام مدحت باشا يشمل ولايتي سورية وبيروت لان الولايتين في عهده كانتا ولاية واحدة فكلامه يتناول معظم سورية وفلسطين وبالطبع كانت فلسطين اقصى

الجنوب وحلب في اقصى الشمال على هذه الصورة او اشد لان روح المملكة كانت واحدة وهي المركزية الشديدة وكانت في الدور الذي سلف لامركزية ولكنها اشبه بالفوضى . ولم تتغير الحالة المالية عن عهد مدحت باشا بل ظلت تعسة الى آخر سقوط الشام ورحيل الاتراك عنها وان كانت الارتفاعات زادت في العقود الاربعة الاخيرة لانتشار الامن في الجملة بتأسيس المحاكم النظامية التي قضت على الاشقياء بعض الشيء وكفت البادية عن العيث في البلاد القريبة من المعمور بعد ان كانت تأتي لاخذ الخوة من القرى القريبة من الحواضر الكبرى ولزيادة النفوس بقلة الاوبئة وتخفيف بعض البطائح وسد العجز المالي ولا سيما في الساحل بما ادخله المهاجرون الى اميركا وغيرها من ابناء الشام فكانوا وما زالوا يحملون الى هذه الديار مبالغ طائلة تدخل في تحسين الزراعة والصناعة وتزاد بها الحركة التجارية . وكانت الدولة العثمانية كلما سلخت عنها الولايات النائية تزيد في مقدار الجباية والمظالم على بلادها فالدخل ينقص على الدوام بسلخ الممالك من جسمها والخرج يزيد لان اهل الاستانة عالة على اهل الولايات يشقى هؤلاء لينعم اولئك و يبنوا القصور و يتمتعوا بالولدان والحور .

ولم يكف الحكومة العثمانية زيادتها في العشور حتى بلغت ثلاثة عشر الا ربعاً في المئة تؤخذ من الحاصل والمحصول عدا ما يلحقها من ظلم الملتزمين والعشارين وهو قد يبلغ عشرين في المئة في بعض الانحاء ولم يكفها زيادة الاموال والضرائب الاخرى الى ضعفين بل الى اضعاف ما كانت قبل عشرين سنة بل زادت في العشر والخراج زيادة مهمة مدة الحرب العامة دع ما احدثته من التكاليف الحربية واستلبته من اموال الفلاحين وعروضهم ومواشيهم ولولا ارتفاع الاسعار ودخول ملايين من الليرات التي اقترضتها الدولة من المانيا لتنفقها على الجيش الذي جمعته وجلبته من القاصية لولا ذلك لبقي عشرة في المئة فقط من قرى هذا القطر عامراً ولأضحت الحال اتعس مما كانت قبل ستين او سبعين سنة ايام كان الفلاحون لا يستطيعون زراعة اراضيهم لقلة الايدي العاملة فيجلبون أناساً من العبيد يستخدمونهم في الحرث والكرث .

وبعد الحرب كثرت الجباية والمغارم في بلاد الشام خصوصاً لقلة الذهب في الايدي والاستعاضة عنه بالورق النقدي فزادت الجباية في بعض المحال اربعة اضعاف فعلت

الشكوى واخذت اسعار البياتات تعلو وتسفل في المدة القليلة والمقرر على الرعايا ينزل ويرتفع على تلك النسبة فتضرر الناس من ذلك وكان البلاء في ذلك عاماً في كل البلاد التي لم يستقر سعر ورقها المالي على وتيرة واحدة اولم تواز قيمته قيمة الذهب واضطرت حكومات الشام الى الاتفاق اكثر من ذي قبل على صغار عمالها وكبارهم لئلا تترك لهم مجالا الى الرشي والتلاعب بحقوق المساكين والضعفاء وان تقوم ببعض الاعمال اللازمة في الحكومات المتمدنة فانفرجت مسافة الخلف بين الدخل والخرج ثم تعادلا واخذت الحكومة تفكر في الغاء طريقة الاعشار والاستعاضة عنها بمال مقطوع وزادت الضرائب على العقارات بنسبة اجورها ·

لاجرم ان الاموال اذا جبيت كما تجبى في البلاد المتمدنة بالرفق وبحسب طاقة المكلفين يتوازن مع الزمن الدخل والخرج بل قد يزيد الاول على الثاني اذا وقع الاقتصاد في وجوه النفقات كأن تكتفي الشام بما تخرجه لها ارضها ويفيض عليها ما تصرفه على الخطوط الحديدية ورصف الطرق وتعبيدها في المدن وبين القرى وعلى الاسلاك البرقية والكهربائية والهاتفية وتخفيف البطائح واصلاح طرق الري واقامة معالم العلم ودور التهذيب · وكل مملكة تسد عجزها بالاقتراض ولا تستثمر بايدي رجالها ما في سطحها وبطنها من الخيرات يكون مصيرها الى الاستعباد الاقتصادي وهو ابشع ضروب الاستعباد في هذا العصر · وما لا تستطيع ان تعمله لنفسك ليس في مكنة غيرك ان يحمله اليك · وكل امة لا تفرض الجباية بالعقل ، ولا تجبيها بطرق العدل ، ولا تبذل على المرافق العامة منها الفضل ، تُخذل بل تضمحل ·

محمد كرد علي

القضاء في الاسلام[1]

رأيت ايها السادة ، ان يكون الحديث في هذا الاجتماع ، عن القضآء في الاسلام لاسباب اربعة :

اولاً — ان القضآء هو افضل مظهر يتمثل به العدل · وهل العدل الذي جعل به ارسطو « قوام العالم » الا ركن الملك الوطيد ، لايثبت له بنيان الا عليه · ولا يستقيم للدول امر الا معه · ولا سيما آن تأسيسها واوائل نشأتها كحالتنا الحاضرة · فاذا لم يكن قضاء حر ، مستقل ، نزيه · فلا عدل · واذا لم يكن عدل ، فلا سبيل الى البقاء ·

ثانياً — ان هذا القضاء كان منذ كان · الى ان جعلوا يخرجونه عما وضع له · ويتأولونه على غير ما أريد به ، خير قضاء عرفه الناس · ممثلاً لروح العدل ، متكيفاً مع المكان ، متمشياً مع الزمان · وكان قضاته حتى منتصف العصر العباسي ، انزه قضاة عرفهم التاريخ ، لامستثنيا احداً من مشارق الارض ومغاربها · في حاضر الايام وغابرها ·

ثالثاً — ان النهضة العلمية الاخيرة ، قد حدرت اللثام الذي كانت سدلته القرون الوسطى — قرون الخمول والجمود — على حضارتنا السابقة ، فعرفنا كثيراً عن اسلافنا مما يدعو الى الاعجاب والمفاخرة غير · ان اكثر ما عرفناه فملأنا به الكتب الحديثة ، كان في الادب ورجاله · والآداب الرفيعة وذويها ، وما الى ذلك · اما القضاء ورجاله فقد ظل خبرهما مجهولاً عندنا ، الا قليلا مما لايغني الغناء كله ، بل مما قد تكون معرفته شراً من جهله · فاذا كانت الناشئة اليوم ، تعرف رجالات الادب · والتاريخ في العرب · فحري بها ان تعرف شيئاً

(١) ألقيت هذه المحاضرة يوم الجمعة ٢٣ ذي القعدة ١٣٣٩هـ و٢٩ تموز ١٩٢١م ·

صحيحاً عن القضاء وتاريخه ورجاله . وكيف كان ، والى اية حال صار . اتماما للتأدب وخدمة للتاريخ .

رابعاً — انا وان كنا نعلم ان الامجاد التاريخية القديمة ، لا تكفل للامة ارتقاءها وتعزيز مكانتها ، ان لم يمض الابناء على سنن الآباء ، و يضيفوا الى تليد المجد طريفه . فلسنا نكر ان التحدث بالمجد ، داع الى النشاط . باعث للهمم من مراقدها . نزاع بالنفوس — وقد عرفت سابق عزها و باسق غرسها — الى الاقتداء بالسلف الصالح ، والجري على آثاره . ولعل النبي العربي الكريم لم يرد غير ذلك يوم قال : « الشرف معوان » .

***

ولا ارى لي بداً قبل ان اخوض في هذا الموضوع من ان اقول : ان هذا القضاء قائم بنفسه ، لاصلة له البتة بالشريعة الرومانية . اما الذين يذهبون الى ان الشرع الاسلامي ، هو في جملة الشرائع التي استمدت اصولها واحكامها من هذه الشريعة . فانما يذهبون مذهباً لا تنهض به حجة ، ولا يؤيده دليل . ومع هذا فقد اصاب مدعاهم شيئاً من القيمة في بعض العقول والنفوس . ولكي لا يجيء قولنا مجرداً عن البرهان كما جاء قول المخالفين ، نعززه بالادلة الآتية :

١ — ان القضاء في الاسلام . وان كان اختمر في مدة لم تبلغ القرنين . فليس يصح ان يقال فيه ، انه نقل عن الشريعة الرومانية ، ما دام لم يوضع دفعة واحدة . بل نما مع الحاجة وعلى الايام . حتى ولا ان يقال : انه استمد منها ، ما دامت مصادره معروفة : الكتاب ، والسنة صراحة او استنتاجاً او قياساً . ثم اضيف الى ذلك الاجماع .

فهل يصح في شرع عرفت مصادره ، و بينت فيه طرق الاستنتاج ووجوه القياس . ان يقال فيه : انه شرع نقل عن غيره او استمد منه ؟

٢ — ان التاريخ ذكر لنا ما اخذه العرب في النهضة العباسية عن غيرهم من الامم . من العلوم بعضها او كلها . كالفلسفة والطب والفلك والتنجيم ، وسائر العلوم الكونية . فعرفنا اسماء المترجمين والمعربين . في كل فن وعلم . وعرفنا المصادر التي اخذوا منها . واللغات

التي نقلوا عنها . ولم يذكر انه حصل شيء من مثل ذلك في القضاء .

٣ — ان العلوم المنقولة بقيت عليها في لغتها مسحة من العجمة ، وفي مفرداتها الفاظ غريبة عن العربية . خلا هذا القضاء . فقد جاء عربيًا صحيحًا مفردًا ومركبًا . فاذا وقع فيه لفظ غريب . فليس اكثر مما هو في بعض الفنون العربية البحتة كالادب مثلاً . وهذه الالفاظ اكثرها فارسي . جاء به المؤلفون الفرس . ثم انتقلت منهم الى من اخذ عنهم . او كانت مما اقتضته الصناعة والتجارة والزراعة .

٤ — اذا كان بين الشريعتين تشابه في بعض الاحكام ، فذاك ان الشريعة في كل امة تعتمد في مصادرها ايضًا على العرف والعادات ، والحالات الطبيعية . ويكثر ان تشترك كثير من الامم ، في كثير من هذه الامور . وليس ادل من ذلك مما عند اهل البداوة من الاحكام التي يكاد يكون بعضها ، كالقوانين الموضوعة .

ثم لو صح ان تكون الشريعة الاسلامية استقت من القانون الروماني ، لما كانت سلمت من ان يتسرب اليها او الى عقول اصحابها ، شيء من الخزعبيلات التي كانت تجري في مواطن هذا القانون ، لذلك العهد ومابعده . كمثل محاكمة الحيوانات ، والقضاء عليها بنفي او بتعذيب او بصلب . و كنبش الموتى ومحاكمتها ، واصدار الاحكام عليها . وهذا ماتعالت عنه هذه الشريعة علوًا كبيرًا .

٥ — لو صح ان يكون القانون الروماني ، من مصادر الشريعة الاسلامية . لحق ان يكون موطن الاشتراع الاسلامي ، او احد مواطنه — في اقل ما يكون — بلدًا من البلاد التي كانت خاضعة لسلطان روما ، نازلة على احكام قانونها . وهذا مالم يكن شيء منه .

وثمة وجه آخر لايجدر السكوت عنه . وهو ان القانون المعروف بالقانون الروماني ، كان من قبل مشوشًا معقدًا . لم يظهر بشكله الاخير الا بعد ان لابست الفرنجة العرب في الاندلس ، واخذت العلم عنهم . وقد قال بهذا كثيرون واوردوا عليه أدلة عقلية ونقلية . ليس من غرضنا الآن ان نأتي بها . واذا نحن وازنا بين هذين الرأيين : رأي القائلين بان الشريعة الاسلامية استقت من القانون الروماني — وهو رأي قد تكشفت مقاتله — ورأي القائلين : بان الشريعة الاسلامية هي التي أمدت هذا القانون فصيرته ماهو .

لكانت كفة هذا الرأي هي الراجحة. وحجة القائلين به، أقرب للعقل، وأوزن في النقل. لذلك نستطيع ان نقول: ان القضاء الذي نتكلم عنه، هو قضاء لا اثر للنقل فيه ولا فضل في وضعه لغير ذويه. ولسلفه من قبله.

وسيدور بحثنا على أربعة أمور:

(١) القضاء في العرب قبل الاسلام.

(٢) القضاة، والقضاء وما يؤخذ عليه.

(٣) آداب القضاء والقضاة.

(٤) مقارنة بين القضاء في الاسلام، والقوانين في هذه الايام.

***

القضاء قبل الاسلام — كان العرب يسمون القضاء حكومة. والقاضي حكماً. ولم تكن الحكومة عملاً مستقلاً الا في قريش. فكانت عندهم في جملة المناصب الخمسة عشر التي كانوا يتولونها قبل الاسلام. وكان ممن تولى الحكومة فيهم هاشم بن عبدمناف، وابنه عبدالله، وابوطالب بن عبدالمطلب، والعاص بن وائل.

واما في سائر القبائل، فقد كان الحكم صاحب الرأي فيها. فاذا وقع خصومة احتكموا اليه، فيفصل بينهم بما أوتيه من الحكمة والعقل، وبما جرت عليه العادة. كأكثم بن صيفي، الذي كان يعد من رؤساء المحكمين. والحاجب بن زرارة، والاقرع ابن حابس في تميم.

وكانوا يرجعون ايضاً في خصومتهم الى الكهان. اذ كانت الحكومة تندرج تحت عملهم الذي هو الكهانة. كسطيح الذئبي، المعروف بسطيح الكاهن. وشق انمار.

اما حيث كان يكون ملك او امير، فكان اليه مرجع الامور كلها وفي جملتها الحكومة. الا ان يكل ذلك الى غيره.

وكانت الحكومة عندهم فطرية ساذجة، كحالتهم الاجتماعية. ليس لها قوانين موضوعة، ولا شرائع متبعة، الا ما كان من قبيل العرف والعادة. ولعل الحكومة كانت مجملة عندهم في القول المأثور عن قس بن ساعدة «البينة على من ادعى واليمين على من انكر» وهو قول لم يبتدعه الرجل ابتداعاً، ولكنه استخلصه من الحكومة التي كانت

جارية في ايامه وقبلها · وهي انهم كانوا يسألون البينة من ادعى ، واليمين على ادعي عليه ·

* * *

القضاة · والقضاء في الاسلام — فلما جاء الاسلام ، ظلت الحالة في بادئ الامر على ما كانت عليه من قبل · فلم يكن في ايام الرسول حكم غيره · وكذلك كان الامر ايام خليفته ابي بكر ·

والسبب في ذلك ان الاسلام كان لذلك العهد قلاً ، منحصراً في جنوبي الجزيرة · وكان قد نفث في روع الناس آداباً سامية · وبعث فيهم أخلاقاً عالية · خلبت لب من دخل فيه إعجاباً وافتتاناً · وحركت قلوبهم رحمة وحناناً · وملكت عليهم عواطفهم · فقلت الخصومات في تلك الفترة · وخف اعتداء هؤلاء الناس بعضهم على بعض · وكان اذا وقع شيء من ذلك اختصموا الى صاحب الرسالة فيقضي بينهم ، او استفتوا اصحابه ، ونزلوا عند فتياهم ·

بل بلغ الامر فوق ذلك ، فكان الرجل اذا اجترم جاء من ذات نفسه ، يقول : يا نبيَّ الله : لقد كان مني كيت وكيت ·

ان زمناً هذا شأنه ، لا يحتاج الى قضاة اخصاء · ولا الى قوانين محددة : بل كان حسبه ما كان فيه · من كتاب الله وسنة نبيه ·

فلما امتد سلطان الخلافة الى العراق والشام · واتسعت رقعة الملك · انثلمت تلك الصراحة التي كانت في نشأة الاسلام · بعد ان دخل فيه كثير من الاقوام رهبة او رغبة · لذلك ، ولاشتغال الخليفة عمر بتدبير امر هذا الملك ، رأى ان يجعل القضاء عملاً مستقلاً خاصاً · فعهد فيه الى ثلاثة تخيرهم من اهل الدين والعلم · فجعل ابا الدرداء معه في المدينة · وبعث شريحاً الى البصرة · وولى ابا موسى الاشعري بالكوفة · فكانوا اول قضاة في الاسلام ، كما كان عمر — على اصح الروايات — اول من دفع القضاء الى غيره ·

وكتب عمر الى عمرو بن العاص ، عامله في مصر ، ان يولي على القضاء كعب

ابن يسار بن ضنه العبسي ، وكان حكماً في الجاهلية . فابى كعب (١) . فولى عمرو ، عثمان بن قيس بن ابي العاص (٢) فاتخذها عمال مصر سنة . فكانوا هم يولون القضاة . واستمر ذلك الى ايام بني العباس . فلما قام ابو جعفر المنصور جعل لنفسه هذا الحق ، فولى عبد الله بن لهيعة الحضرمي على مصر سنة ١٥٥ . اما الوظيفة (٣) التي كان يجريها عمر على القاضي ، فمئة درهم كل شهر ، ومؤنته من الحنطة . وهكذا فعل عثمان وعلي . فولى الاول زيد بن ثابت . وولى الثاني شريحاً ، وابا الاسود الدؤلي .

وجاء بنو أمية فمضوا على ذلك ، فجعل معاوية على قضائه فضالة بن عبيد الانصاري . فلما مات . استقضى ابا ادريس الخولاني . غير ان وظائف القضاة زادت ايام بني أمية زيادة مذكورة ، فبلغت الف دينار في السنة .

وكان عدد القضاة ، يكثر و يقل حسب الحاجة . حتى ان بغداد لما تكاثر عدد سكانها . و كثرت خصوماتهم . ولى عليها الرشيد جماعة من القضاة . وجعل ابا يوسف المشهور ، قاضي القضاة — وهو اول من تلقب بهذا اللقب — وفوض اليه تولية قضاة بغداد . ثم قضاة سائر الامصار . وجعل ابو يوسف للقضاة لباساً خاصاً يتميزون به . اما وظائف القضاة في ايام بني العباس فقد كانت اقل منها في عهد بني أمية . اذ هبطت الى ثلاثين ديناراً في الشهر . حتى بلغت ايام المأمون . مائتين وسبعين ديناراً في السنة . فلما ملك ابن طولون ، أعادها الى مثل ما كانت في عهد بني أمية . اي الف دينار في السنة .

غير ان المطلب بن عبد الله الخزاعي ، والي المأمون على مصر ، أجرى على قاضيه الفضل ابن غانم مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر . وهو اول قاضٍ أجري عليه هذا . وكان عيسى بن المنكدر مقلاً . فأجرى عليه عبد الله بن طاهر ، والي مصر سبعة دنانير كل يوم ،

(١) وفي « اخبار قضاة مصر » : ان عمراً قال لكعب لا بد من السمع والطاعة لامير المؤمنين فاقضِ حتى اكتب لامير المؤمنين فقضى كعب حتى اعفاه عمر . وكان قضاؤه فيها شهرين .

(٢) وفي اخبار القضاة قيس بن ابي العاص بدلاً من عثمان بن قيس ولعل ما نقلناه هنا اصح لانه عاد فيما بعد فقال عثمان بن قيس .

(٣) الوظيفة ما يقدر لصاحب العمل من طعام او رزق .

او اربعة آلاف درهم في الشهر . وهو اول قاضٍ أجري عليه ذلك . واجازه بالف دينار . واجرى المتوكل على بكار الثقفي في الشهر مائة وثمانية وستين ديناراً .

وكان ابوالجيش خمارويه بن احمد بن طولون يجل قاضيه محمد بن عبدة بن حرب ويعظمه ويجري عليه كل شهر ثلاثة آلاف دينار .

ثم اخذت وظائف القضاة — وقدوقع في الدولة من الضعف والوهن ماوقع — تتقلب من حال الى حال . حتى اصبح القضاء تجارة واصبح القاضي يضمن القضاء على مال معلوم يقدمه كل سنة .

***

مصادر القضاء :— قلنا ان للقضاء في الاسلام مصادر خاصة استقى منها واعتمد عليها وهي :

(١) الكتاب الكريم . وهو القرآن

(٢) السنة الشريفة: وهي اقوال الرسول وافعاله .

(٣) الاجماع: وهواتفاق مجتهدي الامة بعدالنبي في عصر من العصور على امر من الامور .

(٤) القياس : وهو حمل معلوم على معلوم : اي الحاقه به في حكمه لمشابهة بينهما . وهو انما يستنبط من الثلاثة الاول .

كان الرسول يرجع في قضائه في الامور الدينية والدنيوية الى الكتاب الكريم، والى ما تنتجه له فطنته و يوحيه اليه الحق . فلما توفي : كانت اقواله واعماله هدى لمن قضى بعده . فاضيف بذلك الى الكتاب — وهو المصدر الاول للقضاء — المصدر الثاني وهو السنة . ثم كانوا اذا اشكل عليهم امر فلم يجدوا له نصاً في كتاب ولا سنة . قاسوه بما شابهه : فكان القياس وهوقدبدئ به قبل الاجماع : وان اخروه بالترتيب عنه لما ذكرنا من انه يستنبط ايضاً من الاجماع . يؤيد ذلك ما قاله الامام عمر في كتابه المشهور الى ابي موسى : يوم ولاه الكوفة :

« الفهم : فيما يتلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم اعرف الامثال والاشباه : وقس الامور بنظائرها .. »

فنحن نرى ان القياس بدئ به منذ ذلك التاريخ او قبله . يوم لم يكن اجماع بل

يوم كان القضاة السابقون والخلفاء الراشدون، يحكمون كل حسب رأيه واجتهاد وقياسه. وكثيراً ما كانت تختلف احكامهم واقوالهم. لاختلاف في الآراء: اوطرق الاجتهاد: او مناهج القياس.

وقد جاء في الوسيط:

« انقضى زمن الخلفاء الراشدين: ولم يدون فيه كتاب: الا ما كان من امر كتابة المصحف. وكان مرجع الناس في امر دينهم ودنياهم كتاب الله وسنة رسوله. فاذا اشتبه عليهم امر من الامور، رجعوا الى الخلفاء وفقهاء الصحابة، او استخاروا الله فيه، واستهظروا باجتهادهم رأياً عملوا به. وقد كانوا لا يكتبون اقوال النبي — صلى الله عليه وسلم — وفتاوى الصحابة، خشية ان يجرهم ذلك الى الاعتماد على الكتب، واهمال حفظ القرآن الكريم والسنة. ولان الكتاب عرضة للضياع والتصحيف والتحريف. »

« ثم لما حدثت الفتن، وتعددت المذاهب والنحل، وكثرت الاقوال والفتاوى، والرجوع فيها الى الرجال والرؤساء، ومات اكثر الصحابة. خافوا ان يعتمد الناس على رؤسائهم، و يتركوا سنة رسول الله. فاذن امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لابي بكر محمد بن حزم — نائبه على المدينة في القضاء والولاية — ان يدون الحديث، بعد ان استخار الله اربعين يوماً. فدون ما يحفظ عن الرسول في كتاب بعث به عمر الى الامصار »

فلم يكن للقضاة الى ايام ابي جعفر المنصور مراجع مدونة، يستمدون منها ويقيسون عليها، غير القرآن وكتاب ابي بكر هذا.

فلما كان العصر العباسي، نهض ابو جعفر المنصور نهضته المباركة. وجعل يحث الأئمة والفقهاء على تدوين الحديث والفقه. ولم يدخر وسعاً في الجوائز السنية في هذا السبيل. فمضوا فيما رغب فيه. واقبلوا على الجمع والتدوين والتصنيف في العلوم الاسلامية، ومنها القضاء. وكانت القراءة والفقه والتفسير والحديث في اول الاسلام علماً واحداً. فجعلت تتميز على توالي الايام، الى ان اصبح كل علم مستقلاً عن الآخر. فلما استقل الفقه سمي اصحابه الفقهاء، وكانوا قبلاً يعرفون بالقراء، تعظيماً لشأن القراءة التي كان يجهلها العرب في اول امرهم.

قال العلامة ابن خلدون :

« وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين : طريقة اهل الرأي والقياس، وهم اهل العراق . وطريقة اهل الحديث، وهم اهل الحجاز . وكان الحديث قليلاً في اهل العراق فاستكثروا من القياس ومهروا فيه ، فلذلك قيل لهم اهل الرأي ، ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي اصحابه ، ابو حنيفة . وامام اهل الحجاز ، مالك بن انس، والشافعي من بعده . »

ثم دخل اهل الحجاز العراق . ونقلوا اليه الحديث . فتساوى الفريقان في معرفته . ونشأ عن ذلك عدة مذاهب . اشهرها : مذهب الشافعي ، ومذهب الحنبلي ، فكانا والمذهبين الاولين : الحنفي والمالكي ، والمذاهب الاربعة المشهورة ، التي رضيها الأمة في امر دينها ودنياها الى يومنا هذا .

وجاء في الوسيط :

« اما الامام الاعظم ابو حنيفة (١) فقد اخذ كل علمه عمن شافه الصحابة ونقل عنهم . واستنبط فقهه من القرآن الكريم . وما صح عنده من الحديث على قلته ، مع استعمال الرأي والقياس »

« وتابعه في ذلك اكثر ائمة العراق لقلة رواة الحديث الصحيح بينهم »

« واما الامام مالك (٢) فقد اعتمد في فقهه على الحديث »

« والشافعي (٣) استنبط مذهبه من القرآن والحديث والقياس والرأي . فكان مذهبه وسطاً بين اهل الرأي من اصحاب ابي حنيفة . وبين اهل الحديث من امثال مالك واحمد »

« واحمد بن حنبل (٤) استنبط مذهبه من السنة مشوباً بشيء من القياس والرأي »

المواطن التي انتشرت فيها هذه المذاهب

قال ابن خلدون :

« اما احمد بن حنبل . فمقلده قليل . لبعد مذهبه عن الاجتهاد .... واكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها ، وهم اكثر الناس حفظاً للسنة ورواية الحديث .

واما ابو حنيفة فقلده اليوم اهل العراق ومسلمة الهند والصين ، وما وراء النهر وبلاد العجم

(١) ولد سنة ٨٠ — وتوفي ١٥٠ (٢) ولد سنة ٩٥ — وتوفي سنة ١٧٩ (٣) ولد سنة ١٥٠ — وتوفي ٢٠٤ (٤) مولده سنة ١٦٤ ووفاته سنة ٢٤١

كلها لما كان مذهبه أخص بالعراق وكان تلميذه (١) صحابة الخلفاء من بني العباس ، فكثرت تآليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافيات وجاؤا منها بعلم مستطرف وانظار غريبة . »

« واما الشافعي فمقلدوه بمصر اكثر مما في سواها ، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وماوراء النهر ... ثم درس ذلك كله بدروس المشرق واقطاره . »

« واما مالك فاختص بمذهبه اهل المغرب والاندلس . وان كان يوجد في غيرهم . الا انهم لم يقلدوا غيره الا في القليل . لما ان رحلتهم كانت غالبًا الى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم . والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج الى العراق . ولم يكن العراق في طريقهم ، فاقتصروا عن (٢) الاخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وامامهم مالك ، وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده . فرجع اليه اهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره ، ممن لم تصل اليهم طريقته . وايضـًا ، فالبداوة كانت غالبة على اهل المغرب والاندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق ، فكانوا الى اهل الحجاز اميل ، لمناسبة البداوة . ولذلك لم يزل المذهب المالكي غضًا عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها ، كما وقع في غيره من المذاهب »

هذا ما قاله العلامة ابن خلدون ، بيانًا لمواطن هذه المذاهب الى يومه . وتعليلاً لانتشار بعضها دون بعض .

اما في يومنا هذا :

فان المذهب الحنفي ، منتشر في ما كان يعرف بالبلاد العثمانية الاوربية والاسيوية . وفي تركستان ، وهندستان ، وبلاد التتر .

والمذهب المالكي في المغرب كلا اقصاه واوسطه وادناه

والشافعي في مصر والهند .

والحنبلي في بعض بلاد العرب وفي مدينة بلخ

---

(١) لفظة صحابة وردت في النسخ الثلاث التي وقفنا عليها وهي مصدر في الاصل . فيجوز ان تطلق على المفرد . ولكن الكلام الوارد بعدها بصيغة الجمع ، يرشح كون تلميذ وردت من خطإ النساخ ، وكان حقها ان تكون تلاميذ . (٢) هكذا ورد في الطبعة البيروتية .

بقي ان ما اورده ابن خلدون ، تعليلاً لانتشار مذهبي ابي حنيفة ومالك — مع ما فيه من وجوه الصواب — ليس بالسبب الذي استقل بهذا الامر . بل لعل السبب الذي اتى به الفيلسوف ابن حزم اوجه واقوى قال :(١)

« مذهبان انتشرا في مبدإ امرهما بالرئاسة والسلطان . مذهب ابي حنيفة : فانه لما ولي قضاء القضاة ابو يوسف يعقوب : صاحب ابي حنيفة . كانت القضاة من قبله . فكان لا يولي قضاء البلدان من اقصى المشرق الى اقصى افريقية الا اصحابه والمنتمين اليه والى مذهبه . ومذهب مالك بن انس عندنا فان يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة ، فكان لا يلي قاض في اقطار الاندلس الا بمشورته واختياره . ولا يشير الا باصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى الدنيا . فاقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به . على ان يحيى لم يل قضاء قط ولا اجاب اليه . وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم : وداعياً الى قبول رأيه لديهم »

ومثل ذلك ما اتفق لمذهب الشافعي : من نصرة محمود بن سبكتكين ونظام الملك له في بلاد المشرق . وصلاح الدين الايوبي في مصر

***

فلما وضع هؤلاء الائمة الاربعة قواعد الفقه . وقف الفقهاء بعدهم . ونظروا الى ما وضع كأنه قطعة من الوحي . لا يجوز تعديله ولا تبديله ولا الخروج عنه ولا الزيادة عليه . وصرفوا هممهم الى وضع الشروح والتعاليق والحواشي . على ما كان كتب من قبل . فكان ذلك حجر عثرة في سبيل طلب الفقه : لما فيه من التطويل الممل : والابحاث العقيمة : مما يضيع على الطالب فكره ووقته .

ولم يقف ضرر هذه المطولات عند التشويش على الافهام : والتضييع في الاوقات . بل كان علة من علل الجمود والانحطاط . قال السيد عبدالله جمال الدين : قاضي قضاة مصر في كتابه «السياسة الشرعية» وهو يعدد اسباب الانحطاط :

« سادساً تعمق الابحاث وتصعيب الكتب حتى خرجت بالشريعة الحنيفية السمحاء عن الرفق والسذاجة »

(١) ابن خلكان .

وفي هذا الصدد والمعنى: يقول بن قيم الجوزية في كتابه « الطرق الحكمية» : معترضاً على الذين قصروا عقولهم واعمالهم على ما كان من احكام السلف : غير مراعين تبدل الاحكام وتغير الازمان :

« وهذا موضع مزلة اقدام ومضلة افهام . وهو مقام ضنك : ومعترك صعب فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق . وجرأوا اهل الفجور على الفساد . وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد : محتاجة الى غيرها . وسدوا على نفوسهم طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له . . . . ظناً منهم منافاتها لقواعد الشرع »

وهو يقول في موضع آخر من كتابه المنوه به :

« ولقد كان عبدالله بن عمر اذا احتجوا عليه بابيه يقول : ان عمر لم يرد ما تقولون فاذا اكثروا عليه قال : افرسول الله احق ان يتبع ام عمر ؟

والمقصود : ان هذا وامثاله سياسة جزئية : بحسب المصلحة : تختلف باختلاف الازمنة . فظنها من ظنها شرائع عامة لازمة الى يوم القيامة »

ومن هذا الباب : ما ذكره الطحاوي قال : (١) « كان ابو عبيد علي بن حسين البغدادي قاضي مصر — يذاكرني بالمسائل فاجبته يوماً في مسألة فقال لي : ما هذا قول ابي حنيفة . فقلت له : ايها القاضي او كلما قاله ابو حنيفة اقول به . قال ما ظننتك الا مقلداً . فقلت له : وهل تقلد الا عصي . فقال لي او غبي . فطارت هذه الكلمة في مصر حتى صارت مثلاً »

وكان ابو عبيد من قبل يذهب الى قول ابي ثور ثم صار يختار . لجميع احكامه بمصر باختياره .

فغريب : ان يضيق الناس بعد ذلك على انفسهم هذا التضييق . فيزعموا ان ليس لهم ان يروا رأياً لم ينص عليه من سبقهم . ولا ان يستنبطوا حكماً لم يقل به من كان قبلهم . ولو انهم نظروا نظرة صادقة ، لرأوا ان الاحكام انما توضع تبعاً للحاجة . ولو انه جاز للسلف ان يضع للخلف احكاماً في امور دنياهم ثابتة راسخة . لا تتغير ولا تتبدل . لكان ذلك حقيقاً بأئمة الصدر الاول من الخلفاء الراشدين . بل بالرسول نفسه . اما وانهم لم يفعلوا ولم يفعل . فذاك ان لكل زمان حوادثه . ولكل حوادث احكامها

(١) اخبار القضاة

واهم مما قدمناه وادل على مخالفة الرأي حتى مع من هم فوق الأئمة والمجتهدين : ماجاء في كتب السير :

« اراد النبي — صلى الله عليه وسلم — في بعض الحروب ان يعطي نصف اثمار نخيل مدينة لقبيلة من قبائل العرب لئلا يحاربوه مع قريش . فلما سمع السعدان : سعد بن عبادة رئيس الخزرج ، وسعد بن معاذ رئيس الاوس . قالا : يا رسول الله . هل ذلك بوحي من الله ام رأي رأيته . قال بل رأي رأيته . فقالا : لا وحقك لا نعطيهم نصف ثمرة . فاجابهما الرسول الى ما رأيا .

ومن ذلك يعلم ان ما كان يراه الصحابة وجميع المسلمين واجب التنفيذ غير قابل للنقض والتغيير . انما هي السنة المنفذة للنصوصات » .

ومن هذا القبيل :

« ان القافة (١) دلت عليها سنة الرسول . وعمل خلفائه الراشدين . والصحابة من بعدهم منهم : عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب وابوموسى الاشعري وابن عباس وانس بن مالك ولا مخالف لهم في الصحابة . وقال بها من التابعين : سعيد بن المسيب وعطاء بن ابي رباح والزهري واياس بن معاوية وقتادة وكعب بن انس واصحابه . وممن بعدهم : الشافعي واصحابه واحمد واصحابه واسحق وابو ثور واهل الظاهر كلهم »

فلم يمنع هذا الاجماع المتصل المتسلسل . اباحنيفة واصحابه من بعده ان يخالفوه فيقولوا : ان العمل بالقافة تعويل على مجرد الشبه . وهو قد يقع بين الاجانب . و ينتفي بين الاقارب .

واحسن ما قيل في هذا الباب قول ابن عقيل :

« السياسة الشرعية ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد . وان لم يضعه الرسول . ولا نزل به وحي . فان اردت بقولك — الا ما وافق الشرع — اي لم يخالف مانطق به الشرع . فصحيح . وان اردت — ان لا سياسة الا ما نطق به الشرع — فغلط . وتغليط للصحابة .

لقد سمع المتأخرون تلك الاقوال التي فيها من الرخص والاستقلال ما فيها . ورأوا تلك الاحكام التي أقدم عليهم سلفهم مخالفة لسلفه . فلم يجروا مع هذا كله

(١) الطرق الحكمية . والقافة : الحاق الابن بابيه لمشابهته له .

على شيء من مثلها · وان قضت به حالة زمانهم · بل جبنوا عما ليس فيه مخالفة · ولكنه مجرد اجتهاد في الرأي ·

لقد خاف الائمة على الناس ان يذهبوا قبائل في آرائهم · ويفسروا الشريعة حسب اهوائهم · فاحتاطوا للامر بان جعلوا للاجتهاد باباً محدداً لا ينفتح على مصراعيه · ولكن الناس كانوا على انفسهم اشد تضييقاً فصاروا الى ماصاروا اليه ·

واستمر القوم في جمودهم هذا وتقليدهم الاعمى · حتى ضاقت حلقات الاحكام · عن ان تتسع لحاجات الايام · والزمان تتجدد احواله · والعالم تتغير اوضاعه · سنة الله في هذا الكون · فاضطر السلطان عبدالمجيد في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ هجرية · و ٣١ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ ميلادية · ان يصدر مرسوم الاصلاح المعروف (بخط كلخانة) · فأنشئت منذ ذلك الزمن المحاكم النظامية مستقلة عن المحاكم الشرعية · واخذت الدولة تقلد اوربا في قوانينها بل تترجمها قانوناً قانوناً · وفي كثير من الاحيان فصلاً فصلاً ومادة مادة · وانحصرت الاحكام الفقهية في المحاكم الشرعية وفي محاكم الحقوق ايضاً · غير انهم الفوا من الاحكام الفقهية خلاصة موجزة · سموها « المجلة العدلية » ثم قيدوا ذلك وبينوا وجوه المحاكمة فيه ، بكتاب نقلوه عن الفرنسوية — كما كثر ما نقلوا من القوانين — عرف بـ (اصول المحاكمة الحقوقية) ·

* * *

٣ آداب القضاء والقضاة — هذا مجال يقف فيه القلم عاجزاً · واللسان قاصراً · واي امرىء مهما أوتي من ضروب البيان · يستطيع ان يصف ما هو عليه هذا القضاء من العدل · وما كان عليه ذووه من قبل من النزاهة والفضل · وحسبنا ان نقول : انه قضاء هو العدل بعينه بل العدل نسخة عنه ·

يكثر — في كل أمة وفي كل زمان — ان يدعي الناس لانفسهم كثيراً من فضائل الاخلاق وهم منها براء · و ينسبوا لاوضاعهم الشرعية والاجتماعية انها المثل الاعلى في الكمال وهي اوضاع خرقاء · وقد يتفق ان تكون الانظمة عادلة فاضلة من حيث الوضع فحسب · و يكون بين القائمين بها و بين العدل والفضل · مابين الشرق والغرب لذلك لانقف عند ذكر ما اودعه هذا القضاء من الفضائل بل نتعداه الى ذكر

آداب القضاة انفسهم . حتى يعرف هذا الخلف العاثر حقيقة ذلك السلف الناهض

فلقد شرطوا على القاضي ان يكون :

موثوقاً به في عفافه وعقله وفهمه وصلاحه ، وعلمه بالسنة والآثار . واقفاً على المسائل الفقهية ، مقتدراً على فصل الدعاوي . مهيباً وقوراً . وحكيماً وجيهاً صبوراً . يتقي الله و يقضي بالحق . ولا يقضي هوى يضله ، ولا لرغبة تغيره ، ولا لرهبة تزجره .

لا صغيراً ولا معتوهاً ولا اعمى ولا اصم .

وجعلوا من آدابه .

ان لا يطلب القضاء بقلبه ولا يسأله بلسانه .

وان لا يكون فظاً غليظاً . بل شديداً من غير عنف . ليناً من غير ضعف .

وان لا يجلس للقضاء وحده ، لان ذلك يورث التهمة .

وان لا يُسلِم ، ولا يُسلَّم عليه في مجلس الحكم .

وان لا يقدم رجلاً جاء غيره قبله .

وان لا يسار احد الخصمين ولا يشير اليه ، ولا يكلمه بلغة لا يفهمها خصمه .

وان يقضي — اذا امكن — من غير ان يوغر الصدور ، وان يبين للمقضي عليه وجه قضائه .

واوجبوا عليه رد الهدية . ولو تأذى المهدي بالرد ، يعطيه مثل قيمتها . ولو تعذر الرد لعدم معرفته ، او لبعد مكانه . وضعها (اي القاضي) في بيت المال .

ومن آداب هذا القضاء واصوله . انه جعل القاضي ضامناً اذا اخطأ . وهذا الضمان : يكون تارة في بيت المال ، وهو اذا اخطأ في حد ترتب عليه تلف نفس اوعضو . وتارة يكون في مال المقضي له ، وهو اذا اخطأ في قضائه في الاموال . وتارة يكون هدراً وهو اذا اخطأ في حد ، ولم يترتب على ذلك تلف نفس اوعضو . كحد شرب مثلاً . وتارة يكون في ماله (اي مال القاضي) وهو اذا تعمد الجور .

وهذه قطعة من كتاب عمر (رض) الى ابي موسى الاشعري حين ولاه قضاء الكوفة . ولعله من امتع الكتب في هذا الباب . واجمعها لآداب القضاة والقضاء .

« ان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا ادلي اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك . حتى لا يطمع شريف في

حينك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ... لا يمنعك قضاء قضيته امس ، فراجعت اليوم فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، ان ترجع الى الحق ، فان الحق قديم . ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ... واياك والقلق والضجر ، والتأفف بالخصوم ، فان استقرار الحق في مواطن الحق ، يعظم الله به الاجر ، ويحسن به الذكر »

ومن ذلك ما كتبه الامام علي ، الى الاشتر النخعي عامله في مصر :

« ثم اختر للحكم بين الناس ، افضل رعيتك ممن لا تضيق به الامور . ولا تمحكه الخصوم . ولا يتمادى في الزلة . ولا يحصر من الفيء الى الحق متى عرفه . ولا تشرف نفسه على طمع . ولا يكتفي بادنى فهم دون اقصاه . اوقفهم في الشبهات . وآخذهم بالحجج . واقلهم تبرماً بمراجعة الخصم ، واصبرهم على تكشف الامور ، واصرمهم عند اتضاح الحكم . ممن لا يزدهيه اطراء . ولا يستميله اغراء ... ثم اكثر تعاهد قضائه . وافسح له في البذل مايزيل علته ، وتقل معه حاجته الى الناس . واعطه من المنزلة لديك ، ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك »

هذه طائفة من الآداب ، التي اوجبها الشرع وحماته على القضاة . بقي علينا ان ننظر الى هؤلاء فنرى ، اقاموا بحق هذا الامر ؟ ام كان غايته ان سطرته بطون الكتب وظل العمل به من قبيل الخيال ، او تصوير المحال ، شأن العالم شرقه وغربه ، في كثير من الامور ولا سيما ما يتعلق منها بالفضائل والآداب .

جعلوا من شروط التولية — كما سبق فذكرناه — ان لا يطلب القاضي القضاء بقلبه ولا يسأله بلسانه .

ولكن قضاتنا السابقين ، لم يقفوا عند هذا الحد ، بل تحاموا القضاء . واحتملوا في ذلك كل عذاب وبلاء .

فلقد كتب عمر بن عبدالعزيز الى نائبه بالعراق وهو عدي بن ارطاة :

« ان اجمع بين اياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الحرشي . فول قضاء البصرة انفذهما . فجمع بينهما .

فقال له اياس : أيها الامير ! سل عني وعن القاسم فقيهي المصر : الحسن البصري ومحمد بن سيرين . وكان القاسم يأتيهما واياس لا تأتيهما . فعلم القاسم انه ان سألهما أشارا به

فقال له لا تسأل عني ولا عنه ! فوالله الذي لا اله الا هو ان أياس بن معاوية افقه مني وأعلم بالقضاء . فان كنت كاذباً فما يحل لك ان توليني وانا كاذب . وان كنت صادقاً فينبغي لك ان تقبل قولي . فقال له أياس انك جئت برجل وقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف . فقال عدي بن ارطاة اما اذ فهمتها فانت لها . واستقضاه » (١)

واراد يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري — امير العراقين ايام مروان بن محمد آخر بني أمية — اباحنيفة على قضاء الكوفة ، فابى فضربه مائة سوط وعشرة اسواط : كل يوم عشرة اسواط ، وهو على الامتناع . فلما رأى ذلك منه خلى سبيله .

وقال الربيع :

« رأيت المنصور ، ينازل اباحنيفة في امر القضاء ، وهو يقول : اتق الله ! ولا ترع في امانتك الا من يخاف الله . والله ما انا بمأمون الرضا ، فكيف اكون مأمون الغضب . ولو اتجه الحكم عليك ، ثم تهددني ان تغرقني في الفرات اوتلي الحكم . لاخترت ان اغرق ، ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك ، ولا اصلح لذلك . فقال له كذبت انت تصلح . فقال له : لقد حكمت لي على نفسك . كيف يحل لك ان تولي قاضياً على امانتك وهو كذاب ؟ (٢)

ثم دعي ابوحنيفة الى القضاء مرة ثالثة ، فقال — حتى استشير اصحابي ، فاستشار ابا يوسف . فقال لو تقلدت لنفعت الناس فنظر اليه ابو حنيفة نظر المغضب وقال : ارأيت لو أمرت ان اعبر البحر سباحة أ كنت اقدر عليه ؟ ومات وهو على الاباء .

ودعي محمد الشيباني الى القضاء فابى . حتى قيد وحبس واضطر فتقلد .

وممن نفروا من القضاء عبدالله بن وهب بن مسلم اجتهد عبّاد بن محمد بن حيان والي المأمون على مصر سنة ١٩٦ ان يوليه قضاءها فاستتر منه . قال احمد بن عبدالرحمن وتغيب عمي في منزل يحيى بن حرملة فهدم عباد بعض داره . قيل وسمع ابن وهب اثناء ذلك يقول : يارب يقدمُ عليك اخواني غداً علماء حلماء فقهاء واقدم عليك قاضياً لا يارب ولو قرضت بالمقاريض .

وكان جمع آخاه واهله فشاورهم فقالوا له : لعل ان يحيا الحق على يديك فقال لهم :

(١) شرح مقامات الحريري للشريشي وابن خلكان (٢) ابن خلكان .

أكلة في بطونكم اردتم ان تأكلوا ديني ·

وحيوة أراده على القضاء يزيد بن حاتم امير مصر من قبل المنصور فقال حيوة : لست أفعل فافعل ما انت صانع · فتركه وولى ابا خزيمة الرعيني وسمع حيوة يقول بعد ذلك : ابو خزيمة خير مني اختبر فصح ولم أختبر ·

وسعيد بن ربيعة اخذه الوليد بن رفاعة بالقضاء فامتنع فقيل لسعيد : استعجم عليهم حتى يكون لنا عذر ففعل ولم يقض بين اثنين ·

وسفيان الثوري ، كتب له المهدي عهداً على قضاء الكوفة ، وان لا يعترض عليه في حكم ، فرمى به في دجلة وهرب · وعلي بن معبد بن شداد العبدي عرض عليه المأمون قضاء مصر فابى · والحارث بن مسكين عرض عليه الفضل بن مروان وزير المأمون قضاء مصر فامتنع ثم اراده المتوكل على قضاء مصر فابى ايضاً فأكرهه اصحابه ·

وفي هذا الاباء عن تولي هذا المنصب — على ما كان من رفعته وعظيم شأنه وسعة وظيفته — دليل على ما كان في قلوب هؤلاء الناس من التحرج والتأثم ، ان يشتبه لهم ، فيخرجوا في احكامهم عن محجة الحق والصواب · وتخوفاً على نفوسهم مما قاله الرسول (ص) :

« من ولي القضاء ، فقد ذبح بغير سكين » · ولقوله :

« القضاة ثلاثة ، اثنان في النار وواحد في الجنة : رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة · ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار · ورجل لم يعرف الحق فقضى للناس على جهل فهو في النار · »

اما وقد نوهنا بهذا النفر ممن ابو ان يتولوا القضاء فقد حق لنا ان نذكر قطعة من اخبار من ولي هذا الامر لتدل على مبلغ العدل من نفوسهم ، وكيف انهم تقيدوا بالآداب التي اشترطها عليهم القضاء تقيداً تاماً · وعدلوا عدلاً تقصر الهمة عن ان تطلع الى ما وراءه · بل تعجز النفوس — مهما بلغ منها العدل — ان تطمع في مثله ·

وقع خلاف بين امير المؤمنين ابي جعفر المنصور وزوجته ام المهدي بنت يزيد الحميرية — والغوث بن سليمان الحضرمي على قضاء مصر — فاستقدمه الخليفة وقال له :

« ياغوث ! ان صاحبتكم الحميرية ، خاصمتني اليك في شروطها ، · قال غوث : فقلت ايرضى امير المومنين ان يحكمني عليه ? قال نعم · فقلت : ان الاحكام لما

شروط أفيحتملها اميرالمؤمنين؟ قال نعم · قلت يأمرها اميرالمؤمنين ان توكل وكيلا وتشهد على وكالته خادمين حرين يعدلها امير المؤمنين على نفسه ففعل · فوكلت خادماً و بعثت معه كتاب صداقها وشهد الخادمان على وكالتها · فقلت قد تمت الوكالة فان رأى امير المؤمنين ان يساوي الخصم في مجلس فانحط عن فرشه ، وجلس مع الخصم · قال غوث ودفع الي الوكيل كتاب الصداق ، فقرأته عليه وقلت · يقر اميرالمؤمنين بما فيه؟ قال نعم · قلت ارى في الكتاب شروطاً مؤكدة بها تم النكاح بينكما ارأيت يا امير المؤمنين ، لو خطبت اليهم ولم تشترط لهم هذا الشرط اكانوا يزوجونك ؟ قال لا · قلت فبهذا الشرط تم النكاح: وانت احق من وفى لها بشرطها (١)

وعن يحيى بن عبد الصمد قال :

« خوصم اميرالمؤمنين الهادي الى القاضي ابي يوسف في بستان · وكان الحكم في الظاهر للهادي وفي الباطن خلاف ذلك · فقال الهادي لابي يوسف — ما صنعت في الامر الذي نتنازع اليك فيه ؟ فقال خصم امير المؤمنين يسألني ان احلف امير المؤمنين : ان شهوده شهدوا على حق · فقال له الهادي وترى ذلك ؟ قال فقد كان ابن ابي ليلى يراه · فقال اردد البستان عليه · وانما احتال عليه ابو يوسف لعلمه ان الهادي لا يحلف (٢)

وكان ابو يوسف على ما مر بنا قاضي الرشيد ، بل قاضي القضاة في ايامه · ولقد نال عنده المنزلة التي لا يتعلق بها درك · ومع هذا فقد قضي عليه خصومة بينه وبين نصراني · وروي انه قال حين ادركته الوفاة :

« اللهم ! انك تعلم اني وليت هذا الامر فلم امل الى احد الخصمين ، حتى بالقلب الا في خصومة نصراني مع الرشيد لم اسوِّ بينهما وقضيت على الرشيد ، وبكى (٣)

وشهد عنده يوماً من الايام ، الفضل بن الربيع وزير الخليفة فرد شهادته فعاتبه الخليفة في ذلك قائلا : لم رددت شهادته ؟ قال :

« سمعته يقول لك انا عبدك فان كان صادقاً فلا شهادة للعبد وان كان كاذباً فكذلك » (٤)

(١) اخبار قضاة مصر (٢) الطرق الحكمية (٣) حاشية ابي عابدين (٤) ابن خلكان

واقبل صاحب خراسان يشهد عند اياس فقال له : مالك وللشهادة ؟ انما يشهد السوقة . قال صدقت وانصرف ، فقيل له خدعك انه لا يقبل شهادتك . (١)

ولما ولي القضاء على مصر ، توبة بن نمر الحضرمي مستهل صفر سنة ١١٥ دعا امرأته عنبرة الأشجعية وقال لها : (٢)

يا ام محمد ! اي صاحب كنت لك ؟ قالت خير صاحب واكرمه .

قال فاسمعي ! لا تعرضن لي في شيء من القضاء ، ولا تذكرني بخصم ، ولا تسألني عن حكومة ، فان فعلت شيئاً من هذا فانت طالق . فاما ان تقيمي مكرمة ، واما ان تذهبي ذميمة . »

فكانت لترى دواته قد احتاجت الى الماء فلا تأمر بها ان تمد ، خوفاً من ان يدخل عليه في يمينه شيء .

وشرط محمد بن صالح الهاشمي العباسي لما ولي قضاء القضاة ببغداد وأضيف اليه قضاء مصر والشام وغيرها ، شروطاً منها ان لا يتناول على القضاء أجراً ولا يقبل شفاعة في فعل ما لا يجوز ولا في اثبات حق .

وقد بلغ من استقلال القضاة في آرائهم ، وعدم انقيادهم الى اصحاب الشأن والسلطان ان احدهم كان يرباً بنفسه ، ان ينزل على امر سلطانه ، اذا خالف معتقده . فقد ذكروا عن احمد بن طولون صاحب مصر انه كان يبالغ في اكرام قاضيها بكار بن قتيبة الثقفي ، حتى انه كان يدفع له كل سنة الف دينار غير المقرر له . فكان بكار يتركها يجتمعها ولا يتصرف فيها . فلما دعاه الى خلع الموفق بن المتوكل ، وهو والد المعتضد ، من ولاية العهد . امتنع بكار (٣) فاعتقله احمد ، ثم طالبه بجملة المبلغ الذي كان يأخذه كل سنة ، فحمله

(١) العقد الفريد (٢) اخبار القضاة (٣) وفي ذيل اخبار القضاة ان بكاراً اجاب الى خلع الموفق من ولاية العهد وسماه الناكث واشهد على نفسه هو وسائر قضاة الشام والثغور ولكنه امتنع عن لعنه وكان احمد قد امر به . فألح عليه فاصر بكار على الامتناع الى ان قال الا لعنة الله على الظالمين . فقال ابن طباطبا وكان نقيب الطالبين بمصر : ايها الامير انه عاداك . فغضب احمد وامر بتمزيق ثيابه وجروه برجله وليس عليه الا سراويل وخفان وقلنسوة ، مسلوب الثياب ثم حمل من بين يديه الى السجن . واقامه للناس يطالبونه بمظالم يدعونها عليه وكان الطحاوي يقول ما تعرض له احد فافلح بعد ذلك .

اليه بختمه ، وكان ثمانيـة عشر كيساً . فاستحى احمد منه . وكان يظن انه اخرجها وانه يعجز عن القيام بها . (١)

هذا قليل من كثير عن عدل هؤلاء القضاة ومتين اخلاقهم ، وانّى يخاف امرؤ ان يضيع عندهم حقه وهم وهم وحالهم مارأينا مع الخلفاء واصحاب السلطان الذين اليهم مرجع الامر . بقي ان نرجع ببصرنا قليلاً الى ذلك العهد . لنرى ماهي الاسباب التي سمت بهذه النفوس فرفعتها الى ذلك المستوى الباذخ . حيث نزهت عن الاغراض وتجردت عن المآرب .

ان ذلك يرجع الى اسباب عدة . منها :

١ً — الفطرة الخالصة التي كان قريباً عهدها .

٢ً — الدين وما كان من اثره في النفوس من حيث التربيتين الدينية والدنيوية .

٣ً — ما كان عليه ذوو السلطان : خلفاء وامراء ولا سيما في الصدر الامر ، من العدل الصحيح الذي كان مثلاً لقضاتهم وللذين جاؤا من بعدهم على الاثر :

٤ً — ما كانت عليه الامة من الانفة ان تستكين الى جور او تنام على مظلمة .

٥ً — تخير القضـاة من رجالات لهم من إباء النفس وشرف الصيت وصحيح العلم ، ما يخافون معه على عرضهم ان يناله لسان بحق .

ونحن نقص على مسامعكم شيئاً يؤيد ما قلناه .

« جاءت عمر بن الخطاب برود من اليمن . ففرقها بين المسلمين . فخرج في نصيب كل رجل برد واحد . ونصيب عمر كنصيب واحد منهم . قيـل ، واعتلى عمر المنبر وعليه البرد وقد فصله قميصاً . فندب الناس الى الجهـاد . فقال له رجل لا سمعاً ولا طاعة . قال عمر : ولم ذلك ؟ قال الرجل . لانك استأثرت علينا : لقد خرج في نصيبك من الابراد اليمنية برد واحد ، وهو لا يكفيك ثوباً ، فكيف فصلته قميصاً . وانت رجل طويل ؟ فالتفت عمر الى ابنه قائلاً : اجبه ياعبدالله . فقال عبدالله لقد ناولته من بردي فاتم قميصه منه . قال الرجل : اما الآن فالسمع والطاعة (٢) . »

وحدبث من اراد ان يقوم اعوجاجه بحد سيفه مشهور .

ولما ضرب ابن ملجم علياً جمع الامام ابناءه وقال لهم :

(١) ابن خلكان (٢) الفخري .

« يا بني عبد المطلب ! لا الفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً ، تقولون : قتل امير المؤمنين الا لا تقتلن بي الا قاتلي . انظروا اذا انامت من ضربته هذه ، فاضربوه ضربة بضربة . ولا يمثل بالرجل . فاني سمعت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — يقول : اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور . »

ودخل علي بن ابي طالب مع خصم له ذمي ، الى القاضي شريح فقام له . فقال : « هذا اول جورك »

وشكته ذمية الى عمر بن الخطاب فقال له قم يا ابا الحسن الى خصمك فقام مغاضباً فقال له وقد قضى بينهما — اساءك يا ابا الحسن ان ادعوك الى خصمك وانت مكذوب عليك ؟ قال كلا يا امير المؤمنين لم يسؤني هذا وانما ساءني ان تدعوني بابي الحسن ، لعل الخصم يداخله شيء من الرهبة او التخفظ ان كنت كنيتني .

ومثل ذلك ، ما وقع للمأمون ، في قضية رفعتها اليه امرأة على ابنه العباس في حديث طويل مشهور . ونحن نجتزئ بهذا القدر حتى لا يطول نفس الكلام

ولقد بلغ من تحفظ اولياء الامر والقضاة ، انهم رأوا ان قضاء احدهم بعلمه موجب للتهمة ، فجعلوا ينصرفون عنه فلقد روي عن ابي بكر انه قال : لو رأيت رجلاً على حد من حدود الله لم آخذه حتى يكون معي شاهد غيري

وعن الضحاك ان عمر اختصم اليه فيما يعرفه فقال للطالب ان شئت شهدت ولم اقض . وان شئت قضيت ولم اشهد وعن الشعبي . انه قال : لا اكون شاهداً وقاضياً(١)

* * *

٤ ما يأخذونه على القضاء — اكثر ما يأخذونه على هذا القضاء — حتى بالنسبة الى الصدر الاول —

الشهادة : فيما يتعلق بالمرأة ، وبغير المسلم

ا شهادة المرأة : يقولون : ان القضاء الاسلامي امتهن المرأة وصغر من شأنها اذ جعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل

ومن نظر نظراً صحيحاً رأى ان ذلك لم يكن احتقاراً لها ولا نها اعجز في ذاتها من

(١) الطرق الحكمية

الرجل — واقل ثقة منه . بل لان النساء يتعذر غالباً حضورهن مجلس الحكام . وحفظهن وضبطهن دون حفظ الرجال وضبطهم . قال ابن قيم الجوزية :

« انا لا نسلم ضعف شهادة المرأتين اذا اجتمعتا . ولهذا نحكم بشهادتهما مع الرجل . وان امكنه ان يأتي برجلين . فالرجل والمرأتان اصل لا بدل ، والمرأة كالرجل في الصدق والامانة والديانة . الا انها لما خيف عليها السهو والنسيان ، قويت بمثلها . وذلك قد يجعلها اقوى من الرجل الواحد او مثله . ولا ريب ان الظن المستفاد من رجل واحد دونهما ودون امثالها . »

وقبل كثير من ائمة الفقهاء ، شهادة النساء ليس معهن رجل . ولقد سئل الامام احمد في الرجل يوصي ولا يحضره الا النساء ؟ قال أجيز شهادة النساء . فظاهر هذا انه يثبت الوصية بشهادة النساء على الانفراد اذا لم يحضره الرجال .

وذكر الخلال عن احمد : انه سئل عن الرجل يوصي باشياء لاقاربه و يعتق ، ولا يحضره الا النساء ، هل تجوز شهادتهن ؟ قال نعم تجوز شهادتهن في الحقوق .

وقد حكموا بشهادة امرأتين و يمين المدعي . في الاموال وحقوقها وهذا مذهب مالك .

فانظر ! اين هذا من قول العائبين على هذا القضاء ازدراء المرأة . ثم أليس هذا الذي يأخذونه على هـذه الشريعة . يرد على غيرها من الشرائع والقوانين ؟ أليست هذه الشهادة هي اليوم ايضاً موضوع بحث رجال القانون في اوربا ؟

وهذا المسيو (كيلرمه) المحامي امام محكمة باريز الاستئنافية ، عقد في كتابه (السر في خطأ القضاء) فصلاً خصيصاً للمرأة ابان فيه ما يعرض لها من الوهم . وما ينبعث عن ذلك من الخطإ في الحكم . وتوسع في ذلك توسعاً لا يقف عند تحديد شهادة المرأة . ولكنه يقفي على هذه الشهادة من حيث هي .

٢ً شهادة غير المسلم : اما شهادة غير المسلمين على المسلمين . فقد غلب فيها المنع . لانه اشترط في الشاهد ان يكون عدلاً ، ولما كان لكل دين آداب خاصة . فقد يكون العدل في دين ، غير عدل في دين آخر . وعلى هذا استند القائلون بانه « اذا اختلفت الملل لم تجز شهادة بعضهم على بعض » (١)

(١) روى ذلك بن ابي شيبة عن ابن عيينة بن يونس عن الحسن .

يؤيد ما قلناه ان القضاة كانوا يقبلون شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود و يسأل عن عدالتهم في اهل دينهم (١)

ولكن هذا المنع لم يكن جازماً باتاً في كل حالة . فلقد قال مالك « تجوز شهادة الطبيب غير المسلم على المسلم لحاجة » (٢)

وفي الكتاب الكريم سورة المائدة : « يا ايها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر احدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم . او آخران من غيركم ان انتم ضربتم في الارض »

قال ابن قيم الجوزية : في كتابه (الطرق الحكمية)

« قال شيخنا رحمه الله : وقول الامام احمد في قبول شهاداتهم (يريد غير المسلمين) في هذا الموضع . هو ضرورة ، يقتضي هذا التعليل قبولها في كل ضرورة : حضراً وسفراً وعلى هذا لو قيل : يحلفون في شهادة بعضهم على بعض ، كما يحلفون في شهاداتهم على المسلمين في وصية السفر لكان متوجهاً . ولو قيل : تقبل شهادتهم مع ايمانهم ، في كل شيء عدم فيه المسلمون . لكان له وجه . و يكون بدلاً مطلقاً . »

فيرى المنصف، ان امر هذه الشهادة، سواء أكان في حق المرأة ؟ ام غير المسلم ؟ لم يجيء ازدراء وتعصباً، ولكن كان له مواضع خاصة . وعلل واسباب لا ينكرها امرؤ اوتي الرشد والنصفة .

وهل ادل على ان هذا الشرع ، انما شرع للعدل المطلق ، وان الاولين لم يقيدوه بقيود تخرجه عن الطريق اللاحب والصراط القويم ، من قول ابن قيم الجوزية :

« والمقصود ، ان البينة في الشرع تكون اربعة شهود . وتارة ثلاثة بالنص في بينة المفلس . وتارة شاهدين . وشاهداً واحداً . وامرأة واحدة . ونكولاً و يميناً . او خمسين يميناً . او اربعة ايمان . »

الى ان يقول :

« فاذا ظهرت امارات العدل . واسفر وجهه باي طريق كان . فثم شرع الله ودينه . والله سبحانه اعلم واحكم واعدل من ان يخص طرق العدل وامارته واعلامه بشيء . ثم ينفي ما هو اقوى دلالة ، وابين امارة . »

---

(١) اخبار قضاة مصر (٢) ابن قيم الجوزية .

٤ القضاء في الاسلام ، والقوانين في هذه الايام — جآء هذا القضاء بكثير من الاصول والاحكام التي يزعم اكثرنا انها كانت مجهولة لولا القوانين الحديثة . واذا كان في هذا الشرع الذي اقفل بابه منذ مئات من السنين ، نقص عن حاجات هذا الزمن ، فان فيه كثيراً مما يوافقها ، بل فيه ما قصرت عن مثله هذه القوانين . واليكم ادلة على ما نقول .

الادعاء العام — فوض القانون الى المدعي العام ، ان يتتبع الجرائم ، فيقيم الدعوى على فاعلها . وان يدافع عن الحق العام . ويخاصم كل من يعبث به . وهو يكاد يتدخل في كل دعوى جزائية . واما في الدعاوي الحقوقية . فقد نص على خطته في المادة (٦٥) من اوضاع المحاكم النظامية . وخلاصتها : انه يتدخل في كل ما يندرج تحته اسم الحق العام ، صراحة اوضمناً . كأموال الدولة ، والمؤسسات العامة ، وصكوك الوصية التي تعود لجهة البر . ورد الحكام . والشكوى منهم . ودعاوي من هم قيد الوصاية ، والغائبين .. الخ

وهذه الخطة لم يغفل الشرع امرها . وقد سماها الاصوليون حقوق الله . وعرفوها بانها ما تعلق نفعه بالعامة ، ويجب على ولي الامر اقامتها : مثل جزاء السارق ، وقاطع الطريق ، واللص وغيرهم من اهل الفسق والفجور .

قال ابن تيمية في كتابه (السياسة الالهية) ما نصه :

« الحدود والحقوق هما قسمان : فالاول الحدود والحقوق التي ليست لقوم معين ، بل منفعتها لعامة المسلمين ، او نوع منهم ، وكلهم يحتاج اليها وتسمى حدود الله ، وحقوق الله مثل : حد قطاع الطريق ، والسراق ، والزناة ونحوهم . ومثل الحكم في الاموال السلطانية ، والوقوف ، والوصايا التي ليست لمعين . فهذه من اهم امور الولايات . »

ففي هذا الكلام خطة المدعي العام . فالشق الاول حدد وظيفته في الامور الجزائية . والشق الثاني اشار الى ما ينبغي عليه في الامور الحقوقية « المدنية » . وهي تكاد تكون — ووظيفته في هذه الايام — وظيفة واحدة . ثم قال :

« وهذا القسم (اي الحد الذي يتعلق به حق الله) يجب على الولاة البحث عنه . واقامته من غير دعوى احد به . وكذلك تقام الشهادة فيه من غير دعوى احد به . وان

كان الفقهاء قد اختلفوا في قطع يد السارق ، هل يفتقر الى مطالبة المسروق بماله . لكنهم متفقون على انه لايحتاج الى مطالبة المسروق بالحد . بل اشترط بعضهم المطالبة بالمال لئلا يكون للسارق فيه شبهة »

نزيد على ذلك ان المدعي العام يسمونه في القوانين التي نقلنا قوانيننا عنها (وكيل الامبراطور) او (وكيل الملك) . فهم قدجعلوا هذا الحق الى ولي الامر وكذلك هو الشرع الاسلامي واذا كان الامبراطور او الملك ، قد وكل عنه من يتولى خطة الادعاء العام . فقد سبق للخلفاء ففعلوا ذلك ، وسموا وكيلهم في هذا الشأن صاحب الشرطة . وجعلوا اليه المطالبة بحقوق الله . وهي ما قلنا عنها انها الحق العام نفسه .

وكما ان المادة الـ ١٥٥ من اصول المحاكمة الجزائية ، فوضت الى المدعي العام ، ان يطلب تنفيذ الحكم من الجهة التي تتعلق به ، فكذلك كان امر صاحب الشرطة في تنفيذ الاحكام .

الحق الخاص والعام — ليس رجوع المدعي عن دعواه بمؤثر ، في ما يتعلق به الحق العام — الا في امور معينة — وكذلك في الشرع لم يجعل رجوع المدعي عن دعواه، سبباً يترك من اجله اوالحق الالهي الذي هوالحق العام جاء في (السياسةالالهية) :

« وفي الصحيحين عن عائشة (رض) ان قريشاً اهمهم شأن المخزومية التي سرقت . فقالوا من يتكلم فيها عند رسول الله (ص) فقيل : ومن يجترئ عليه الا أسامة بن زيد . قال يا أسامة ! اتشفع في حد من حدودالله ؟ انما هلك بنواسرائيل انهم كانوا اذا سرق منهم الشريف تركوه . واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحدود . والذي نفس محمد بيده ، لو ان فاطمة بنت محمد سرقت . لقطعت يدها . »

ومثل ذلك ما رواه بن تيمية ، في كتابه هذا قال :

« كان صفوان ابن أمية نائماً على رداء له . فجاءه لص فسرقه . فأتى به الرسول . فامر بقطعه . فقال يارسول الله . اعلى ردائي تقطعه ؟ اني اهبه . قال فهلا قبل ان تأتيني

الاستنطاق — وكذلك يقال عن الاستنطاق ، فلقد كان الامام علي اول من اجراه على ما يقرب من اصوله الحاضرة ، بل على هذه الاصول عينها . ذلك ان شاباً شكا اليه نفراً فقال :

« ان هؤلاء خرجوا مع ابي في سفر ، فعادوا ولم يعد ابي . فسألتهم عنه فقالوا مات . فسألتهم عن ماله فقالوا ما ترك شيئاً . وكان معه مال كثير . وترافعنا الى شريح ، فاستحلفهم وخلى سبيلهم (١) فدعا علي بالشرط فوكل بكل رجل رجلين . واوصاهم ان لا يمكنوا بعضهم ان يدنوا من بعض ، ولا يمكنوا احداً يكلمهم . ودعا كاتبه . ودعا احدهم فقال : اخبرني عن ابي هذا الفتى ، اي يوم خرج معكم وفي اي منزل نزلتم ، وكيف كان سيركم ، وباي علة مات ، وكيف اصيب بماله ؟ وسأله عمن غسله ودفنه . ومن تولى الصلاة عليه واين دفن ؟ ونحو ذلك . والكاتب يكتب . ثم دعا آخر بعد ان غيب الاول عن مجلسه ، فسأله كما سأل صاحبه . ثم الآخر كذلك حتى عرف ما عند الجميع فوجد كل واحد منهم يخبر بضد ما اخبر به صاحبه . فضيق عليهم . فاقروا بالقصة . فاغرمهم المال ، واقاد منهم بالقتيل »

التفريق بين الشهود — وكان الامام علي ، يفرق بين الشهود ، ويستشهد كلاً على حدة . وهذا وفاق المادة القانونية القائلة « ان الشهود يؤدون الشهادة فرداً فردا »

السجن بالدين — وكان لا يحبس بالدين ، ويقول انه ظلم — الا ان يظهر بقرينة انه قادر مماطل — وهذا ما جرت عليه القوانين الحديثة . وكذلك كان خير بن نعيم الحضرمي قاضي مصر يحبس بالديون ثم يكشف عن امره اذا ادعى العدم فان شهد له به اطلقه من ساعته .

الاوراق الرسمية — ان الاصول الحديثة تعد المحاضر والاعلامات والاوراق الرسمية صحيحة الى ان يثبت تزويرها . وهذا ما كان يفعله القضاة . فقد قال ابن قيم الجوزية :

« وقد كان القاضي يجيز كتب غيره من القضاة ، بغير محضر الشهود . فان قال الذي جيء عليه بالكتاب ، انه زور . قيل له : اذهب فالتمس المخرج من ذلك »

الترجمان — في اصول المحاكمة الجزائية المادة الـ (٢٨٦) ما نصه :

---

(١) وفي لسان العرب : ورفع الى علي رضي الله عنه امر رجل سافر مع اصحاب له فلم يرجع حين قفلوا الى اهاليهم فأتهم اهله اصحابه فرفعوهم الى شريح فسأل الاولياء البينة فعجزوا عن اقامتها . واخبروا علياً بحكم شريح فتمثل بقوله :

اوردها سعد وسعد مشتمل　　ياسعد لا تروي بهذاك الابل

« اذا لم يحسن المتهم او الشهود او احدهم ، التكلم باللسان الذي يتكلم به الآخرون . فرئيس المحكمة يعين ترجماناً رسمياً يكون له من العمر لا أقل من احدى وعشرين سنة . ويحلف انه يترجم واقع الحال الخ . »

وفي الفتح : اذا كان الحاكم يعرف لسان الخصم يكفي له ترجمان واحد . فاذا لم يعرف لسانه فلا يقبل فيه الا عدلان كالشهادة »

وفيه عن مالك : « و يشترط في الترجمان ان يكون ثقة ، عدلاً ، اميناً ، عفيفاً . »

فالشروط التي اشترطها الشرع تشمل الاغراض التي رمى اليها القانون، وتفضلها من وجوه .

انواع الجرائم — جعل الفقهاء الجرائم وعقوباتها على نوعين :

« العقوبة المقدرة للجرائم الكبيرة . وهي تكون بالقود والقصاص والحد — ويغلب عليها اسم الجناية — والعقوبة غير المقدرة لما دون ذلك . و يرجع امر تقديرها للحاكم . ويكون التأديب فيها : بالحبس او الضرب اوالصفع اوالكلام العنيف وما اشبه . وأطلق بعض الفقهاء عليها اسم الزلة — وكذلك قسموا القتل الى عمد وشبه عمد وخطأ . وعرفوا كلاً منها تعريفاً جميلاً »

درجات المحاكم — جعلت القوانين المحاكم درجات ، صيانة للعدل .

« وكان الامام علي قد انشأ ديواناً سمي (ديوان المظالم) كان يلجأ اليه المتظلمون من الاحكام التي تصدر عليهم . وتابعه في ذلك بنو أمية ثم بنو العباس . غير ان عبد الملك بن مروان أفرد لهذا الديوان يوماً معلوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين وكان اذا وقف منها على مشكل رده الى قاضيه ادريس الاودي فينفذ فيه الحكم . وكان ادريس المباشر وعبد الملك الآمر(١) . وكان سائر الخلفاء بين من يجلس هذا المجلس بنفسه ، كما فعل علي بن ابي طالب وعمر بن عبد العزيز من بني أمية والمهدي والهادي والرشيد والمأمون ثم المهتدي من بني العباس .

وفي المنهج المسلوك : لما افضى ملك الشام الى الملك العادل نور الدين بن زنكي بنى له داراً في قلعة دمشق سماها دار العدل ، فكان يجلس فيها فيتصفح قصص المظلومين و يفصل بين امر المتنازعين ولديه الفقهاء وأئمة الدين فيرجع اليهم ما أشكل عليه من امور الشرع(٢) .

(١) المنهج المسلوك (٢) المنهج .

وبين من يكله الى قاضيه »

الظنين واليمين — حظرت القوانين ان يحلف الظنين اوالمتهم . وعدت ذلك أثراً من آثارالهمجية . لان الرجل يقف عندئذ بين احدى خطتين : كذب كامر من نخوته ، او صدق مضيع لحريته ، متلف لنفسه .

وقديماً قال ابن القيم الجوزية ، في كتابه (الطرق الحكمية) :

« وقد استثني من التحليف في الحدود صورتان : احداهما اذا قذفه فطلب حد القذف . فقال القاذف حلفوه انه لم يزن فذكر أصحاب الشافعي فيه وجهين . والصحيح قول الجمهور انه لا يحلف ، بل القول بتحليفه في غاية السقوط . فان الحد يجب بقذف المستور ، وليس من شرطه ان لا يكون قد اتى الفعل في نفس الامر . ولهذا لا يسأله الحاكم عن ذلك ولا يجوز له سؤاله . ولا يجب عليه الجواب . وفي تحليفه تعريضه للكذب واليمين الغموس ، ان كان قد ارتكب ذلك . او تعريضه لفضيحة نفسه ، واقراره بما يوجب عليه الحد . او فضيحته بالنكول الجاري مجرى الاقرار . »

ادغام العقاب — لما ارتقت الحياة الاجتماعية رقت قوانينها — فكان من وراء ذلك ان جعلت الجزاء اصلاحاً وتأديباً . لا انتقاماً وتعذيباً — وجاءت المادة الـ (٢٩٩) من اصول المحاكمة الجزائية تقول في شقها الثاني :

« اذا ارتكب المتهم عدة جنايات وجنحات معاً . فتحكم بالجزاء المعين للجرم الاشد عقوبة »

ومثل ذلك ما قاله ابو يوسف في كتابه (الخراج) .

« وان لم يكن القاذف ضرب للاول ، حتى قذف آخر ، فانه يضرب لهما جميعاً حداً واحداً . »

« فان كان القاذف عبداً ، ضرب حد العبد اربعين . فان لم يكن ضرب بعد ما قذف حتى أعتق ، ثم قدمه الى الحاكم فانه لا يزيده على الاربعين لانها هي التي كانت وجبت عليه يوم قذف »

وهذا وفاق ما تنظر اليه الاصول الحديثة ، اي الى الحالة التي كان عليها المجرم يوم وقوع الجرم

« فان لم يكن ضرب بعد العتق ، حتى قذف آخر . ضرب الاول والثاني ثمانين . اي انه عوقب للجرمين بعقوبة أشدهما فقط . وكذلك لو ضرب من الحد اسواطاً ، ثم قذف آخر . كمل له الحد فقط . ويحتسب بما مضى . ولا يضرب ثمانين مستقلة ما بقي من الحد سوط . فان كملت له الثمانون ، ثم قذف آخر . ضرب لذلك ثمانين أخرى بعد ان يحبس حتى يخف الضرب »

« وكذلك لو سرق غير مرة ، قطع مرة واحدة لتلك السرقات كلها . »

السرقة وانواعها — للمادة (٢٣٠) من قانون الجزاء ذيل جعلت احدى فقراته للسرقة وسوء الائتمان واخذ المال بالحيلة مما يقع على الاشياء الخسيسة . عقوبة دون غيرها .

« وفي الشرع لا يقطع السارق في الشيء التافه » وفي الحديث لا قطع في الدغرة: وهي اخذ الشيء اختلاساً .

فيكون الشرع جعل الاختلاس أخف عقوبة من السرقة . وهو ما جرت عليه القوانين الحديثة . اذ رتبت على السرقة تقع (اخذاً ونشلاً) جزاء اخف من السرقات العادية .

ومن هذا القبيل الفرق بين السرقة تقع في مكان محرز ، وبينها تقع في مكان غير محرز . فاوجبوا القطع في الاولى فقط . وهذا وفاق تقسيم السرقة الى جناية وهي ما صاحبها خلع او كسر او فتح بآلة خصيصة . والى جنحة وهي السرقة العادية .

على انهم اشترطوا في القطع ان تبلغ قيمة المسروق عشرة دراهم فصاعداً . وهذا القيد خير من الاطلاق الذي جرى عليه القانون . لان رجلاً يدفعه الجوع فيفتح باباً بمفتاح او آلة فيسرق رغيفاً يدافع به الموت عن نفسه كما كان يقع ايام الحرب . يكون من الجناية ان يعد فعله جناية .

السرقة بين الاصول والفروع — في قانون الجزاء .

« اذا اخذ الزوج او الزوجة مال الآخر في حالة الاجتماع او الافتراق . او اخذ الاولاد وسائر الفروع مال آبائهم وامهاتهم وسائر اقربائهم من الاصول . او اخذ الآباء والامهات وذوي القربى من سائر الاصول مال الاولاد وسائر الفروع . يسترد المأخوذ و يعطى لاصحابه . »

وقال ابو يوسف في كتابه (الخراج) :

« ولا يقطع احد بسرقة من ابيه . ولا من أمه ولا من ابنه ولا من اخيه ولا من أخته ولا من زوجته ، ولا من ذي رحم محرم منه . ولا تقطع المرأة في السرقة من مال زوجها . »

المحاولة — جعل القانون لمن صمم على جناية — ثم حالت اسباب قاهرة دونها — عقاباً خاصاً هو دون ما يترتب على تلك الجناية لو انها خرجت الى حيز الفعل . وهذا ما تفطن له الفقهاء من قبل . فقد قال ابو يوسف في كتابه (الخراج) :

« ومن وجد قد نقب داراً او حانوتاً . ودخل فجمع المتاع ولم يخرجه . حتى ادرك . فليس عليه قطع . ولكنه يوجع عقوبة ، ويحبس حتى يحدث توبة »

ومثل ذلك ما قاله ابن تيمية في كتابه (السياسة الالهية) .

« واما اذا شهروا السلاح (يريد الاعراب وفسقة الجند وغيرهم) ولم يقتلوا نفساً ، ولم يأخذوا مالاً . ثم اغمدوه اوهربوا . وتركوا الحرب . فانهم ينفون . واختلفوا في النفي فقيل هو تشريدهم فلا يتركون في بلد . وقيل هو حبسهم ، وقيل هو مايراه الامام اصلح من في اوحبس اونحو ذلك .

المشاركة — جاء في المادة (٤٥) من قانون الجزاء :

« اذا ارتكب عدة اشخاص متحدين ، جناية اوجنحة . اوكانت احداهما مؤلفة من عدة افعال . فاتى كل منهم فعلاً اوبعضاً من هذه الافعال قصد حصول الجرم . عدوا مشتركين في الجريمة وعوقبوا كلهم عقاب الفاعل المستقل »

وقبل ذلك جاء في تنوير الابصار ، باب السرقة :

« تشارك جمع ، واصاب كلاً قدر نصاب ، قطعوا . وان اخذ المال بعضهم . » وفي الدر المختار : (ولو فيهم صغير اومجنون او معتوه او محرم لم يقطع احد) وزاد في الحاشية قوله :

قال في الفتح (وانما وضعها في دخول الكل ، لانه لو دخل بعضهم لكنهم اشتركوا بعد ذلك في فعل السرقة ، لا يقطع الا الداخل ان عرف بعينه . وان لم يعرف عزروا كلهم وابد حبسهم الى ان تظهر توبتهم)

وفي هذا الاستدراك ، الذي استدركه صاحب الدر ، من الرحمة والصواب مافيه .

الرشوة — في المادة (٧٧) من قانون الجزاء .

« اذا اكره انسان ، واضطر اضطراراً صحيحاً ، ان يرشو آخر ، صوناً لنفسه وماله وعرضه . وبالاجمال لكل منفعة مشروعة . ثم اعلم الحكومة بامره . استردت نقود الرشوة واعيدت لصاحبها . وعوقب آخذها عقاب المرتشي . »

وهذا وفاق ما ورد في السياسة الشرعية قال :

« وللرشوة نوع آخر ، هو دفع شيء الى الظالم بالاضطرار لرفع ظلمه ، او لتخليص المال والنفس من شره . وهذا لاشك في انه حرام على الآخذ الظالم ، واما الدافع

المظلوم فلا يدخل تحت الوعيد ، اذ الرجل مأمور بجعل ماله وقاية لنفسه ودينه ، في مواضع الضرورة . كما يدل الحديث الشريف : اجعل مالك دون نفسك ، ونفسك دون دينك . فالرشوة من هذا القبيل ، لما كانت لاتستندالى سبب شرعي من اسباب الملك ، تسترد من المرتشي وترد الى صاحبها .

اسقاط الحق العام — رأى اصحاب القانون في الفترة الاخيرة انه كثيراً ما يقع خلف بين ذوي العلاقة والقربى ، فتحمل الطرفين اواحدهما نزوة من نزوات الغضب، فيرفع الامرالى الحاكم . فاذا انتهت القضية اليه ، فلا بد من حكم يكون في غالب الاحيان ، سبباً في توسيع الخرق واستحكام حلقة العداء . فاستدركوا الامر ابقاء للمودة وحفظاً للحقوق، بان جعلوا للمادتين الـ (١٧٩) والـ (٢١٤) فقرتين اجازوا فيها اسقاط الحق العام ، تبعاً للحق الخاص ، في كثير مما تشمله هاتان المادتان .

واذا دققنا في اقوال الفقهاء ، وجدنا لهم مايقرب من هذا كثيراً ، بل مايرد واياه شرعة واحدة . ففي حاشية ابن عابدين . مبحث (هل للقاضي العفو عن التعزير) :

« قال : لآخر يازاني! فقال الآخر بل انت . حداً لغلبة حق الله (الحق العام) فيه . بخلاف ما لوقال له مثلاً ياخبيث فقال بل انت . لم يعزرا . لانه حقهما، وقد تساويا اما اذا تشاتما بين يدي القاضي، اوتضاربا، لم يتكافآ لهتك مجلس الشرع »

الاقرار — في الاصول القانونية لايكون مداراً للحكم .

«وقدقال ابو يوسف — من ظن به او توهم عليه سرقة،اوغيرذلك فلا ينبغي ان يعزر بالضرب والتوعد والتخويف فان من اقر بسرقة او بحد او بقتل وقدفعل ذلك به فليس اقراره ذلك بشيء . ولا يحل قطعه ولا اخذه بما اقر به . وعن عمر انه قال ليس الرجل بمأمون على نفسه،ان اجعته اواخفته اوحبسته ، ان يقر على نفسه .»

« وكذلك لايعتبر اقرار الرجل عماوجب عليه فيه الحد ، مالم يردده . ثم يسأل عنه، هل به لمم؟ هل به جنون؟ هل في عقله شيء ينكر؟ فان لم يكن في عقله شيء من ذلك وجب عليه الحد»

الاتهام والتبرئة — ولقد منعت الاصول الحاضرة ، ان يحكم على رجل اتهمة يتهم بها،او بينة قلقلة تردعليه . واوجبوا في كل قضية يتردد فيها وجدان الحاكم بين البراءة والحكم

بل بالغوا في ذلك، حتى قالوا : ان تبرئة جماعة من المجرمين اولى من تجريم بريء واحد . ولقد جاء في هذا الشرع :

« ادرؤا الحدود بالشبهات ما استطعتم . والخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة . وقال عمر لئن اعطل الحدود في الشبهات . خير من ان اقيمها في الشبهات . »

تخلية السبيل والكفالة — شرعت تخلية السبيل بالكفالة، صيانة للحرية الشخصية ان تقضي عليها الشبهات . ورحمة بالظنين او المتهم في بعض الحالات . وهو تدبير عدل جرت عليه الامم الراقية كافة . ولم يذهب هذا الامر عن بال القائمين بهذا الشرع . قال ابو يوسف:

« ولا ينبغي ان تقبل دعوى رجل على رجل في قتل ولا سرقة . ولا يقام عليه حد الا ببينة عادلة . او باقرار من غير تهديد من الوالي له او وعيد . ولا يحل ولا يسع ان يحبس رجل بتهمة رجل له . كان الرسول لا يأخذ الناس بالقرف . ولكن ينبغي ان يجمع بين المدعي والمدعى عليه فان كانت له بينة على ما ادعى . حكم بها . والا أخذ من المدعى عليه كفيل . وخلي عنه فان اوضح المدعي بعد ذلك شيئاً ، والا لم يتعرض له . »

ولم يجوزوا السجن بالتهم .

« الا اذا كان المتهم من ذوي التهم السابقة ، او من اجلاف يتوقع منهم صدور مثل تلك الافعال . ولم يجعلوا مدة معينة للسجن في هذه الحالة، فتحديد مدته راجع الى الرأي والاجتهاد »

جلب الظنين — ان القانون الذي نجري عليه في يومنا، قد اوجب على الظنين ان يحضر المحاكمة بنفسه . ولا يسوغ له ان يرسل وكيلاً يدافع عنه في اساس القضية اذا كانت الدعوى التي اقيمت عليه من دعاوي الجنحة او الجناية: وكانت تستوجب — ان هي ثبتت عليه — جزاء الحبس . ولا ينكر ما في هذا القيد من التشديد، اذ لا يندر ان تكون الدعوى انما اقيمت نكاية بالظنين وحطاً من كرامته . فالقضاء عليه ان يحضر بنفسه والا يمنع حق التوكيل ويحاكم غياباً — فيه اجحاف وظلم كبيران . ولقد كان الشرع في هذا ، اصح من القانون وانصف إذ كان مالك . على ما جاء في كتاب الخراج : ممن يرون ان حضور مجلس الحاكم تعويق من جنس الحبس فلا يجب حضور الخصم المطلوب بمجرد الدعوى . بل لا بد للمدعي ان يبين ان للدعوى التي يدعيها اصلاً .

الافتراء والذم — في قانون الجزاء عن الافتراء ماخلاصته :

« من عزا الى آخر جرماً لغرض ما وهو يعرفه بريئاً او اختلق على ذلك الرجل آثاراً ودلائل مادية لكذا جرم يحبس الخ … »

وفيه عن الذم والتحقير .

« من ذم انساناً باسناده اليه ما يجعله عرضة لاحتقار الناس وخصومتهم يحبس اوما يحط من قدره وناموسه … يحبس الخ »

قالوا : ويتم الافتراء ايضاً اذا ورد الاخبار في لائحة دعوى مكتوبة اومطبوعة او في ضبط يودعه المخبر اخباره .

واليكم ما قاله الفقهاء في هذا المعنى :

« قال مالك واشهب لا ادب على المدعي الا ان يقصد اذية المدعى عليه وعيبه وشتمه . فيؤدب »

فالحكمان الشرعي والقانوني في هذا واحد . من حيث الجوهر والروح . كلاهما يجازي حيث يراد الافتئات على آخر ، والنيل من كرامته .

الحامل والجزاء — في المادة الثامنة عشرة من قانون الجزاء : « المرأة المستحقة جزاء الاعدام ، اذا اخبرت بانها حامل وتحقق ذلك وثبت ينفذ فيها العقاب بعد وضعها »

وفي رد المحتار على الدر المختار : ويقام الحد على الحامل بعد وضعها . فان كان حدها الرجم ، رجمت بعد الوضع . الا اذا لم يكن للمولود من يربيه . فحتى يستغني . وان كان الجلد فبعد النفاس)

الحرمان من الحقوق المدنية — لاشهادة لمن حكم عليه بالحرمان من الحقوق المدنية . وقريب من ذلك ماورد في الشرع (من ان الرجل اذا حد في قذف ، لم تقبل شهادته)

سن المجرم — راعت — المادة (٤٠) ، من قانون الجزاء — سن المجرم . من حيث نوع العقوبة وتطبيقها قال الفقهاء :

« ولا يقام له الحد على غلام لم يبلغ الحلم »

الدفاتر والسجلات — وكان القضاة يتخذون دفاتر وسجلات يقيدون فيها اقضيتهم

واول من فعل ذلك منهم سليم بن عتر التُجيبي (١) قاضي مصر : وذلك انه اختصم اليه في ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا اليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه واشهد فيه شيوخ الجند . ثم جاء المفضل بن فضالة فطوّل السجلات ونسخ فيها كتب السجايا والوصايا والديون ولم يكن ذلك قبله (٢).

***

هذا وقبل ان نختم الكلام نرى حقاً ان نشير الى بعض اصول ، نجري عليها اليوم وقد سبق للسلف ان جروا عليها من قبل . من ذلك :

كتابة العدل — فهي ليست مما احدثه المتأخرون . بل كانت قديماً . اخذها الفقهاء من الكتاب الكريم . وصيروها عملاً مستقلاً كاد يكون كما هو اليوم . قال ابن خلدون :

«العدالة .. تابعة للقضاء . وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم عند التنازع وكتباً في السجلات تحفظ به حقوق الناس واملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم . وشرط هذه الوظيفة . الاتصاف بالعدالة الشرعية ، والبراءة من الجرح ، ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها ، وانتظام فصولها ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها . فيحتاج حينئذ الى ما يتعلق بذلك من الفقه . ويجب على القاضي تصفح احوالهم والكشف عن سيرهم .. فيعولون (اي القضاة) غالباً بها (اي بالبينات الموثوقة) على هذا الصنف . ولهؤلاء في سائر الامصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها ، فيتعاهدهم اصحاب المعاملات للاشهاد وتقييده بالكتاب .

دار القضاء — كان الحكم قبل الاسلام والقاضي في الصدر الاول . يؤتى في بيته فيحكم بين المتخاصمين . او كان حيث يكون فهناك مجلسه . ثم اتخذ القضاة المساجد ندوة للحكم ، يقضون فيها بين المسلمين ، فاذا جاء العصر جلسوا على باب المسجد يقضون بين غير المسلمين او جعلوا لهم يوماً في منازلهم . فلما انتهى قضاء مصر — ايام الرشيد — الى محمد بن مسروق ادخل النصارى المسجد الجامع في خصوماتهم .

السجن — كان الرسول يسجن في المسجد ، وتبعه في ذلك ابو بكر وعمر

(١) اخبار قضاة مصر (٢) اخبار قضاة مصر

وعثمان . ثم احدث علي سجناً خاصاً . وأجرى على من لا مال له ولا شيء له ، مايقوته من بيت المال . ومضى على سنته الخلفاء من بعده .

وكتب ابو يوسف ، مخاطباً امير المؤمنين الرشيد في شأن السجناء :

« فمر بالتقدير لهم مايقوتهم في طعامهم وادمهم . وصير ذلك دراهم تجري عليهم في كل شهر . فانك ان أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن ... ولِّ ذلك رجلاً من اهل الخير . يثبت اسماء من في السجن . ممن تجري عليهم الصدقة شهراً فشهراً . ويقعد و يدعو باسم رجل رجل . ويدفع ذلك اليه في يده .. وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء . وفي الصيف قميص وأزار . ويجري على النساء مثل ذلك . وكسوتهن في الشتاء قميص ومقنعة وكساء . وفي الصيف قميص وأزار ومقنعة »

« ونهوا عن غل السجين . الا اذا خيف فراره . وعن ضربه الا اذا أقيم عليه حد . وأذنوا له اذا كان عليه ديون ان يخرج فيخاصم . »

***

هذه صفحة من هذا القضاء . قضى عليها الدهر بان تكون مطوية ، مع ما لاصحابها في نشرها من حسن الاحدوثة وطيب النشر . وأنا لا أدعي اني قد أحطت بهذا الموضوع من جميع وجوهه . اذ قد يكون مافاتني ذكره ، لايقل عما ذكرته دقة وعدلاً ، من حيث الآداب . وموافقة لروح العصر ، ومماشاة للقوانين الحاضرة ، من حيث الاصول .

ولقد كانت الامور الجزائية اكثر ماتعرضت له في هذه المقارنة لسببين : (اولاً) لان القانون المدني عندنا هو المجلة ، وهي مستمدة بجملتها من الشرع . فليس مايدعو الى التنويه بها ، وهي لا تزال واحكامها هي هي . لا يعوزها الا قليل من التعديل . حتى تتجدد نضارتها . وتصبح خليقة ان ينسج في القوانين على منوالها .

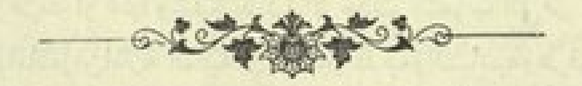
(ثانياً) ان اهل العصر الحاضر ، يزعمون هذا الشرع غريباً عن قضايا العقوبات جملة . دع الاصول الحديثة . بعيداً عن روح العدل في هذا الباب . على حين رأيتم

ما بينهما من الصلة والعلاقة · ولو انه أتيح لهذه الشريعة خلف سار على سنة ذلك السلف · لانفردت عن الاشباه وتنزهت عن النظائر ·

وهو وان كان شرعاً اسلامياً فقد كفل العدل والنصفة لكل من نزل على حكمه مسلماً كان او غير مسلم ·

لهذا ولامثاله لقبت هذه الشريعة بالشريعة السمحة وهذه هي المفاخر الصحيحة التي يعرفها التاريخ الحق لا تلك البدع العريقة بالوهم · فاذا استفاق الخلف · واقتفى سنة السلف · ونبذ القشور · وعاد الى الالباب · فقد عاد الى هذا الوطن · عصره الاول · الاغر المحجل ·

عارف النكدي



العلم (۱)

لاجرم ان العلم الصحيح الكامل وسيلة الى كل فضيلة وصلاح وسلم ارتقاء الامم الى اعلى درجات النجاح والفلاح. به يتميز الانسان على الانسان كما يتميز على غيره من انواع الحيوان بالعقل والبيان . ولذلك وصف بانه حياة النفوس وضياء البصائر و بان رتبته ارفع الرتب . ووصف العلماء بانهم ورثة الانبياء وامناء الله على خلقه ومصابيح الهداية وكواكب الارض . كما وصف الجهل بانه موت النفوس وعمى الاذهان وظلام العقول . ووصف الجاهل بانه بهيمة في صورة انسان و بأن عينيه في ظهره . ورأسه في معدته . وقد كان للعلم شأن عظيم عند كل أمة من الامم السالفة واول من اشتغل به البابليون او الكلدانيون فكان علماؤهم يتقنون رصد الكواكب بمنتهى التدقيق واخترعوا لها المزاول المضبوطة وكان لهم باع طويل في الطب وشهرة واسعة في الصنائع النفيسة كالنقش والحفر والتصوير . ثم انتقل العلم الى الفرس والفينيقيين والصينيين والهنود واليونان والرومان وكلما سطعت انواره في أمة ارتفع شأنها وعظم عمرانها . وكلما تقلص ظله من مملكة تقلص معه مجدها وافل سعدها وتزعزت اركانها وتهدم بنيانها كما حدث للشعوب التي مر ذكرها . فلما جاء العرب ادركوا ما للعلم من المنزلة العالية في الحالتين المدنية والسياسية وعرفوا شدة الحاجة اليه في الشؤون الاجتماعية وعنوا بنشره في البلاد العربية فسطع ضياؤه في الشام والعراق ومصر والمغرب والاندلس ولا سيما في زمن الخليفة العباسي المأمون الذي انتقى افضل الكتب الفلسفية اليونانية وامر بترجمتها الى العربية وحرض الناس على مطالعتها وتعلمها حتى حفلت بغداد بالعلماء والمصنفين وزخرت خزائنها بالكتب النفيسة وامتدت شعلة الطلب والتدريس الى سائر البلاد الاسلامية . وفي زمن الخليفة الاموي عبد الرحمن الملقب بالناصر الذي جعل مدينة قرطبة داراً للعلم على نحو ما كانت بغداد في المشرق والقيروان في المغرب والقاهرة في مصر وحشد الكتب من افريقية وبلاد فارس ومصر وسائر الآفاق العربية حتى

(۱) خلاصة محاضرة للاستاذ انيس سلوم القاها في ۲۱ تموز سنة ۱۹۲۱ م .

جمع في مايقال اربع مئة الف مجلد وقيل اكثر وانتشرت هذه الرغبة في جميع الكتب حتى كانت من انفس ما يتغالى به · وقد قيل ان الاندلس كان فيها في اوائل القرن الخامس للهجرة سبعون مكتبة حافلة ·

وكان للعلماء عند العرب مقام سام حتى ان الخلفاء انفسهم كانوا يصبون الماء على ايدي العلماء ويقضون اوقاتهم بين المحابر والدفاتر و يبنون بيوت العلم كما يبنون بيوت العبادة · ورغب علماء العرب في العلوم الطبيعية وافلحوا فيها واخذوا عن اليونان مبادئ الفلك والهندسة والحساب والجبر والطب والنبات وغير ذلك من العلوم وحسنوها كلها وما زالت انوار المعارف ساطعة في آفاقهم حتى دالت دولهم فالقيت مقاليدها الى الغربيين وقد كانوا خابطين في ظلمات الجهل فاهتدوا بما اقتبسوه من علوم العرب واجتهدوا في اتقانها وزادوا عليها وبعد ان كانوا تلاميذ العرب اصبحوا بجدهم ومثابرتهم وثباتهم اساتيذ العالم باسره وقادة الافكار البشرية كلها وتوصلوا بفضل فروع العلم المختلفة الى الاتيان باعجب الاختراعات والاكتشافات واعظم الاعمال التي تحير العقول وتكاد تشبه المعجزات واستخدموا كل ذلك في ما يؤول الى خير البشر وراحتهم وسعادتهم · ولا بد لي في هذا المقام من ذكر خلاصة المنافع التي جناها العلماء من حدائق العلم واهدوها الى المجتمع البشري وهي : (١) تحسين الصحة العامة فان العلماء كجنر وباستور وكوخ وغيرهم اكتشفوا ادوية واقية وشافية من الجدري والخناق والهواء الاصفر والحميات المتنوعة · والجراحين تفننوا في الاعمال الجراحية وبلغوا في اتقانها درجة سامية فاصبحوا قادرين ان يشقوا البطن و يستأصلوا بعض الاعضاء بدون تعريض الحياة للخطر وساعدهم على النجاح في اعمالهم استعمال مضادات الفساد التي اوصلهم العلم الى كشفها حديثاً فقلت الوفيات بتقدم الطب والجراحة ومراعاة القوانين الصحية وطال معدل العمر كما ثبت ذلك بالاحصاآت الدقيقة وشهادة الخبراء العارفين · قال احد ساسة اليابان انه قبل انتشار العلم في بلادنا كان اكثر من ثلثي اطفالنا يموتون لجهلنا وسائط التربية وقوانين الصحة وكانت الاوبئة تفتك بنا فتكاً ذريعاً لجهلنا طرق الوقاية منها ووسائط منع تفشيها اما الآن فان المدارس والمستشفيات والاطباء والوسائط الفنية قد افادتنا فوائد جمة لا يسع احداً انكارها فتحسنت عندنا الصحة العامة وزادت مواليدنا على وفياتنا · وهو قول حري بالاعتبار وكفى به دليلاً على ان العلم لم ينتشر في بلاد الا افاد اهلها فوائد

صحية عظيمة والصحة أساس كل خير ونجاح وهي أهم من كل شيء ولا يغني عنها شيء ·

(٢) تقوية العقل وترقيته بتمرينه على الحذر والانتباه والملاحظة والاستقراء والاستدلال والقياس والتدقيق والتحقيق والاستنباط والاختراع ورد النتائج الى اسبابها الحقيقية وادراك النسبة بين العلل والمعلولات · وجملة القول ان العقل المستنير بضياء العلم الصحيح يكتسب مضاء وقوة و يتحرر من عبودية الخرافات والخزعبلات والترهات التي كانت تخيف الناس كالاعتقاد ان الخسوف والكسوف وظهور ذوات الاذناب وهبوط النيازك مما يؤثر في احوال البشر و يجلب عليهم الحروب والاوبئة والمجاعات وغيرها من البلايا · وكما ان الرياضة البدنية بالالعاب المتنوعة والاعمال المختلفة تقوي البدن كذلك الرياضة العقلية بدرس العلوم المختلفة تقوي العقل وتزيل عنه الجمود والخمول والوهن وتقوّم كل اعوجاج فيه · فعلم الهندسة يقي الذهن من التشتت وعلم المنطق يعصمه من الخطإ في الفكر و يدرّبه على إقامة الحجج · وعلم الحقوق يعينه على استحضار القضايا والاستشهاد باقوال الفقهاء واثبات الدعاوي بالنصوص الشرعية والقانونية · غير ان الرياضيات أشد العلوم تثقيفاً للعقل لانها قائمة بالقياس والبرهان ومتضمنة احسن ما يهيئاً به العقل للاستدلال واقامة الحجة ·

(٣) اصلاح الآداب فان الذين تعلموا العلم الصحيح يعرفون ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات فيحافظون على حقوقهم و يقومون بواجباتهم و يحترمون انفسهم فيعتزلون المنكرات و يترفعون عن الدنايا و يتزينون بالاخلاق الحسنة و يتسابقون الى الاعمال الشريفة والمساعي الحميدة فلاريب ان العلم الصحيح يصلح الآداب ويحسن الصفات ويجمل الخصال و يقلل الجرائم في البلاد · ولذلك قيل اذا امتلأت المدارس فرغت السجون · وكلما بعد الناس عن العلم وتوغلوا في الجهل ساءت اخلاقهم وفسدت آدابهم وقبحت أعمالهم كما يرى ذلك في القبائل المتوحشة كقبائل اواسط افريقية التي تأكل لحوم البشر وتعمل القبائح التي لا يليق ذكرها بلا خوف ولاحياء لان غير المتمدنين لا يفرقون عن الوحوش المفترسة الا بكونهم يقبلون العلم والتهذيب اذا أتيح لهم ذلك وتوفرت لديهم الوسائط الكافلة به · فان قيل ان بعض اهل العلم ذوو اخلاق فاسدة

وآداب ساقطة قلت ان علمهم غير صحيح او غير كامل لان العلم الصحيح الكامل مقترن ابداً بالاخلاق الفاضلة فلا يصدر عنه الا الصلاح فهو كالشمس التي لا يصدر عنها الا النور

(٤) اخضاع الامور الطبيعية لسلطة الانسان فالذين تعمقوا في العلم عرفوا كثيراً من اسرار الطبيعة وكشفوا خفاياها واطلعوا على سننها وخباياها وشاهدوا عجائبها وغرائبها واستنبطوا دخائلها ومكنوناتها واستخدموا لمنافعهم قواتها فسخروا برق السماء وتسلطوا على الماء والهواء واخترقوا الحجب بعض الاشعة فرأوا ما خفي على الابصار وولدوا بقوة الماء بدائع الانوار وتمكنوا من اجتناء كثير من الفوائد ورفع كثير من الاضرار وانما توصلوا الى كل ذلك بفضل الطبيعيات وهي علوم التجربة والاستقراء ٠

(٥) توفير الثروة فان العلم هو الذي حسن مصادرها اي الزراعة والصناعة والتجارة فوفرت الاموال وحسنت الاحوال باصلاح الاعمال وبيان ذلك ان العلماء توصلوا بعلم الزراعة وهندسة الري الى تزييد غلال الارض كما يشاهد ذلك في اكثر بلاد الغرب وبعض بلاد الشرق كمصر التي اضحت تفيض ذهباً وهناء على سكانها بفضل تحسين الري فيها ٠ وبعلم المعادن استخرجوا كنوز الارض الثمينة وذخائرها المدفونة ٠ وبعلم الكيمياء رقوا الصناعة وتفننوا فيها على اساليب شتى حتى انهم انتفعوا بالنفايات كالخرق البالية والاقذار الجارية والعظام وقصاصة الجلد ونشارة الخشب والامعاء فصنعوا منها الورق الابيض الصقيل والطيوب الذكية ومقابض السكاكين واوتاراً آلات الطرب الى غير ذلك من الاشياء التي ينتفع بها وباثمانها ٠ وحازت المانيا قصب السبق في هذا الميدان فكانت تصدر من الاصباغ الكيماوية المستخرجة من قطران الفحم في كل سنة ما يبلغ ثمنه اربعين الف الف دينار فوق ما كانت تستعمله في بلادها وقد نابت تلك الاصباغ منا — النيل الذي كان يستعمل من قديم الزمان لهذه الغاية ٠ وجملة القول ان العلم هو الذي افاض الغنى العظيم على سكان اوربة واميركة وهو الذي فتح لهم خزائن الارض وهو الذي حول الماء والتراب والنبات ومعادن الرصاص والحديد والنحاس الى ذهب وهاج والفرق بينهم وبين اكثر الشرقيين هو انهم يحتالون على الارض ليستخرجوا الذهب من ترابها ومائها ومعادنها ونباتها واكثر الشرقيين يحتالون على الثروة الموجودة في ايدي الناس

إسلبوها بالغش والخداع ولذلك كانت ثروة الغربيين تزداد بالاجتهاد في العلم وثروة الشرقيين تنقص بالكسل والجهل ·

(٦) تسهيل طرق المعيشة وتوفير اسباب الراحة باستخدام القوات الطبيعية مثل قوة الماء وقوة الهواء بدلاً من قوة الحيوان كما في ادارة الارحية بهما بدلاً من ادارتها بالايدي واستخدام البخار لتسيير القطر في البرّ بدلاً من الخيل والجمال والسفن في البحر بدلاً من الاشرعة وتسخير البرق لنقل الانباء الى اطراف المعمور في طرفة عين بواسطة الاسلاك المعدنية وبدونها بدلاً من البريد والسعاة · وانارة البيوت والشوارع بالاضواء اللوامع بدلاً من الشموع والسرج وتسيير المركبات وتدوير الآلات والقيام باكثر الحاجات كالغسل والطحن والعجن والخبز والكنس وغير ذلك مما كان يعمل باليد فاصبحت قوة الكهرباء تعمله بدون مشقة وكل ذلك بفضل العلم · وزد على ذلك اختراع الآلات العديدة التي تخفف التعب وتوفر الوقت كآلة الخياطة وآلة النسج وآلة الطبع وغيرها مما تضيق المجلدات عن وصفه · فالمطبعة تطبع في ساعة مالا يستطيع الانسان ان يكتبه في شهر والمنسجة تنسج في يوم مالا يقدر الانسان ان ينسجه في سنة وعلى ذلك فقس · وخلاصة ما يقال في هذا الشأن ان العلم يمكن الانسان من السفر الى اقصى الارض في ايام قليلة ومعرفة اخبار العالم في ساعات معدودة ومخاطبة من يشاء على امداد الوف من الاميال في لحظة والحصول على الوف من الكتب باثمان زهيدة · وقدم له الجليد في ايام الحرّ الشديد والدفء في ايام البرد القارس وحمل اثقاله وسهل اعماله واراح جسده وافكاره وازال من سبيل سعادته اكثر العقبات وهوّن عليه في حياته اعظم الصعوبات ·

(٧) الابتهاج بآيات الله في خلقه فان العلم بما في هذا الكون العجيب من الآيات البينات من اكبر دواعي المسرات لانه يكسب صاحبه لذةً عقلية تفوق كل لذة جسدية بمقدار ما يفوق العقل الجسد فاذا طاف عالم الحيوان والنبات الحقول او الغابات بسمت له الازهار ورحبت به الاشجار واطربت سمعه الاطيار لانه درس خصائصها وعرف طبائعها واذا رفع عالم الفلك بصره الى القبة الزرقاء في ليلة زهراء او رصد كواكبها او تأمل عجائبها شعر بلذة لا يعبر عنها بلسان ولا يشعر بها الا اولو العرفان وكذلك يهتز الشاعر طرباً لنفيس الاشعار ويترنم الموسيقي عجباً لنغمات الاوتار ويجد كل عالم او

متفنن في علمه او فنه سروراً عظيماً لا يقدر الجاهل ان يعرفه او يشعر به فحياة العالم سعيدة وايامه بهيجة اذ لا شيء يبهج القلب و يملأه حبوراً مثل العلم ولا صحة لقول بعضهم من زاد علماً زاد هماً لان زيادة العلم تزيد المسرة واللذة وذلك ثابت بالبديهة لانه كما ان النور يبهج البصر بكشفه المرئيات كذلك العلم يبهج القلب بكشفه الحقائق الثمينة للعقل فكلما زادت المعرفة زادت اللذة ٠

(٨) رفع شأن الافراد والجماعات والامم فقد رفع العلم كثيرين من وهدة الهوان الى ذروة المجد فبعدان كانوا حطابين وخزافين اوصانعي احذية ارتقوا الى مراتب الوزراء او السفراء اورؤساء الجمهوريات ٠ والامم التي عنيت بالعلم ورفعت الويته في بلادها بلغت اعلى ذرى العز والنعمة والنجاح والسيادة والتاريخ اكبر شاهد على ذلك فان مملكة الرومان لما كان العلم فيها مشرقاً اتسع نطاقها وعلا سؤددها وخدمها السعد قروناً فمدت صولجانها على الخافقين ولكن لما انطفأت شعلة العلم فيها تمزقت شذر مذر وكذلك جرى للممالك السالفة وللدول العربية فانها لما عنيت بالعلم سادت وشادت وبلغت من المجد ما أرادت ولما أهملته انحط شأنها وتهدم عمرانها ٠ والدول العظمى في عصرنا الحاضر لم تبلغ ما بلغته من العز والقوة والجاه والسطوة الا بفضل العلم وحسبنا اثباتاً لهذه القضية مانراه من البون الشاسع الادبي بين اليابان والصين وهما في بلاد الشرق الاقصى فان الصين على اتساع ارضها وكثرة عدد سكانها ليس لها شأن يذكر بين الدول المعظمة ٠ واليابان على ضيق ارضها وقلة عدد سكانها لاتقل شأناً عن دول اوربة العظمى وكفاها فخراً انها غلبت أعظم الدول الغربية واكبرها جيشاً وما سر غلبتها الا العلم فلا تطمع أمة او مملكة في العز والصولة والمجد والعظمة والسيادة والقوة مادام الجهل ضارباً اطنابه فيها وذلك من البديهيات التي لاريب فيها عند العقلاء ٠ قال زوج الملكة فكتوريا في احدى خطبه حين كان رئيساً للمجمع العلمي البريطاني « ينبغي ان يزيد التفات الدولة الى العلم كما نرجو وستجد فيه عنصراً جوهرياً من عناصر قوتها ونجاحها » ٠ وقال الفيلسوف جول سيمون « ان الامة التي تعلم بنيها التعليم الاكثر تصير العظمى بين الامم ان لم يكن في اليوم ففي الغد » ٠ وقال واشنطون في خطابه الوداعي لبلاده « أحلوا اهل المراكز العلمية المحل الاول فان الحكومة التي تقصد الاعتماد على رعاياها يجب ان

تهذب عقولهم قبل ذلك » . وقد حفظ الاميركيون هذه الوصية واهتموا بنشر العلم اهتماماً عظيماً وانفقوا في هذا السبيل الاموال الطائلة حتى ان الحكومة وقفت على ترقية العلوم في الولايات المتحدة مئة وخمسين الف الف فدان من اراضيها الزراعية وكذلك اهتمت دول اوربة بترقية المعارف في بلادها وانفقت قناطير من الذهب على المدارس والمجامع العلمية والمكاتب العامة لتيقنها ان العلم هو الدعامة الكبرى في بناء الممالك والسلم الوحيدة الموصلة الى ذرى المجد والعظمة فلا غنى عنه في السياسة كما انه لا غنى عنه في الزراعة والصناعة والتجارة . هذه هي خلاصة منافع العلم ذكرتها بالايجاز ولو شئت الاسهاب لما استطعت الى ذلك سبيلاً لانه يستغرق السنين الطوال ويملأ المجلدات الضخمة . وهنا يجدر بنا ان نسأل ماذا كان نصيبنا من تلك المنافع واي اختراع او اكتشاف مفيد ينسب الينا في هذا العصر ؟ ان لاديسون الاميركي الذي لا يزال حياً يرزق نحو الفي اختراع مفيد غير بها حالة المجتمع البشري ورقى شؤون العالم العمرانية وهو رجل واحد فهل اخترع اهل بلادنا اختراعاً واحداً كلهم وهم يعدون بالوف الالوف ؟ أليس البشر كلهم من طينة واحدة فلماذا نرى هذا الفرق العظيم بيننا وبين الغربيين ألعلهم أشرف منا اصولاً ام اسمى عقولاً ام اصفى أذهاناً ام اقوى أبداناً ام أعز نفوساً ام أكبر رؤوساً ! ! لا لعمري فقد أثبت الاختبار ان السوري اذا توفرت له وسائط الارتقاء وجال في ميدان العلم جارى غيره ولم يقصر عنه وبعض السوريين الذين دخلوا جامعات اوربة واميركة سبقوا رفقاءهم من ابناء الغرب وامتازوا عليهم بالتحصيل فنحن لا ينقصنا الا الاجتهاد والاتحاد والثبات . اننا لا ننكر ان حالتنا العلمية اليوم أحسن مما كانت عليه منذ مئة سنة وذلك بفضل الحكومة السابقة والحكومة الحاضرة والبعثات الاجنبية . فبعد ان كان ظلام الجهل مخيماً في ربوعنا حتى انه لم يكن فيها من يعرف القراءة والكتابة الا افراد يعدون على الاصابع كانوا يتيهون عجباً بتلك المعرفة القليلة ويمشون في الارض مرحاً زاعمين انهم وسعوا كل شيء علماً وبعد ان كانت بلادنا خالية من المدارس العالية والمطابع والصحف السياسية والمجلات العلمية بزغت فيها انوار العلم فتشيدت المدارس المختلفة من ابتدائية وعالية وطبية وتجارية وصناعية وحقوقية تخرج منها كثيرون من شبان البلاد النجباء فشغلوا احسن

المناصب في سورية ومصر وغيرهما وانتشت الصحف والمجلات وظهر في هذا القطر الكتاب والخطباء والصيادلة والاطباء والمحامون والمعلمون والمهذبون كما يشهد هذا المحفل الحافل . ولكن اين نحن من الغربيين الذين جاؤا بالعجب العجاب وحيروا باعمالهم الالباب فجعلوا البر بحراً والبحر براً وذلك بفتح الترع كترعة السويس وترعة بناما العجيبة وانشاء المرافئ كمرفإ بيروت ومرفإ نيويورك وكثير غيرهما ومشوا على وجه الماء وغاصوا في لجج الدأماء وركبوا على مناكب الهواء بالمناطيد والطيارات وساحوا بين كواكب السماء بالمراصد والنظارات وقاسوا ما بينها من الابعاد بادق الآلات وصنعوا من الادوات الحديدية المختلفة الاشكال والحجوم ما يفوق الحصر ويدهش العقل من آلات الساعة الدقيقة التي لا تكاد ترى بالعين المجردة الى القاطرة الجبارة التي تجرّ وراءها سلسلة مركبات ضخمة لا يدرك الطرف آخرها الى الجسر العظيم العجيب كجسر بروكلين الذي تجري عليه القطر وتسير من تحته السفن . قيل ان بناء هذا الجسر شغل نحو ثلاث عشرة سنة ونفقاته بلغت ثلاثة آلاف الف ليرة انكليزية وهو من اسلاك قوة كل منها اثنا عشر الف وسق وعليه طريقان حديديتان وطريقان للترامواي وطريقان للمركبات الخيلية وطريق للمشاة عرضها ثلاث عشرة قدماً فهو من غرائب المصنوعات البشرية . وقد فتحوا الانفاق الطويلة في الجبال وتحت الانهار والبحار لتسيير مركبات البخار وبنوا الخزانات الكبيرة لحفظ المياه الغزيرة والانتفاع بها وقت الحاجة . وجملة القول انهم دكوا الاطواد وانطقوا الجماد وعمروا البلاد ورقوا العباد بل جعلوا الصم يسمعون والعمي يبصرون والموتى يتكلمون فاين نحن منهم بل اين نحن من اسلافنا العرب الذين وثقوا اسباب الحضارة في جميع الاقطار وخفقت اعلام مجدهم على كل الامصار فقد الفوا وصنفوا واستنبطوا واكتشفوا وضربوا في مناكب الارض بحثاً عما اودعتها الطبيعة من الآثار وتطلعوا الى آفاق السماء طلباً لمعرفة ما فيها من الاسرار وكان عندهم من بديع الصنائع وغريب الفنون واتساع التجارة ونمو الزراعة ما لا يتسع المجال لذكره في هذه المحاضرة المختصرة . ويكفي ان أقول ان العلم كان مصاحباً لجنودهم في كل بلاد افتتحوها حتى امتدت حضارتهم من أطراف آسية الى أقاصي أفريقية وقلب اوربة . فلمَ لم نتشبه بهم في طلب العلم ونشره ! ولمَ نرض

بالتأخر عن مجاراة الامم الغربية الراقية في سلم التمدن الصحيح والتهذيب الكامل وماهي أسباب عدم رواج العلم في بلادنا ياترى ؟ لا ريب ان لذلك اسباباً كثيرة أخصها ما يأتي :

١ — اعتقاد اكثر القوم عندنا ان العلم غير ضروري لكل الناس وانما هو ضروري للذين يريدون ان يشتغلوا به لاكتساب الرزق فقط كأساتيذ المدارس والكتاب والمنشئين والاطباء والمحامين وغيرهم من أرباب الصناعات العلمية اما التجار والصناع والزراع وسائر العامة فهم في غنى عنه لانهم يستطيعون ان يكتسبوا الرزق بدونه . وهذا الاعتقاد خطأ عظيم لان العلم ضروري لكل فرد من أفراد الامة كبيراً كان أم صغيراً اذ يحتاج اليه الصعلوك كالملك والفقير كالغني والمرأة كالرجل فلا احد يستغني عنه . قال عبد الملك بن مروان لبنيه « يابني تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم وسطاً سدتم وان كنتم سوقةً عشتم » . وقال بعض البلغاء « تعلم العلم فانه يقومك صغيراً و يقدمك كبيراً و يصلح زيغك وفاسدك و يرغم عدوك وحاسدك و يقوّم عوجك وميلك ويصحح همتك واملك » . وقال مصعب بن الزبير « تعلم العلم فان يكن لك مال كان جمالاً وان لم يكن لك مال كان لك مالاً » . وقال بعضهم اذا اراد الله بالناس خيراً جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم لان العلم عصمة الملوك فهو يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم و يصدهم عن الاذية و يعطفهم على الرعية . والخلاصة ان البشر كلهم على اختلاف طبقاتهم واحوالهم واطوارهم مفتقرون الى العلم فارباب السياسة يحتاجون الى معرفة التاريخ وفلسفة الاجتماع وحقوق الدول وسائر العلوم العمرانية ليستطيعوا ان يسنوا الشرائع العادلة الكافلة بسعادة الامة و ينفذوها بالعدل والنزاهة والعفة .

وارباب التجارة يحتاجون الى معرفة علم الاجتماع وعلم الاقتصاد السياسي وعلم مسك الدفاتر وسائر العلوم التجارية ليستطيعوا ان ينجحوا في تجارتهم نجاحاً تاماً .

واهل الصناعة يفتقرون الى معرفة الرياضيات والطبيعيات لكي يتمكنوا من اتقان صناعاتهم والتفنن فيها حسب الحاجة . والزراع يلزمهم ان يدرسوا العلوم الزراعية لكي يعرفوا خواص الاتربة وطرق الحراثة والتسميد واساليب الري وانواع الزرع والغرس والتطعيم والتلقيح وتربية المواشي وغير ذلك مما لا بد منه لتحسين الزراعة و توفير الغلال

والنساء يفتقرن الى علم التربية وعلم التمريض وعلم تدبير المنزل لكي يستطعن ان يربين اولادهن تربية صالحة ويخدمنهم في اوقات المرض الخدمة النافعة ويدبرن بيوتهن التدبير الكافل براحة ازواجهن وسعادتهم . والرجال بالاجمال محتاجون الى العلم ليعرفوا مايجب عليهم لازواجهم واولادهم ووطنهم وحكومتهم ويقوموا بواجباتهم كلها حق القيام فاذا نالت الامة كلها نصيباً وافراً من العلم صلحت اعمالها وحسنت احوالها واعتزت حكومتها وارتقى وطنها الى اسمى درجات العمران . فلا احد يستغني عن العلم بوجه من الوجوه لانه حياة الافراد والجماعات والشعوب . ولا ينكر هذه الحقيقة الا الذين اعمى الجهل بصائرهم ولم يفهموا معنى الآية الكريمة « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

٢ — زعم فريق كبير من الناس انه لافائدة من العلم بدون مال وان المال هو الغاية التي يجب على الانسان ان يسعى لها لانه قاضي الحاجات ورافع الدرجات فهو يغني عن العلم وعن كل شيء وعلى ذلك قول بعضهم :

ان الدراهم في المواضع كلها ... تكسو الرجال مهابةً وجلالا
فهي اللسان لمن اراد فصاحةً ... وهي السلاح لمن اراد قتالا

وقول الآخر :

فصاحة سحبان وخط ابن مقلة ... وحكمة لقمان وزهد ابن ادهم
اذا اجتمعت في المرء والمرء مفلسٌ ... ونودي عليه لا يباع بدرهم

وهذا الزعم ضلال مبين واقوال الشعراء بهذا المعنى مخرقة وتضليل . والحق ان العلم هو الذي يرفع شأن الامة لا المال . قال عليّ بن ابي طالب : « العلم خير من المال . العلم يحرسك وانت تحرس المال . العلم حاكم والمال محكوم عليه » .

لا احد ينكر ان المال قوة عظيمة اذا كان بيد من يحسن استعماله ولكنه لا يرفع شأن الجاهل فالجاهل حقير وان كان غنياً والعالم شريف وان كان فقيراً . ومما يؤيد ذلك اننا اذا نظرنا في العلم منفرداً رأيناه خيراً محضاً لانه علة الاتحاد والالفة والتعاون والتناصر . واذا نظرنا في الغنى منفرداً وجدناه شراً محضاً لانه داعية الجري في ميدان الشهوات المحرمة والتنافر والتفريق بين الاهل والاصدقاء . واذا نظرنا في العلم مقترناً بالغنى رأينا

المال خادماً للعلم نافعاً به فالغني العالم منهل عذب وشجرة مثمرة والغني الجاهل بلية عظيمة واضراره للناس جسيمة وكفى بما قدمناه دليلاً على ان العلم خير من المال وينبغي ان يكون غاية لا واسطة بل هو أشرف الغايات عند العقلاء ولو كرهه الجهلاء ٠

٣ — توهم بعضهم ان العلم كله يقوم بمعرفة القراءة والكتابة وبعض قواعد الصرف والنحو وأعمال الحساب الاولى وحفظ بضع قصائد وحكم فاذا تيسرت هذه المعرفة لاحد الناس لقب نفسه بالعالم وادعى التفوق على غيره وطلب التصدر في المجالس وطالب الامة باكرامه وتعظيمه واحتقر العلماء الكبار واستخف بالعلوم الحديثة التي يتوقف عليها عمران البلاد ونجاح العباد وانكر الحقائق العلمية الثابتة بالادلة الراهنة كدوران الارض حول الشمس وحاول البرهنة على انها ساكنة غير متحركة او انها مستقرة على قرن الثور وكل ذلك من الاغلاط الفاضحة لان معرفة الاشياء المذكورة وان كانت ضرورية ونافعة ليست الا جزءاً صغيراً من العلم فلا تغني عن غيرها من المعارف المفيدة ولا تكفي لتسمية صاحبها عالماً ولا تحرر عقله من الخرافات ولا تعرفه قدر نفسه وانما العالم الحقيقي من تضلع من العلم على اختلاف انواعه الطبيعية والرياضية والتاريخية وغيرها وعرف على الاقل نظام الارض وخواص اتربتها ومعادنها وترتيب بلدانها واصناف سكانها وحواصل اقاليمها وعجائب حيوانها وتركيب مائها وسنن هوائها وتواريخ اجيالها القديمة وممالكها العظيمة وعرف مع كل ذلك قدر نفسه ولم يستكبر على ابناء جنسه ٠ فمعنى العلم عند المحققين أوسع مما يتوهمه المدعين وما أحسن قول الشاعر :

قولوا لمن يدعي علماً ومعرفةً عرفت شيئاً وغابت عنك اشياء

٤ — ادعاء شرذمة من الناس ان العلم يناقض الدين ولذلك رفض بعض البسطاء من اهل الدين حقائق العلم خوفاً على دينهم من الفساد واحتقر بعض المشتغلين بالعلم حقائق الدين ظناً منهم انها تخالف العلم ٠ وكلا الفريقين مخطىء لان العلم الصحيح لا يمكن ان يناقض الدين القويم وانما هما حليفان كل منهما يؤيد الآخر ويخدمه ولي على اثبات ذلك أدلة ٠ الاول انه لو كان العلم والدين نقيضين للزم عن ثبوت احدهما بطلان الآخر ولكن كلاً منهما ثابت بالادلة القاطعة الجلية فلا تناقض بينهما لان مصدرهما واحد فالدين وحي الله على محيا الشريعة والعلم وحي الله على صفحات الطبيعة ٠ وبين الدين

والعلم رابط شديد وهو الايمان وهذا مما يستغرب به السامع لاول وهلة لان الشائع بين القوم ان الايمان مختص بالدين والحق انه من لوازم العلم ايضاً فكما يؤمن اهل الدين بالحقائق الروحية و يسيرون في حياتهم الدينية بقوة الايمان فيعملون خير الاعمال وأعمال الخير كذلك يؤمن اهل العلم بالحقائق الطبيعية و يسيرون في حياتهم العلمية بقوة الايمان فيجيئون بعجائب المخترعات وغرائب المكتشفات . فالايمان من أعظم قوى العالمين و به تم كل شيء نافع في عالم العلم وعالم الدين وهو بينهما رباط متين .

الثاني : انه لو كان العلم مناقضاً للدين للزم عن ذلك ان كل عالم كافر و كل ديّن جاهل وهو خلاف الواقع لان كثيرين من اهل العلم متدينون وكثيرين من أهل الجهل كافرون . بل ان الذين يتمسكون بالدين حق التمسك هم العلماء لا الجهلاء وما أحسن قول القرآن الكريم : « انما يخشى الله من عباده العلماء » . وحسبنا ثبتاً لذلك ان نذكر بعض المتدينين من اهل العلم المتقدمين والمتأخرين . فمن المتقدمين ابو جعفر المنصور الذي كان مع كلفه بعلم الفلسفة وعلم النجوم متديناً بارعاً في علم الفقه . وهرون الرشيد الذي امر ان تبنى بجانب كل جامع مدرسة ليسير الدين والعلم معاً لانه كان يعتقد انهما حليفان لا نقيضان . والمأمون الذي كان أعظم الخلفاء واعلمهم وكان عارفاً من اللغات اليونانية والعبرية والهندية والفارسية فضلاً عن تبحره في الفلسفة وعلم الفلك ومع ذلك كان تقياً ورعاً . وابن سينا الذي اشتهر بالعلم الطبيعي وعلم الطب وغيره وكان له نحو مئة تصنيف كان ايضاً مشهوراً بالعلم الالهي والتمسك بدينه . وفخر الدين الرازي عبدالله المعروف بابن الخطيب الذي فاق اهل زمانه في علم الاوائل والمعقولات وكان له عدة تصانيف كان ايضاً اماماً في علم الكلام تقياً متعبداً . ومن المتأخرين فيلسوف الانكليز العظيم اسحق نيوتن مكتشف ناموس الجاذبية والعلامة الاميركي المشهور بعلم طبقات الارض الدكتور دوسن . والنابغة الاميركي الذي خدم سورية سنين عديدة بالتطبيب والتدريس والتأليف العلامة فانديك . فان كل هؤلاء وكثيرين غيرهم من وطنيين وأجانب كانوا من فحول العلماء وكبار الاتقياء . والعالم اليوم مملوء بالرجال الذين يعدون بالوف الالوف وكلهم من العلماء المتدينين فليس كل عالم كافراً ولا كل ديّن جاهلاً ولا تناقض بين العلم والدين . فان قيل ان كثيرين من العلماء مرقوا من الدين

قلت ان مروقهم لم ينشأ عن العلم بل عن فساد قلوبهم وخبث نفوسهم الامارة بالسوء وما كان العلم الا كاشفاً لذلك المروق لا سبباً له وعدم التناقض بين العلم والدين لا يستلزم ان يكون كل عالم ديناً كما ان عدم التناقض بين العلم والغنى لا يستلزم ان يكون كل عالم غنياً و كفى بذلك دليلاً لمن يريد الاذعان للحق ٠

الثالث : انه لو كان العلم مناقضاً للدين للزم عن ذلك ان المرء كلما تبحر في العلم توغل في الكفر وهو خلاف الحقيقة لان الاختبار اثبت لنا ان المتدين كلما تبحر في العلم زاد تديناً اذ ان العلم يعينه على كشف أسرار الكون و كلما كشف منها سراً تقرب من رب الاسرار وعالم الخفايا جل جلاله كراقي سلم قصر شاهق كلما صعد درجة تقرب من المقيم باعلى غرفة فيه ٠ وقد شهد العلماء الاتقياء ان العلم لم يزدهم الا ايماناً بخالق الاكوان لانهم قرأوا آياته البينات في كتاب الطبيعة كما قرأوها في كتاب الشريعة ٠ وهم الذين اثبتوا وجوده تعالى وجلوا آيات كونه ورفعوا أعلام عظمته ومزقوا حجب الظلمات عن محيا حكمته وقدرته وجودته ٠ منهم العلامة كلفين احد أعيان الانكليز المتوفى سنة ١٩٠٧ الذي اشتهرت مباحثه الكهربائية في الاقطار وجاء بالبدع العجيبة في معرفة اعماق البحار وقد نسب اليه العلماء اعظم المسائل المتعلقة بالجوهر الفرد والاثير وغيرها فهذا الرجل الجليل الذي فاق اقرانه في المباحث العلمية لم يكتف بكشف الاسرار المادية بل أخذ يبحث في المعقولات والمشيئة والاختيار والعواطف والانفعالات والقوة والعقل والعلة العاملة وامثال ذلك من الموضوعات العقلية وأثبت في كل من تلك المباحث آيات القصد والحكمة في العالمين ومما قاله في ذلك « ان الاشياء كانت اما بالاتفاق (الصدفة) واما بالضرورة واما بالقصد وكل من الاول والثاني باطل ٠ اما الاول فلانه يقتضي كون معلول بلا علة ٠ واما الثاني فيقتضي ان الاشياء على ما هي عليه الآن كانت كذلك منذ الازل ٠ والواقع خلاف ذلك على ما ثبت في مباحث التكوين فكيف توزعت عناصر العالمين على نسبتها المعلومة ولما ذا كان الذهب أقل من الحديد والحديد من الصلصال ٠ و كيف استنبت الكرة الارضية في خواص موادها وصفاتها ومقدارها وتوزعها على مقتضى حاجة الاحياء وانتشارها ونموها و كيف نشأت الحياة في الجماد ؟ ما ذلك الا لان كل حي قائم بعناية خالق حكيم ضابط الكل فالعالم مخلوق فثبت الخالق » ٠

وهذا من الادلة العلمية التي لايسع الكفرة انكارها فالعلم الحق لاينافي الدين الحق ولا ينفيه بل يثبته و يؤيده و يقويه . واما الذين كفروا بالله وآياته فقد كان كفرهم لقلة علمهم قبل ان يقفوا على بينات الدين فلما تعمقوا في العلوم اشتغلوا بهادون غيرها فتمكن منهم الكفر الى حد لم يستطيعوا عنده الرجوع عنه ولوعرفوا ضرره فمثلهم مثل الذي أدمن المسكرات حتى صار شربها من طبعه واخلاقه فيستمر عليها ولا يرجع عنها مع معرفته ضررها . وجملة القول ان التعمق في العلم يزيد المؤمن ايماناً والكافر كفراً . فلا تناقض بين العلم والدين بل هما حليفان ولو كره الكافرون . ومما يؤيد ذلك ان كلاً منهما نافع للآخر فالعلم افاد الدين بانه ازال عنه كثيراً من البدع والخرافات التي شوهت محاسنه واثبت كثيراً من حقائقه بالاكتشافات المتعددة . والدين افاد العلم بتشييد معاهده ونشر كتبه ورفع اعلامه باموال المتدينين كما تشهد المدارس القديمة في دمشق وغيرها من البلاد العربية فان الذين اسسوها ووقفوا عليها الاراضي والابنية كانوا من اهل الدين . والمدارس التي اسستها البعثات الاجنبية في انحاء الارض المختلفة انما تأسست باموال المحسنين من اهل الدين ايضاً . فالعلم والدين كانا ولا يزالان حليفين ينصر احدهما الآخر و يؤيده لايناقضه ولا يفسده فالاسباب التي يتورك عليها المستخفون بالعلم والخائفون منه كلها باطلة والحجج التي يوردونها كلها فاسدة . واذ قد أثبت ان العلم من مقومات الحياة العقلية والادبية والاجتماعية والسياسية واوضحت فوائده المعنوية والمادية ومكانه من الجامعة الانسانية انتقدم الآن الى بيان الواجب المفروض على الطلاب والعلماء والوالدين والحكومة والامة كافة في هذا الشأن . فاقول على طلاب العلم ان يدخلوا بيوته من ابوابها و يأخذوا فروعه من ارابابها و يجتهدوا في الدرس والمطالعة والتأمل والمراجعة و يواظبوا على كل ذلك بلا ملال و يحترزوا من الكسل والاهمال متذكرين قول من قال :

ومن طلب العلوم بغير درس سيدرك كما متى شاب الغراب

وعليهم ان يفهموا ما يقرأونه لئلا يكونوا كالببغاء ، و يحفظوا ما يفهمونه لان العلم في الصدور لا في السطور . والعرب تقول حرفٌ في قلبك ولا الفٌ في كتبك وما احسن قول الشافعي :

علمي معي حيثما يممت ينفعني صدري وعاء له لا بطن صندوقي
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي او كنت في السوق كان العلم في السوق

وعليهم ان لا يقتصروا على نوع واحد من العلم بل ليشاركوا في فروع كثيرة منه · قال يحيى بن خالد لابنه : « عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدوٌّ لما جهل وانا اكره ان تكون عدواً لشيء من العلم » وقال الشاعر :

ما حوى العلم جميعاً احد لا ولو مارسه الف سنه
انما العلم بعيد غوره فخذوا من كل علمٍ احسنه

ويجب عليهم ايضاً ان يعاشروا العلماء ويذاكروهم في المسائل العلمية ويستفيدوا من اختباراتهم الكثيرة » قال الشاعر :

واطل في العلم مذاكرة فحياة العلم مذاكرته

ويحسن بهم ان يدونوا ما يسمعونه من الفوائد لان الانسان عرضة للنسيان ويثابروا على ذلك الى نهاية الحياة مذللين كل عقبة في سبيلهم وغالبين كل صعوبة تثبط عزائمهم وغير معتذرين بضيق الوقت او كبر السن فان الانسان يقدر ان يجد وقتاً كافياً للتعلم اذا اراد ان يجد وقتاً كافياً للملاهي المضرة او البطالة والراحة او التلذذ باشباع الشهوات ولا احد يكبر عن العلم ولو بلغ الثمانين من سنيه · قيل ان فكتوريا ملكة الانكليز شرعت في درس اللغة الهندية وهي في الثالثة والثمانين من عمرها · ومئات من العلماء المشهورين لم يشرعوا في تحصيل العلم الا بعد ان تجاوزوا العشرين او الثلاثين او الاربعين من اعمارهم كأبي بكر الرازي فقد قيل انه لما شرع في تعلم الطب كان قد جاوز اربعين سنة من العمر · ومنهم من درسوا العلوم وهم في المعامل او المتاجر او المزارع لعدم تمكنهم من تحصيلها في المدارس ايام الحداثة · وكل من جدَّ وجد فلا شيء يمنع المجتهد من اكتساب العلم مهما حال دونه من العقبات · ويجب على العلماء ان يكونوا عاملين بعلمهم باذلين جهدهم في زيادته ونشره ورفع لوائه وتعزيز منزلته لانهم كالمرائي التي تعكس النور فان لم يفيدوا غيرهم او يستفيدوا منه كان دليهم عقيماً · والعالم الحقيقي من لا يبخل بالافادة ولا يستنكف من الاستفادة · وعليهم ان ينهضوا الهمم الوانية ويقودوا العزائم الواهية ويدعو الناس الى ورود مناهل العرفان ويحببوا اليهم السير في مناهج الفضيلة ويبينوا

لهم مزايا العلم الحميدة ومنافعه العديدة ويحذروا العجب والكبرياء ويجتنبوا التملق والرياء فان ذلك ينافي الفضل ويدل على الجهل . قال الامام عمر بن الخطاب « تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم » .

ويجب على الوالدين ان يعتنوا بتثقيف عقول اولادهم وتهذيب اخلاقهم كما يعتنون بتربية اجسادهم ويختاروا لهم افضل المعلمين المقتدرين من الامناء المعروفين بطهارة السيرة ويضعوهم في ارقى المدارس التي تنفخ في تلاميذها روح الرجولية وتلقنهم المبادىء الشريفة التي تؤهلهم للحياة النافعة الصالحة . ومن قصر في ذلك كان قاتلاً بل شراً من القاتل لان قتل العقل افظع واضر بالمجتمع من قتل الجسد ولان يهلك الرجل ولده بالسيف اخف جرماً من ان يميت عقله بالجهل فيكون شر الظالمين السفاكين .

ويجب على الحكومة وهي المقامة لصيانة الوطن واعلاء شأنه وتنظيم احوال الامة بتوفير اسباب الراحة وتمهيد سبل السعادة ان تعنى عناية عظيمة بنشر العلم الصحيح في كل بلد وقرية بين الذكور والاناث لان الامة لا تحيا سعيدة ولا تجاري الامم المتمدنة الا بانتشار المعارف فيها وتمزق غياهب الجهل عنها . ولابد للوصول الى ذلك من انفاق الاموال الطائلة لزيادة عدد المدارس الابتدائية بحيث يتسنى لكل ولد ان يجد مدرسة قريبة منه ليتلقى العلم فيها . وحينئذٍ تتمكن الحكومة من جعل التعليم الزامياً مجانياً فلا يمر وقت طويل حتى يصبح افراد الشعب كلهم متعلمين . وجميع ماينفق من الاموال في هذا السبيل يعود على الدولة بالربح الجزيل لانها تعد بذلك خير الرجال الذين يعززون شأنها ويشيدون بنيانها . وقد عرفت الحكومات الغربية هذه الحقيقة فخصصت مبالغ طائلة من دخلها للانفاق في سبيل العلم والتعليم . فحكومة الولايات المتحدة تنفق نحو عشرين الف الف ريال في السنة على مدارسها وقد ضمت الى دوائر الزراعة والمساحة اكبر علمائها وقطعت لهم الرواتب الطائلة . وحكومة فرانسه تنفق على التعليم اكثر من الف الف دينار في السنة . وحكومة انكلترة تبذل في سبيل المعارف نحو خمس نفقاتها كلها ومثلها حكومة بلجيكا وامتازت حكومة سويسره بانفاقها نحو ثلث دخلها في هذا السبيل . وفي ما ذكر كفاية لبيان اهتمام دول الغرب بنشر المعارف بين رعاياها وهي تعضد

كل مشروع علمي كالمدارس الاهليـة والاندية الادبية والمجامع اللغوية وغرف القراءة وتنشيط المؤلفين واصحاب المجلات وغيرهم من ذوي الاقلام وتكافئتهم بالعطايا الجزيلة لانها تحسب ذلك من افضل الذرائع الى نشر العلم والآداب في الاوطان ومن امتن الدعائم التي يبنى عليها العمران . وقد حذت حكومتنا الرشيدة حذو الحكومات الراقية في الاهتمام بنشر المعارف في هذه الربوع على قدر ما مكنتها الاحوال فاستحقت الثناء الطيب . الا ان البلاد لاتزال في حاجة شديدة الى زيادة عدد المدارس الكافلة بتعميم العلم بين الشعب وانهاضه الى مساواة الشعوب الغربية ولا ريب في ان الحكومة الحاضرة ستبذل جهدها في سد هذه الثلمة في القريب العاجل بمنه تعالى وحسن توفيقه .

اما الامة فيجب عليها ان تستيقظ من غفلتها وتنهض من كبوتها وتتيقن انه لاحياة لها الا بالعلم وان العلم لاينال الا بالاجتهاد والمثابرة والسخاء فلا يجوز للشعب ان يتكاسل في هذا الامر الخطير ولا ان يتوقع من الحكومة ان تقوم وحدها باعباء هذا العمل العظيم بل يجب على الافراد والجماعات ان يعـاونوا الحكومة على بث المعارف بتأليف الجمعيات العلمية وتأسيس المدارس الاهلية والاندية الادبية التي تنور الاذهان وتنشر العرفان . وعلى الاغنياء خصوصاً ان يبذلوا شيئاً من اموالهم لمعاضدة المشروعات التي تنفع الاوطان وتضمن لها النجاح وعلو الشأن ذلك خيرٌ من بذل اموالهم في سبيل التمتع بلذاتهم او كنزها في الصناديق الحديدية او المصارف التجارية بحيث لا ينتفع بها احد في حياتهم بل يستولي عليها الورثة بعد مماتهم وربما بذروها في ارتكاب المعاصي او خزنوها كما فعل اسلافهم الذين ورثوها عنهم فلم ينتفعوا هم بها ولا نفعوا غيرهم . ان بعض الاغنياء في بلادنا قد شعروا بوجوب الانفاق في سبيل العلم ومدوا ايديهم الى مساعدة المشروعات العلمية والاعمال الخيرية فاستحقوا الشكر ولكن باقي الاغنياء لايزالون مهملين هذا الواجب غافلين عنه وهم يباهون بايلام الولائم الفاخرة وركوب الخيول المطهمة بينما يباهي اغنياء الغرب بوقف اموالهم الطائلة على انشاء المعاهد العلمية ومعاضدة الملاجئ الخيرية ولا يقتصرون على معاونة اوطانهم بل يراسلون باموالهم الى غير بلادهم لتأسيس المدارس الابتدائية والعالية والجامعة خدمةً للانسـانية كما تشهد آثارهم في هذا القطر وغيره من اقطـار الارض البعيدة والقريبة فمتى يهتم اغنياؤنا

بتأسيس مدرسة كلية في وطنهم تشبه الكلية الاميركية او الكلية اليسوعية في بيروت بل متى يهتمون بزيادة عدد المدارس الابتدائية الاهلية في البلدان التي لا يزال الوف من سكانها يجهلون القراءة والكتابة · وربما يعتذرون بان ثروتهم قليلة بالنسبة الى ثروة اغنياء الغرب فلا يمكنهم ان يقوموا بمثل اعمالهم ولكن قلة ثروتهم لا تمنعهم من القيام بشيء من الاعمال النافعة لبلادهم والامة لا تطالبهم بما هو فوق طاقتهم بل تتوقع منهم ان يتعودوا البذل في سبيل العلم شيئاً فشيئاً الى ان يستطيعوا القيام بعمل كبير نافع وما ذلك عليهم بعسير · فيا ايها السوريون النجباء والاخوان الادباء اجيبوا نداء محب مخلص يدعوكم الى نشر العلوم والمعارف والآداب والفضائل في الوطن العزيز · وسيروا في سبيل التمدن الحقيقي بالجد والنشاط والعزم والثبات تبلغوا ذروة النجاح · وتفوزوا بالخير والفلاح · والله المسؤول ان يوفقكم لكل سعي مشكور · و يعضدكم في كل عمل مبرور · انه ولي الامر والتدبير · وهو على كل شيء قدير ·

عصر التقهقر قد مضى واتاكم · عصر بانوار التقدم ساطع
فدعوا التواني وابذلوا مجهودكم · في العلم ان العلم فيه منافع
وابنوا المدارس وانشروا الكتب التي · ثمر النهى والفضل فيها يانع
فالجهل ليل ماله من حازم · الا صباح بالمعارف لامع

انيس سلوم



الحقوق المدنية

في العالم القديم ومنابعها الثابتة (١)

الحقوق المدنية عنصر من عناصر المدنية العامة للعالم القديم وحال ملازم له في اول ادوار التجمع البشري وقد اهتدت اليها فطرة الانسان قبل ان يعنى بامرها ماوقفنا عليه من الكتب السماوية ٠ ولها منابع ثابتة مطردة عند جميع الامم لاتخرج عن ثلاثة بعد البحث والاستقراء ٠

اولها الحاجة

هذا الاصل كما انه من اصول الصناعة والتجارة وغيرهما فهو اصل من اصول الحقوق المدنية وهو اصل ثابت في كل زمان لما هو حاجي من الاحكام المدنية ٠ ولذلك اقرته الشريعة الاسلامية ٠ وقد اشتهر على السنة العموم ان الحاجة اصل الاختراع ٠ ومن هذا الاصل استنبط الناس قديماً مبادلة العروض بالعروض ، ومما يستنبط منه حق الزواج لبقاء النوع الانساني وحق الطلاق لتحصيل الراحة من النزاع العائلي الدائم ٠

ثانيها ارشاد الفطرة

ومحصل هذا الاصل اتفاق آراء العالم كافة او اهل محيط بتمامه على الحكم باستحسان الامر الذي يكون وسيلة لتحصيل مقصد من مقاصد الحياة العامة وهو اصل يعم الحاجيات والكماليات من الحقوق والارتفاقات وقد استنبط منه قسمة المشترك ٠ او المهاياة زماناً او مكاناً على الانتفاع به قالوا ومن ذلك توريث الابن مال ابيه ٠ وهذا الاصل هو الذي سمي بلسان الشريعة الاسلامية الاجماع وقد تخصص العمل به فيها بحالة فقدان النص من الكتاب او السنة اللذين اعتبرهما الاصلين الاولين لانواع الشرائع والاحكام ٠

---

(١) المحاضرة التي القاها الشيخ سعيد مراد الغزي استاذ المجلة في المعهد الحقوقي وذلك في ردهة المجمع العلمي في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٢١ م

الثالث التجارب والممارسة

ومحصله ان الاجتماع البشري لما كان قد يطرأ عليه من المعاملات الكمالية ما لا يكون مبرماً مع عدم اتفاق الآراء والنظر على تعيين ما يقع ملائماً من صورها وكيفياتها لم يروا مندوحة عند طلب الكمال عن الاخذ باية صورة تخطر لاي محيط من صور تلك المعاملة التي يتصورها العقل وتطبيق اية كيفية يتمكنون من تطبيقها فيما بينهم لتحصيل المقصد الحيوي من تلك المعاملة و يغلب وجود هذا الاصل في المعاملات الاختيارية مثل الزكاة وانواع التجارات والوكالات والمزارعات ٠

و بعد ان تظهر ملائمة تلك الصور والكيفيات لمصلحة الفريقين المتفقين على ايجاد تلك المعاملة بينهما ويتضح انه لا ينشأ منها خلاف في الاغلب تعتبر في ذلك المحيط اصلاً من الاصول لما تدخله من المعاملات المدنية مقبولاً عند جمهورهم يرجعون اليه مرة في تقرير الحق وأخرى في تحصيله ممن وجب عليه لمن هو حق له ٠

وقد سمي هذا الاصل بلسان التشريع الاسلامي « العرف والعادة » وقد اقرته الشريعة الاسلامية عاملاً في غير المنصوص من الاحكام على ممر الايام وهو من اهم الاصول والقواعد للشرائع الزمنية في كل جيل من الاجيال وعصر من العصور ٠

علاقة اصحاب الشرائع السماوية بالحقوق المدنية

مما تقدم يتكون بلا ريب سؤال ملخصه ما هي اذن علاقة الشرائع السماوية بالحقوق المدنية ٠ والجواب عنه حسبما يتضح من اساليب الكتب السماوية المقدسة ان المقصد الاساسي من انزالها ومن ارسال الرسل العظام التي نشرت تعاليمها انما هو تربية النفوس بالاخلاق الفاضلة وتطوير الامم من سحيق الانحطاط الادبي الى ذروة الكمال العقلي وتقوية الروابط القلبية فيما بين البشر وسوقهم من طريق الرغبة وحب الخير الى ارفع الخصال وجعلهم يتركون المساوئ والقبائح باختيارهم بعداً عن اضرارها وعندئذ يستعدون لوضع ما يحتاجون اليه من نافع القوانين ٠

وقد اقتدر كل واحد من الشارعين على ان يطور بنفسه وبتلامذته الملايين من

الناس في اقل من ربع قرن مع ان تطوير الامم باصول التربية العامة لا يمكن حصوله قطعاً في ثلاثة امثال هذه المدة كما قرر في علم الاجتماع ·

وهذه هي خاصة الشارعين المشتركة فيما بينهم التي لا يمكن ان يجاريهم فيها احد سواهم من اكابر الفلاسفة واعاظم نوابغ الامم ·

الحقوق المدنية الشرقية وفي ضمنها العربية قبل الاسلام

مما تقدم علم انه لابد لاية أمة من ان تكون ذات حقوق مدنية حيث لايمكنها الحياة الاجتماعية بدونها غير ان التفاضل بين الامم انما يقع في حسن انتخاب هذه الاصول وايضاً في ثمراتها حسب درجة الامة الاخلاقية وصحة احتياجها او فسادها وماوصلت اليه من درجة البعد عن الشر واحترام حقوق الافراد والجماعات عندما تريد ان تستخرج بارشاد فطرتها احكام القانون وحسب درجة ما اعتادته من احكام المعاملات في الحسن والقبح ·

ثم ان اول ما عرف فيما وصل اليه البحث والاكتشاف من الحقوق المدنية الشرقية شريعة حمورابي المسماة باسم الملك السادس من ملوك الدولة الاولى من دول بابل المؤسسة قبل الميلاد بالفين واربعمائة وستين سنة والتي هي من اصل عربي عند اكثر المؤرخين فمن هذه الشريعة في حقوق الزواج ان كلاً من الرجل والمرأة انما يقترن بمن يساويه في الطبقة الاجتماعية لا بمن هو فوقه او انزل منه طبقة ·

وقد كان يقع نادراً اتخاذ السراري بطريق الملك غير انهم كانوا يستثنون من ذلك عبيد القصر الملوكي فيجوزون لهم التزوج ببنات الاحرار ·

وكان زواجهم بعقد يكتب ويدون كما هو الحال في احدث الشرائع السماوية وعند ارقى الامم اليوم وكانت حقوق الزوجية عندهم متبادلة على نحو قريب مما هو معروف عن الشريعة الاسلامية ومن احكامهم عقوبة الزاني بالقتل ذبحاً ويستثنى من ذلك المرأة التي يغيب زوجها في الاسر ولا تجد من ينفق عليها فيسوغ لها ان تلجأ الى من تتخذه زوجاً فاذا عاد الزوج الاول كان احق بها وان اولدها الثاني اولاداً فهم له وكان الزوج يقدم مهراً يسمى ثمن العروس والزوجة تحضر من بيت ابيها ايضاً وكلا المالين يحفظ للزوجة عند الزوج لحاجة ·

ومن احكام هذه الشريعة ان الطلاق بيد الرجل فقط وحينما يستعمله يرجع مهر الزوجة اذا كان محفوظاً عنده و يطلقها اما هي فيجب عليها تربية الاولاد في مقابل حصة معينة من كسب الاب فلا يحق له طلاقها في حال المرض بل يتزوج سواها ان اراد وتبقى نفقتها عليه طول حياتها ·

ثم ان الزوجة اذا كانت متضررة من معاشرة الزوج ترفع امرها للقاضي فينزعها من الزوج جبراً اذا ظهر صدقها والا طرحت في الماء ·

ثم انه يتشكل من الزواج في هذه الشريعة عقد كفالة متبادلة بين الزوجين في جميع الحقوق المدنية · ولا تفرق هذه الشريعة في الارث بين الذكر والانثى وللوالد ان يمنع من اولاده من وقع منه سبب معقول يوجب منعه من الميراث من ارثه ومن احكامها في المعاملات العامة تسعير الحكومة لقيم السلع وتقدير اجور الصناع حتى من ذوي الحرف الرفيعة مثل الاطباء والمحامين ·

وكان عندهم عقود وصكوك للمعاملات العامة ·

ثم مضت اعصار وادهار ما بين هذه الدولة صاحبة هذه الشريعة وبين عرب الحجاز الذين ظهر فيهم الشارع الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم وقد كانت حالتهم الحقوقية على درجة من الانتظام ارقى بكثير من حالتهم الاجتماعية العامة والادارية وقد ورثوا عن هذه الدولة ومن بعدها من الدول الشرقية العربية كثيراً من قواعد الزواج والطلاق غير انهم ساء نظام الطلاق عندهم وصاروا يستعملونه مع عدم شدة الحاجة اليه بل اخترعوا الظهار والايلاء لقهر واعنات الزوجات وفشا عندهم تعدد الزوجات بداع و بدونه بسبب توالي الحروب ما بين قبائلهم وما نتج عنها من ازدياد عدد النساء على عدد الرجال في القبيلة الواحدة من سبايا الحرب اما في قسم الحقوق المدنية العامة فقد كان نظامهم جيداً جداً لا يوجد له نظير عند دول الارض العظيمة في ذلك العهد مثل دولة الفرس والرومان ·

ومن ذلك ان اصول القضاء عندهم كانت من اعدل ما يمكن في ذلك العصر وقد كانوا يأخذون عن منابع الحقوق الثلاثة المتقدمة ما يحتاجون اليه من الاحكام المدنية

بدون ان يدونوا شيئاً من تلك الاحكام الجزئية وطرق القضاء واثبات الحقوق انحصرت في قول شاعرهم : فان الحق مقطعه ثلاث شهود او يمين او جلاء

وقد كان عندهم حكام في الاموال وآخرون في الدماء وحكام في النسب لاثبات من يكون من الابناء متولداً على غير عمود النسب واصول الزواج العامة وحكام في دعاوي التجاوز على العرض ·

ومع ذلك فقد كانت حالتهم الادارية ونظام حياتهم الاجتماعي على درجة من البساطة بسبب قلة المقتنيات وضعف الصناعة والتجارة وانحصار الكسب في طرق بسيطة كقليل من النسج وتربية المواشي وما شاكلها ·

الحقوق المدنية عند الرومان من قبل القرن السادس الميلادي

«لاواسط القرن الحادي عشر»

اما الرومان اصحاب الملك الفخم والممالك الفسيحة فقد كانت الحقوق المدنية وفي جملتها دلائل القضاء عندهم على اتعس ما يمكن ان يتصوره الانسان ·

فقد اعتبروا من ادلة القضاء المصارعة مابين شخصين قويين من اخصاء المتداعيين وامتحان الحق من الباطل في الدعاوي بالحديد المحمى في النار الذي كان يستعمل للاقرار بالجرائم مرة وبالحقوق أخرى والطرح في الماء البارد في الشتاء حتى وبالصلب احياناً وهو ان يقف الشخص على هيئة الصليب ماداً يديه مدة معينة من الزمان لامتحان الصدق من الكذب في دعواه او التهمة اوالبراءة فيما يدعى عليه من الجرم كما بسطه المؤرخ الشهير موسهيم الجرمني في تاريخ الكنيسة ·

ولا يستراب في ان الرومان اخذوا ذلك عن برابرة افريقيا ·

وقد بقي القانون الروماني على هذه الحالة لم يتغير في اساسه تغيراً يذكر لاواسط القرن الحادي عشر الميلادي اي بعد ظهور الاسلام باربعة قرون ونصف ·

الحقوق المدنية في الاسلام ومنابعها الجديدة

سبق القول في ان البحث عن القوانين المدنية ليس لازماً من لوازم الشرائع السماوية ولامطرداً من كافة الرسل العظام ·

ومن الدواعي على انه اوحي للشارع العربي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جملة صالحة في الحقوق المدنية انه قد اكمل عمله الاساسي وبعد التطوير الاخلاقي للمحيط الذي ظهر فيه في الثلاثة عشر سنة التي اقامها بمكة بعد ما بعث رسولاً وعليه وجد عنده من الوقت متسع لان يعلم الناس اصولاً عامة في الحقوق المدنية كما فعل الكليم سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم لعين السبب ٠

غير انما اوضحه الشارع العربي من ذلك كان اغزر مادة واطول حياة بنسبة رقي الانسانية المطرد حسب سنة التدرج ٠

ومن الدواعي ايضاً ما كان عليه جيران محيطه الفرس والرومان من فساد النظام القضائي كما مر التنبيه على بعض ذلك ٠ وعدم تمام استفادة العرب مما كانوا عليه من النظام القضائي بداعي فساد نظامهم الاجتماعي والادبي بما كان قد حمل اليهم عمرو بن لحى الخزاعي حاكم مقاطعة الحجاز قبل بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ٠ بقرنين تقريباً من عادات وعقائد الهنود عندما توجه لطبريا مستطباً من مياهها المعدنية ٠

ثم ان الاسلام بعد ما نظر نظرة عامة للشرائع الماضية قبل ما وجده منها ملائماً للمصالح العامة من ذلك المضاربات والشركات والرهون وعقوبة الزناة وقتلة النفوس والبغاة وهذا النوع لا يحصر كثرة ٠

وعدل ما يصير نافعاً وصالحاً ببعض تعديل كالبيوعات والاجارات التي ادخل عليها من الشروط في المعقود عليه والعاقدين ما يضمن مصلحتهما و يرفع النزاع فيما بينهما ومن هذا النوع القسم الاعظم من احكام الشريعة الاسلامية كما يتضح لمن احاط بفروعها ملماً بما كانت عليه حالة العالم القديم في هذا النوع من المعاملات كما انه ابطل ما هو مضر من الاحكام القديمة من ذلك ابطاله حكم تأبيد الظهار والايلاء وابداله بايقاع الطلاق على المظاهر والمولى فيما لو بقي مصراً على قوله ولم يرجع عنه واوجب عليه عند الرجوع كفارة غليظة يقصد منها الزجر عن الدخول في مثل هذا العمل والتمامر عليه ٠

وشرع احكاماً جديدة لا عهد للعالم القديم بها نافعة جداً مثل اللعان ما بين

الزوجين الذي عاقبته الفراق الدائم فيما بينهما عندما يرمي الزوج زوجته بتهمة الفاحشة من دون ان يكون له على قوله دليل تقع به القناعة ·

وقد كانت عرب الجاهلية تهرع في مثل هذه الحادثة للكهان يستطلعون رأيهم اعتقاداً بان لهم صلة مع الملأ الاعلى في الوقوف على الحقائق العامة التي فقدت الاسباب الظاهرة للوقوف عليها ·

وشرع الاخذ بالشفعة وحدود درجات الاهلية والمسؤولية في كافة انواع الحقوق وسائر اصناف الجرائم ·

ووسع طرق القضاء واوضح اسبابه على وجه لم يعرف في شرائع العالم القديم وتفصيل ذلك والاحاطة به متيسر لمن وقف على المدونات الحقوقية الاسلامية وعرف ما كان عند العالم قبل الاسلام من ذلك ·

ثم ان الاصول والمنابع الحقوقية في نظر الشريعة الاسلامية اربعة تندمج فيها الاصول الثلاثة العامة المتقدمة لكافة الامم وهذه الاصول هي الكتاب اي القرآن المجيد والسنة اي اقوال الرسول واعماله وتقريره ما يراه من عمل غيره و يعبر عن هذين الاصلين بالنص التشريعي وما في معناه ·

والاجماع وهو عبارة عن اتفاق علماء الشرع الواقفين على اصوله على الحكم في الحادثة الغير الواضح حكمها بوجه خاص من النص التشريعي و يعبر عن هؤلاء العلماء ايضاً باهل الاجتهاد القادرين على استنباط احكام الحوادث الجزئية من المنابع العامة والمنبع الرابع القياس المختص الاستفادة منه بهؤلاء العلماء المتقدم بيانهم في الاجماع ومن هذا يتضح ان الشريعة الاسلامية اثبتت اصولاً ثابتة للاحكام المدنية يمكن ان يستفاد منها كل ما يحتاج اليه في كل عصر كان نصوصها قد صرحت بمراعاة الاعراف والعادات في التشريع وبماشاة الحاجات والمصالح المختلفة باختلاف العصور المتجددة بتجدد اطوار الحضارة والعمران ·

الحقوق المدنية الرومانية من اواسط القرن الحادي عشر الميلادي للآن

في اوائل هذا القرن وجد غربرت اي السلوفستر الثاني الافرنسي الذي جلس

كرسي ماري بطرس لغاية سنة ١٠٢٤ ميلادية وكان مع اخوان له من انصار العلم والحق معاً يتلقون سائر العلوم التي كان سوقها رائجاً في مدارس الاندلس الاسلامية وفي جملتها الفقه الاسلامي المأخوذ من منابعه الاربعة المتقدمة في العنوان قبل هذا بعد ان برعوا في اللغة العربية وكانوا يترجمون دروسهم الى لغتهم فبسبب ذلك وبسبب رداءة حالة القضاء عندهم كما تقدم الاشارة الى بعض ذلك في هذه المقالة ·

وعليه فكروا في ان ينقلوا ما يلائمهم و يوافق محيطهم من احكام تلك الحقوق واقنعوا بضرورة ذلك ملوك الجهة الجنوبية من بلادهم ·

وبعد ان اتفق رأيهم على ذلك بشرط عدم عزو المأخوذ عن الشرائع الاسلامية لمنبعه الاصلي خوفاً من نفرة العامة من المسيحيين الذين كانوا بواسطة رؤساء الدين ينفرون من كل شيء مصدره الاسلام مهما كان حسناً ونافعاً فاجمعوا من اجل ذلك على تسمية ما يأخذونه عن الشريعة الاسلامية من تلك الحقوق (الشرائع الرومانية) او (القانون المدني) وان يعزوه لاجتهادات علماء الحقوق منهم بنتيجة البحث والدرس ·

وهذه الحقيقة على هذا الوجه ثابتة من مصدرين احدهما مصدر شرقي اسلامي وهو ما يأتي :

قد جاء في مجموعة رسائل في شوارد المسائل للعالم الباحث الملقب مفضل بن رضى الاسفرنكافي ما نصه :

كتب ابو العباس الكركي من تلامذة بهمنيار وهذا تلميذ الشيخ الرئيس ابي علي بن سينا في رسالته لمفتي مرو احمد بن عبد الله السرخسي في معنى كمال الفقه ان ابا الوليد محمد بن عبد الله بن خيره نقل في تعليقاته على النهاية شرح الهداية ان طلبة العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم اهتموا كثيراً بنقل فقه الاسلام الى لغتهم لعلمهم يستعملونه في بلادهم لرداءة الاحكام فيها خصوصاً في المائة الرابعة والخامسة من الهجرة فقد برعوا في اللغة العربية منهم هربرت والبرت فانهما طلبا مساعدة العلماء لابراز مقصدهما وقد ساعدهما حتى دونوا الفقه كاملاً وحوروه الى ما يوافق بلادهم ولذلك ترى احكام القوانين والقضاء لا تزل رديئة وسيئة في العدوة الشمالية من بلاد

الافرنج اه المقصود نقله من عبارة الاسفرنكاني من علماء الفرس المعبر عنهم بعلماء ماوراء النهر . والمصدر الثاني غربي وغير اسلامي وهو ما يأتي :

قال العلامة المؤرخ الشهير موسهيم الجرمني في تاريخ الكنيسة المترجم للعربية بمعرفة العالم هانري جسب الاميركاني المطبوع في بيروت في كلامه عن القرن العاشر الميلادي مانصه : ان هربرت الفرنسي المعروف بين الاحبار الرومانيين بسلفستر الثاني كان مديوناً على بعض معرفته ولا سيما الفلسفة والطب والتعليمات لكتب عرب اسبانيا ومدارسهم لانه مضى الى اسبانيا في طلب العلم وكان تلميذ علماء العرب في قرطبة وسفلا (اشبيلية) وربما أثرت سفرته في الاوربيين المتشوقين للعلم وخاصة للطب والحساب والهندسة والفلسفة فكان لهم من ذلك الوقت فصاعداً رغبة عظيمة في ان يقرؤا ويسمعوا علماء العرب الساكنين في اسبانيا وبعض نواحي ايطاليا وترجم كثير من كتبهم الى اللاتينية وذهب كثير من التلاميذ الى اسبانيا يتعلموا رأساً من خطب علماء العرب . وحق علينا ان نقول ان العرب ولا سيما عرب اسبانيا هم اصل وينبوع كل معرفة من الطب والفلسفة والفلك والتعليمات التي بزغت في اوربا من القرن العاشر فصاعداً اه كلام المؤرخ حرفياً .

ولا يخفى ان علم القوانين هو من أهم التعليمات التي اشتهرت في اوربا في تلك الاوقات وان ما أخذوه من القوانين المدنية والاحكام القضائية هو عين ما لقبوه بالقوانين المدنية الجديدة الرومانية للسبب الذي تقدم بيانه والذي يؤيد صحة هذا الاستنتاج البسيط الواضح من هذين المصدرين التدقيق في احوال وتطورات القانون الروماني الى ما قبل رحلة اولئك العلماء من الافرنج الى اسبانيا وذلك موضح قرناً بعد قرن في كتاب موسهيم المحدث عنه وعدم تجويز العقل ما يلفقه بعض مؤرخي الافرنج من مسألة ظهور القانون الروماني فجأة بعد اختفائه مدة اربعة اوخمسة قرون فانه من المحال ان تجهل أمة قانونها هذه المدة ثم يظهر فجأة على شكل لا يتفق مع القانون المعروف قديماً بوجه من الوجوه ولو لم يدون في صحيفة واحدة فان ذلك لم يعرض لامة من أمم الارض القانونية في الغرب والشرق مع ان الحاجة لتطبيق القانون على الحوادث المستمرة داعية لدوام معرفته والوقوف على احكامه . والخلاصة انه لا يوجد سند تاريخي ثابت

يدل على وجود القانون الروماني على الوضع الموجود به الآن او قريب منه قبل رحلة سلفستر ومن معه من الطلاب لمدارس اسبانيا .

ولا ينافي وجود مصدر من المصادر الافرنجية من صحة قولنا بان القانون الروماني أخذ من الفقه الاسلامي أصرح مما تكلم به المؤرخ موسبهم مع الجزم بانه ما كان من الممكن للآخذين التصريح الواضح بنسبة ما اخذوه لمصدره المأخوذ عنه لانه تقوم عليهم قيامة رؤساء الاكليروس الكبرى وتضطرهم ضوضاء الامة المنقادة اليهم للعدول عما يرونه من انفع الاعمال لبلادهم ومن اكبر الخدمات لمصلحتها ولو كان في الطب والفلسفة المصرح بانهما أخذت من علماء العرب شيء من الصبغة الدينية لما رأينا التصريح بأخذ ذلك عنهم .

كما ان عبارة مفضل الاسفرنكاني المنقولة عن تلميذ تلميذ ابن سينا الذي هو من علماء اواسط القرن الخامس انما دونت لتدوين حقيقة ما كان يختلف فيها اثنان في ذلك العصر الذي لم يقل من تلائه احد بخلاف هذه الحقيقة وان علماء الافرنج انما كتموها عن قومهم قصداً لمقصد سام لا يعابون في الكتمان من أجله بل يمدحون وانما حدث الاصرار على اخفاء هذه الحقيقة من القرون الوسطى فصاعداً تارة بدون قصد لعدم وجود التصريح بها في مأخذ علمائهم وأخرى بقصد لمن وقف عليها من المآخذ العربية حباً في الصيت وتدوين المؤرخ الآثار الحسنة لامته ولا يخلو التاريخ من هذه الوصمة على جماله حتى فيما بين الاحزاب المختلفة من أمة واحدة ناهيك بما يكون من ذلك ما بين الشرق والغرب .

واني لموقن بانه قد قرب الوقت الذي يعترف فيه الشرق بكل ما للغرب من المزايا ويعترف كذلك الغرب بكل ما للشرق من المزايا ويجلس الفريقان على سرر متقابلين متآخين متحابين بقوة الله وانتشار العلم وحسن المقصد .

حقائق تاريخية

عن دمشق وحضارتها (١)

توطئة في بلاد الشام وسورية — دمشق — اسماء دمشق واشتقاقها — سكانها واجناسهم — حضارتها وعمرانها ·

١

توطئة في بلاد الشام وسورية

ان قطر الشام العزيز منسوب الى سام « بمعنى اسم (٢) » ابن نوح (راحة) فقيل في اسمه الشام لان السين والشين تتبادلان في اللغات الشرقية الشقائق · ولما اشتهر بثغره الذي كان مدينة صور (صخر) سمي سورية نسبة اليها · وقيل ان اليونانيين افتتحوه فرأوا الاشوريين يتولون شؤونه فنسبوه اليهم وقالوا (اشورية) ثم حذفت الهمزة وأبدلت الشين سيناً فقيل فيها (سورية) واول من ذكرها بهذا الاسم هيرودوتوس المؤرخ اليوناني وبقي الاسمان متعاقبين الى يومنا · على ان الشام اكثر استعمالاً عندنا لقدمها والافرنج يستعملون الثاني منها اي (سورية) ·

وكانت سورية تقسم بحسب موقعها الطبيعي الى ثلاثة أقسام: (أولها) سورية الشمالية وهي تبتدئ من جبال طورس شمالاً وتنتهي عند مدخل حماة جنوباً ومن أمهات مدنها الداخلية انطاكية وحلب وحماة · ومن أمهاتها الساحلية اسكندرونة ومرسين واللاذقية · و(ثانيها) سورية المتوسطة وهي التي أطلق عليها الكتبة المتأخرون اسم سورية المجوفة تعريب كلمة (Cœlé-Syria) والاولى ان يقال

---

(١) المحاضرة التي ألقاها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف أحد أعضاء مجمعنا العاملين مساء الجمعة في ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ م ·

(٢) وضع المحاضر معاني بعض الاسماء بين هلالين تتمة للفائدة ·

في تعريبها وادي سورية كما قيل وادي النيل في ارض مصر ووادي الرافدين اي الفرات ودجلة في العراق ٠ وهي تبتدئ من مدخل حماة شمالاً وتنتهي جنوبي صور جنوباً ٠ ومن أمهات مدنها الداخلية دمشق وتدمر وبعلبك وحمص ٠ ومن أمهاتها الساحلية طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء وصور ٠ و (ثالثها) سورية الجنوبية وهي مابقي من سورية و يدخل فيها ماعرف قديماً باسم بلاد كنعان (المنخفض) واليوم فلسطين (المتغربين) وسميت بعد ذلك بارض الميعاد والارض المقدسة ٠ واشهر اسمائها اليوم فلسطين عند العرب والافرنج وتمتد من مياه الحولة شمالاً الى العريش جنوباً ومن مدنها الداخلية اورشليم او القدس الشريف وحبرون اي الخليل والناصرة وطبرية ونابلس ٠ ومن الساحلية عكاء وحيفا و يافا وغزة والعريش ٠

ومعدل طول هذه البلاد جمعاء من الشمال الى الجنوب نحو سبعمائة كيلومتر وعرضها من الشرق الى الغرب نحو اربعمائة وخمسين فيكون مجموع مساحتها ١٠٩٬٥٠٩ — اميال مربعة ٠ وبلغ عدد سكانها في القديم من عشرة ملايين الى خمسة عشر مليوناً واليوم لا يتجاوز المليونين والنصف فمعدل سكانها ٢٥ نفساً في كل ميل مربع ٠ ولقد حددها الشيخ عبد الغني النابلسي قدس سره بقوله :

وحدّ الشام طولاً من عريش	الى ارض الفرات المستجادِ
ومن جسر المسيح يقال عرضاً	الى طرسوس للبلد المرادِ
ومن يافا كذاك الى معان	فشام كل ذلك من بلادِ

وقيل لسكان هذا القطر الآراميون تغليباً نسبة الى آرام (المرتفع) وهو ابن سام ابن نوح الذي اشتهرت فيه قبائله ولا سيما انها كانت آخر سكان القدماء عند فتح اليونانيين فبقي اسمهم متداولاً ٠ ولكن اليونانيين والرومانيين سموا القسمين سورية ٠ والعرب جاروهم بذلك ثم ذابوا اسم الشام ٠ ومما يؤثر عن هذا القطر ان الملك هرقل لما غادر انطاكية الى القسطنطينية على اثر فتح العرب في عهد خلافة الامام عمر بن الخطاب (رضه) ودع البلاد بلغته اليونانية قائلاً (سوزه سوريه) اي (كوني بسلام يا سورية) ٠ و كانت عاصمتها منذ القديم دمشق ٠



دمشق

ان مدينة دمشق هذه موضوع الكلام في هذه المحاضرة هي اقدم مدن سورية لان القبائل التي هاجرت الى هذه البقاع اقامت اولاً في هذه الانحاء لتوفر خصبها بكثرة مياهها ثم تفرقت وسترون في ما يأتي ادلة قاطعة تثبت قدمها . حتى ان استرابون المؤرخ ذكر مغاورها في العصر الظرّي (الحجري) ولا تزال آثارها فيها وحولها فلهذا كانت هذه المدينة العريقة في القدم اشهر مدن سوريا واضخمها آثاراً (ماعدا مدينة بعلبك) واوفرها خصباً واغناها خيرات واكثرها متنزهات واغزرها مياهاً ولقد ذكرتها آثار قصر الكرنك المحفورة على جدرانه في مصر منذ القرن السابع عشر للميلاد ثم مراسلات تل العمارنة بعد قرنين كما ذكرتها التوراة وكثير من الكتب التاريخية القديمة .

وعلوها عن سطح البحر الرومي الفان ومائتان وستون قدماً وموقعها في مستوى من الارض يشرف عليها جبل قاسيون المعروف بجبل الصالحية نسبة الى الصالحين الذين هم من بني (جماعة) من الكنانيين النابلسيين المنتسبين الى مسجد ابي صالح (١) خارج الباب الشرقي منها لنزولهم فيه ولما انتقلوا الى سفح ذلك الجبل نسب اليهم فقيل له جبل الصالحية والى هذا اشار الشاعر بقوله :

الصالحية جنة والصالحون بها اقاموا

وبقيتهم هي اليوم آل النابلسي عندنا . وعلو قاسيون ٣٧٠٧ اقدام . ويشرف عليها ايضاً من الغرب الجنوبي جبل الثلج او جبل الشيخ المعروف قديماً بجبل حرمون (القمة العالية) وعلوه — ٩٤٠٠ — قدم وهو يرطب جوها بنداه البليل المحمول

(١) ان مسجد ابي صالح قديم كان يلزمه ابو بكر ابن سيد حمدية الزاهد وقيل انه جدده ثم خلفه فيه ابو صالح صاحبه فنسب اليه ويسمى الآن قبر الشيخ صالح وهو بين الباب الشرقي وباب توما قرب الشيخ ارسلان خارج السور ولما حوصرت قرية جماعيل النابلسية في ايام الحروب الصليبية ترك آل جماعة هؤلاء بلادهم وهاجروا الى دمشق فنزلوا فيه كما ذكرت اعلاه .

على اجنحة النسيم وحولها الغوطتان الشرقية والغربية وهما من منتزهات الدنيا الاربعة لانها حدائق رائعة وجنان غناء ينساب فيها نهر بردى (البارد او الاردي) (١) وينضم اليه نهر الفيجة (الينبوع) فيدخل المدينة و يتوزع عليها انهراً سبعة بهندسة بديعة فيروي جميع الارض التي حوله والمدينة بجميع احيائها ولذلك سماه اليونان بلغتهم مجرى الذهب (Chrysorrhoas) لخصب ارضه و به لقب يوحنا الدمشقي من قدماء العلماء الدمشقيين الذين نبغوا في ايام الدولة الاموية لفصاحته فقيل له (مجرى الذهب).

والمدينة مسورة بسور عظيم منيع فيه ابواب حديدية ضخمة و بقي سورها وابوابها الى زمن ابراهيم باشا المصري (١٨٣١—١٨٤٠ م) فسلمه السكان مفاتيح المدينة عندما فتحها ودخل من (بوابة الله) مع حاكم لبنان الامير بشير الشهابي الكبير وولده الامير خليل وامن الاهلين فبقي الآن بعض السور والابواب وكانت قلعة دمشق قديمة محصنة بابراج ولها سور وحولها خندق يرد عنها الغارات تجددت في العصور المتوسطة ولا تزال ابنيتها ماثلة في غربي المدينة.

ولقد جمعتُ اسماء المؤلفات في هذه المدينة مما سمي باسمها فكانت اكثر من خمسين واكبرها تاريخ ابن عساكر المشهور وهو من مخطوطات المكتبة الظاهرية الشهيرة طبع منه خمسة مجلدات مؤخراً مختصرة ورأيت في كثير من تلك المؤلفات تاريخ الشام ودمشق وعمرانها وحوادثها. ولكن كل واحد نقل عمن قبله في الغالب دون تمحيص وتحقيق فتكرر الكلام والخطأ وخبط الباحثون في تفسير الاعلام و بقي الاشكال غامضاً فحبذا لو اعتمدنا على فلسفة التاريخ ودرسنا علم الآثار القديمة او العاديات ومعارضة اللغات واشتقاقها فان في ذلك مغنماً للمؤرخ يحقق فيه الآراء و يصحح النقول فيعتمد الآتون على اقواله. ولله در لوقيان القائل: «من العيب العظيم في التاريخ ان لا نفرق بين ما هو حقيقي ثابت وما هو خيالي واهن». و ياقوت الحموي الذي عقب على قول من تمحل لكلمة اصبهان وجوهاً غريبة في اشتقاقها (معجم البلدان ١: ٢٧٠) بما نصه: «وما اشبه قوله هذا الا باشتقاق عبد الاعلى القاص حين قيل له: لم سمي العصفور. قال: لانه عصى وفر. قيل له: فالطفشيل. قال: لانه طفا وشال — اه».

(١) نسبة الى (لود) اخي ارام وهو الذي يسميه المصريون (روت) كما سترى.

فرأيت في اول محاضرة انتدبت لالقائها على منبر هذه الردهة بعد عودتي الى هذا المجمع العلمي ان اتخذ تاريخ دمشق موضوعاً لي محصاً — على قدر ما فسح لي الوقت ووصل اليه الذرع — بعض ما كان مستوراً بحجاب الاهمال في تحليل الاسماء والتعليل عن الحوادث . على اني لم اتعرض الا لتحليل الاعلام الاعجمية لاننا ندركها بالبداهة راجياً من لطفكم ايها الكرام الاعضاء عن الهفوات . فليس ما تسمعونه الآن من الآراء الحديثة في التاريخ الا تنبيهاً الى البحث والتنقيب للتحقيق والتمحيص ليكون تاريخاً كاملاً مبنياً على الحقائق والبراهين الدامغة . فلا تحملوه بارعاً كم الله على غير حسن القصد والله حسبي .

٣

اسماء دمشق واشتقاقاتها

من الفوائد التاريخية الدالة على تحقيق بعض الآراء في التاريخ الصحيح تحليل الاسماء القديمة ومعرفة معانيها وأصول مبانيها واشتقاقها فهي اشبه بالآثار القديمة في تأييد الحقيقة او التقرب منها على قدر الطاقة وعلى هذا أحلل الآن اسماء هذه المدينة وهي كثيرة ذكر منها القلقشندي المشهور في معلمته (صبح الاعشى) المطبوعة حديثاً — دمشق وجلق وحكى في الروض المعطار تسميتها جيرون والعذراء . . . الخ .

اولها الشام = ان هذا الاسم اقدم اسمائها لانه اسم أب الذين احتلوها واختطوها من اللوديين والاراميين كما سترى قريباً . وهو الغالب على السنتنا الى اليوم . ولاسيما عند العامة حتى انهم قلما يقولون (دمشق) . ومعنى سام بالعبرانية اسم فهو بلا شك اب الاسماء واسم أب الآباء الذين تديروها . ولقد ذكره النابغة الجعدي عند فتح هذه المدينة في ايام العرب وتعيير ابي الزهراء القشيري باصابة رجله في مواقعها . فقال النابغة يخاطب المعير :

فان تكن قدم (بالشام) نادرة(١) فان بالشام اقداماً واوصالا
وان يكن حاجب ممن فخرت به فلم يكن حاجب عماً ولا خالا

(١) اي زالة وواقعة .

فتكون تسمية عاصمة الشام باسم بلاد الشام من باب تسمية الجزء باسم الكل مجازاً .
وقال صاحب مراصد الاطلاع : مسجد الشام في بخارى العجم . والشام موضع في بلاد مراد . والشام محلة في تبريز مشهورة وهو يدل على انتقال هذا الاسم مع سكان البلاد الساميين الذين حملوه في هجرتهم وسموا به الاماكن التي نزلوها تيمناً باسم جدهم (سام) .

ثانيها دمشق = لقد أول المؤرخون هذا الاسم تأويل شتى والاقرب في هذه التسمية انها لودية اوارامية (اي كلدانية او سريانية قديمة) ذكرتها آثار الكرنك وكتابات تل العمارنة باسم (تماسكو) باللغة الهيروغليفية (اللغة المصرية المقدسة) ومعنى الكلمة المزهرة اوالمثمرة تسمية بغوطتها الخصيبة . ولقد ذكرها كثير من العرب بهذا الاسم منهم ابو عبادة البحتري بقوله .

اما دمشق فقد ابدت محاسنها   وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا اردت ملأت العين من بلد   مستحسن وزمان يشبه البلدا

ومن هذا الاسم اخذ اليونانيون كلمة (Damascus) وعنهم نقل الافرنج تسميتهم للمدينة وصناعاتها كما سيأتي .

واما قولنا (دمشق الشام) فليس الا تمييزاً لها عن غرناطة الاندلسية المسماة (دمشق الغرب او الاندلس) لان سكانها كانوا من طوارئ دمشق الذين ذهبوا اليها مع من ذهب الى المغرب فاختاروها سكناً لهم لكثرة مياهها وحدائقها والجبل الثلج المطل عليها فكانت اشبه بمدينتهم الاصلية . ولكن ابن جبير الكناني الرحالة فرّق بين الدمشقيين بقوله :

يا (دمشق الغرب) ها   تيك لقد زدت عليها
تحتك الانهار تجري   و (هي) تنصبّ اليها

وورد اسمها مؤنثاً في شعر عبد الرحمن بن صهيل الحجبي لما حاصر عسكر يزيد ابن ابي سفيان هذه المدينة بقوله :

فبلغ ابا سفيان عنا بأننا   على خير حال كان جيش يكونها
وانا على بابي (دمشقة نرتمي)   وقد حان من بابي (دمشقة) حينها

الثالث جلق = لقد غمض اشتقاق هذه الكلمة عن كثيرين فلم يهتدوا الى اصله والذي اراه (إما انها) يونانية تحريف (Jinic) ومعناها امرأة اذ كان فيها كنيسة بهذا الاسم ذكرها ابن عساكر وغيره ولعلها كنيسة باسم مريم ام المسيح (عيسى) وهي غير المريمية الكبرى وقرب الكنيسة باب الجنيق المسدود في زمن ابن عساكر فقيل فيها (جنِّق) ثم بالابدال (جلِّق) و (إما انها) فارسية من كلمتين هما (كل) اي زهرة او وردة و (لك) بمعنى مائة الف فيكون مجمل معناها مائة الف زهرة اشارة الى غوطتها ثم عدلوا عن الضم في اولها الى الكسر واتبعوا اللام للتخفيف فقالوا (جلق) . وعلى هذا الرأي تكون من أسمية الفرس الذين امتلكوها في القرن السادس للميلاد ولذلك كانت شائعة في زمن حسان بن ثابت الانصاري فذكرها بهذا الاسم في قصيدة وصف بها آل جفنة الغساسنة حكام دمشق اذ ذاك منها قوله :

لله درُّ عصابة نادمتهم يوماً (بجلق) في الزمان الاول

يسقون من ورد (البريص) عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

واما البريص او البُرَيص الذي ذكره حسان هنا فهو اما منتزه او قصر وربما كان محرفاً عن كلمة (Baradisos) اي براذيسوس اليونانية ومعناها المنتزه او الفردوس ولعل اسم برزه من هذا وكان البريص يسمى ايضاً المقسلاط (ولعله منحوت من مقام الصلاة) وهو موضع النخاسين الآن . واري اسم بردى من هذه الكلمة وقال في مراصد الاطلاع : (جلق) ناحية بسرقسطة بالاندلس يسقي نهرها ٢٠ ميلاً وقيل واد في شرقي الاندلس . ثم قال: (جليقية) ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الاندلس في اقصاه من جهة الغرب . (اه) وهذا دليل آخر على حمل الدمشقيين لهذا الاسم معهم الى الاندلس تحبباً وحنيناً الى وطنهم الاول .

الرابع جيرون = اطلقه بعضهم على المدينة من باب تسمية الكل باسم الجزء مجازاً لانه من ابواب جامعها الكبير ايام كان هيكلاً لليونانيين فالكلمة يونانية Jiron بمعنى فناء الدار او الهيكل ومنها اسم فناء الكنيسة او سورها عند الافرنج اليوم . وكان اسم جيرون للباب الشرقي من ابواب الهيكل وهو المعروف اليوم بباب (النوفرة) وهي الفوارة المنشأة سنة « ٤١٧ هـ ١٠٢٦ م » . ولا تزال آثار السور الذي كان يحدق به

ظاهرة في الزقاق الذي على يمين الداخل الى الجامع من ذلك الباب وهو الموصل الى الظاهرية وقبله زقاق آخر الى يمين الداخل وفيه أعمدة تمتد حتى المدرسة الباذرائية . وفي داخل باب جيرون « محل الجيرونية » كما تسمى الآن . وعلى جانبي باب جيرون عمودان ضخمان يدلان على عرض السوق في ذلك العهد وكانت الاروقة قائمة على هذه الاعمدة لسير الناس والسوق بينها للعجلات والحيوانات . وحوله كتابات يونانية على يمين الداخل في موضعين (١) . وعلى اليسار حانوت صغير فيه باب على اسكفته « عتبته العليا » نقوش بديعة يدل على ان الارض قد ارتفعت عن مساحة ارض الشارع القديمة الى اكثر من نصف الباب علواً : ومثلها الى شرقي الجامع عند باب البريد ثلاثة أعمدة عليها طنف وكثيراً ما ذكر الشعراء باب جيرون فقال بعضهم فيه :

باكر « دمشق » بشق اقلام الحيا زهر الرياض مرصعاً ومكللاً
واجرر « بجيرون » ذيولك واختصص مغنىً تأزر بالعلى وتسربلا

وقال بعضهم ان اصل جيرون فارسي تعريب « جروند » بمعنى السراج وهو بعيد كما لا يخفى .

ومن اغرب ما وصفت به جيرون قول صاحب مراصد الاطلاع : جيرون سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف حولها مدينة تطيف بها وهي بدمشق في وسطها كالحلقة . وقيل جيرون قرية الجبابرة في ارض كنعان « اه » . ولا تزال آثار الاعمدة حولها ظاهرة .

---

(١) في ربيع سنة ١٩١١ م كنت في دمشق فرأيت كتابة في بيت ابي عثمان الحموي في القيمرية بجوار البئر الذهبي على يمين الداخل الى الجامع من باب النوفرة « جيرون » ظهرت في الجدار الغربي عند ترميم البيت وهي يونانية تدل على ان تلك الغرفة بناها مينودورس الابن الاصغر لزينوفوس امين صندوق الهيكل . وهناك حروف غير ظاهرة . وفي بيت الدردري على يمين الباب في اول بيت كتابة يونانية وراء الدرج الذي يؤدي الى البيت طمست بالبناء فوقها . وكذلك في بيت السمان في القيمرية كتابة أخرى يونانية كنت اول من اطلع عليها ونسخها وفيها اشارة الى عبادة المشتري « جوبتير » وهي على قاعدة عمود من الحجر الابيض .

قال : واما جيرون فلسطين فلم نر لها اثراً في ماوصلت اليه يد البحث ولكننا نظن انها تصحفت على المؤلف فالاولى ان تكون هي « حبرون » المساة قرية اربع بل مدينة اربع وتعرف اليوم باسم « خليل الرحمن » وتصحيف حبرون « جيرون » ٠

الخامس اسماؤها الاخر = سميت دمشق باسماء أخر كثيرة لنشير اليها تتمة للبحث فسماها يوليانوس الروماني « عين الشرق كله » لعمرانها ٠ ومن اسمائها العربية « إرم ذات العماد » وانكر ذلك كثير من المؤرخين وقالوا ان اسم إرم هو للقبيلة لا للمدينة والذي أراه ان العرب لما رأوها كثيرة الاعمدة وعرفوا شأن الاراميين فيها سموها « مدينة ارام ذات العماد » ثم حذفت كلمة مدينة وعربت ارام الى إرم ٠ ومنها « عاصمة أرام » و « أرام دمشق » تمييزاً لها عن « أرام صوبة » في وادي سورية المجوفة ٠ و « مدينة العازر » وهو خادم ابراهيم الخليل المنسوب الى دمشق و « مدينة نعمان السرياني » وهو احد سكانها ٠ و « بيت رامون » نسبة الى هيكلها الذي كان باسم الاله رامون اللودي ومنه اسم برمانة في ظاهر دمشق ٠ و « حاضرة الروم » و « حصن الشام » و « بيت ملكهم » و « باب الكعبة » و « فسطاط المسلمين » و « العذراء » ولعلها نسبة الى مريم العذراء التي فيها كنيستها القديمة المعروفة بالمريمية ٠ او انها تعريب كلمة جنيق بمعنى العذراء كما مر آنفاً ٠ و « قاعدة وادي سورية » المعروفة بسورية المجوفة في اصطلاح مؤرخينا الآن ٠ ومن القابها « الفيحاء » لاتساعها و « الغناء » لالتفاف اشجارها الكثيفة و « جنة الارض » لكثرة حدائقها وغزارة مياهها ٠

وفي تسميات احيائها وضواحيها اشتقاقات تكشف القناع عن وجه كثير من الحقائق الغامضة التي يجهلها المؤرخون و يتكهن بها اللغويون ٠ فمن الاسماء باللغة الفينيقية « دمّر » تحريف دامور او تامور اوتامار وهو عندهم الاله الحامي فكأنهم اتخذوا حصناً له فيه تمثاله للدفاع عن المدينة التي كانت محطةً لتجارتهم الشهيرة ٠ و « بلاط » تحريف « بعل باليت » ٠ وفي جبل القلمون قرية « فليطة » وهي من هذا الاشتقاق ٠

والاسماء الآرامية اكثر من غيرها مثل (بيت لهيا) اي بيت الآلهة ٠ و (المعرة) بمعنى المغارة ٠ و (ديرمُرّان) اي موران بمعنى سيدنا و (آبون اوقابون) بمعنى ابينا لدير كان فيها و (حلبون) بمعنى الخصيبة و (معربا) بمعنى المغرب و (تلفيتا) اي تل الفيء

لكثرة نباته . و(معرونة) اي المغارة الصغيرة .

ومنها الاسماء الحثية مثل (الشاغور) بمعنى الصغير . و (قطنا) تحريف (كتنا) وهو اسم الحثيين وكذلك (الغوطة) فانها تحريف (الكتنة) .

واليبوسية مثل (يبوس) و (كفر يبوس) نسبة الى اليبوسيين من الكنعانيين . و (جديدة الجرش) نسبة الى الجرجاشيين منهم ايضاً .

واليونانية مثل (بلاس) بمعنى قصر . و(بيت اورانس) اي بيت السماء وهي الآن اطلال خربة . و (عين ثرما) اي الحمة وهي العين الحارة المياه . و(اقتريس) تحريف (فاراتريس) اي ضارب الاعداء ومبددهم وهو من اسماء المشتري . و(الفيجة) وهي تحريف (بيجه) بمعنى الينبوع . و(مقرا) من متنزهاتها اصلها يوناني (امكرا) بمعنى المستطيلة . و (نهر ثورا) اي نهر النظر في اليونانية وقيل انها باسم حكيم اسمه (ثورا) او نسبة الى تاج الملك (توري) (١) .

والرومانية مثل جبل (القلمون) بمعني المناخ اي جودة الهواء . و(بانياس) من بان اله الغابات وهو من اسماء انهارها اليوم .

والعبرانية (المزة) وهي باسم حفيد عيسو ومعناه «الخوف» او هي يونانية بمعنى التلة اوالربوة وقربها (الربوة) المدينة الخربة الآن بعد احراق الصليبيين لها .

والفارسية (جوبر) من جو بيار بمعنى مسيل النهر الصغير . و(حرستا) من (خُر) بمعنى الشمس اي حور اسم اله و (روستا) بمعني سواد وقرى اي قرى الشمس ومنها (عرتب الرستاق عندنا و(منين) فانها مركبة من (مه) كبير و (نين) زحل فمعناها زحل الكبير او من (مي) بمعنى الخمر فتكون بمعنى باخوس .

وذكر ابن عساكر كثيراً من اسماء القرى العربية مثل (صنعاء) وهي خربة الآن دون المزة مساة باسم (صنعاء اليمن) العربية . ومثلها قرية (الحميريين) الخربة وفيها مسجد كان مشهوراً وهذا من الادلة على ان اليمنيين تديروها .

(١) هو زوج زمرد خاتون ام شمس الملوك اخت الملك دقاق توفيت سنة ٥٥٧ هـ (١١٦١ م) وهي مؤسسة المدرسة الخاتونية البرانية في دمشق المنسوبة اليها .

٤

سكانها وأجناسهم

كانت قبائل العمالقة وفروعها محتلة سورية منذ اوائل الزمن التاريخي · ومنهم الجرجاشيون وغيرهم من ابناء أعمامهم كاليبوسيين · ولما حدثت زلازل شديدة ارتعدت لها فرائص الارض على ضفاف خليج العجم وماواليها في القرن العشرين قبل الميلاد هلعت قلوب سكانها من القبائل السامية واليافثية والحامية ففرّوا منذعرين من تقويض مساكنهم وتدمير عمرانهم فساحوا في الارض الى ان رأوا بجعتهم ضواحي دمشق لخصبها واتساعها فاستظهروا على سكانها من الكنعانيين وتولوا شؤونها ومنهم الفينيقيون الذين غلبهم اللوديون والآراميون والعبرانيون فتمازجت اصول قدماء السكان في سورية ووثقت اواصر النسابة بينهم المصاهرة ولكنها لم تغنهم فتيلاً فنشبت بينهم مشاحنات ونمت ضغائن قضت عليهم بالحروب المستطيلة ·

وممن سكت عنهم المؤرخون او أغفلوهم او أشاروا اليهم من طرف خفي (١) اللودانيون اخوة الآراميين لان سام بن نوح رزق خمسة ابناء هم عيلام وأشور وارفكشاد ولود وأرام ·

وبما ان مملكة ارام كانت المملكة الاخيرة من هذه القبائل شاع ذكرها على ألسنة المؤرخين فأشاروا اليها بالتفصيل وأغفلوا ذكر مملكة لود الذي كان أكبر من ارام فملك قبله واشتهر · وكان لبني لود مواقع حربية عظيمة وآثار عمران كثيرة في شمالي سورية ومتوسطها وجنوبيها · فأسسوا مملكتهم الفخمة ونزلوا دمشق قبل اخوتهم الاراميين اومعهم وأسسوا حضارتها وشيدوا أبنيتها العظيمة ولاسيا هيكل رامون المنيع الذي حوّل الى هيكل المشتري (جوبيتر) ثم الى كنيسة القديس يوحنا المعمدان ثم الى الجامع الاموي الكبير المشهور بآثار بنائه الفخم وهندسته الرائعة · ولهذا أفرد هذه الصفحة لتحقيق تاريخهم وحسر اللثام عن اصلهم ولم أر احداً تعرض لوصفهم بالتطويل

(١) راجع لترمان ومسبرو المؤرخين الفرنسيين وبعض تواريخ مصر ولا سيا الاثرية منها · وكتب السياحة ونحوها ·

غيري في ماشرته في مقتطف السنة الماضية بعنوان (اقدم سكان سورية اللوديون) وهو بحث مستفيض ٠

تقرر في هذا العصر تحقيق التاريخ بالآثار القديمة وتحليل الاسماء ونحوها فلهذا اذا استنطقنا هيكل الكرنك في مصر أرانا صفحات جدرانه لنطالعها فنقرأ فيها اخبار غزوات الفراعنة لهذه القبيلة التي يسمونها (روتنو) لان اللام والدال تبدلان في اللغة الهيروغليفية بالراء والتاء فيقال في اللودان الروتان ٠ ومما يثبت ان سكان سورية حين غزا تحوتموس او (توطميس) الاول من الدولة الثامنة عشرة المصرية هذه البلاد سنة ١٦٥٠ ق م كانوا هم اللودبين او الروتبين لا غيرهم وان شئت فقل اللودان او الروتان ٠

وقد شمل اسم اللودان القبائل التي لم تخضع للمصريين ٠ وكانت قبائلهم تقسم الى لودان المغرب او الاسفل وهم سكان دمشق هذه وما اليها وبلاد فلسطين ٠ والى لودان المشرق او الاعلى وهم سكان سورية الشمالية وجزء من غربي مابين النهرين ٠ فلهذا كانت دمشق عاصمة اللودبين وحصنهم المنيع في (بلودان) اي بيت اللودبين وهي مشهورة بمناعتها الطبيعية فارتفاعها ٤٥٠٠ قدم ٠ وموقع قلعة الشقيف على علو ٦٨١٠ — اقدام منها فهي تشرف على جميع المضايق والطرق التي تأتي منها جيوش الاعداء ولا سيما المصريين الذين حاربوهم ٠ وكلمة الشقيف كلدانية بمعنى الصخرة وأرادوا بها الحصن المنيع كالصخر او المشيد على الصخر ٠ ومثلها شقيف تيرون في جنوبي سورية ٠

ولما استظهر المصريون على اللودبين وملكوا منهم وادي سورية اي سهل بعلبك والبقاع وما يتصل به اقاموا حصناً على مضايق وادي يحفوفا لدفع غزوات اللودبين لهم من دمشق وضواحيها وسموه (بربتان) اي بيت الروتبين بلغتهم المصرية كما سبق وهي الى اليوم قرية عامرة ٠ وقربها قرية (حورتعله) وهي مركبة من (حور) الاله المصري الذي يقابل (ابلون) عند اليونان و(تعله) بمعنى تعالى ٠ مما يدل على نزول المصريين فيها واتخاذها هيكلاً لآلهتهم ٠ ومن غريب ماقرأت في تاريخ ابن عساكر ان خربة (حور تعله) من ضواحي دمشق كان فيها مسجد ينسب اليها وذلك يدل على ان نفراً من الروتبين جاؤا من بعلبك واستعمروها وسموها باسم بلدتهم كما هو الحال في كثير من التسميات مثل (تربل) في البقاع ٠ فان سكانها في زمن الايطوريين (الجبليين) الذين غلبهم بومبي القائد

الروماني في منتصف القرن الاول للميلاد وكانت حاضرتهم كالشيس او خلقيس (مدينة النحاس) اي عنجر اليوم في البقاع · امتد ملكهم الى السواحل فجاء نفر من جبل تربل فوق مدينة طرابلس الشام وسكنوا هذه القرية فسموها باسم موطنهم الاول ·

واذا اردنا التوسع قليلاً بامتداد الامة الروتانية في انحاء سورية نرى ان اسم (بيروت) بقرب من (بيت روت) فكأنها كانت ثغرهم البحري للدفاع عن بلادهم · وهذا اولى من تسميتها « بالابار » كما يقول المؤرخون لان معظم المدن الساحلية لا ينابيع فيها بل ابار فقط فلماذا خصت بيروت بذلك الاسم دون غيرها ؟ · واسمها في الآثار المصرية « باروتا » وهو اقرب الى هذا الوجه منه الى الآبار ·

ومن اوجه ما هنالك ان نهر الليطاني الذي يتخلل سهل بعلبك والبقاع ليس الا تحريف كلمة لوداني او روتاني وان شئت فقل « لوتاني » فهو منسوب الى هذا الشعب القاطن في ذلك السهل الافيح · وكذلك نهر البرذوني المتخلل زحلة ونهر بردى الذي ينساب في هذه المدينة يترجح انهما من هذا الاشتقاق فقيل نهر « بيت روده » ثم نحت وابدل فصار بروده او بردي وحذفت كلمة النهر · و يوجد في سهل بعلبك قريتا (حوش بردى) و(حوش الذهب) والاسمان من اسماء نهر دمشق كما مرّ · وتوجد قرية برتي في جزين ايضاً وهي من هذا القبيل وقس عليها ·

والمرجح ان اللوديين هم الذين شيدوا الحصون والمعاقل الفخمة في مشارف سورية وفلسطين مثل قلعة كركميش وحلب وشيزر وقدس وحماة وحمص ودمشق وكرك الشوبك وغيرها لكثرة غزوات المصريين لهم · وكانت لهم عاصمتان عظيمتان هما (كركميش) المركبة من (كركو) اي حصن و (كموش) الاله القاهر · ومثلها قرية (عرجوش) في البقاع قرب زحلة وهي خربة اليوم تعرف بالفيضة · وعرفت كركميش هذه باسم هيرابوليس اي المدينة المقدسة عند اليونان ثم حرف اسمها الى جيرابوليس فجرابيس كما هو الآن ·

وعاصمتها الثانية كانت قادش او قدس بمعنى المقدسة وهي على ضفة بحيرة باسمها تدعى الآن (قطينة) نسبة الى الحثيين الذين هم (كتيين) وهي في محل النبي مندو

في جوار حمص حيث البعثة الاثرية الفرنسية تحتفر الآثار الدالة على حضارة تلك العصور (١) .

ومن البراهين الدامغة على صحة رأينا في هذه القبائل اللودية اوالروتية ان الآثار المصرية لم تدوّن في مادونته من اخبار غزوات ملوكها الاولين الا اسم الروتنو اي اللودنيين . ولم تذكر الحثيين والاراميين الا في زمن الدولة التاسعة عشرة . وذلك لان الحثيين استظهروا على اللودنيين بعد ان دانوا لهم زمناً طويلاً ودفعوا لهم الجزية التي ضربوها عليهم فانتهز الاراميون — الذين امتزج بهم ابناء عمهم اللوديون — الفرصة للاقتصاص من غالي انسبائهم فضربوا الحثيين ضربات قاضية واشتهر ذكر الاراميين من القرن الثامن قبل الميلاد الى فتح اليونانيين للبلاد في القرن الرابع قبله . فلذلك نقل الينا اليونان ذكر الاراميين في منازلتهم اياهم ولم يذكروا اللودنيين لانهم كانوا قد اندغموا بهم وزالت مملكتهم بيد الحثيين كما مر .

وكان من تأثير غلبة اليونان للاراميين انهم بدلوا اسم بلادهم (ارام) باسم (سورية) كما سبق لنا تعليل ذلك في صدر المحاضرة فذكر هيرودوتس البلاد بهذا الاسم الجديد وشاع بيننا .

فلهذا كانت حضارة دمشق القديمة من قبائل العالقة ولا سيما الجرجاشيين والبيوسيين كما مر ثم توالى عليها ملوك اللودنيين والحثيين والاراميين واليونانيين والرومانيين الى الفتح العربي وتمازجت اصول تلك القبائل بالمصاهرة .

وكانت قبائل اليمن العربية قد اندفقت الى هذه البلاد على اثر اندفاق سيل العرم في بلادها اليمنية فكان منهم قبائل الضجاعم والغساسنة والقضاعيين والاباديين والايطوريين وغيرهم متخللين حكم تلك الدول بامارائهم وملوكهم .

---

(١) راجع صفحة ٣١٦ من الجزء العاشر لمجلة المجمع العلمي في سنتها الاولى وهذا تفصيل ماوعدنا به هناك . ولقد جاءت بعثة افرنسية سنة ١٨٩٤ م الى هذا المحل واحتفرته ثم عادت في ربيع السنة الماضية . واستأنفت عملها في خريف هذه السنة وستزيل اكتشافاتها كثيراً من الالتباس والاشكال في تاريخ الامم اللودية والحثية وغيرهما .

وغزا ملوك اشور وبابل هذه البلاد ولاسيما عاصمتها دمشق هذه وكان تغلث فلاسر ثاني ملوك اشور قد حاصرها وافتتحها سنة ٧٣٢ق م وجلا ثمانية آلاف من سكانها الى بلدة قير في العجم وقتل ملكها رصين . ثم حاصرها شلناصر وضايق اهلها وقطع اشجارها .

وكانت الدول العبرانية قد طمحت نفوسها اليها ففتحها داود الملك وحالفته ثم انقضت عليه بارسال نجدة من قومها الى هدد عزر ملك صوبة الذي حاربه داود فاوغر ذلك صدره عليهم وقتل من ارامي دمشق ٢٢ الفا واستولى على البلاد واقام محافظين في ارام دمشق فاستعبد سكان هذه المدينة الاراميون مدة طويلة للعبرانيين وادوا الجزية لهم .

وكانت دمشق مدة بيد الاشوريين الى سنة ٧٢١ق م فاتفق سكان دمشق مع اليهود على الاشوريين ثم استولى عليها البابليون والفرس . وقال استرابون: ان دمشق كانت اشهر مدن سورية في الدولة الفارسية . وكثرت الجاليات الى دمشق من البلدان التي لها علاقة بفاتحيها . وانتقل بعض سكانها الى تلك الاصقاع سنة الله (ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

ولما ملكها اليونان كانت هذه الحاضرة مدينة عظيمة لايفوقها الا انطاكية من بعض الوجوه .

وفي عهد استيلاء الدولتين اليونانية والرومانية عليها قدم كثير من رعاياها وامتزجوا بسكانها وخفيت اصولهم الا بعض البيوتات التي حفظت انسابها مثل آل سرجون الذين تقدموا عند الدولة الاموية في ديوان الانشاء ومنهم نشأ القديس يوحنا الدمشقي الفيلسوف الشهير الملقب باسم نهر بردى (مجرى الذهب) كما سبق القول آنفا . ويقال ان بيت هذه الاسرة الوطنية القديمة هو اليوم محل دير الآباء اليسوعيين قرب باب توما وان هذه الاسرة لها بقية في صافيتا تعرف فيها باسم آل الخوري لكثرة الكهنة الذين تسلسلوا منها والله اعلم .

وكان انقلاب عظيم عند تنصر اليونان والرومان في هذه المدينة ولاسيما في ايام تيودوسيوس الكبير الذي شدد النكير على الوثنية وابطل عبادة الاصنام وهدم بعض هياكلها ثم هدم ابنه اركاديوس بعض هيكل رامون في هذه العاصمة ثم رممه وجعله

كنيسة مار يوحنا المعمدان المعروفة اليوم (بمقام سيدنا يحيي) داخل حرم الجامع الاموي وفي وقت قصير تنصر اهلها كلهم ما عدا اليهود فكثرت بينهم الخصومات .

وفي سنة ٥٤٠م فتحها الفرس ودمروا معظم ابنيتها فزادوها خراباً ثم عادت بعد قليل الى الرومان وعمالهم الغساسنة فجددوا شيئاً من حضارتها وابنيتها .

ولما كان الفتح العربي سنة ١٣ ﻫ (٦٣٤ م) حدث انقلاب آخر في الحاضرة فهاجر منها واليها كثير من العرب والامم الاخرى التي فيها فتمازجت اصولهم . ولم يطل الوقت حتى هاجر كثير من سكانها ايضاً الى المغرب والاندلس . ثم نكب فيها العباسيون الامويين فخربوا مساكنهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فازدادت المهاجرة منها الى الاقطار السحيقة . وعند تشييد الجامع الاموي في زمن الدولة الاموية استقدم آلاف من الصناع البيزنطيين اليها وسكنوا فيها بأسرهم ونشروا فيها الصناعات الجميلة .

ولما كانت الحروب الصليبية وحوصرت الثغور والمدن رحل كثير من الاسر الاسلامية الى دمشق مثل آل النابلسي وبقاياهم فيها الى اليوم وقد سبقت الاشارة اليهم .

وفي خلال تلك العصور القديمة وما بعدها كثرت الفتن بين اليهود والسوريين الوطنيين . والقيسيين او المضريين واليمنيين . والامويين والعباسيين . والمشارقة والمغاربة . والسنة والشيعة . الى ان كانت حوادث الانكشارية والقبيقول فاضطرب حبل سكانها وهجرها كثير منهم وحل غيرهم محلهم من امكنة مختلفة .

ومن اكبر نكباتها غزوة تيمورلنك (الاعرج الحديدي) فضايق الدمشقيين وشدد عليهم وأمنهم حتى سلموا وبينهم ابن خلدون المؤرخ المشهور وكان من دهائه انه قال له : دعني أقبل يدك التي انا املها الاقاليم الخمسة . وأراد بذلك انه كان قد فتح خمسة أقاليم . فدخل تيمور المدينة ولم يؤذها اولاً ولكنه حاصر القلعة ونكث بوعده . فنكب الاهلين شر نكبة وسلب أموالهم وأحرق البيوت وكان يعذب الامراء فيسقيهم الرماد و يعطيهم الماء والملح والكلس ويكويهم بالنار ليقروا له باموالهم فاستخرجها منهم استخراج الزيت بالمعاصر . ثم امر بالنهب العام والسبي والفتك والقتل والاحراق والاسر على الاطلاق فمزق شمل السكان كل ممزق وسبى المخدرات وبقي على هذه الحالة من الضغط ثلاثة ايام فاحرق المدينة وغادرها ملتهبة غيظاً ونقل جميع صناع السيوف والزجاج والاواني

الفاخرة والاعيان . ففرّ من بقي من سكانها خوفاً وبعد ان وثقوا بعدم عودته الى البلاد عاد قليل من سكانها القدماء . وجاء المدينة اقوام من المدن الاخرى ولا سيما حماة فان كثيراً من سكان دمشق اصلهم منها منذ ذلك العهد وكذلك من الانحاء الاخرى .

وكانت الفتن قد كثرت في حوران ولا سيما بين القيسيين واليمنيين فقصدها كثير من الأُسر المسيحية فلبثوا فيها مدة وبعضهم غادرها الى حمص وحماة وحلب وعكار والحصن ولبنان وغيرها . وهي اليوم معظم الاسر . وكثرت المهاجرة اليها والى لبنان على اثر الفتح العثماني في اوائل القرن السادس عشر للميلاد . فلهذا نشأت اصول أُسرها وسكانها متمازجة في الغالب . فهي مختلفة الاجناس والمذاهب بين عرب وشراكسة واكراد وترك وفرس ويهود وكرج وقبط وسريان وارمن ويونان واوربيين . وبين هذه الاسر المختلفة كثير من ارباب النسب الصحيح واهل البيوتات المعروفة والبيوت العلمية على اختلاف فروعها ولا سيما الطبية فيقال ان آل بختيشوع المسيحيين لهم فيها بقية قليلة في الصالحية اليوم تعرف بآل الحكيم قدمت اليها من بلاد العجم . وآل الرحبي من اطبائها المسلمين المشهورين نالوا منزلة رفيعة في خدمة مستشفياتها ومدارسها . واشتهر من غير هاتين الاسرتين كثير من اطبائها وعلمائها ومؤلفيها ومشاهيرها من الطائفتين .

اما الصناعات فيها فكانت راقية كما ستري ولذلك ترى معظم اسماء أُسرها مما يدل على صناعاتها القديمة مثل آل بولاد والسيوفي وجوهر وجوهري ومسابكي وصيقلي وحداد ونحاس وقزاز ومباردي وقساطلي وساعاتي وهواويني ومنيرّ وخوام ومراياتي وجرانحي وطرابيشي وحفار وطباع ونحات ومساميري ومشاطي وصباغ ونوبلاتي ومحايري وصائغ وخياط وترزي وبارودي وبنّا وحكيم ومسدّية ودقاق ونقاش وحجار وسمّاك وفرّا وفرّاية ونجار وقصار وحائك ومخشن وقباقبي ونشواتي واشباهها . وكلها مختلفة الاجناس والاصول كثيرة الفروع والاسماء متلبسة احياناً بصناعاتها المتوافقة واصولها المتخالفة مما فصلته في كتابي (الاخبار المروية في تاريخ الاسر الشرقية) وهو في ثمانية مجلدات كبيرة لاتزال مخطوطة معدّة للطبع .

***

٥

حضارتها وعمرانها

لقد اسس حضارة دمشق اللوديون او الروتيون والاراميون والفينيقيون والحثيون والعبرانيون والاشوريون والبابليون والماديون (الفرس) والمكدونيون (اليونان) والرومانيون والعرب ومن جاء بعدهم من الامم الاخرى .

ومما يدلنا على قدم الممالك الاولى ان اسم دمشق والشام ارامي والشاغور (الصغير) والغوطة وقطنا حثي ودمر بمعنى تامار اي الاله القادر فينيقي . وهكذا بقية الممالك التي تعاقبت عليها . على ان الدول اليونانية التي بقيت ٢٤٨ سنة والرومانية التي تولت شؤونها ٧٠٠ سنة والعربية التي اتخذت هذه المدينة حاضرتها احدى وتسعين سنة(١) كانت حضارتهم اساساً لما بعدها لانهم استبحروا في العمران .

ومما لاريب فيه ان حضارة دمشق القديمة كانت وثنية فشيدت فيها الابنية الضخمة منها « هيكل رامون(٢) » ونحتت التماثيل ونقشت الكتابات مما ذكره كثير من مؤرخي العرب وفي مقدمتهم ابن عساكر في تاريخه المطول فانه ذكر وجود تماثيل وكتابات يونانية وكذلك ياقوت في معجمه والارمنازي في تاريخه اذ تعززت حضارتها في عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني . وفيها محل كان يعرف « بصفة بقراط » حيث كان يجلس هذا الفيلسوف فيه كما قيل وهو في غربي الصالحية تحت قبة السيار .

ولكن الرومانيين تساهلوا مع سكان سورية ولا سيما الفينيقيين والاراميين بعباداتهم فكرموا هيا كلهم اخصها هيا كل دمشق وبعلبك فامتزجت العبادات الفينيقية باليونانية والرومانية امتزاجاً تدل عليه الاساطير القديمة وتحليل اسماء المدن والقرى الباقية الى عهدنا مما فصلته في كتابي « تاريخ سورية المجوفة(٣) » فكان الفينيقيون يعبدون ءَاءُون وهو

(١) من سنة ٤١—١٣٢ ﻫ الموافقة لسنة ٦٦١—٧٤٩ م

(٢) كان محل الجامع الاموي الكبير .

(٣) هو تاريخ مطول في نحو ٨٠٠ صفحة مخطوطة بقطع كامل يشتمل على تاريخ وادي العاصي و بردى والليطاني وما اليها بحسب علم الآثار القديمة والاساطير الدينية

زُحل عند اليونان فكرمه هؤلاء كما اكرموا مينرفه الهة الحكمة عند اليونان وهي سميه عند الفينيقيين . وفي اسمي قريتي (علين) قرب زحلة التي منها اسمها و(بسيمة) في وادي الزبداني وغيرهما دلالة صريحة على هذا الامتزاج .

ولما تنصر اليونان والرومان نقضوا الحضارة الوثنية وهدموا هياكلها العظيمة وحطموا تماثيلها واستبدلوها بالحضارة المسيحية فعضدتها القبائل المتنصرة ومعظمها كان من غسان وقضاعة واياد من السلائل العربية .

ومن آثار النصرانية فيها الكنيسة المريمية الكبرى وهي من بناء اركاديوس قيصر المتوفى سنة ٤٠٨ م ذكرها كثير من المؤرخين مثل ابن عساكر والرحالة ابن جبير ، وخربت مراراً ورممت الى ان احترقت في حادثة سنة ١٨٦٠ م فذهب ما بقي من رونقها القديم طعمة للنار فرممت على طراز حديث ولا تزال المحلة القريبة منها تسمى (القيمرية) وهي على ما يلوح لي بقية كلمتي (ايكوز — ماريا) اليونانيتين اي بيت مريم . وكذلك محلة (الآسية) بقية كلمة (كليسة) اليونانية بمعنى الكنيسة . ومنها كنيسة القديس يوحنا (في الجامع الاموي) ايضاً وقربها محلة (الكلاسة) ولعلها تحريف كليسة اليونانية بمعنى الكنيسة ايضاً الى غيرها من الديارات (الاديار) والكنائس التي في دمشق وخارجها مما وصفه المؤرخون مثل دير خالد او دير صليبا مقابل باب الفراديس . ودير مران وديرهند ودير إبا (ولعلها هي اليوم داريا) . ودير قانون ودير مقرن في وادي بردى الغربي .

وفي دمشق من هذه الآثار الباقية مقام (بولس) الرسول حيث تدلى من السور لما سجن في دمشق وهو باب مسدود له مقام . وكذلك محل (حنانيا) الرسول في الزقاق الى يمين الداخل من الباب الشرقي وفيه كنيسة بيد الآباء الفرنسيسكان وقربها جامع خرب .

ولكن الفرس غزوا هذه البلاد ولا سيما نحو سنة ٥٤٠ م فخربوا ابنيتها وغيروا

ومعارضة اللغات وفيه تراجم العلماء وتفصيل الحوادث على اسلوب عصري في التاريخ والجغرافية والتراجم والمباحث العمرانية وفلسفة التاريخ .

اسماء مدننا (١) بلغتهم وصادروها حتى كاد ذكرها يمحي .

ولما فتحها العرب سنة ١٤ هـ « ٦٣٤م » اشتهرت حضارتها في عهدهم ولا سيما في زمن الدولة الاموية التي اتخذت دمشق حاضرة لها فصكت فيها اول النقود العربية بزمن عبد الملك بن مروان . وانشأ معاوية الاسطول المؤلف من ١٧٠٠ سفينة مجهزة بالاسلحة والجنود وزعه في سواحل الشام والمغرب والاندلس . وذكر ابن النديم في الفهرست : ان اول من حفل بجمع الكتب من امراء المسلمين خالد بن يزيد الاموي فانشأ « مكتبة » في هذه الحاضرة وامر بترجمة كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية فانشأ (دار الترجمة) وكان عنده راهب مسيحي يتولى ذلك . ولقد ظهر في قبة الجامع الاموي كتب واوراق قديمة على رقوق بالعربية والسريانية والعبرانية والقبطية واليونانية نقلت الى المانية وبعضها في متحفنا السوري في دمشق (٢) . ثم بنى الوليد الجامع الاموي الشهير بفخامته ورونقه وانفق عليه خراج مملكته تسع سنوات مما تعادل قيمته الف الف ريال من نقودنا اليوم . وذكر ياقوت الحموي وغيره : انه تم عمله في تسع سنوات كان يشتغل فيها عشرة آلاف رجل كل يوم يقطعون الرخام . ولما شكا الناس من انفاقه هذا من بيوت مال المسلمين اجابهم : تقولون وتقولون وفي بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة اذا لم تدخل لكم فيها حبة قمح . فسكت الناس . وقال الجاحظ في كتاب البلدان : وهو مبني على الاعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي فوقها صغار ، في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب الاخضر والاصفر . فاذهب حريق سنة ٤٦١ هـ رونقه . وقد توالت عليه الحرائق

---

(١) لقد مر بنا من تسميات الفرس (جلق) و(جوبر) و(حرستاومنين) في صفحة ١٤٩ وبقيت اسماء كثيرة منها اسم (الزبداني) ومن رأي صديقي ورصيفي الاستاذ انيس افندي سلوم انه فارسي مركب من كلمتي (سيب) بمعنى رائحة التفاح و(ستان) او (دان)بمعنى محل اي مغرس التفاح فحرف بالزبداني . و يعضد ذلك قول العرب: من زار الزبداني فاحت منه رائحة التفاح . وقيل ان الاسم عبراني بمعنى الهبة مثل كفر زبد وزبدل و يزبدين في انحاء سورية ولبنان . وروي غير ذلك ايضاً .

(٢) راجع صفحة ٣٩٥ من المجلد الاول من مجلة المجمع العلمي العربي .

فشوهت محاسنه وفي حريق ماحوله في ٢٦ نيسان سنة ١٩١٢ م ظهر كثير من الاعمدة الكبيرة التي كانت حول الهيكل وجدران رومانية كثيرة ٠

ولقد شيد الوليد ابنية اخرى فاستقدم الصناع الى دمشق من بزنطية (القسطنطينية) ومن العجم وغيرهما فاشتهرت فيها الصناعات النفيسة منذ ذلك العهد ولا سيما الترصيع بالفسيفساء ٠ ومن الابنية التي شيدوها بيت المال والدار الخضراء الى جنوبي الجامع وبلاط معاوية ودار سليمان بن عبد الملك ودار عمر بن عبدالعزيز ودار هشام ودار ابنه مسيلمة وهذه كلها حول الجامع الكبير ايضاً ٠ وعقد الوليد ميداناً لسباق الخيل كما هو جار اليوم عند الافرنج ولا يزال ذلك المضمار الى يومنا يعرف (بالميدان) وهو من احياء المدينة المشهورة في غربها الجنوبي ٠

وحولت فيها الدواوين من اليونانية الى العربية فرتبت على نمط جديد ووضع ديوان الختم وحزم الكتب والبريد وغيرها ٠

وكان اليمنيون الذين احتلوا دمشق منذ القدم قد نقلوا اليها صناعة الشفار والنصال اي السيوف وهم مشهورون بها فاتقنها الدمشقيون على يدهم وذاعوا بها شهرة فكانوا يستخرجون حديدهم من ضواحي المدينة ولا سيما من داريا حيث آثار المعامل ٠ ولا تزال محلة المسبك في احياء النصارى من شرقي المدينة تدل على سبكه وكذلك اسم بني المسابكي من أسرها المسيحية ٠ واشتهر فولاذ دمشق بغرابة سقايته وصلابته ورونقه حتى يقال ان بني (بولاد) الاسرة المسيحية اشتهرت بصنعه فنسبت اليه ، ولهم حارة باسمهم ولعلها كانت معملاً لصنعه ٠

ولقد كثرت معامل السيوف في دمشق ونسب الى هذه الصناعة بنو السيوفي من مسلمين ومسيحيين ونقل الصليبيون الى بلادهم سر هذه الصناعة ولا سيما عمل الجوهر ٠

وبقي الدمشقيون متفوقين بها على الجميع الى ان سباهم تيمورلنك في اوائل القرن الخامس عشر فأمات هذه الصناعة هنا واحياها في العجم ٠

ومما كان مشهوراً في دمشق القاشاني نسبة الى مدينة قاشان وهي قرب اصفهان العجم كان اهلها قد ورثوا عن البابليين هذه الصناعة فاشتهروا بها ونسبت الى مدينتهم ولقد دلت الآثار القديمة المحفورة في فلسطين ان الكنعانيين عرفوا من هذه الصناعة

بقايا في بعض الجوامع والحمامات وفي متحفنا · وكذلك الفسيفساء وهي نقوش من الزجاج الملوّن المرصوف على الجدران والسقوف وفي القبة الظاهرية ابدع مثال لها بالوان جميلة واصباغ مزخرفة ورصف يأخذ بمجامع الابصار ·

وكذلك الميناء اي جوهر الزجاج واتجر بها الدمشقيون من العجم ولها بقايا تدل على اتقانها هنا · وتزويق الجدران والسقوف بالنقش والاصباغ وفي دار اسعد باشا العظم امثلة رائعة منه · وكذلك الزجاج الذي وصفه كثير من المؤرخين والرحالة · والخزف المنقوش · وترصيع الآنية المعدنية بالذهب والفضة وقد اشتهرت في زمن الملك الظاهر البندقداري في القرن السابع للهجرة · والترصيع بالصدف والقطع الملونة على الخشب · وفي معمل النعسان في الباب الشرقي امثلة رائعة من هذه الصناعة · وعرف الدمشقيون نسج الديباج وغيره وصناعة الورق والصباغ وغيرهما مماله بقية قليلة الآن لها بعض مزايا الاتقان · ولعلي افرد محاضرة خاصة لصناعات دمشق ومزاياها المشهورة باكثر تفصيل وادق استقراء ·

اما تجارة دمشق فانها بعد سقوط تدمر محط رحال القوافل التجارية بين الشرق والغرب تحولت الى هذه الحاضرة ولا سيما تجارة الهند والعجم والعراق وخلفت تدمر (مملكة البر) واشتهرت بنتاج ارضها الخصيبة فتوطدت فيها دعائم العمران واهمها الزراعة والصناعة والتجارة · فقصدها تجار اوربة وغزرت ثروتها · فضلاً عن انها كانت مجتمعاً للحجاج الذين يذهبون الى القدس الشريف والى مكة المكرمة والمدينة المنورة في طريقها البرية · وبقيت مزهرة في تجارتها الى ان فتحت ترعة السويس في اواسط القرن التاسع عشر الماضي فانحطت تجارتها وقل عدد الحجاج الذين يقصدونها لسهولة الطرق البحرية وتحويل القوافل البرية الى بواخر بحرية ·

وكانت للامويين مجالس ادب مع شعرائهم وعلمائهم ومحاضرات ومساجلات ومكاتب ومتاحف لطرائفهم واشتهر كثير من النساء باديهن الرائع في ذلك العصر و بينهن الخطيبات والشواعر اللواتي جالسن العلماء مثل سكينة ابنة الحسين التي انتقدت الفرزدق وجريراً واثنت على كثير وجميل · وصديقتها ام البنين زوجة الوليد التي ساعدته بتعزيز العدل والشفقة على الرعية وشاركته في السياسة والآداب بحصافة عقلها

مقدمة له الآراء السديدة . ورابعة العدوية المشهورة بزهدها و برها وادبها الى غيرهن ممن كانت بيوتهن مجالس ادب وسوق عكاظ للغة والشعر .

هذه لمعة من الحضارة الاموية في دمشق تشعب منها كلام الى ما بعدها لعلاقته بها . على انه لما اضطرب حبل الامويين بظهور السفاح العباسي الذي حمل عليهم وخرب دورهم وشتت شملهم فمحا كثيراً من آيات حضارتهم التي انتقلت الى الاندلس واوربة وازهرت طويلاً فيها .

ولقد حلّ في دمشق المأمون بن هرون الرشيد العباسي مرتين . والخليفة المتوكل الذي نوى نقل دواوينه اليها ثم نقض ما ابرمه من هذا الرأي لاسباب لا محل لتفصيلها .

ودخلها سيف الدولة بن حمدان يتولى شؤونها سنة ٣٣٤ هـ فحدث له في الغوطة ما اوغر عليه صدر الدمشقيين فرفضوه واليك القصة : لما ملك سيف الدولة دمشق خرج يتنزه في غوطتها مع الشريف العقيقي (صاحب الدار التي هي اليوم المكتبة الظاهرية) فقال له الملك : ما تصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد . فقال العقيقي : هي لاقوام كثيري العدد . فقال سيف الدولة : لو اخذتها القوانين السلطانية لتبرأوا منها . فاعلم العقيقي الدمشقيين بالخبر . فتغيروا على سيف الدولة . وكاتبوا كافوراً يستقدمونه اليهم فجاء واخرج سيف الدولة منها .

وكانت بغداد في هذه الفترات تنازع دمشق الحضارة وتنافسها في التجارة وتقف في طريق عمرانها اقتصاصاً من الامويين الذين شيدوا حضارتها ورفعوا اعلام مجدها فتقهقرت وانحطت مدة طويلة .

فلما صارت شؤونها بيد الدولة الايوبية ورأسها السلطان صلاح الدين الشهير ارتفع منار حضارتها وتبسط عمرانها واتسع نطاق مجدها فأسست فيها المدارس الكبيرة والمستشفيات والملاجيء واختلف اليها العلماء والاطباء والصيادلة . حتى كان عدد مدارس القرآن الشريف سبعاً والحديث ثماني عشرة والشافعية سبعاً وخمسين والحنفية احدى وخمسين والحنابلة عشراً والمالكية اربعاً والطبية ثلاثاً . وكان فيها البيمارستان النوري وصيدليته والبيمارستان القيمري . و بين تلك المدارس تسع اسستها فاضلات النساء

من المدكات والاميرات . ذلك فوق ما كان فيها من الربط والخوانق والزوايا والتكايا مما له بقايا دارسة واطلال عافية .

وشيدت فيها الدور الفخمة والقصور الشامخة . وانشئت الخزائن الغاصة بالكتب المخطوطة النادرة ولا سيما في المدارس المذكورة ونبغ منها العلماء والشعراء والادباء والمؤلفون على اختلاف ازمانهم ومراتبهم .

واشتهر فيها ملوك وامراء رفعوا اعلام حضارتها بابنية منيعة مثل الملك الظاهر والعادل وتنكز والاشرف ومصطفى لالاباشا ومراد باشا وسنان باشا . فكانت دولة المماليك المصريين التي اولها الملك الظاهر بيبرس البندقداري والجراكسة الذين اولهم الظاهر برقوق والعثمانيين الذين اولهم السلطان سليم وامراء القيمرية كلهم يحبون العمران .

ومن متأخري هؤلاء الامراء الحكام آل العظم الكرام فانهم ولعوا بالعمارة فشيدوا القصور الباقية وعززوا المدارس وجمعوا خزائن الكتب فكان منهم بضعة عشر واليا في انحاء سورية ولا تزال آثارهم تحدث بمجدهم الباقي مثل دار اسعد باشا وبعض ابنيتهم وكتب الخزانة الظاهرية المطرزة باسمائهم واوقافهم .

واشتهر بين الدمشقيين من ارباب الصناعات الاخرى والحذق من ذاع اسمهم في التواريخ وحفظت آثار اعمالهم شاهدة على براعتهم ولاسيما في صناعة الساعات التي تفوقوا فيها ومن قدمائهم الذين ذكرهم ابن ابي اصيبعة في كتابه (الحكماء) مهذب الدين احمد بن الحاجب الدمشقي فانه كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع . وكذلك فخر الدين الساعاتي الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي في دمشق . وممن ذكرهم غير ابن ابي اصيبعة علي بن عريف النحاسين الدمشقي النحاس الذي ركب مواد انفجارية نسف بها الابراج الصليبية في حصار عكاء .

ولقد انتابت دمشق الحرائق والزلازل والفتن والفتوق وغيرها من النكبات فمحت كثيراً من آثارها . ودفن معظم عمرانها القديم في الشوارع والبيوت فاذا اريد اظهاره احتيج الى نسف الاماكن وتقويض الابنية لاستثارة دفائن مجدها القديم ويكفيها انها كانت آية البناء الشرقي قائمة على اجمل طراز هندسي اشبه بمدينة تدمر الشهيرة

ايام عمرانها فكانت دمشق بيضية الشكل مستطيلة يحدق بها سور عظيم منيع ويخرقها من الشرق الى الغرب الزقاق المستقيم وهو السوق القائمة من باب الجابية الى الباب الشرقي وطولها نحو ميل وكان على جانبيها رواقان قائمان على الاعمدة الضخمة وبين الواحد والآخر نحو اثني عشرة ذراعاً ففي الرواقين تسير المارة وفي الشارع العريض بين الرواقين تسير العجلات والحيوانات ولا تزال بعض هذه الاعمدة بين البيوت الى يومنا ومنها اثنان على جانبي باب جيرون (النوفرة) وعشرات حول الجامع ولا سيما في زقاق الباذرائية على يمين الداخل من باب النوفرة . ولما حفر اساس الكنيسة في حي النصارى الممتد الى باب توما سنة ١٨٦٢ ظهرت آثار اعمدتها . وكذلك شارع طويل تحت الارض من مأذنة الشحم الى الباب الشرقي باعمدته وهندسته . وكان عند مأذنة الشحم ملعب روماني مدرج (امفتياتر) . وكان الجامع الاموي في قلب المدينة وحوله سور له اربعة ابواب معروفة بقي منها باب البريد في غربيه و باب جيرون (النوفرة) في شرقيه . وهناك اعمدة ضخمة بديعة . وكان للمدينة ثمانية ابواب في كل جهة بابان حتى قيل فيها :

دمشق في اوصافها جنة خلد زاهيه
اما ترى ابوابها قد جعلت ثمانيه

وكانت سوق باب البريد اجمل اسواق المدينة عمّر في وسطها مراد باشا قبة جميلة قائمة على اعمدة عظيمة عليها كتابات واشعار بالعربية والكوفية .

ووصف مؤلف (محاسن الشام) ابو البقاء عبدالله البدري ابواب المدينة بقوله : وغالب هذه الابواب القديمة بنى عليها نور الدين الشهيد منابر على مساجد وجعل لكل باب باشورة كالسويقة بها حوانيت مملوءة بالبضائع فاذا حصنت المدينة وأُقفلت الابواب ، يستغني اهل كل باب من هذه الابواب بما عندهم .

وامام السور في شرقي المدينة بين الباب الشرقي ومقام الشيخ ارسلان بيت (نعمان السرياني) وهو مجذمة اليوم (مستشفى المجذام) وفي صدره اربعة ابواب ضخمة منحوتة الحجارة وبينها قنطرة وفيه مجذومو المسلمين . والمروي في التوراة ان نعمان هذا كان ابرص او مجذوماً فقصد ايليا النبي مستشفياً فقال له اغتسل بالاردن . فقال له : عندي ابانة (بردى) وفرفر اي (الاعوج) ومعناه السريع وعاد الى بلده . وفي داخل

الباب الشرقي مجذمة (قعاطلة) المسيحيين ايضاً وهم المجذومون الذين تسميهم العامة بهذا الاسم (مقعطل) او (مقلعط) وهي حظيرة المسبك الآن .

وفي احياء المدينة آثار ابنية مثل الجامع المعلق قرب المناخلية وكتابات كثيرة ولاسيما حول الجامع وفيه وعلى ابواب المدينة والمدارس والجوامع . واعمدة ومدافن للصالحين والمشاهير واضرحة للعلماء في الجهات ما عدا غربي المدينة فانه لم يدفن فيه صحابي .

ومن اهم ما فيها هندسة مياهها وتوزيعها على بيوتها واحيائها توزيعاً ذا اصول بضبط واتقان فتدور المياه باقنية واناييب نافذة من دار الى أخرى بنظام معلوم وعند آل الشطي في المدينة اصل قاعدة لتفريع المياه وتقسيمها يعتمد عليه من يتولون اصلاحها والمياه متفرعة من سبعة انهر هي اقسام بردى النهر الكبير الذي يتخلل المدينة بفروعه .

وفي هندسة ساعاتها القديمة ومزاولها وابوابها ونقوشها ما يشهد بعمرانها . وقد وصف بعض المؤرخين ساعة من ساعاتها عليها عصافير من نحاس ووجه حية من نحاس وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصافير ونعب الغراب وسقطت حصاة . وباب الساعات من ابواب الجامع يسمى اليوم باب الزيادة .

وسور المدينة ضخم تظهر بقاياه في بعض ارباض المدينة وحوله خندق عميق الجدار فضلاً عن ابراجها وقلعتها وآثارها ومرصدها الفلكي على جبل قاسيون الذي اشار ابن القفطي في تاريخ الحكماء الى الرصد فيه . ثم اتخذ منارة للتخاطب بالنار . ودار العدل التي شيدها نور الدين الشهيد للنظر في ظلم عماله للرعية وكان يجلس فيه لاستماع المظالم والشكاوي وهي الآن قصر المشيرية . وكذلك دار السعادة بجوار القلعة وغيرها .

ولقد نقلت الدول التي توالت عليها كثيراً من آثارها وطرائفها ومكاتبها فجمعت تلك البقايا اليوم في متحفة هذه المدرسة المعروفة بالعادلية وفي المكتبة الظاهرية ازاءها .

وفي اوائل القرن العاشر للهجرة احترقت سوق باب البريد وابواب الجامع الكبير كما ذكر النجم الغزي في الكواكب السائرة وتوالى الحريق مراراً قبل ذلك الوقت وبعده .

وضربت دمشق ضربات كثيرة منها المظالم التي اجتاحتها سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨م) بزمن ولاية الامير حصن الدولة الكتامي فجلا السكان عنها واقفرت وخلت الغوطة من

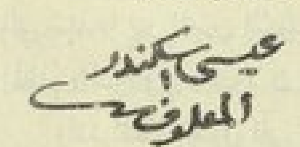
فلاحيها فلما حكم صلاح الدين ونور الدين ابطلا المكوس والمظالم وخففاها عن عاتق السكان فجدد عمرانها بعودتهم اليها ٠

اما عمرانها فانها اشتملت على غوطة عدت من متنزهات الدنيا الاربعة فكان عدد بساتينها في القرن الثامن مائة وواحداً وعشرين الف بستان كما ذكر شيخ الربوة في كتابه (نخبة الدهر) على انها لا تتجاوز اليوم الالفين عداً ٠ وهي التي وصفها المأمون العباسي بقوله : انها خير مغنى على وجه الارض ٠ وفيها المياه الغزيرة والسهول الفسيحة والخصب الطبيعي فحبذا لو اشترك معه الخصب الصناعي ٠

ولقد كان خراج دمشق على عهد معاوية اربعمائة الف وخمسين الف دينار ٠ وكان ارتفاع دمشق سنة ٢٠٤هـ (٨١٩م) ثلاث مائة الف وستين الف دينار ٠ وفي زمن المأمون كان خراجها اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار ٠

فلهذا كانت المظالم والتضييق على الفلاحين من اسباب تأخر زراعتها ٠ واعراض الوطنيين عن معاضدة صناعاتها وحصرها بامر معلومة انقرضت او اهملتها من اهم الضربات في تاخر الصناعة ومنافسة المدن والثغور لها بانحطاط تجارتها ٠ ومعلوم ان التجارة تقوم بجناحيها اللذين هما الزراعة والصناعة فصارت مهيضة الجناح متأخرة ٠

ولعلنا نتسابق الى رفع شأن اسباب العمران فنعيد الى هذه المدينة القديمة مجدها او شيئاً منه بمعاضدة رجال الدولة المنتدبة والحكومة الوطنية وارباب النهضة استعادة لنجاحها الغابر وتوطيداً للمدنية الحديثة فيها والله ولي التوفيق بمنه وكرمه ٠



أُحَيْحَةُ بنُ الجُلاحِ [1]

دُعيتم ايها السادة لاستماع محاضرة في موضوع تاريخي أدبي . وسيكون المحور الذي يدور عليه هذا الموضوع رجلاً من عظماء عرب الجاهلية اسمهُ (أحيحة بن الجلاح) .

واذا كنتم ايها الاخوان لم تستعذبوا هذا الاسم فاني ارجو ان تستعذبوا المسمّى . ويعجبكم ما اقصّه عليكم من اخباره . ومختلف اطواره .

نحن بصفة كوننا عرباً ولنا حرصٌ على لغتنا وآدابها ينبغي لنا ان نتصفح اشعار عرب الجاهلية وما يؤثر عنهم من الاقوال والامثال . وبذلك نفقه أسرار لغتنا وآدابها — وبصفة كوننا مسلمين يجب أن ندرس اخبار العرب التاريخية ، واحوالهم الاجتماعية . لنعرف ماذا نسخ الاسلام من ذلك وغيّر . وماذا أبقى وقرّر . وفي الكلام على (أحيحة) يمكننا أن نستخرج فوائد من كلتا الوجهتين : الوجهة اللغوية الادبية ، والوجهة التاريخية الاجتماعية . وهو فوق ذلك يُعطينا صورةً للنوابغ الذين كان في وسع ذلك المحيط العربي الجاهلي أن يُبرزهم للوجود .

إنكم ستعلمون من ترجمة هذا الرجل العربي — أن في تاريخ عرب الجاهلية رجالاً كثيرين ذوي أعمال عظيمة وهمم عالية كان الواجب أن يكونوا مشهورين بيننا . لكنهم لم يُرزقوا السعادة في الشهرة كما رُزق غيرهم .

ينبغي أن لا تقلّ شهرة أحيحة عن شهرة اصحاب المعلقات الذين توصّلوا بالشعر وخياله الى تداول اخبارهم فاشتهروا . اما أحيحة فاتّكل على التاريخ في نقل خبره . وكثيراً ما يُبطيء التاريخ او يُقصّر في النقل . وان نسبة التاريخ الى الشعر في نقل الاخبار . كنسبة الابل الى الكهرباء والبخار . وقد ملّت الاسماع ترديد ذكر اشخاص من رجال الجاهلية كأصحاب المعلقات وقسّ بن ساعدة وحاتم طيّ والنعمان ، اما مثل

(١) محاضرة الاستاذ (المغربي) التي القاها في ردهة المجمع ليلة الجمعة في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٢١ .

(أحيحة) فان اخباره لم تزل كمعدن ماس، لم يمسه ماس · ولم يُضرب فيه بفاس ·

***

(موطن احيحة ونسبه)

موطن أحيحة مدينة (يثرب) في الحجاز، وهي التي هاجر اليها نبينا محمد (صلعم) وعُرفت بعد ذلك بالمدينة المنورة وكان سكانها الاقدمون عمالقة أرسل اليهم موسى (ص) على ما قاله مؤرخو العرب جيشاً وأمرهم ان لا يستبقوا احداً ممن بلغ الحلم الا من دخل في اليهودية · فقاتلوهم وقتلوهم كلهم · لكنهم ابقوا على ابن ملكهم وكان شاباً من اجمل الناس، فعادوا به اسيراً · وكان موسى قد قُبض قبل قدومهم، فقال لهم خليفته يوشع من هذا الفتى؟ فأخبروه خبره فقال لهم: ان هذه معصية ارجعوا عن ارض الميعاد · فرأوا ان يرجعوا الى البلد الذي فتحوه فعادوا اليه وأوطنوه ·

ثم لما حدثت في اليمن حادثة سيل العَرِم وجلا عنها سكانها الى شمال جزيرة العرب كان فيمن جلا بطونٌ من قبيلة الأزد اليمانية وهم الاوس والخزرج فأمّوا يثرب ونزلوا فيها، فقاومهم اليهود في أول الامر · فاستنصر الأوس والخزرج اليمانيين اخوانهم الذين نزحوا معهم الى الشمال · فاعانوهم عليهم، واصبحت لهم العزة في يثرب لكنه وقع الشقاق اخيراً بين الحيّين: الأوس والخزرج، وما زالوا في حروب وكروب حتى ألف الاسلام بينهم، وامتنّ القرآن بذلك عليهم ·

وكان (أحيحة ابن الجلاح) سيد قومه الأوس، ولم يُعرف الزمن الذي عاش فيه لكنه كان قبل البعثة بنحو سبعين سنة على الاقل كما سيأتي بيانه · اما اسمه (أحيحة) فهو تصغير (أحّة) بمعنى حرارة الغيظ التي يجدها الانسان في صدره · وقد قال ابن دريد في كتابه (الاشتقاق) انه تصغير (أحاح) وعلى هذا ينبغي ان يلفظ (احيّحة) بتشديد الياء · وليس كذلك اذ المشهور في اسمه التخفيف ولا سيما أنه ورد اسمه في الشعر مخففاً كما سيأتي في مدح خالد بن جعفر له · والأحّ ايضاً مصدر (أحّ) اذا سعل · ولعل من قال (قحّ) اي سعل توهم ان همزة (أحّ) محولة عن (قاف) كما يُفعل في لغتنا العامية

مذ تحول القافات الى همزات . او ان (قح) مأخوذة من (قَحَبَ) بمعنى سعل . ومن هنا سميت القحبة قحبة .

اما ابوه (الجُلاح) فهو من الجَلَح ومعناه انحسار الشعر عن مقدّم الرأس ويحتمل ان يكون من الجُلاح بمعنى السيل الجراف وهو الذي يجرف كل شيء يصادفه أمامه .

كان أحيحة ذا دهاء وعقل ، كما كان ذا جِدّ وعمل . وقد توصل باخلاقه هذه الى أن أصبح من نوابغ رجال ذلك العصر : فكان رجل حربٍ و كيد . رجل أدبٍ وشعر ، رجل مالٍ واقتصاد ، رجل تنظيم وعمران . ونعني بالعمران الذي تستطيعه بلاد الحجاز في ذلك العهد .

* * *

(أحيحةُ رجل حربٍ و كيد)

روى مؤرخوا العرب ان (تبّعاً) الاخير ملك اليمن واسمه (ابو كرب بن حسان) مرّ بيثرب قاصداً الشام والعراق مخلّفاً فيها ابناً له ، ثم بلغه ان اهل يثرب قتلوا ابنه ، فكرّ راجعاً اليهم . مجمعاً على استئصالهم . فنزل خارج المدينة في سفح أحد . ودعا اليه أشرافها من الأوس والخزرج ، فقالوا فيما بينهم انه يريد أن يملكنا على اهل يثرب . أما أحيحة فقال لهم : والله ما دعاكم لخير . فذهب الأشراف اليه واستصحب أحيحة معه خِباءً وخمراً وقينةً له تسمى (مُليكة) فضرب الخباء ، وترك فيه خمره ومليكة . ثم استأذن على تبّع فاذن له . واجلسه معه على زربيّته (بساط منقوش بالالوان جمعه زرابي) وجعل يحادثه و يسأله عن امواله بالمدينة . فأخذ احيحة يخبره عنها . وتبّع يقول له : « كلّ ذلك على هذه الزربيّة » ففهم أحيحة من قوله هذا أنه يريد قتله فخرج من عنده الى خبائه وقينته . فنظم لها قصيدةً وداعية . وجعل يشرب وهي تغنيه بها . ومن هذه القصيدة قوله :

(يشتاق قلبي الى مُليكةَ لو أمست قريباً ممن يطالبها)
(ما أحسنَ الجيدَ من مليكةَ واللبّات إذ زانها ترائبها)

(ياليتني ليلةً اذا هجع النا س ونام الكلاب — صاحبها)
(في ليلة لا يُرى بها أحد يسعى علينا — الا كواكبها)

وهذه الابيات مما كانت تُغني به القينات في عهد الخلفاء. ولما نام حرس الملك أزمع أحيحةُ الهربَ . وعلّم قينته مليكة ما تقول لتبّع اذا سألها عنه ، ثم انطلق الى حصنه واستعد للدفاع . وبعد أن قتل تبّع الاشراف الذين دعاهم اليه أرسل حرّاسه في طلب أحيحة ، فلم يأتوا به . وانما اتوا بمليكة . فاخبرته ان سيدها التجأ الى حصنه ، وانه يقول له : « اغدرُ بقينة اودَعْ » وقد ذهبت كلمته هذه مثلاً في كثير من كتابته الاخرى . فخاف الملك الدنية والعار بقتلها فتركها وأرسل كتيبة من خيله الى أحيحة فحاصروه ثلاثة أيام كان يرميهم فيها بالنبل والحجارة نهاراً . و بالتمر والزاد ليلاً ، فرجعوا الى الملك وقالوا نحن ما فهمنا معنى هذه الحرب التي يقاتلنا فيها هذا الرجل نهاراً . و يضيفنا ليلاً . فامرهم بالكف عنه . واكتفى بتحريق نخله ، و بقي الملك يقاتل عرب المدينة و يهودها اياماً ثم رحل عنها اخيراً عملاً بنصيحة حبرين من اليهود أخبراه انها ستكون مهاجر نبيّ يظهر في آخر الزمان . وذهب الى مكة فكسا الكعبة البرود اليمانية عملاً باشارة الحبرين ايضاً اللذين اخذهما معه الى اليمن . وتهوّد هو وقومه . و يقال ان هذا هو اصل دخول اليهودية في اليمن .

هذه خلاصة ما رواه مؤرخو العرب عن تبع وحربه في الحجاز . و كيف تخلّص أحيحة منه بدهائه وشجاعته . ومن ثم كان قومه يشهدون له بانه ادهاهم رجلاً . و كانوا يزعمون ان له تابعاً من الجن يعلّمه الخبر ، وذلك لما رأوا من ذكائه و كثرة صوابه . ولعمري ليس تابعه سوى عقله ودهائه . والعربُ ان كانوا يقولون أن مع من نبغ من رجالهم جنياً فان الافرنج يسمون الفراسة والذكاء والنابغة المتفوق من رجالهم — «جيني Génie» ألا ترون ان بين الكلمتين اوبين التسميتين نسباً واضحاً . واتصالا ظاهراً ؟ والعرب ايضاً يسمون الذكيّ الذي يكثر صوابه و يصدق حدسه (ألمعيّا) وقد قال شاعرهم :

(الالمعيّ : الذي يظن بك الظنّ كأن قد رأى وقد سمعا)

و يسمون الذي يفوق غيره ولا يعلوه شيء — عبقرياً . فيحسن بنا اذاً ان نعرّب

كلمة (جيني) الفرنسوية بكلمة (الالمعي) لقرب رامتها أو (العبقري) · هذا اذا لم تعجبنا كلمة (نابغة) ·

ما مر من حرب أحيحة مع تبع هو من قبيل الحروب الخارجية · أما حروبه الداخلية فهي حربه مع بني عمه الخزرج و كيف قهرته السيدة سلمى الخزرجية جدة النبي (صلعم):

قتل رجلٌ من الأوس قوم أحيحة رجلاً خزرجياً من بني النجار قوم سلمى زوجته فنشبت الحرب من جرّاء ذلك بين الحيّين · وكان أحيحة قائد قومه فعزم على تبييت الخزرج ، واخذهم على غرّة · فشعرت بذلك زوجته سلمى بنت عمرو الخزرجية النجّارية · وكانت امرأة شريفة لا تنكح الرجال الا وأمرُها بيدها: إذا كرهت من رجل شيئاً تركته · فدبّرت حيلة أنقذت بها قومها من كيد أحيحة : وذلك انها في تلك الليلة التي ازمع فيها زوجها تبييت الخزرج قومها ربطت ابنها عمراً من ذبذبه بخيط · وكان فطيماً حتى اذا اوجعته تركته فبات يبكي ، و بات ابوه مؤرّقاً يتقلّب في فراشه · و يقول: « ويحك ياسلمى ! ما لعمرو لا ينام » فتقول « ما أدري والله ! » حتى اذا ذهب الليل حلت الخيط عن ابنها · ولكنه لم يكد ينام زوجها حتى صرخت سلمى : «وا رأساه» فقال أحيحة : « شراً ما لقيتُ في هذه الليلة» وقام اليها فجعل يعصّب رأسها و يدلك براحته ظهرها و يقول : مابك من بأس · حتى اذا لم يبق من الليل الا أقله · قالت له قم فنم ، فاني أجدني مستريحة · وانما فعلت ذلك ليثقل رأسه · و يشتدّ نومه · فلما استغرق في النوم اخذت حبلاً متيناً واوثقته برأس الحصن ثم تدلّت منه الى قومها ، وانذرتهم بالذي اجمع عليه أحيحة وقومه من تبييتهم · فحذروا وتأهبوا · ولما جاءهم (أحيحة) لم يقدر ان ينال منهم نيلاً · فعاد خائباً وجعل يقول : (آه لك ياسلمى !! خدعتني حتى بلغت ما أردت) وسمّاها قومها من ذلك اليوم المتدلّية · ولأحيحة في هذه الحادثة اشعارٌ كثيرة كان يعتب فيها على سلمى · وسيأتي بعضها · ثم ان سلمى لم تعد الى أحيحة كما هو شرطها في ان تختار نفسها متى شاءت · وبعد ذلك تزوجت بسيّد قريش وإمام البطحاء (هاشم بن عبد مناف) فولدت له عبد المطلب جدّ نبينا (صلعم) ومن هنا جاء ما تروونه في كتب السير من ان ابا النبي عبدالله مات في المدينة عند اخواله بني النجار وان السيدة آمنة كانت تذهب به (صلعم) وهو صغير الى المدينة فتزيره اخواله بني

النجار — يعنون بذلك اخوال جده عبد المطلب من امه (سلمى) هذه . واذا كانت سلمى جدة عبد المطلب زوجة لأحيحة فيكون قد عاش أحيحة قبل البعثة بنحو سبعين سنة على اقل تقدير .

ومما له علاقة باخبار (أحيحة) الحربية تنافسه في اقتناء الدروع واستكثاره من العتاد والسلاح : وقد ذكروا انه لما قتل خالد بن جعفر العامري زهير بن جذيمة سيد بني عبس عزم ابنه قيس على اخذ الثار وجاء المدينة لشراء السلاح والعدة . فأخبر أن عند أحيحة من ذلك الشيء الكثير وان لديه درعاً لم يكن في يثرب درع تضاهيها فطلبها قيس منه فأبى وقال : كيف أعطيكها وخالد بن جعفر الذي يقول :

(اذا ما اردت العز في آل يثرب فناد بصوت يا أحيحة فاسمع)
(رأيت أبا عمرو (أحيحة) جاره يبيت قرير العين غير مروع)
(ومن يأته من خائف ينس خوفه ومن يأته من جائع البطن يشبع)
(فضائل كانت للجلاح قديمة واكرم بفخر من خصالك الاربع)

* * *

(أحيحة رجل شعر وأدب)

مر في الكلام على أنه رجل حرب — شيء يدل على منزلته من الشعر والادب . من ذلك قطعته الادبية التي غنته بها قينته مليكة واولها :

(ما احسن الجيد من مليكة والآبات اذ زانها ترائبها)

وان له كلمات سارت في العرب مسير الامثال من ذلك قوله لملك حمير بلسان مليكة (أغدر بقينة أودع) . ومن كان مثل أحيحة في اعماله الحربية كما سمعت واعماله العمرانية والزراعية والاقتصادية كما ستسمع — لا يتيسر له ان ينظم الشعر الكثير . على انه ربما كان له شعر كثير لم ينقل الينا كغيره من فحول شعراء الجاهلية :

فمن شعره قصيدته المذهبة المعدودة بين المذهبات في كتاب (جمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي) وقد عد ابو زيد أحيحة في اصحاب المذهبات وقال انهم كلهم من اهل المدينة المنورة . ومطلعها :

(صحوت عن الصبا والدهر غول ونفس المرء آونة قتول)
(ولو أني اشاء نعمت حالاً وباكرني صبوح اونشيل)
(ولاعبني على الانماط لعس على أفواههن الزنجبيل)

ومنها:

(وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل؟)
(وماتدري وإن ألقحت شولاً أتلقح بعد ذلك أم تحيل؟)
(وما تدري وان أنتجت سقباً لغيرك أم يكون لك الفصيل؟)
(وماتدري وإن أجمعت أمراً بأي الارض يدركك المقيل؟)

واشار في هذه القصيدة الى كيد زوجته سلمى له واحتيالها عليه فقال:

(اذا ما بت أعصبها فبانت على مكانها الحمى النسول)
(لعل عصابها يبغيك حرباً ويأتيهم بعورتك الدليل)

واشار الى حصنه فقال:

(وقد أعددت للحدثان حصناً لو ان المرء تنفعه العقول)
(طويل الرأس أبيض مشمخراً يلوح كأنه سيف صقيل)

***

«أحيحة رجل عمران»

بقي علينا أن نتكلم على أحيحة بصفة أنه رجل عمران. ونعني بالعمران هنا القدر الذي يطيقه محيط يثرب في ذلك العهد. فلا يعترضن علينا معترض بانه لا يسمى العمران عمرانا الا اذا كان مثل عمران لندره و باريز اليوم!! على انه لو كان أمثال أحيحة في ذلك العهد كثيرين يسعون سعيه في الزراعة وجمع المال وانشاء القصور لكان للمدينة شأن غير شأنها المعروف.

(الأطم) في لغة العرب بمعنى الحصن والقصر العظيم. ويجمع على آطام. وكان اهل يثرب قبيل الاسلام يبنون آطامهم بالجنادل والحجارة ويتخذونها أحياناً معاقل وقلاع دفاع. كما سمعت في خبر أحيحة مع تبع. وكانت هذه الآطام عز العرب

ومدنيتهم وحصونهم التي يتحرزون بها من عدوهم . ومن اشهر آطام العرب واعظمها شأناً أطمان كانا لاحيحة . احدهما بناه في المدينة وسماه (المستظل) وهو الذي تحصّن فيه حين قاتل ملك اليمن والآخر سماه (الضحيان) وقد بناه في مزرعة له يقال لها (الغابة) وهي على بعد نحو فرسخ من المدينة . وكأنه سماه (الضحيان) لانه ضاحٍ بارز للشمس بخلاف (المستظلّ) فقد كان مبنياً في ظلّ المدينة وبين بيوتها .

وبنى (أحيحة) أطمه (الضحيان) بحجارة سوداء ثم بنى فوقه نبرة بيضاء مثل الفضة . والنبرة كل شيء مرتفع . ثم جعل على هذه النبرة نبرة أخرى مثلها بحيث يراها الراكب من مسيرة يوم او نحوه قالوا : ولما شيد (أحيحة) أطمه (الضحيان) على هذه الصورة أشرف من فوقه ومعه غلام له وقال (لقد بنيتُ حصناً حصيناً ما بنى مثله رجل من العرب أمنع ولا أكرم ولقد عرفت موضع حجرٍ منه لو نُزع لوقع الحصن جميعاً) فقال الغلام المسكين انا اعرفه يا مولاي . واشار اليه . فدفعه (أحيحة) من رأس الأُطم فوقع ميتاً . وانما قتله إرادة ان لا يعرف سرّ ذلك الحجر غيره . وهذا ما حُكي عن سنمار المعمار الذي شيد الخورنق للنعمان وجعل فيه مثل ذلك الحجر الذي وُضع في حصن (أحيحة) فإن النعمان رماه من فوق ذلك القصر فمات لئلا ينكشف سرّ الحجر . وقد ضُرب بسنمار المثل فيقال (جزاه جزاء سنمار)

وكان من عادة أحيحة أن يجلس في ظلّ أطمه الضحيان . وكان في اوقات الخوف يُرسل حواليه كلاباً له تنبح دونه على من يأتيه ممن لا يعرف حذراً من عدوٍ يصيب منه غرّة . وقد نجّته هذه الكلاب مرة من خصمه (عاصم) الخزرجي: فانه تسلّل اليه ليلاً يريد الفتك به وجعل يرمي للكلاب تمراً فوقفت ساكتة فاحسّ (أحيحة) بالشرّ واسرع الى حصنه تحت وابلٍ من السهام . وهكذا نجا من الموت الزؤام .

هذه عناية (أحيحة) بتشييد الابنية اما عنايته بانشاء المزارع والبساتين فعظيمة ايضاً : قالوا كانت له مزرعة تسمى (الزوراء) وأخرى اسمها (الغابة) . وكان له في (الجُرُف) وهو موضع على ثلاثة اميالٍ من المدينة لجهة الشام أصوارٌ من نخلٍ قلّ يومٌ يمر بها لا يطّلع عليه . والاصوار جمع صور وهو النخل الصغير . ومعنى انه صغير ان جنته

صغير . او انه فسيل يزرع ثم ينقل من منبته المؤقت الى مغرسه الدائم ؟

ومن شعر (أحيحة) في مزرعته (الزوراء) :

(كل النداء اذا ناديت يخذلني الا ندائي اذا ناديت يا مالي)
(اني أقيم على الزوراء اعمرها إن الكريم على الاخوان ذو المال)
(استغن اومت لا يغررك ذو نشب من ابن عم ولا عم ولا خال)

ولما زار الوليد بن عبد الملك المدينة سأل عن الزوراء هذه وانشد الابيات . فدلوه عليها فقال : (ان اباعمرو يراه غنيا بها) فعجب الناس من معرفة الوليد باخبار العرب حتى علم ان (أحيحة) يكنى (اباعمرو)

وكان لأحيحة في مزارعه تسع وتسعون بعيراً كلها ينضح عليها اي ينقل الماء على ظهورها الى مزارعه و بساتينه . والبعير الذي ينقل الماء يسمى (ناضحاً) ويسمى ايضاً (سانية) ومنه (سير السواني سفر لا ينقطع) . ولم يقتصر أحيحة في الزراعة على غرس النخيل وإنشاء البساتين بل كانت له حقول يزرع فيها الحنطة بكثرة بدليل قوله :

(قد كنت اغنى الناس شخصاً واحداً ورد المدينة عن زراعة فوم)

ومراده بالفوم الحنطة وهي لغة للعرب قديمة أو هي لغة بني هاشم وحكوا قولهم (فوّموا لنا) اي اختبزوا لنا خبز حنطة . ولا يمكن ان يريد (أحيحة بالفوم الثوم الذي هو معناه ايضاً ، لان الثوم لا تزرع منه مقادير كبيرة تغني صاحبها لعدم حاجة الناس اليها . بخلاف الحنطة فان الناس يحتاجون اليها . فيكثر ارباب الزراعة من زراعتها وقوله تعالى عن بني اسرائيل (واذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) اختلفوا في المراد بالفوم هل هو الثوم او الحنطة ؟ فذهب ابن عباس الى انه الحنطة وان العرب تعرفه بهذا المعنى بدليل قول أحيحة « قد كنت اغنى الناس . الخ ولا يعترض على هذا بانه قرئ في الآية (وثومها) بالثاء مكان (فومها) بالفاء لانا نقول ان الثاء فيها مقلوبة عن الفاء كما قلبت في (مغافير) و (جدف) فيقال فيهما (مغاثير) و (جدث) . ثم يقال من جهة ثانية ان الفوم قرن في الذكر بالعدس . فيكون ضرباً من القطاني يعني الحبوب . ولم يقرن بالبصل حتى يكون اخاه الثوم .

(أُحيحة رجل مال)

قالوا : كان (أحيحة) رجلاً صنيعاً للمال · شحيحاً عليه · ومعنى قولهم صنيعاً انه حاذق بجمعه · حريص على تثميته وتكثيره · اذ يقال فلان صنيع اليدين وصناع اليدين يعنون انه حاذق · اما قولهم (انه كان شحيحاً) فلم يريدوا انه بخيل لايجود بالمال · كيف وقد تقدم في خبره مع (تبّع) انه كان يحارب عسكره في النهار · و يضيفهم بالتمر في الليل · ومرّ ايضاً قول خالد بن جعفر فيه : (ومن يأته من جائع البطن يشبع) · فلا جرم ان يكون المراد بكونه شحيحاً على المال انه حريص عليه فلا يدع شيئاً منه يذهب سدى من دون ان يستثمره و ينتفع به · وهذا هو الاقتصاد او التدبير المنزلي بعينه · و يُروى انه دخل حائطاً له فرأى تمرةً ساقطةً فتناولها فعوتب في ذلك فقال : (التمرة الى التمرة تمر) فذهب قوله مثلاً يُضرب في استصلاح المال ·

ومما قالوه عن « أحيحة » انه كان يتّبع بيع الربا في المدينة حتى كاد يُحيط باموال أهلها · اي انه كاد يستولي على اموالهم بتواتر الفائدة وفائدة الفائدة · ومن هذا تعرفون مقدرة الرجل ومهارته في كسب المال والاحتيال على جمعه · ومثله في ذلك كثيرون من سادات العرب واشرافهم في المدينة ومكة قُبيل البعثة : فقد اكثروا من المراباة حتى كاد الفقراء يهلكون · ولم يكن احد يقرض الفقراء قرضاً حسناً لوجه الله · بل كانوا اذا طلبوا قرضاً من غني طلب منهم الفائدة بطريقة الربا · وكانوا اذا حلّ الاجلُ وعجزوا عن الاداء يقول المرابون لهم : نؤخر لديكم المال وزيدونا في فائدته · فما كانت تمضي سنون حتى يعجز هؤلاء المساكين عن الاداء فيضع المرابون الاغنياء يدهم على عقارهم واموالهم و يستصفونها لانفسهم · حالة مزعجة مخرّبة للعمران · مقوّضة لراحة بني الانسان · جاء الاسلام فانكرها على ذويها · ونعى عليهم فعالهم وقسوتهم · وحضّهم على الرفق بالفقراء ورحمتهم · وان يُقرضوهم القرض الحسن · و بذلك يعتدل الميزان · وتهدأ الاحقاد والاضغان ·

فالربا في الجاهلية كان مداره انتظار الغنيّ طروء حاجةٍ على الفقير وترقب ضائقته المالية · حتى اذا سنحت له الفرصة استغلّ هذه الحاجة والفقر من دون رحمة ولا شفقة ·

ومن العجائب ان يكون الفقر مصدر الغنى : فقير يحتاج فيقصد غنياً ليشكو له او ليستقرض منه فينتهز الغنيُّ الفرصة فيدينه بالرباء يجابه كل سنةٍ الى ان يُترب ولا يبقى عنده شيءٌ . فما أعدل الاسلام وما ارحمه من حرَّم الربا . وانقذ هؤلاء المساكين من براثن اولئك البغاة الظالمين .

هنا أيها السادة نختم القول عن حياة (أحيحة بن الجلاح) الذي تبين لكم بحقٍ انه رجل حربٍ وشعرٍ ومالٍ وعمرانٍ في آنٍ واحد .

ومها سمحتُ لكم ايها السادة ان تنسوا شيئاً من محاضرتي لا أسمح لكم أن تنسوا (سلمى الخزرجية) التي تدلت من شُرُفات الحصن الشامخ . وخاطرت بنفسها زاهدةً في زوجها وابنها والثروةِ التي كانت تعيش في ظلها . كل ذلك من اجل سلامة قومها . وتفضيل مصلحتهم على مصلحتها . فعليكم ان تقتدوا بها في حب وطنكم . لا سيما انها ليست غريبةً عنكم . بل هي جدة نبيكم .

(المغربي)



كيف تحقق الاثار التاريخ[1] ؟

جزئيات المحاضرة

التمهيد — ماهو علم الآثار — ما هي انواع الآثار — كيف قسم العلماء الآثار — ما فائدة الآثار — ما علاقة الآثار بالعلوم — هل عرف العرب التماثيل والصور — كيف جمعت الآثار — ما هي قيمة الآثار — كيف تحقق الآثار التاريخ — الختام

تمهيد

تصفُ الدارُ لنا قُطّانها والمعالي والمساعي والنجارا
واذا لم تدر ما قومٌ مضوا فاسأل الآثار واستنبِ الديارا

لله در الشريف الرضي في قوله هذا منذ قرون اذ أهاب بالناس ان يقتبسوا تاريخ اسلافهم من آثارهم واطلالهم . كما فعل كثير من الشعراء والعلماء والمؤرخين والاثريين من شرقيين وغربيين في الحث على حفظ الآثار . فهل من منكرٍ اذن فائدتها في تاريخ الامم والممالك والبلدان ؟

وهل يسوغ لنا ان نهمل آثارنا مطروحة في الحقول والبراري والانقاض ليحطمها الجهلة . او ينقلها غيرنا الى متاحفهم و يستفيدوا منها علماً وعملاً ؟

وهل يجوز ان نبيعها لغيرنا طمعاً في كسب دراهم تافهة ليزينوا بها متاحفهم متجرين بها ورابحين اموالاً طائلة ونخسر نحن فوائدها التاريخية ؟

وهل يُعد كلفنا بجمع الآثار واحرازها بدعة كما يتوهم بعضهم وتلك آثار مصر والمغرب والقدس والاناضول والآستانة تملأُ المتاحف وكلهم من جنسنا الشرقي ؟

---

(١) المحاضرة التي القاها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف في ردهة المجمع الكبرى يوم الجمعة في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٢٢ الساعة الرابعة مساءً .

وهل يبرّئنا التاريخ من هذا التقصير وقد مرّ علينا الدهر باحقابه المتطاولة ونحن مهملون هذا الأمر الخطير ؟

وهل يصحّ لنا تاريخ او يُعرف لنا شأن او تذكر لنا حضارة اذا لم تؤيد آثارنا اقوال كتابنا عنها ؟

وهل تبقى سوريا المحبوبة بلا متحف يجمع عادياتها و يستقدم اليها السيّاح والمتفرجين وفيها من آثار المدنية ما فيها ؟

وهل ٠٠٠؟ وهل ٠٠٠؟

لا لعمري لايسوغ لنا شيء من ذلك لان الآثار تحقق التاريخ وتثبت ما كان صحيحاً منه وتنقض المكذوب فيه .

ما هو علم الآثار ؟

الأثر لغة ما بقي من رسم الشيء . والرسم هو اثر الدار ونحوها من الأعيان المشخصة . فيكون الاثر ما بقي بعد الذاهبين . واصطلاحاً هو ما تدرك به شؤون الامم البائدة او القديمة اما من ابنية شيدوها او صناعات اتقنوها او تماثيل نحتوها او كتابات نقشوها او نقود صكّوها او اختراعات ابتكروها او علوم دوّنوها او فنون اهتدوا اليها او كتب خطّوها ونحو ذلك .

فيدخل تحت الابنية المدن والهياكل والصروح والمدافن . وتحت الصناعات التماثيل والنقوش والاواني والاسلحة . وتحت الكتابات ما على الصخور والغضار (الآجر) والصفائح المعدنية او العظمية او البردية او الرقية من الانباء . وتحت النقود ماعرف من انواعها وصورها واجناس معادنها وطرق صكّها واساليب طرازها . وتحت الاختراعات ما عرفوه من آلات وادوات ونحوها . وتحت العلوم مادوّن على الغضار والبردي وفي الكتب من معارف الدارجين . وتحت الفنون ما عرفوا من التصوير والموسيقى ونحوهما . وتحت الكتب ما تركوا لنا من المخطوطات على اختلاف انواعها واساليبها ومباحثها سواء كانت بسيطة الخط او جميلته متقنة التجليد او مهملته .

فغاية علم الآثار اذن معرفة آداب من تقدمنا واستطلاع اخلاقهم وعاداتهم

وصناعاتهم واديانهم وخرافاتهم ومعارفهم · و بالجملة كل ما يعزى اليهم و يتعلق بهم مما يميط النقاب عن الحقائق الغامضة و يبدد غيوم الاوهام والخلط في المباحث التاريخية التي هي صورة الانسان المعنوية فلا يسوغ ان تشوه او تحسن بل يجب ان تنقل كما هي لا كما يجب ان تكون مثلما ينقل المصور الشمسي صورة الانسان الحي فيمثله بملامحه الطبيعية ومميزاته الخلقية حتى لا يشك من يراه انه هو هو بعينه ومشخصاته والا ضاعت الاصول وفسدت الحقائق والتبست الاعيان ·

فالآثار انما هي السنة قوم قد مضوا تصرح بحروف غير مكتوبة احياناً عن عمرانهم وذكائهم وصناعاتهم وما كانوا عليه من بسطة العيش او شظفه والعمران او الانحطاط الى غير ذلك من التطورات ·

فلنا بالآثار عبر لنقتدي بمن احسن العمل ونعرض عمن اساءه ونستفيد من المجتهدين والمتمدنين حضارةً نضمها الى ماعندنا ونربأ بانفسنا عن الكسل والاهمال لانهما آفة البشر وعامل التأخر ·

وتسمى العالم بالآثار (أثرياً) · وعرف علم الآثار عند الافرنج باسم (Archéologie) اركيولوجي وهي كلمة يونانية مركبة من لفظتين (أرشيو) اي الآثار و (لوجيا) اي الكلام فالمعنى (البحث عن الآثار) ومنها اشتقت بقية الصيغ ·

اما كلمة (Antiquité) اي انتيكيته فهي لاتينية بمعنى شيء قديم فلذلك وضع لها المرحوم الشيخ سعيد الشرتوني كلمة العادي والجمع العاديات نسبة الى قبيلة عاد العربية المنقرضة لانها آثار المنقرضين · وقد شقوا منها الفاظاً في اصطلاحاتهم للتعبير عن هذه الاشياء · كما اخذنا نحن مشتقات مختلفة من تلك الأصول ·

ما هي انواع الآثار ؟

لاخفاء ان من الآثار ما هو معروف وموجود مثل ما اكتشف و يكتشف · وما هو معروف غير موجود كنقود ملوك الرعاة المصريين المعروفين بالهكسوس · و كنقود

الفينيقيين وكتاب سنكنياتون اقدم مؤرخ مدني في العالم يعاصر موسى النبي . وكتابوت العهد الاسرائيلي ونحو ذلك .

ومنها ما هو نادر الوجود كآثار ادوم وموآب ونقودهما ونقود تيطس قيصر النحاسية التي صكها في اورشليم تذكاراً لانتصاره يوم حاصرها ولم يقف الاثريون الا على بضع قطع منها في متاحف اوربة

ومنها ماهو كثير الوجود كنقود الاسكندر وهذه اكتشف بعضها الدكتور جول روفيه الفرنسي وكنقود قسطنطين الملك ونقود الرومان والمومياء المصرية واشباهها .

كيف قسم العلماء الآثار ؟

لقد قسم الاثريون علم العاديات الى قسمين (احدهما بالنسبة الى القبائل واللغات القديمة و(الثاني) بالنسبة الى الزمان . فمن (اقسام الاول) آثار المصريين والفينيقيين والآشوريين والبابليين والكلدانيين والفلسطينيين واليونانيين والرومانيين والعرب والصليبيين والبندقيين والعثمانيين . ومن (اقسام الثاني) اقدم العصور المعلومة مثل عصر الخليقة الى زمن موسى النبي في سنة ٢٥٠٠ ق م والعصور القديمة كالفينيقية والآشورية والمادية والعبرانية والهندية واليونانية والرومانية والعربية الجاهلية . والعصور المتوسطة كالقيصرية الشرقية والمغولية والغوتية والعربية . وكالعصور المتأخرة كالصليبية والبندقية والافرنجية والعثمانية .

وفي كل منها ابحاث مستفيضة وتفاصيل وافية في الكتب والمجلات والجرائد عند الافرنج .

ما فائدة الآثار ؟

ان للآثار اليد الطولى في تصحيح التواريخ القديمة وتمحيص الآراء المضطربة وكشف الحقائق الغامضة ومعرفة صناعات القدماء وشؤونهم .

فلولاها لما حققت كتابات قدماء المؤرخين مثل هيرودوتوس اليوناني وسنكنياتون الفينيقي ومانيثون المصري وبيروسوس الكلداني ويوسيفوس العبراني وسالسته الروماني وديودورس الصقلي وفيلون الجبيلي . والتوراة . والتواريخ الاخرى كاسترى .

ما علاقة الآثار بالعلوم ؟

ان البحث عن آثار الانسان القديمة قبل زمان التاريخ يسمى علم الاركيولوجية ويجمع بين الجيولوجية اي علم طبقات الارض وبين التاريخ . والبحث عن الصور والرموز الأثرية يسمى الايكونولوجية . والبحث عن التاريخ والآثار معاً يسمى علم الانتروبولوجية اي علم طبائع البشر . والبحث عن الآثار الانسانية الكليونتولوجية . وسرد الحوادث بحسب وقوعها الكرونولوجية . والبحث عن النقود وصكها النوميسماتيك . والبحث عن الاحافير وما فيها من الآثار علم البليونتولوجية اي علم الرفات . والبحث عن خصائص الشعوب الايتنوغرافية . والبحث عن الديانات والعبادات علم الميتولوجية الخ . وبحسب هذه العلوم والآثار قسمت اعصر التاريخ الى ثلاثة (الاول) وهو العصر الظري اي الحجري الصواني و (الثاني) النحاسي و(الثالث) الحديدي . وعرفت فلسفة التاريخ او التاريخ الفلسفي وهو ربط الاسباب بالنواميس العامة في البشر والطبيعة .

وفرّع التاريخ بحسب الشؤون والابحاث والمواضيع الى فروع لا محل الآن لسردها .

ولكن التاريخ كيفما كان لا غنى له عن علم العاديات والاحافير لانها اركانه التي يعتمد عليها .

ومن احسن ما قيل في تأثير التاريخ على الانسان كلام الامام السخاوي المؤرخ الشهير : « من حفظ التاريخ زاد عقله . ومن نظر في وقائع الزمان هانت عليه مصيبته » .

فالعلوم المساعدة للتاريخ اذن هي : علم الآثار . والكتابات الحجرية . والمخطوطات القديمة . وعلم الاوقات . والجغرافية . وانتقاد المصادر اي فلسفة التاريخ وغيرها .

هل عرف العرب التماثيل والصور ؟

عندنا ادلة كثيرة على ان العرب عرفوا التماثيل في اليمن وغيرها ووضعوها في قصورهم من انسان وحيوان . واشتهر بها الفرس والاندلسيون وصوروا النقود ولا سيا في عهد السلاجقة وربما كان اقدمها ما صك سنة ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) وعليه صورة فارس منقنة .

وقد ذكر بول كازانوفا : ان احد سياح العرب في آخر القرن التاسع للميلاد شاهد في الصين وغيرها صورة النبي محمد (صلعم) وكبار رجال الاسلام . وكان التصوير البيزنطي

شائعاً في الدولة الاموية ومنه الفسيفساء . وذكر المقريزي: الصور الاسلامية بتطويل ولا سيما في زمن الفاطميين وعدد اسماء المصورين ومنهم احمد بن يوسف ومحمد بن محمد الملقب كل منهما بالمصور وابن خرج البلنسي سمي بالذهبي لان جده كتب وصور بالذهب . وذكر ان شجاع الدين بن ضياء صاحب السلطان بيبرس قد حمل الى بركة امير المغول لما سار بسفارة اليه ثلاث صور صنع يده تمثل هيأة الحج . ومن نقوشهم البديعة المخططات (الخارتات) ونقوش المرايا العربية وصور الافلاك والاسطرلابات وكتب مناسك الحج صوروا فيها الكعبة وغيرها وكذلك المعراج وميزان الشعراني ودلائل الخيرات وفي مكتبتي بعضها وفي المكاتب كثير منها .

ومن الدواوين العربية (ديوان الصبابة للتلمساني) رأى منه نسخة فيها صور ابناء الامراء الاستاذ العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري وفي مكتبة باريز (المقامات الحريرية) بخط يحيى الواسطي سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٦م) فيها صور بديعة يمثل بعضها جيش العباسيين يحملون العلم الاسود وينفخون بابواق فارسية ضخمة . وبعضها رعيل جمال امامها راع . وبعضها صور نساء ورجال امام قصر فخم ورسم آخر يمثلهم تحت شجرة وعندي بعض امثلتها منقولة بالتصوير الشمسي عن كتاب الفنون العربية في المدرسة الشرقية في زحلة نشرت بعضها في مجلة الآثار في مقالة (التصوير في الكتب) ومقالة (المرايا عند العرب) والباقي معدٌ للنشر .

وذكر ياقوت في معجم البلدان قصر المتوكل المسمى (المختار) كانت فيه صور بينها صورة بيعة فيها رهبان واحسنها صورة شهار البيعة حتى قال الواثق يصفها :

ما رأينا كبهجة المختارِ لا ولا مثل صورة الشهارِ

ووجدت ثياب وطنافس قديمة عربية منقوشة عليها رسوم حيوانات وآدميين وبعضها قبل الاسلام .

وصوروا في قصورهم الجيوش المحاربة ونحوها كما في لسان العرب موصوفة بقول شاعرهم :

فيه الغواة مصورو ن فحاجلٌ منهم وراقص

والفيل يرتكب الردا ف عليه والاسد القصافص

وقول ابي الصلت امية الاندلسي في وصف قصر (منازل العز) المصري :

و بارجائه مجال طراد | ليس تنفك من وغى خيلاه
تبصر الفارس المدجج فيه | ليس تدمى من الطعان قناه
وترى النابل المواصل للنزع ـ بعيداً من قرنه مرماه
وصفوفاً من الوحوش وطير الجو كل مستحسن مراه
سكنات تخالها حركات | واختلاف كانه اشباه

ومما يدل على نقودهم المصورة قول الببغاء في نقود سيف الدولة المهداة اليه:

نحن بجود الامير في حرم | نرتع بين السعود والنعم
ابدع من هذه الدنانير لم يجر قديماً في خاطر الكرم
فقد غدت باسمه وصورته | في دهرنا عوذة من العدم

وفي بعض المتاحف تماثيل من صنع ملوك الاسلام منها في بيزا بايطالية تمثال بديع النقش من صنع الفاطميين في مصر ·

وفي معجم البلدان ان اوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصراوس في البصرة كان نادماً الى الشام فمر بتدمر فاعجبته فيها تماثيلها وحرك قريحته تمثالا جاريتين من حجر فقال:

فتاتي اهل تدمر خبراني | المّا تسأما طول القيام
قيامكما على غير الحشايا | على جبل اصم من الرخام
فكم قد مر من عدد الليالي | لعصركما وعام بعد عام
وانكما على مر الليالي | لابقى من فروع ابني شمام

الى آخر الابيات فلما انشدها يزيد بن معاوية بن ابي سفيان في هذه العاصمة قال يزيد: « لله درّ اهل العراق هاتان الصورتان فيكم يا اهل الشام لم يذكرهما احد منكم فمر بهما هذا العراقي مرة فقال ماقال » · ولقد وصفهما ابو الحسن العجلي بقوله :

اري بتدمر تمثالين زانهما | تأنق الصانع المستغرق الفطن
هما اللتان يروق العين حسنهما | يستعطفان قلوب الخلق بالفتن

وقال البحتري في وصف صور ايوان كسرى في المدائن من قصيدة بديعة ·

فاذا ما رأيت صورة انطاكية | ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وانو شروان | يزجي الصفوف تحت الدرفس

تصف العين انهم جد احيا ء لم ينهم اشارة خرس
يعتلي فيهم ارتيابي حتى تتقراهم يداي بلمس

وقال ابو عمران الكردي في تمثال ابرويز ملك الفرس ممتطياً فرسه شبديز وقربه جاريته شيرين بالوان بديعة :

وهم نقروا شبديز بالصخر عبرة وراكبه برويز كالبدر طالع
تلاحظه شيرين والحظ فاتن وتعطو بكف حسنتها الاشاجع
يدوم على كر الجديدين شخصه ويلقى قوي الجسم واللون ناصع

وقال شاعر اندلسي في تمثال حجري كان في حمام الشطارة في اشبيلية :

ودمية مرمر تزهو بجيد تناهى في التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلاً ولا ألمت باوجاع المخاض
ونعلم انها حجر ولكن تتيمنا بالحاظ مراض

وقال التطيلي الاعمى في اسد يمج الماء من فيه في بركة :

اسد ولو اني انا قشه الحساب لقلت صخره
فكأنه اسد السما ء يمج من فيه المجره

وقال صاعد اللغوي في صورة جارية في سفينة تجذف :

واعجب منها غادة في سفينة مكللة يهفو اليها المهاتف
اذا راعها موج من الماء تتقي بسكانها ما انذرته العواصف
متى كانت الامصار بان مراكب تصرف في يمنى يديها المجادف
ولم تر عيني في البلاد حديقة تنقلها في الراحتين الوصائف

وحكى ابن خرداذبه عن فرس نحاس بارض الاندلس باسط يده كأنه يقول : ليس خلفي مسلك . وقال : ان في مدينة طليطلة تصاوير افراس مكتوب عليها : لا تفتح هذه الارض حتى يأتيها قوم يشبهون هذه التصاوير . وكانت تلك التصاوير تمثل العرب على خيولهم بعمائمهم وقسيهم .

ومن صور اعضاء الجسم ما في مجموعة طبية فى مداواة العيون في المكتبة التيمورية نسخت سنة ٥٩٢هـ (١١٩٥م) بخط عبد الرحمن بن يونس ابن ابي الحسن الانصاري

في ثماني رسائل قديمة منها تذكرة الكحالين للموصلي فيها دوائر ورسوم للعين واهمها «السابعة» وهي لحنين بن اسحق في تركيب العين وعللها وعلاجها ذات خمسة رسوم للعين ملونة بديعة رسم بعضها في تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جرجي زيدان .

ومن اغرب الكتب المصورة عندنا نسخة من (قانون ابن سيناء) شيخ الاطباء في مكتبة السلطان محمود في الاستانة فيها رسوم نباتات واسماك وحيوانات نسخت في القرن الخامس للهجرة . (وعجائب المخلوقات) للقزويني رأيته منذ بضع عشرة سنة في دمشق في مكتبة آل الايوبي وهو مصور بالوان بديعة وقد طبعت ترجمته بالفارسية على الحجر في طهران باتقان في الرسوم والخط . و(مسالك الابصار في سلوك الامصار) لشهاب الدين احمد الكرماني العمري المعروف بابن فضل الله من اهل القرن الثامن للهجرة وهو جزآن في الحيوان والنبات ووجد منه نسخة متقنة في دمشق بصور ملونة بالوانها الطبيعية كانت عند صديقي جرجس بك صفا في لبنان . و(حياة الحيوان الكبرى) للدميري من اهل القرن التاسع للهجرة منه نسخ مصورة تميز الحيوانات وبعض الآدميين وطبع في العجم مصوراً .

وذكر ياقوت الرومي الحموي في معجم الادباء (اي ارشاد الاريب الى معرفة الاديب) مانصه : «و كنت سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) قد توجهت الى الشام وفي صحبتي كتب من كتب العلم اتجر فيها وفي جملتها كتاب (صور الاقاليم) للبلخي نسخة رائعة مليحة الخط والتصوير فبعتها من الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب حلب بتخيير المشتري من غير كسب » اه .

وفي مكاتب باريز و بطرسبرج وغيرها كتب عربية ورسوم رجال يرمون النفط وصورهم باتقان وتلوين . ومنها (كتاب الكواكب والصور) لابي الحسن عبد الرحمن الصوفي من اهل القرن الرابع للهجرة ونسخه المصورة المتقنة في باريس وبطرسبرج والاسكوريال واكسفورد . وادق نسخة في كوبنهاغ وهي ملونة الرسوم وكواكبه بهيأة ما تمثله من آدميين وحيوانات وطيور بالوانها وطبع في روسيا بدون تلوين ورأيت منه نسخة في المكتبة الاحمدية بحلب سنة ١٩٠٩ م وقد كتبت ١٠٠٥ هـ (١٥٩٦ م)

وفي المكتبة الظاهرية بدمشق قطعة من مخطوط قديم في علم الخيل وفيه صور

بقي منها رسم الحصان بعيوبه وقد كتب مقابل كل عيب اسمه بالعربية وهو رسم جميل دقيق . وفي مكتبة مدرسة (الثلاثة الاقمار) الارثوذكسية في بيروت كتب فلكية مصورة . وفي مكتبة بطنا الهندية كتاب (التصريف في الجراحة) للشيخ ابي القاسم الزهراوي نسخ سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨م) وفيه صور الآلات الجراحية باتقان تام (١)

ولقد ظهرت آثار قديمة في الابنية تحقق معرفة التصوير عند العرب من ذلك ان الدكتور هرتسفلد من اساتذة جامعة برلين الذي نقب عن آثار الصناعة الاسلامية في العراق سنة ١٩١١ وجد في مدينة سامرا اطلال جامع بناه المتوكل على الله كما ذكر اليعقوبي وعلى جدرانه نقوش وصور شرقية بارزة وغائرة في الجص (الجبصين) وهناك تصاوير ملونة في مواضع الجص المغفلة من النقوش مختلفة الالوان والاشكال بينها صور الآدميين ملونة جميلة الطراز وكذلك قصور العباسيين المصورة .

كيف جمعت الآثار ؟

ولع الناس منذ القديم بجمع آثار من تقدمهم من الامم في متاحف وكان اليونانيون اسبق الناس الى ذلك وعدوا هذا من الفنون فسمي المتحف عندهم (Musée) باللغة الافرنسية و(Museum) بالانكليزية منسوباً الى (موزه) إلهة الفنون .

واقدم متحف انشئ في سورية متحف بيروت بزمن اغريبا الثاني الروماني انشأه في القرن الاول للميلاد في هذه المدينة السورية ونقل اليه نفائس التماثيل والنقوش والفنون الصناعية من جميع المدن السورية فاغتاظ منه سكان المدن الاخرى ولاموه على ذلك ولكن سكان بيروت كانوا راضين عنه كل الرضى . والعرب انشأوا في دمشق متحفاً بزمن الامويين لآثار القدماء معتنين بجمع آثار الادب والصناعة والدين سموه (سوق الطرائف) وكذلك كان في بغداد (سوق الطرائف) لبيع النفائس فضلاً عن اسواقهم في عكاظ ومربد البصرة مما كان اشبه بالمتاحف او المعارض .

واول متحف اعتنت به حكومة عربية متحف مصر بزمن الشيخ رفاعه الطهطاوي شيخ ارباب النهضة العلمية في مصر في اوائل القرن الماضي .

(١) وهو الكتاب الذي اهدي اخيراً الى خزانة مجمعنا العلمي .

وفي بلادنا انشئ متحف القدس سنة ١٩٠١ م ومتحف بعلبك نحو سنة ١٩٠٥ م ومتحف صيدا في هذه الفترة ومتحفنا هذا في اوائل سنة ١٩١٩ م ومتحف بيروت سنة ١٩٢٢ ·

ما هي قيمة الآثار ؟

لا تقدر قيمة الآثار بحسب كبرها اومعدنها اونقشها اوجمالها اواشكالها وانما بحسب فائدتها التاريخية فمن الآثار ماهونادر جداً فهو ذو قيمة ثمينة ومنها ماهو مفيد تاريخياً ومنها ماهومفيد صناعياً ومنها ماهومفيد علمياً الى امثال هذه الفوائد الرائعة ولولا هذه القيم لما تبارى الافرنج بنقل الآثار وحشدها في المتاحف والانفاق على حفرها وجمعها وترتيبها وانشاء المجلات لوصفها ووضع المعاجم لتفصيلها وتاريخها وحفظ صورها ·

في سنة ١٩٠٤ م ظهر في قرية تل المتسلم التابعة قضاء حيفا من بلادنا خاتم لي شمع (اسم يربعام بن سليمان) من حجر اليشب نقش عليه صورة سبع فاغر فاه وعلى اطرافه اسمه بالعبرية وهو قبل الميلاد بنحو تسعة قرون فقدر ثمنه بخمسين الف فرنك اي الفين وخمس مائة ليرة افرنسية ·

وجمع احد اغنياء سان فرنسيسكو في اميركا الشمالية نقوداً قديمة قدرت قيمتها بعشرين الف ليرة انكليزية منها شاقل فضة من ايام داود الملك وهو من نوادر الآثار واقدمها ·

وسنة ١٨٧٧ م نقل قائم (مسلة) كليوبترة من مصر الى لندن ونصب على ضفة نهر التيمس فانفق عليه نحو عشرة آلاف ليرة انكليزية ·

وفي المتحف البريطاني آثار منها جثة منكورع المصري باني الهرم الثالث في الجيزة قدر ثمنها بخمسة وسبعين الف ليرة انكليزية · وحجر رشيد الذي قرئت به الهيروغليفية ثمن بعشرة آلاف ليرة · ورخامات البجن اشتراها اللورد ايلجن سفير انكلترة في الاستانة بسبعين الف ليرة انكليزية ثم نقلها الى لندن سنة ١٨٠٥ م وباعها الى المتحف بنصف القيمة فنسبت اليه مكافأة له ·

وفي متحف برلين الالماني نحو سبع عشرة جثة مصرية محنطة أنفقت الحكومة

للحصول عليها ثمانمائة الف مارك . واتفق متحف الاستانة سنة ١٨٨٧ م على نقل آثار صيداء اليه نحو عشرة آلاف فرنك .

وبيع نحو سنة ١٩١٧ م كثير من الآثار باثمان عظيمة مثل تمثال اثينة الذي يرجح انه من نحت فيدياس اليوناني الشهير بسبعة آلاف ومائة واربعين ليرة انكليزية . وتمثال انتينوس يحمل الكاس لاربانوس بقيمة ٥٨٨٠ وتمثال هيجيه الهة الصحة بنحو ٤٢٠٠ ليرة وكاس خزفية كانت للملك هنري الثاني بقيمة ٣٧٨٠ ليرة وتمثال امرأة يونانية مما كان يوضع في المعابد تذكاراً بثمن ٣٥٧٠ ليرة .

وفي صيف سنة ١٩٢٢ م ثمنت مجموعة النقود القديمة التي كان يحرزها (دوق كليارا بنصف مليون فرنك تقريباً وعدد النقود المجموعة لا يتجاوز الفاً ومائتي قطعة فقط .

وفي صيف سنة ١٩٢٢ ايضاً بيع بالمزاد في متحف القس مكروغور تحفة مصرية هي رأس صغير للملك امنمهات الثالث من الدولة الثانية عشرة وهو من السبج (الحجر الزجاجي الاسود) بقيمة عشرة آلاف جنيه .

كيف تحقق الآثار التاريخ ؟

من اقدم الآثار التي اثبتت العلوم والصناعات والاختراعات ما احتفر من عاديات المصريين والبابليين والاشوريين والفينيقيين تحقق وجودها ان تلك الامم عرفت كثيراً من ذلك مثل المكبرات او العدسيات التي وجدت في اطلال بابل والخطوط الدقيقة التي كتبت على الآجر فانها تدل على اتخاذهم تلك البلورات المكبرة لهذه الغاية وعرفوا الزجاج الشفاف والظليل الملون واتقنوا التطريز والتمويه بالذهب وغيره المعروف في ايامنا بالطلي وصقلوا الحجارة الكريمة ونقشوها باتقان وحفروا الترع وحنطوا الموتى وبرعوا بعلوم الفلك والرياضيات فقسموا النهار الى ساعات ودقائق وثوان لا تزال دستور العمل بها الى يومنا . وعرفوا السنة الشمسية والقمرية وعينوا الكسوف والخسوف واقاموا المراصد واخترعوا المزاول وبرعوا بالطب والكيمياء . والبناء المزخرف بالنقش والحفر والتصوير واقامة التماثيل . واتخاذ المكاتب والتاليف بالعلوم ووجود المعالم المعروفة اليوم

بالانسكلوبيذيات او دوائر المعارف والمدارس العالية · ووضع الشرائع او الاختراع والتدين بصور مختلفة الى كثير من امثال هذا ·

وعثر بعض المنقبين في المكسيك (اميركا) على كتابات تاريخية تشير احداها الى اكتشاف خمسة من الكهنة البوذيين الصينيين لاميركا في القرن الخامس للميلاد فعول المؤرخون على هذا الرأي وعرفوا ان هؤلاء اكتشفوا اميركا قبل الاخوة المغرورين (Magrorim) وهم ثمانية من العرب تركوا لشبونة لاكتشاف اميركا كما صرح بذلك المؤرخ الاسباني كوندي والشريف الادريسي في كتابه نزهة المشتاق وسمي طريقهم في لشبونة (درب المغرورين) الى يومنا وذلك قبل كولمبوس بستين سنة · و كشفت كتابة اسكندينافية على حجر بتاريخ سنة ١٣٦٢م تذكر ان ٣٠ رجلاً من اسوج ونروج وطئوا اميركا ووصلوا الى بلدة (ميناسوتا) قبل كولمبوس بمائة وثلاثين سنة ولكن الكتابة الاولى اثبتت ان فضل اكتشاف اميركا كان للصينيين · وربما ظهر ماينقض هذا ايضاً ·

ومن اهم ما افادت الآثار التاريخ قراءة الخطوط القديمة بعارضتها والاطلاع على تاريخ الاقوام التي طمست آثارها فكان اكتشاف بعض الآثار المكتوبة وحملها الى كروتفند الالماني سنة ١٨٠٢ م سبباً حاملاً على قراءة الخطوط المسمارية التي كثرت في وادي الرافدين اي دجلة والفرات · فقرئت اخبار الامم التي ملأت تلك البقاع وعرف عمرانها وتمدنها · وكان هنري رولنصون الانكليزي قد قرأ خط صخرة بيهستون المسماري في كردستان سنة ١٨٣٧ ايضاً ·

وهكذا كان الحال في قراءة الخطوط الهيروغليفية اي المصرية القديمة وكشف الاستار عن وجوه تاريخ الامة المصرية ومعرفة درجة حضارتها · والفضل في ذلك عائد لشامبوليون الفرنسي الذي قرأ حجر رشيد الهيروغليفي سنة ١٨٢٢ م وهو عمود منقوش بالقلم المصري واليوناني واللاتيني فحققت الآثار المكتشفة وستحقق ايضاً كل ما غمض من تاريخ المصريين وبلادهم ·

وعرف من هذه الآثار وحل رموز اللغتين ان الخط المسماري له علامة تدل على الفاظ كثيرة والهيروغليفي له علامة تدل على لفظة واحدة ·

واشتهر اوستن ليرد سفير فرنسه في الاستانة باكتشافاته الاشورية سنة ١٨٥٠

ولاسيا صفائح الاجر وهي نحو عشرة آلاف نقلها الى اوربة فتبارى العلماء في حلها وبرعوا بقراءة القلم المسماري فاجاز المسيو بولن ناظر المعارف الفرنسية المسيو اوبرت بعشرين الف فرنك لانه نجح بقراءة اللغة المسمارية · وهكذا كانت الابحاث متواصلة في تحقيق ما غمض من تواريخ الامم القديمة بوجود آثار عمرانهم في الانقاض وعين موضع نينوى انه في محل كوينجيك في شرق الموصل الجنوبي · وكالح في محل اخربة نمرود في جنوبي الموصل الى جنوبي نينوى ·

وجاء في التوراة حادثة الخلق والسقوط والطوفان وبرج بابل و يوسف في مصر وتفسيره حلم فرعون بحدوث سبع سني جوع ومثلها شبع وبناء سليمان الملك بلدة ماجدو (تل المتسلم) التابعة حيفا وحروب مواب واسرائيل واشور فاكتشف جورج سمث الانكليزي سنة ١٨٦٧ م كتابات على الفخار تثبت التكوين والسقوط والطوفان بتفاصيل اشبه بما دون في التوراة · وسنة ١٩٠٢ م اكتشف دي مبلي شيئاً عن برج بابل يدل على بقائه في القرن الرابع بعد الميلاد وان بختنصر ملك بابل رممه في القرن السادس قبل الميلاد وانه مبني قبل ذلك العهد باثنين واربعين قرناً وعرف ان قياسه كان غريباً فطول اساسه من جهة واحدة ١٨٦ متراً وعلوه ٢٢٥ وسلمه التي يصعد عليها اليه ذات ٣٦٥ درجة وعين محله قرب طيسفون (المدائن) · ووجد الدكتور برغش سنة ١٨٩٠ م قرب الاقصر في مصر عند ثنية حجراً عليه خطوط هيروغليفية منها كتابة لاحد الكهنة معناها : « ان النيل لم يفض ماؤه سبع سنوات » وذلك يؤكد سني الجوع بزمن يوسف ·

وسنة ١٩٠٤ م اعاد الحفر الدكتور شوماخر فاظهر في تل المتسلم (اي مجدو) اطلال قصر شيده سليمان وذلك يوافق كتابات تل العمارنة في مصر : ان سليمان شيد بلدة مجدو و بنى فيها قصراً ·

وسنة ١٨٦٩ م اكتشف المسيو غانو قنصل فرنسه في القدس حجر ديبون (ذيبان) قرب مادبا شرقي البحر الميت وهو من الحري (Beselet — الاسود البركاني) وعليه كتابة سامية عبرانية بحرف فينيقي من ٢٤ سطراً محفورة تتضمن سرد حروب موآب واسرائيل على عهد يوشافاط ملك يهوذا ويورام ملك اسرائيل (٤ مل ٣ : ٤) كتبت سنة ٨٩٦ ق م فنقلت الى فرنسة ·

وسنة ١٨٦٦ وجد جورج سمث الانكليزي كتابات على الآجر من عهد شلمناصر الثاني تؤذن بخبر حربه مع حزائيل ملك الشام ·

وسنة ١٨٧٤ م بحث الدكتور شليمان الالماني الاثري عن اطلال طروادة قرب جبل اولمبوس في بروسه فوجد مدينة محترقة وعثر على قبر اغاممنون في ميسينا · وشاهد كثيراً مما يؤيد قول اوميروس في الياذته ·

واكتشفوا منذ بضع سنوات قرب بوردو (فرنسه) ناووساً رومانياً من القرن الاول للميلاد ففتحوه ووجدوا هيكل عظام بالية وآناء خزفياً سورياً فيه خمر فاستدلوا منه ان العلاقات التجارية كانت متصلة بين اوروبة وسورية في ذلك العهد ·

وسنة ١٨٧٩ — اكتشف الدكتور شليمان في طروادة كأساً مكتوبة تدل على ان التجارة كانت رائجة بين الصين واوربة قبل الميلاد بألف ومائتي سنة · ووجد ضمن تلك الكأس نسيجاً صينياً ·

واكتشف في صيداء منذ سنوات قبر الاسكندر المكدوني ونقل الى المتحف العثماني في الاستانة وبقي العلماء على شك من امره الى ان ظهر قبر هذا الفاتح العظيم في ممفيس في القطر المصري فقطعت جهيزة قول كل خطيب وفسد الرأي الاول وثبت الثاني ·

ولما اكتشفت آثار تل العارنة قرب المنية في صعيد مصر سنة ١٨٨٨ م وهي سجلات الدولتين المصرية والسورية ومراسلاتهما في ايام امينوفيس الثالث وابنه امينوفيس الرابع قرأ الاثريون اسماء مدن سورية قديمة لاتزال على حالها الى يومنا مثل عكا وصيدونا (صيداء) وصوري (صور) وبيروتا (بيروت) وجبلة (جبيل) وارودا (ارواد) ودمسقا (دمشق) وقطنا (قرب دمشق) فضلاً عن الاعلام اللبنانية مثل البترون وجونيه وشكه والاعلام البقاعية مثل شتوره ومكسه فثبت قدم هذه المدن

وسنة ١٨٨٠ م ظهرت آثار بواسطة نقب المستر سمبسن المرافق للجيش الانكليزي الى وادي جلال اباد في افغانستان دلت على انه كان في ذلك الوادي قديماً من المتزهدين البوذيين اكثر من عدد سكانه اليوم ·

واستدل هذا الاثري من نقود رومانية وجدها هناك ان بلاد الافغان كانت في القرون الماضية طريقاً للتجارة من اواسط اسيا الى بلاد الهند ·

واستخرج الاستاذ ستفنصن اثاراً قديمة من بلاد المكسيك الجديدة في الولايات المتحدة بينهما صنمان مجنحان مصريا الشكل وآثار أخرى تشبه اثار الشرق القديمة . وكلها دلت على شؤون تاريخية جديدة كان المؤرخون في ريب منها فتحقق لهم امرها .

وذكر بروشيوس المؤرخ الكلداني من اهل القرن الرابع قبل الميلاد ان مملكة العمالقة العرب في العراق حكمت ٢٤٥ سنة وقام منها تسعة ملوك حكموا بين دولتي الكلدانيين والآشوريين وذلك من سنة ٢٤٦٠ — ٢٠٨١ ق م . فبقي قوله مشكوكاً فيه الى ان كشف ده‌مرغان الفرنسي سنة ١٩٠١ م آثار سوسة بين النهرين على الآجر فنقلت الى متحف اللوفر في باريس . وظهر منها ان الدولة الساموآبية العربية خلفت العيلاميين واشتهر منها حامورابي وشريعته وكانت القابه « ملك بابل وسومار وعقاد وملك اربعة الارباع » . فثبت رأي بروشيوس وصح تاريخه .

وهكذا قل ان الآثار المصرية حققت اخبار دولها القديمة ومنها الرعاة (الهكسوس) الذين يترجح انهم من عمالقة العرب ايضاً . فصحح تاريخ مصر بعد اضطرابه .

وهكذا كانت آثار فينيقية المكتشفة في الايام الاخيرة ناقضة لكثير من اراء رينان الفرنسي الذي جاء لبنان سنة ١٨٦٠ م وتفقد آثاره والف كتابه (البعثة الفينيقية) فصححت الاثار المكتشفة ما كتبه في بعض المواضع متكهناً .

ونحو سنة ١٨٩٥ م كان الارثوذكس في قرية مادبا في فلسطين شرقي بحيرة لوط يرممون كنيستهم فظهر عند الحفر فسيفساء كثيرة لم يبالوا بها اولاً فشيدوا الكنيسة ثم بدأوا ببناء دار ملاصقة لها فظهر لهم قطعة فسيفساء جميلة جداً كانت من بلاط الكنيسة القديمة تمثل مخططاً او مصوراً (خارطة) لبلادنا من لبنان الى مصر ومن البحر الى ما بين النهرين وفيها المدن والقرى وأسماؤها بديعة التلوين والرصف ولكن بعضها مهشم فبعد ان كانت مساحتها نحو ٢٨٠ متراً لم يبق منها الا ١٨ متراً سالماً تمثل بعض فلسطين وهي من عمل القرنين الرابع والخامس للميلاد .

وفيها اسماء مدن مجهولة اليوم يمكن تعيين مواقعها فضلاً عن اسمائها القديمة والحديثة باليونانية مع دقة اشكالها وابعادها واخص آثارها وبيان السهول والرعان والجبال والانهار ملونة بالوانها الطبيعية . فترى جزءاً من نهر الاردن بتمعجاته

وتعاريجه الكثيرة وفي مجراه الاسماك مع جسر شمالي اريحا الشرقي · وترى في بحيرة لوط المراكب الشراعية ثم تشاهد جزءاً من الغور وفيه غزالة يطاردها اسد الى اشباه هذه المشخصات البديعة ·

وأهم ما بقي منها صورة اورشليم في ذلك العهد وتخطيطها باحيائها وشوارعها وابنيتها بالوان تأخذ بمجامع الابصار رواء ·

فافاد هذا المخطط علم رسم الارض (الجغرافيـة) والتاريخ فوائد جمة وصحح كثيراً من الاوهام في مواقع بعض المدن والقرى واسمائها فهكذا تحقق الآثار التاريخ ·

وما تراه في غموض التاريخ العربي قبل الاسلام سيجلى باظهر بيان بعد حفر آثار شبه الجزيرة والوقوف على ما هنالك من الكتابات والابنية والنقود وما شاكل من الآنية والآثار والعاديات على اختلافها · كما فعل الاستاذ موزل النمسوي سنة ١٩٠٢ م باكتشافه قصر الخلفاء في صحراء البادية وقلعة العمرة وكثيراً من الاخربة والانقاض القديمة وغيره من الاثريين والحفارين ·

وسنة ١٩٠٣ م اكتشف في حوران رسوم اوراق العنب وعناقيده يقال انها من نقش الحميريين العرب قبل اليونان والرومان فدل على صحة حضارتهم ونقوشهم ·

وسنة ١٩٠٣ م ظهر في المدافن المصرية بردي يحتوي على قصيدة (الفرس) لناظمها تيموثاوس الشاعر اليوناني يصف فيها بكل دقة معركة سيلاميس الهائلة التي اندحر فيها اخسرخوس الفارسي من وجه اليونان فثبت بها صحة المعركة تاريخياً ·

وسنة ١٩٠٥ م ظهرت اطلال وادي موسى عند حفر الطريق للسكة الحجازية وصح تاريخ مدينة الحجر اوبترا اوسالع ومن اهم تلك الآثار (قصر فرعون) و(خزنة فرعون) وغيرها مما وصفه بعضهم ·

وسنة ١٩٠٨ م ظهر في مدينة جبيل اللبنانية تمثال بديع يمثل (هرمس) الذي كان عند اليونانيين اله الطرق والمسافرين والتجارة ورسول سائر الالهة وهو صخر بديع من الحجر الكلسي الصلب وربما كان من عهد خلفاء الاسكندر وهو يؤيد ماذكره التاريخ من حراسة طريق البحر في القديم بآلهة من اشباه هذه ولا سيما عند اليونانيين ولا يزال مضيق نهر الكلب شاهداً على ذلك الى يومنا ·

ونحو سنة ١٩١٠ قرئ بردي مكتشف حديثاً في مصر يؤيد ما في كتابي عزرا ونحميا من التوراة و يثبت صحة تاريخ العبرانيين في ذلك العهد · ومن عجيب ما رواه البردي المذكور ان ملوك يهوذا كانوا يبيعون رجالهم جنوداً للمصريين و يأخذون اثمانهم خيلاً وذلك يخالف الشريعة الموسوية و يدل على جور الملوك ومخالفتهم للشرائع · وفيه اقوال من سفر طوبيا والامثال واساطير ايزوب واشعار ديمقراطس ·

واغرب من هذا وجود اجزاء فيه من كتاب احيقار المعروف عند العرب وله اقاصيص غريبة ·

ووجد محراث اشوري في نفر (نبور) ومعه وعاء لبذر الحبوب مما يدل على انه عند الحراثة يهتز الوعاء فتسقط منه الحبة اثر الاخرى وتطمر ·

ونحو سنة ١٩١٢ م اكتشف هيلبرشت الاميركي قطعة آجر كتب عليها حادثة الطوفان تاريخها نحو الفي سنة قبل الميلاد فوافق ما فيها بل تمم ما رواه الكاهن البابلي باروز ونقله عنه يوسيفوس وغيره ·

ونحو ١٩٠٥ م اكتشف الدكتور سالين النمسوي في تل تعنك اي مرج ابن عامر ابنية واواني من القيشاني والصيني كانت تصنع في فلسطين ولا سيما في زمن الكنعانيين فثبت بهذا ان القيشاني لم يكن من عمل العجم بل اقدم منهم اتصل بقاشان ونقله الدمشقيون واشتهروا به ·

وسنة ١٩١١ م كانت حكومة اسبانية تبحث عن مدينة عربية خفيت عن الاعين آثارها فوجدوها مطمورة تحت الارض واسمها (الزهراء) وضاحيتها تسمى (الزهيرة) او (بلبس) على بعد قليل من قرطبة · فظهرت اطلالها البديعة ونقوشها الرائعة فثبت ما رواه التاريخ من انها موجودة لا مكذوب فيها وان فيها مدرسة كانت تمثل الاحياء بالصور والرسوم وكان الامير عبد الرحمن يعاضدها وامه المسيحية تنشطها وتدر عليها المال · ووجدوا هنالك كثيراً من انواع الخزف والمجزعات والزجاج الملون من صناعات العرب في الاندلس ·

وسنة ١٩١٣ م ثبت للاثريين موقع جرابلس او كركميش عاصمة الحثيين على ضفة الفرات بين حلب وبغداد وهي التي اشار اليها (سفر الاخبار الثاني ٣٥ : ٢٠)

بقوله : « وصعد نخو ملك مصر لقتال كركيش عند الفرات تخرج عليه يوشيا »
وكان رولنصن الانكليزي ومسبرو الافرنسي قد ظناها منبج قرب حلب ثم فورسكان
الانكليزي وجورج سمث وطنيه انها جرابلس فحققتها الآن البعثة الانكليزية فيها
ولو قرئت الكتابة الحثية لظهر بهذه الاكتشافات غرائب . وكلمة جرابلس تحريف
(هيرابوليس) اي المدينة المقدسة . وفي مجلتي الآثار وصف لهذه المدينة وآثارها
المثبتة لتاريخها (٣ : ١٦١ و٢٥٣ و٣٥١) .

وسنة ١٩١٨ توفق الدكتور ريزنر الانكليزي في حفرياته في السودان المصري
الى تحقيق ملوك اثيوبيه بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد فبعد ان كان
المؤرخون لا يعرفون منهم الا ترحانا وخلفه نانوتامون اظهرت الآثار منهم اثنين
وعشرين ملكاً حكموا من سنة ٦٦٨ — ٣٠٠ ق م وكشفت قبور كل منهم ومن
ملكاتهم وانسبائهم فتحققت سلسلتهم وعرفت أسرتهم . وكذلك كان المؤرخون في
ريبة من امر الملك نستسين فتحقق انه وجد بعد كمبيز بقرنين لا انه كان معاصره
فكانت الآثار ناقضة للاوهام التي كانت في تاريخ اولئك الملوك فسدت ثلمة في تاريخهم
ومحا اليقين الشك بشأنهم .

وسنة ١٩١٩ م أعلنت المجلات الاثرية خبر اكتشاف مهم في علم الآثار وهو
ان الدكتور فردريك هروزني استاذ اللغات السامية في جامعة فينه في النمسه قد
اهتدى الى قراءة اللغة الحثية التي كانت قراءتها متعذرة كل هذه المدات على العلماء
وما ذلك الا لعدم وجود كتابة حثية مع كتابة أخرى معروفة ليمكن مقابلتها وحل
رموزها كما جرى في قراءة الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة المسمارية
الاشورية . فعالج كثير من العلماء حروف الحثية مقابلةً ودرساً وتحقيقاً فلم يظفروا
منها بطائل الى ان بشرتنا الصحف ان هذا الطبيب النمسوي قد قرأ الكتابات الحثية
ووضع فيها رسالة بين اصولها وصفاتها مما دل على ان اللغة الحثية هي اخت اليونانية
من اللغات الآرية او الهندية الاوربية مثل اليونانية واللاتينية . بعد ان كان العلماء
يعدونها من اللغات الحامية . وكانت الحثية مستقلة عن اللغات الهندية الاوربية اي
اللغات المشابهة للاتينية والهندية الايرانية والارمنية في القرن الرابع عشر والثالث

عشر قبل الميلاد · وان الحثيين انفسهم من سلالة هندية اوربية لا حامية ولكن امتزج بهم دم غير الدم الهندي الاوربي على طول الزمن · وان عمرانهم كان يضاهي العمران البابلي والاشوري · وكان اول ذكر لهذه الامة الحثيـة سنة ١٩٣٠ ق م · وهم الذين قضوا على دولة السموآبيين التي نبغ منها حمورابي المشترع الشهير فخلفوهم في العراق · وبلغت دولتهم اوج مجدها في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد في عهد صبيلوليا وخلفـائه وقـد ملكوا كل أسية الصغرى حتى امتدوا الى سورية وفلسطين واتصلوا بالقطر المصري · وان نجم مجدهم اخذ بالافول في اول القرن الثاني عشر قبل الميلاد الى كثير من هذه التحقيقات ·

وهناك امور كثيرة تحتاج في تفصيلها الى مجلدات اجتزأنا منهـا بهذا القدر · ويحسن ان نختم هذا البحث بملاحظات ذات شأن في الآثار : ان المؤرخين حتى عهد قريب كانوا قد اختلفوا بتسمية اسكندر المكدوني بذي القرنين فبعضهم قال انه كان له حصان بقرنين · وقيل كان للاسكندر ذؤابتان مرتفعتان تشبهان القرنين · وقيل لتملكه قرني الشمس اي المشرق والمغرب · ولكن الآثار التي ظهرت فيها نقود الاسكندر المسكوكة بعهده دلت انه صور نفسه فيهـا بصورة امون الذي كان يمثل بقرنين كقرني الكبش فسموه بذي القرنين وهو اظهر الادلة على تلك التسمية · وهكذا تاريخ العرب في شبه الجزيرة ما زال غامضاً ولا سيما في زمن الجاهلية · ومع ذلك فان ما حققـه السياح وما اكتشفه الاثريون وقرأوه من الكتابات رفع حجب الوهم عن اشياء كثيرة من عمرانها · فاكتشف أرنو سنة ١٨٥٣ خطوطاً وآثاراً حقق بهـا اماكن صنعاء والخربية وحرم بلقيس ومأرب فوضع مخططاً (خارطة) لآثار سد مأرب الشهير ثم تعقبه كثيرون مثل هاليفي سنة ١٨٦٩ م فاكتشف بلاد الجوف التي مرّ بها اليوس غالوس الفاتح الروماني · ثم اكتشف في جهات نجران مدينة (معين) عاصمة المعينيين من دول اليمن العظيمة · وكلما كثرت الابحاث الاثرية زاد تحقيق هذا التاريخ فعرفت الآن تواريخ دولة المعينيين والسبإيين والحميريين في اليمن والانبـاط والتدمريين والغساسنة في شمالي بلاد العرب · والسموآبيين

او الحوراپيين والحمپين في العراق · وابدت ماعرف عن القبائل البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس وغيرها ·

وها كم الان مثالاً مما حققته الاثار عن سكان بلادنا القدماء فلولا الآثار — التي ظهرت في مصر ووصفت غزوة توطميس (تحوتمس) الاول ملك مصر الذي غزا سورية والعراق حيث نينوى وبابل سنة ١٦٥٠ ق م وهو من الاسرة الثامنة عشرة من الاسر المالكة في مصر — لما عرف المؤرخون ان سكان هذه البلاد القدماء هم اللوديون او الروتيون و يقال اللودانيون او الروتانيون وهؤلاء السكان الذين كانوا في هذه البلاد جميعها هم اخوة الاراميين وأقدم منهم في سكنى بلادنا · وأيد تلك الآثار القديمة مانقش على هيكل الكرنك في مصر ايضاً اذ ذكر أن توطميس الثالث نحو سنة ١٦٢٥ ق م جاء سورية لتدويخ الروتان الذين امتنعوا عن دفع الجزية التي ضربها سلفه توطميس الاول عليهم · وظهر في المتحف البريطاني اثر من عاديّة المصرية يمثل رجالاً من هؤلاء السكان القدماء يقدمون الهدايا لفرعون او احد خاصته ·

فنقض هذا الرأي قول المؤرخين ان سكان سورية القدماء هم الاراميون واثبت انهم هم اللوديون اوالروتيون كما سبق في محاضرة (حقائق تاريخية) صفحة ١٥٠

الختام

هذا نمد من قطر ونقطة من بحر من فائدة الآثار القديمة في التاريخ لان تفصيل ذلك يحتاج الى مجلدات ضخمة ومراجعات مسئمة على ان زبدة القول ان اسفار التوراة ولاسيما اسفار موسى الخمسة منها وتواريخ المصريين والكلدانيين والاشوريين والبابليين والماديين والحثيين والروتانيين والاراميين والفينيقيين والقرطجنيين والفلسطينيين والعبرانيين والفرس والعرب واليونان والاسبرطيين والمكدونيين والسلوقيين والبطالسة والمكابيين وممالك آسية الصغرى والرومان والافرنج كلها اليوم مصححة بحسب الآثار القديمة والعاديات وربما ظهر اشياء جديدة تنقض بها الآراء القديمة ·

وكفى بهذه المجالة الآن شاهداً عدلاً وبرهاناً دامغاً على ان الاثار القديمة ليس جمعها من الكماليات بل من الضروريات وليس في جمعها والاستفادة من درسها الا تحقيقاً للتاريخ وتجديداً لذكرى الاسلاف ·

***

فاناشدكم الله أيها الكرام ان لا يذهب بعضكم مع الهوى ويرمينا باللوم لعنايتنا بالمتحف والمكتبة فان في هذين ارتقاء الوطن وتحقيق تاريخه وترقية معارفه ورفع شأنه بين الامم المتمدنة ·

فهلاّ نجاري الامم في حضارتها الراقية وهي شديدة الحرص على ابتياع مثل هذه النفائس ونقلها وادخارها في متاحفها حتى اننا نحتاج الى الوقوف عليها لمعرفة شؤوننا ·

فسلام على من اعتنى بحفظ آثار بلاده وحرص على بقايا قومه الدارجين · وسلام على حكومتنا الوطنية والمنتدبة الحريصتين على احراز آثار الامة وابقاء ماتركته لنا الاباء منها محفوظاً عندنا مع ان مئات والوفاً منها يحرزها غيرنا وفقها الله وحفظكم خير ذخر للمدنية ·

عيسى اسكندر المعلوف

العمل بالعلم(١)

قال ابن الوردي :

في ازدياد العلم ارغام العدى وجمال العلم اصلاح العمل

وقيل في منثور الحكم : « لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به » . وقال الفيلسوف باكون : « من يقض عمره في درس العلوم فهو البليد الكسول ومن يتخذها زينة وحلية فهو المتصنع المتكلف فكمال الدرس الاختبار وكمال العلم العمل به لا الاكتفاء بمعرفته » . وكل هذه الاقوال صحيحة لان ثمرة العلم ان يعمل به . والعالم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر او كالنحلة بلا عسل . وكل الفوائد التي جناها المجتمع البشري من حدائق العلم انما جنيت بالعمل لا بالعلم وحده . فالعمل أساس التقدم والارتقاء ووسيلة السعادة والهناء وكل أمة ليس فيها ميل الى العمل والاعتماد على النفس تبقى منحطة شقية ولا بد من سقوطها . ان الخالق عز وجل لم يخلق الانسان للبطالة والكسل بل خلقه للسعي والعمل . فوضعه في جنة عدن ليعملها ثم فرض عليه ان يأكل خبزه بعرق وجهه . فالعمل اول الواجبات وهو ضروري لجميع الناس على اختلاف الطبقات وتباين الاطوار والحالات . لا يعفى منه الا الذي أثبته المرض ولا يستغني عنه الا الذي لا حِرَص به ولا نَبَض . وذلك للاسباب الآتية :

(١) : انه قوام الحياة وقال بعضهم بل هو الحياة لان الانسان اذا انقطع عن العمل ادركه الاجل . وقيل ان احد الاعيان سأل صديقاً له ما سبب موت أخيه فاجاب انقطاعه عن العمل فقال السائل حقاً ان هذا سبب كافٍ لاماتة اي انسان كان . وقال صولون الحكيم : « من لا يعمل يجب ان يحكم عليه بالموت » وقد أصاب بهذا القول لان الحركة والسعي من علامات الحياة وواقياتها وعدم العمل من

---

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ انيس افندي سلوم القاها في ردهة المجمع العلمي في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٢١ م .

مفسداتها ومهلكاتها ولنا في عالم الطبيعة امثلة كثيرة توضح هذه الحقيقة ٠ فالماء المنحدر من ينبوعه متدفقاً فوق الصخور او مترقرقاً على حصى الاودية كالبلور يبقى صافياً لامعاً عذباً ما دام جارياً بقوة ولكنه اذا ركد أجن وأنتن وصار مأوى للحشرات القذرة والافاعي السامة ٠ والهواء المتحرك حركة لطيفة يشرح الصدور و ينعش النفوس ولكن اذا سكن فسد وتولدت فيه جراثيم الامراض ٠ والآلات والادوات الحديدية اذا استعملت بقيت صقيلة لامعة واذا أُهملت علاها الصدأ وادركها الفناء ٠ وكذلك الانسان اذا قام بالاعمال المطلوبة منه امتلأ نشاطاً وقوة وحفظ رونق شبابه الى طور الشيخوخة واذا ترك العمل خسر صحته وقوته وشبابه وحياته لان اعضاءه مخلوقة للاستعمال لا للاهمال والاستعمال يحييها والاهمال يميتها فالعمل احسن مقومات الحياة وانجع مقويات الصحة وافضل الواقيات من الامراض المختلفة ولو تمرّن عليه المترفون المترفهون لقلت تشكياتهم من الوبالة والرهل والسمن الزائد وسوء الهضم وتمتعوا بكمال القوة والنشاط ٠

(٢) : انه غذاء العقل الذي يقويه وحصنه الذي يقيه فان العاكف على عمله يتمكن من زيادة معرفته وترقية ادراكه بما يكتسبه من الدربة والاختبار فيكون اقدر من غيره على تمييز الدقائق وكشف الحقائق ودفع المغارم وجر المغانم ٠ والذي يترك العمل يتفرغ عقله للتفكر بالجرائم والآثام وتعتريه الوساوس والاوهام فيهيم في اودية الهموم وتختلج في صدره الغموم او يمسي اسيراً لهواه او ييأس من هذه الحياة فيظهر الاختلاط في عقله وربما انتحر وجلب العار على اهله ٠ ان يوماً واحداً من ايام الهواجس والهموم لاشد على النفس من شهر عمل واجتهاد لان الاهتمامات تنهك القوى وتشوش نظام العقل ولا شيء يحفظ ذلك النظام من التشويش غير العمل ٠ قال جانكورت : اننا بواسطة عمل العقل نضمن راحة القلب ٠ وروت احدى الجرائد انه عرض في فينا ذخيرة فاخرة مرصعة بالجواهر الكريمة وفي قلبها اربعة دبابيس عادية ولهذه الدبابيس قصة غريبة وهي ان الكونت لفنسكوفي زوج صاحبة هذه الذخيرة اتهمته الدولة الروسية بكلام قاله في حق القيصر وقائلة الكلام امرأته لا هو فلم يبرر نفسه فألقاه القيصر في سجن مظلم لا يرى فيه شيئاً وابقاه فيه ست سنوات ٠ اما هو فلما

دخل السجن وضع يده على ثوبه فوجد فيه او بعة دبابيس فنزعها منه ورماها في ارض السجن ثم اخذ يتلمسها حتى وجدها فرماها ثانية وعاد يفتش عنها واستمر يرميها ويجدها مدة الست السنوات . وقد قال في سيرة حياته ان هذه الدبابيس شغلتني كل تلك المدة الطويلة ولولاها لجننت فلا عجب اذا جعلتها زوجتي حيلة من حلاها لانها حفظت عقل زوجها .

(٣) : انه درع الفضائل التي تقي الانسان سهام الرذائل . فان تركه وقضى وقته بالبطالة فتح اوسع الابواب للشر وتورط في اوحال البذاءة والاثم ولا سيما اذا كان من الشبان الاغنياء فتجتمع فيه اسباب الفساد الثلاثة التي ذكرها الشاعر في قوله :

ان الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء اي مفسده

فيتلف جسده وعقله وماله بما تجره تلك الاسباب من التجارب الشيطانية لاشباع الشهوات الدنية . ولذلك قال بعضهم رأس الكسلان معمل الشيطان . وقال سكوت الروائي المشهور : انه كان يطرد شيطانه و يستعيذ من ابالسته بالعمل المفيد .

وحكي عن ربان احد المراكب انه كان لايدع بحارته بدون عمل لانه وجد ان البطالة تقودهم الى الخصام . فلو كان الناس كلهم يشغلون اوقاتهم بالاعمال النافعة لما بقيت لهم فرصة لارتكاب المنكرات ولفرغت السجون والملاهي والمراقص والحانات وهربت الشياطين وعمت الفضائل العالمين .

(٤) : انه آية الشرف والنبل وعنوان المروءة والفضل . فلا شرف ولا مروءة للبطال الكسلان ولو كان ابا قابوس او عبد المدان . فالفلاح الواقف على محراثه في حقله اعلى قدراً في نظر العقلاء من الامير الجالس على السرير المتسربل باثواب من حرير وهو بطال مكسال لا ينفع غيره بعمل من الاعمال . وقد جاء في بعض الامثال قولهم كلب يعمل خير من أسد يكسل .

ان العمل لا يحط شأن الرجل ولا يثلم شرفه كما يتوهم بعض المغرورين بانفسهم المتفاخرين بعلومهم وانسابهم بل يزيده مجداً وكرامةً فقد قام من كل أمة رجال اشتهروا بالعلم ورفعة المقام ومع ذلك كانوا من رجال الاعمال ايضاً . فمن اليونان

طاليس رأس الحكماء السبعة وصولون المؤسس الثاني لاثينا وهيبراتيس الرياضي وكثيرون غيرهم وكلهم كانوا يشتغلون بالصناعات ليكسبوا رزقهم · وافلاطون الحكيم المشهور كان يبيع الزيت وهو يطوف بلاد مصر وينفق مما يربحه منه ·

ومن العرب ابو بكر الصديق كان بزازاً وعمرو بن العاص كان جزازاً وابو حنيفة النعمان كان خزازاً وكثيرون من امرائهم وعلمائهم كانوا فلاحين او نجارين او حجارين او قصارين ·

ومن الانكليز شكسبير رأس شعرائهم كان يدير الملاعب ويفتخر بادارتها وقيل ان اباه كان جزاراً وانه هو نفسه كان يعمل في صباه على ممشطة الصوف واسحق نيوتن كبير فلاسفتهم كان مستخدماً في مضرب النقود والن الكيماوي كان حائكاً · وفكتوريا ملكتهم المعظمة كانت تخيط بيديها القمصة وترسل بها الى الفقراء مع كثرة الشواغل السياسية والاعمال الادارية التي كانت مطلوبة منها ·

ومن الروسيين بطرس الاكبر ملك روسيا كان يذهب متنكراً الى اوربة ويدخل معاملها تحت اسم الصانع بطرس ويتعلم الصنائع ويرجع الى بلاده ويعلم رعيته اياها !!!

ومن الاميركيين ابراهيم لنكن رئيس الولايات المتحدة كان دباغاً والرئيس كليفلند كان محامياً والرئيس ولسن كان استاذاً للتاريخ في جامعة مور بعد ان تعاطى فن المحاماة مدةً · فكل هؤلاء العلماء والرؤساء والامراء وكثيرون غيرهم من ذوي النفوس الكبيرة والمراتب الخطيرة لم يستنكفوا من الاعمال اليدوية والاعمال العقلية ولم يحسبوها دون اقدارهم او ثالمةً شرفهم بل كانوا يسرون بممارستها ويعرفون انها نافعة لهم ولاوطانهم ويحضون غيرهم على الشعور بواجب العمل والقيام به لانه آية الشرف ·

(٥) : انه سلم الارتقاء الى اعلى المراتب والتربع في ارفع المناصب فكم وضيع حقير نال باجتهاده في العمل رتبة امير كبير او وزير خطير وحسبنا ثبتاً لذلك ان نذكر بعض الذين ارتقوا باعمالهم من اصول وضيعة الى مراتب رفيعة · فمنهم اللورد

تنتردن قاضي القضاة في بلاد الانكليز الذي نبغ من حانوت الحلاق . قيل انه اخذ مرة ابنه بيده وأراه دكاناً صغيراً وقال له انظر الى هذا الدكان فان ابي جدك كان يحلق فيه للناس و يأخذ اجرةً على الرأس ما يساوي عشرين بارة وهذا هو فخري العظيم ، ولويد جورج رئيس الوزارة الانكليزية المشهور الذي ارتقى من حانوت الاسكاف . واندروجنسن رئيس الولايات المتحدة المشهور بذكاء العقل الذي بلغ مقام الرئاسة من دكان الخياط قيل انه القى خطاباً في مدينة واشنطون واخذ يراجع فيه تاريخ حياته و كيف ارتقى من درجة الى درجة الى ان صار رئيساً للولايات المتحدة فضج الجمهور بصوت عظيم قائلين من الخياط فصاعدا . قال مرة يعيرني بعضهم باني كنت خياطاً ولكنني لا ارى في ذلك شيئاً من العار لانني وانا خياط كنت مشهوراً بالامانة والمهارة في صناعتي و كنت دائماً اخيط الثياب خياطة جيدة متينة وأسلمها الى أصحابها في الاجل المعين . وجيمس غارفيلد رئيس الولايات المتحدة المشهور بشجاعته وتقواه الذي كان يتيماً فقيراً ونشأ في مزرعة حقيرة ولكنه ظل يجد في اعماله المختلفة و يرتقي من فلاح الى سائق ومن سائق الى ربان سفينة ومن ربان سفينة الى استاذ مدرسة ومن استاذ مدرسة الى رئيس مدرسة ثم عضو مجلس ثم قائد جيش ثم رئيس جمهورية فتسنم بالعمل المستمر والجد المتواصل غارب العز والمجد وبلغ اعلى ذرى النجاح والسؤدد . وكفى بذكر هؤلاء الرجال العظام دليلاً على ان العمل سلم الارتقاء من حضيض الفقر والهوان والدناءة الى قمة الغنى والمجد والعظمة ومن تتبع سير الاشراف والعظماء في كل أمة تبين له ان كثيرين منهم نشأوا من اصول وضيعة ونالوا بجدهم في الاعمال المختلفة مراتب رفيعة .

(٦) : انه سر السعادة الحقيقية فالعامل النشيط سعيد وان كان فقيراً والبطال البليد شقي وان كان اميراً . سئل اديسون المخترع الاميركي المشهور ما هي السعادة ففكر قليلاً ثم قال : « هي العمل » وقال رسكن ما معناه : « احسن دواء يوصف للمنقبض الصدر الكاسف البال الذي وهن من الهم عظمه وذاب من شدة الحزن جسمه ان يعمل من الصباح الى المساء فينجو من شر الحزن و يزول عنه الوهن . قال احد الفلاسفة : « السعادة بثلاثة اشياء — شيء تعمله وشيء تحبه وشيء تأمله » . وقال احد الافاضل

بعد ان اختبر احوال البشر : « جبت البلاد وشاهدت صنوف العباد فلم ار اسعد ممن تحسن يده عملاً او توجد شيئاً جديداً فهذا الذي يحصل على مقومات الحياة و يفرح بعمله · نعم ان اكثر العملة ليسوا اغنياء لكنهم يسرون كالاغنياء بحصولهم على ما يحتاجون اليه و بفوقهم مسرة بابتهاجهم باتقان اعمالهم ولذلك تراهم يواظبون عليها بلا ملال و يودون ان تطول ساعات النهار كي لا يتركوا تلك الاعمال » ·
والخلاصة انه ليس للناس في الشبيبة والشيخوخة احسن من العمل يسلون به آلام هذه الحياة وارزاءها و يزيلون به همومها وشقاءها وقد تبين ان في الاعمال على اختلاف انواعها سلوى لا توجد في شيء من لذات البطالة والكسل وان الكسل يتعب اكثر من العمل بل ان العمل يجدد الشبيبة و يبعد الشيخوخة و يطيل العمر بما ينشئه في نفس العامل من اللذة والسرور و به يعرف الانسان معنى الحياة ومعنى الراحة والسعادة فلا تكون حياته نافعة ولا صالحة ولا شريفة ولا سعيدة الا اذا تنزه عن البطالة والكسل وقرن علمه بالعمل · ومع ان هذه الحقيقة واضحة كالشمس لذي عينين نرى الناس يختلفون في مراعاتها وهم بهذا الاعتبار اربعة اقسام :

الاول — الجهلاء البطالون وهم الذين لا يعرفون علماً صحيحاً ولا يأتون عملاً مفيداً وانما تنقضي عليهم الاوقات وهم متجولون في الاسواق والطرقات او منغمسون في الشرور والمنكرات او مواظبون على المراقص والحانات او متفاخرون بالمظالم والتعديات فيعيشون كالضواري الجائلة في البراري و ينفقون مما ورثوه عن آبائهم من الاموال اوسلبوه من غيرهم بالغش والاحتيال او النهب والاختلاس او التسول والالتماس فهم ادنى من الحيوانات الداجنة التي يستخدمها الانسان لركوبه وحمل اثقاله اومساعدته على القيام باعماله لان لهذه الحيوانات منافع جمة ومالاولئك الجهلة البطالين سوى الاضرار ولا فائدة لهم من الحياة الا الفضيحة والعار تخيرٌ لهم ان يكونوا جثثاً هامدة او خشباً مسندة او قطعاً من طين من ان يكون علقاً او عقارب او افاعي او شياطين ·

الثاني — المتعلمون البطالون وهم الذين يتخرجون في المدارس العالية او الجامعات من فتيان وفتيات و يدرسون العلوم والفنون المختلفة ولكنهم لا يرغبون في عمل ولا يلتذون الا بالكسل مكتفين بنيل الشهادات مزدرين بالحرف والصناعات متسربلين

بالكبرياء والخيلاء مترفعين عن طبقة العمال البسطاء مزجين اوقاتهم بالثؤباء والمطواء فيتردد الفتيان منهم بلا عمل على بيوت الاغنياء والعظماء ويتوقعون الرزق بلا سعي ولا عناء ويرفلون بملابس العلماء وهم افرغ من حجام ساباط وافلس من ابن المذلق . وتقتصر الفتيات على التباهي باحراز المعارف العديدة والاستنكاف من الاعمال البيتية المفيدة واتباع الازياء الجديدة ويشغلن الاوقات الطويلة بارتداء الاثواب الجميلة ويحملن آباءهن او ازواجهن النفقات الثقيلة وربما كانوا من اهل الصناعات الذين لا يفضل دخلهم عن الاقوات . وكل هؤلاء المتعلمين والمتعلمات البطالين والبطالات لا تقل اضرارهم عن اضرار الكسالى الجهلاء بل ربما كانوا اوفر منهم اضراراً واكثر اوزاراً لانهم اقدر على الافساد والايذاء واخبر بضروب الخبث والدهاء واعرف بوسائط الشر والشقاق واساليب الخداع والنفاق بما اكتسبوه من انواع العرفان التي تقوي المدارك وتشحذ الاذهان . ولقد صدق من قال شر الفتيان المتعلم المتبطل المتفلسف المتعطل .

الثالث — الجهلاء العاملون وهم الذين لا يعرفون شيئاً من العلوم العصرية ولا المسائل الفنية لكنهم يعكفون على الاعمال بهمم لا تعرف الملال ليحصلوا رزقهم ورزق العيال وهؤلاء اقل ضرراً من الفريقين الاولين لانهم لا يحبون الكسل ولا يستنكفون من العمل ولا يطمعون في اموال الناس ولا يستعملون الغش والاختلاس وانما تبقى اعمالهم خالية من الاتقان بادية النقصان غير خارجة عن حد التقليد ولا مزينة بطلاوة الجديد لجهلهم الفنون التي تمكنهم من الاحكام والابداع والتفنن والاختراع فتمرّ عليهم السنون واحوالهم المدنية لا تتغير وطرق معايشهم لا تتحسن ومن قابل بين الفريقين الذين اخترعوا اعجب الآلات الزراعية والصناعية واكبر السفن والقطرات البخارية والسيارات التي تسابق الرياح والطيارات التي تحلق فوق كل ذي جناح — والشرقيين الذين لا تزال آلاتهم وادواتهم الزراعية كالمحاريث والمناجل والنوارج ومركباتهم التي تجرها الثيران كما كانت عليه من قديم الزمان عرف ان السبب في تأخر الشرقيين انما هو جهلهم وان كانوا عاملين . فالعمل وان كان ضرورياً وشريفاً لا يغني عن العلم ولا يضمن الترقي للامة ما دامت غارقة في لجة الجهل .

الرابع — المتعلمون العاملون وهم الذين طبقوا حياتهم على المبادئ الشريفة التي تعلموها و برهنوا على صدق اقوالهم بحسن افعـالهم وخدموا شعوبهم واوطانهم بمعارفهم المختلفة وافادوا العالم كله بما توصلوا اليه بعلومهم من الاعمال العظيمة وما الفوه من الكتب النفيسة وما اخترعوه من الآلات النافعة وما اكتشفوه من الاقطار الشاسعة والادوية الناجعة كالفارابي وابن سينا وابن رشد وابن زهر وثابت بن قرة وغيرهم من علماء الشرق و كولمبوس و باستور و كوخ وجنر واديسون وغيرهم من علماء الغرب . هؤلاء هم العلماء الحقيقيون الذين طبقت شهرتهم الآفاق وخلدت اسماؤهم واعمالهم في بطون الاوراق وعم فضلهم القريب والبعيد واكتسبوا الثناء الطيب والذكر الحميد . الى امثال هؤلاء الرجال العاملين تحتاج الامة السورية في هذا العصر و باعمالهم الجليلة ترتقي وتنال العز والفخر . ان الجهلاء البطالين قد أوهنوها وأخروها و العلماء الكسالى قد افسدوها ومزقوها . والجهلاء العاملين لم يستطيعوا ان يرقوها . فلم يبق لها أمل الا في المتعلمين العاملين الذين عليهم يتوقف رفع شأنهـا وتثبيت أركانها . ان سورية اجود البلاد هواء واعذبهـا ماء واطيبهـا ترابا واكثرها إخصابا وقد كانت في ما سلف من الازمان مأهولة بألوف الالوف من السكان الذين سبقوا الى المدنية والعمران . واشتهروا بالفضل والعرفان . وكانوا ذوي عز وسطوة ومجد وثروة لانهم كانوا يعملون بعلمهم في الزراعة والصناعة والتجارة والادارة فكانت ارضهم تفيض لبنا وعسلا وكانت مصنوعاتهم الذهبية والفضية والنحاسية والحديدية والزجاجية والخشبية والحجرية والخزفية وملابسهم الحريرية والكتانية والصوفية واصباغهم الارجوانية والاسمانجونية مما يتفاخر باقتنائه الشرفاء والاغنياء وتتزين به قصور الملوك والعظماء فاناروا بمعارفهم الافكار وعمروا باعمالهم الاقطار . ولكنهم لما اخذوا يهملون العمل بعلمهم أصبحت جبالهم جرداء وسهولهم جدباء و كل غلاتهم لا تفي بحاجاتهم وامسى اكثر ما عندهم من حلي وثياب وعطور واطياب واثاث وآلات وامتعة وادوات حتى الابر والمسامير والمنائر وزجاج الشبابيك والساعات والمصابيح من صنعة غيرهم فهبطوا من قمة مجدهم الباذخ وعزهم الشامخ الى حضيض الذل والفقر ونسبوا ذلك الى جور الدهر وما الدهر بجائر ولا مسيء . ولكن الهمم اذا فترت والبصائر اذا خسرت والايدي اذا قصرت .

فالقوة تتحول الى الضعف والعزّ يتبدل بالخسف · اننا لا ننكر فضل النهضة العلمية الحديثة في هذه البلاد ولا نيأس من تقدمها في سبيل العمران الى ان تسترد مجدها القديم وتجاري الامم الراقية برعاية الدولة المنتدبة المعظمة وعناية الحكومة الوطنية الجليلة · ولكننا نشعر بانه وان كانت الحاجة الى تكثير سواد المتعلمين شديدة فالحاجة الى العمل بالعلم أشد · وهذا ما أُريد الكلام عليه وتوجيه الافكار اليه وقد جعلت مدار كلامي على ثلاثة امور :

الاول العمل الواجب على المتعلمين ان يقوموا به لنفع الافراد والاسر والامة والمجتمع كافةً وهو مختلف باختلاف نوع العلم الذي حصلوه ومقداره فلا يطلب من المرأة المتعلمة ما يطلب من الرجل المتعلم ولا يجب على متعلم الطب ما يجب على متعلم الشرائع ولا يكلف المشارك في بعض العلوم ما يكلف المتبحر فيها بل يجب على كل متعلم ان يعمل بما تعلمه لاجل خير نفسه ونفع ابناء جنسه · واهم الاعمال التي تحتاج اليها الامة ونتوقعها من رجالها المهذبين ما يأتي :

(١) : الاهتمام بحفظ الصحة العامة وهذا مطلوب من الاطباء والموظفين بدائرة الامور الصحية على الخصوص ومن كل متعلم على العموم فلا يليق بمن تعلم الطب وانفق في سبيل تحصيله السنين الطوال والمبالغ الطائلة من الاموال ان يترك هذه الصناعة الشريفة الضرورية لخدمة الامة ويتعاطى غيرها كما فعل بعضهم · ولا يجوز لموظف في دائرة الامور الصحية ان يكتفي بالحصول على الوظيفة لكي يتناول مرتبها دون ان يقوم بواجباتها بالامانة والشرف كأن تلك الوظيفة لم توجد الا لاجل معاشه · ولا يحسن بمن تعلم قوانين حفظ الصحة في المدرسة ان يخالفها بترك الرياضة البدنية او بالسهر المفرط اوالشراهة اوشرب المسكرات اوالتدخين اوالتعرض للامراض المخزية التي تجلب عليه العار وتتلف حياته وحياة ذريته بعد ان عرف ان كل ذلك مضر بصحته وصحة المجتمع كله · بل يجب على كل هؤلاء ان يسلكوا بحسب القوانين الصحية بكل تدقيق و يقاوموا الاوبئة والامراض بالوسائط الواقية و يعالجوها بالادوية الناجعة فتحفظ صحتهم وصحة الامة وبذلك تسلم العقول ايضاً لان العقول السليمة في الجسوم الصحيحة فان لم يعمل المتعلمون بعلمهم في هذا الشأن

تفشت في الامة الامراض والاسقام وفتك في افرادها الموت الزؤام فقل عدد رجالها وتشوش نظام احوالها وطمع فيها اعداؤها وازف سقوطها وفناؤها ٠

(٢) : السعي الحثيث لكل مايرقي العقول وينير الاذهان وهذا مفروض على المربين والمعلمين وخصوصاً الآباء والامهات المتعلمين والمتعلمات لان المدرسة الاولى هي مدرسة البيت فلا يجوز للاب المتعلم ان يجعل كل اهتمامه بالدرس والمطالعة والتأليف والمراجعة ويهمل تربية اولاده العقلية والادبية ولا يحق للام المتعلمة ان تلهو بالاجتماعات العلمية والاحاديث الادبية والزيارات الحبية عن تثقيف عقول اولادها بل يجب على الوالدين كليهما ان يهيئا عقول اولادهما لقبول المعرفة باحياء قوة الملاحظة فيهم وتقويتها وتلقينهم مبادىء العلوم منذ الصغر بالطرق المختصرة السهلة لكي يستعدوا لدخول المدارس و يكونوا فيها ناجحين لان التربية البيتية اساس التربية المدرسية ومن لم يتأسس على العلم والادب عند والديه يندر ان ينبغ في المدرسة ٠ ويجب على المعلمين ان يذكروا ان التلاميذ امانة الله عندهم وان يبذلوا جهدهم في تنوير عقولهم بالعلم الصحيح الكافل بتأهيلهم للرجولية الحقة ويجب على الموظفين بدائرة المعارف ان يهتموا بتكثير عدد المدارس وترقية شؤونها وتعيين المدرسين الاكفياء الوطنيين المهذبين الذين يعتبرون التعليم خدمة وطنية شريفة لا حرفة يقصد منها الارتزاق ومراقبة التدريس وتحسين اساليبه بحيث يكون صالحاً لتنشئة رجال قادرين ان يقوموا بحاجات الامة و ينهضوا بها الى مستوى الامم المتمدنة فانه مامن امة ارتقت الا بالمعارف وحسبنا برهاناً على ذلك ارتقاء اليابان السريع فانه لم يتم الا ببث العلوم بواسطة المدارس الوطنية الراقية ٠

وخلاصة القول انه يطلب من الذين تعلموا ووكل اليهم امر التعليم ان يهتموا كل الاهتمام بالقيام بهذا الواجب المقدس باذلين كل قواهم في تثقيف العقول وتنوير الاذهان بالمعارف المختلفة الضرورية لنجاح الامة ادبياً ومادياً و بذلك يكونون قد عملوا بعلمهم ٠ فان قصروا في هذا الواجب بقي الجهل سائداً والعقول مظلمة وارباب الاعمال عاجزين عن اتقان اعمالهم فانحطت الافراد والامة جميعاً ولم يبق للتمدن فيها من اثر ٠

(٣) : اصلاح الآداب العامة وهذا مطلوب من علماء النفس والاخلاق ورؤساء الاديان والخطباء وارباب الصحف والمجلات الادبية فيجب على هؤلاء وامثالهم ان يجتهدوا في ترقية الآداب الصحيحة ورفع منار الفضائل ومكارم الاخلاق لان الامم باخلاقها وآدابها فان قصروا في هذا الواجب انتشر الفساد وعم الكفر والالحاد وانحطت الجماعات والافراد وساءت الاحوال وخربت البلاد والتاريخ اعدل شاهد على صحة ذلك . والآثار القديمة على ضفاف دجلة والفرات والنيل وشواطئ بحر ايجه وجرش وتدمر وبعلبك والبتراء الدالة على ما كان للامم السالفة من المدنية الزاهرة التي اضمحلت لفساد الاخلاق اي عدم العمل بقوانين الآداب الصحيحة وعدم السير في مناهج الفضيلة — تلك الآثار تؤيد شهادة التاريخ وتثبت صحة القول ان الآداب الصحيحة والاخلاق الفاضلة والعواطف الشريفة هي اساس تقدم الامم وارتقائها وسبب نموها وبقائها . قال احد علماء الجرمان : ان الحكم على مستقبل كل امة يعرف من حالة شبانها العقلية والاخلاقية .

فمن اهم الواجبات سعي المهذبين والواعظين لاصلاح الآداب والاخلاق العامة ومن الضروري ان يكونوا قادرين على اضرام محبة الفضيلة في صدور القوم حائزين اسمى المبادئ والصفات الحسنة سالكين بحسب قوانين التهذيب الصحيح وقواعد الدين القويم لتكون اعمالهم مطابقة لاقوالهم ويكونوا امثلة صالحة للذين يهذبونهم ويعظونهم والا صدق عليهم قول الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره — هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام مطبباً — كي ما يصح به وانت سقيم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله — عار عليك اذا فعلت عظيم

وقول الآخر :

فكم انت تنهى ولا تنتهي — وتُسمع وعظاً ولا تَسمع
فيا حجر الشحذ حتى متى — تسن الحديد ولا تقطع

(٤) : تحسين الزراعة والصناعة والتجارة وهذا مطلوب من الذين درسوا العلوم والفنون المتعلقة بهذه الامور كالكيمياء والطبيعيات والفنون الجميلة فيجب على هؤلاء

المتعلمين ان يبذلوا جهدهم في اتباع الطرق الحديثة الفنية وتطبيق ماتلقوه في المدارس وما طالعوه في الكتب على اعمالهم المختلفة · اني اعرف بعض الشبان الذين درسوا الفنون المشار اليها في مدارس اوربة وعادوا الى وطنهم و بايديهم الشهادات الناطقة باكمال دروسهم لكنهم لم ينفعوا بلادهم بشيء اي لم يتبعوا الاصول الفنية الحديثة في زراعة اراضيهم او في صناعاتهم بل بقوا تابعين الطرق القديمة التي كان عليها اسلافهم منذ قرون عديدة اما لانهم لم يتمكنوا من استحضار الآلات الزراعية او الصناعية بسبب غلائها وقلة مالهم او لانهم آثروا الاستخدام في دوائر الحكومة على الاشتغال بالزراعة او الصناعة او التجارة فذهبت اتعابهم واوقاتهم واموالهم التي انفقوها في سبيل تحصيل تلك العلوم سدى لانهم لم يعملوا بها · ولو عملوا لاتقنوا الفلاحة والزرع والغرس والتخصيب والسقي وزادوا الاراضي المزروعة اليوم اضعاف مساحتها فعادت الى ما كانت عليه قديماً من الخصب ووفرة الغلال وتدفقت منها سيول الاموال وتحسنت بذلك جميع الاحوال والاعمال ·

(٥) : احيـاء اللغة القومية وهي اللغة العربية في بلادنا وتخليصها من الالفاظ العامية والشوائب الاعجمية وهذا مطلوب من اساتيذها وادبائها وخطبائها وكتابها والمجامع اللغوية المؤسسة لهذه الغاية فلا يليق بالاستاذ ان يشرح لتلاميذه احكام اللغة الفصحى بالالفاظ السقيمة والتعابير الركيكة ولا يحق للخطيب ان يستعمل اللغة العامية في خطبه العلمية او يلحن في الفاظه فيرفع المجرور ويجر المنصوب او يحرف الكلم عن مواضعه واوضاعه ولا يجوز للكاتب ان يحشو رسائله ومقالاته بالتعابير السوقية والاغلاط اللغوية والنحوية والبيانية ولا لاعضاء المجامع اللغوية ان يتركوا لغتهم تتأخر عن مجاراة لغات العصر بل يجب على هؤلاء كلهم ان يجتهدوا في مراعاة قواعدها وسد ثلمها بوضع كلمات جديدة للمستحدثات العصرية اما بالاشتقاق او بالتعريب او بالنحت لكي تحيا وتنمو لان اللغة التي لاتنمو تموت واذا ماتت اللغة ماتت الامة التي تنتسب اليها اذ لابقاء لامة بدون لغتها واذا قصر علماؤها عن السعي لاحيائها لم يكونوا عاملين بعلمهم ولا نافعين لامتهم ·

(٦) : المحافظة على حقوق الافراد والجماعات ونشر العدل والامن في البلاد وهذ

مطلوب من خريجي مدارس الحقوق الذين تبوأوا مناصب الحكومة او تعاطوا المحاماة فان العدل اساس الملك والامن علة استتباب الراحة والطمأنينة ودوران دولاب الاعمال المختلفة فان لم يجتهد هؤلاء الرجال في القيام بوظائفهم بالحكمة والرزانة والنزاهة والامانة ضاعت حقوق العباد وكثر الظلم والفساد وعمّ الخراب البلاد وان قاموا هم وغيرهم من المتعلمين بالاعمال المطلوبة منهم حق القيام ارتفع شأن الامة وحسنت احوالها المادية والمعنوية واستطاعت ان تجاري الامم الراقية في سلم المدنية. فان قيل ان كل اهل الصناعات والوظائف الذين مر ذكرهم عاملون بعلمهم وقائمون بوظائفهم قلت لا ريب ان كثيرين منهم متممون الواجب فهم مستحقون اطيب الثناء ولكن كثيرين منهم ايضاً مقصرون في اعمالهم فهم مستحقون التقريع واليهم يساق الكلام ونحوهم تسدد أسنة الملام لعلهم ينتبهون من غفلتهم ويشعرون بخطإهم فيبادروا الى اصلاح انفسهم باصلاح مبادئهم وغاياتهم فان نتائج الاعمال تتوقف على غايات العمال فان كانت الغايات تحصيل المال او المجد او المدح بطلت الفائدة المنتظرة من اولئك المتعلمين وايضاحاً لذلك اقول ان الطبيب الذي لا يهتم الا بقبض الاجرة من عليله والحاكم الذي لا يبالي الا بتعظيم الناس له وتسبيحهم بحمده والخطيب الذي لا يهمه الا اظهار ما عنده من البلاغة وحسن الالقاء وسعة المعرفة ليحمل الناس على الاعجاب به واذاعة فضله على صفحات الجرائد والمجلات — هؤلاء كلهم وامثالهم من المتعلمين لا فضل لهم على الامة ولا فائدة منهم لها . ولكن ان كانت غاية الطبيب انقاذ المريض من خطر الموت وغاية الحاكم انصاف المظلوم من الظالم وغاية الخطيب تنوير اذهان السامعين وبث روح الفضيلة فيهم وغاية الاستاذ انقاذ تلاميذه من مخالب الجهل وغاية المحامي المدافعة عن الحق الصريح ومقاومة الباطل وغاية الامام او القسيس ارشاد الضالين الى محجة الحق المبين كانت النتائج حسنة مطابقة لحاجات الامة متضافرة على حفظ كيانها ورفع شأنها. قيل ان احد السياح مر بصرح فخم حوله مئات من العملة يشتغلون بترميمه ورأى على مسافة قريبة منه مقطعاً للحجارة فيه ثلاثة رجال يعملون فدنا منهم وسأل كلاً منهم قائلاً ماذا تعمل في هذا المكان فقال الاول اني اشتغل بنصف دينار كل يوم وقال الثاني اني اقطع حجارة تطابق هذا الرسم الذي تراه امامي وقال الثالث اني أساعد

رفاقي في بناء ذلك الصرح الذي سيكون مجلساً لنواب الامة فسر السائل بالجواب الاخير لانه دل على ان غاية ذلك العامل لم تكن تحصيل المال ولا اطاعة امر المهندس كما كانت غاية رفيقيه بل الاشتراك في خدمة المصلحة العامة ٠ وكل عاقل يجب عليه ان يراعي في عمله هذا المبدأ و يقصد هذه الغاية ذاكراً ان عمله مرتبط بمصلحة الامة والمجتمع وانه يجب عليه ان يساعد على قدر طاقته في بناء مجد الامة وحضارتها و يبذل جهده في ترقيتها واسعادها والمحافظة على كرامتها ٠

الثاني الاسباب التي توجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم وهي :

(١) : ان العمل هو البرهان القاطع على صحة العلم والوسيلة الوحيدة لتكميل الانسان فمن لم يأت عملاً مفيداً لنفسه ولابناء جنسه لم يكن علمه صحيحاً وقد ثبت بالاختبار ان الانسان لايكمل بالعلم وحده اي ان عقله ومداركه ومعارفه واخلاقه انما تصلح وتكمل بالاجتهاد في العمل لا بمجرد الدرس والعلم فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم لكي لاتكون دعواهم باطلة ولا سجاياهم ناقصة ٠

(٢) : ان المتعلمين هم اعرف الناس بوجوب العمل وشدة الحاجة اليه ووفرة فوائده واقدرهم على اتمامه واتقانه فيتوقع منهم ان يقوموا به اكثر مما يتوقع من سواهم فان قصروا في ذلك كان ذنبهم اعظم من ذنب المقصرين من الجهال وكانت خسارة الامة بسبب تقصيرهم اكبر من خسارتها بسبب تقصير غيرهم فيجب عليهم ان يعملوا بعلمهم لئلا يجنوا على انفسهم وعلى وطنهم ٠

(٣) : ان المتعلمين هم هداة الامة الى الطريق الاقوم وقادة افكارها الى الخير الاعظم بما اقتبسوه من انوار العلم الساطعة وما عرفوه من حقائقه اللامعة وقد اجمع اهل التحقيق على ان الهداية بالاعمال خير من الهداية بالاقوال وقيادة الجيش تستلزم السير معه بل امامه فان اقتصر المرشد على الوعظ والتعليم دون ان يسلك في السبيل المستقيم لم يكن وعظه ناجماً ولا تعليمه نافعاً وان ترك القائد جيشه يسير وحده ونام عرّضه للتشتت والانهزام فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم ليتمكنوا من هداية الامة واصلاحها ٠

(٤) : ان غاية كل تعليم وتهذيب وتفقيه وتدريب انما هي الاستعداد للاعمال

المفيدة فان اهمل المتعلمون هذه الغاية او تكاسلوا في اتمامها وتحقيقها ذهبت الاوقات والاموال التي انفقوها في تحصيل العلم سدى وخابت فيهم آمال الوالدين والمربين والمعلمين والوطن وكان مثلهم مَثَلَ طماع بخيل انفق عمره في جمع المال ثم دفنه في الارض ولم يخبر احداً بموضعه ومات غير مأسوف عليه فذهب ماله ضياعاً لم يتمتع هو به في حياته ولا تركه لاحد يستفيد منه بعد مماته. فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم ليتمموا الغاية التي لاجلها تخرجوا في البيوت والمدارس فيحصل النفع لهم ولغيرهم.

الثالث شروط النجاح في العمل وهي :

(١) : حبه واحترامه والشعور بوجوبه فالذي يحتقره ولا يراه واجباً عليه ولا ضرورياً لخيره وخير شعبه ويعتقد انه في غنى عنه وانه غير مكلف ان يخدم وطنه به لا يمكن ان ينجح في عمل من الاعمال اذا اضطر اليه او أرغم عليه ولذلك نرى بعض الذين كانوا اغنياء وبددوا ثروتهم بالعيش المسرف وأضاعوا اوقاتهم باللهو واشباع الشهوات الجسدية ثم اضطروا الى عمل يحصلون به قوتهم الضروري فتعاطوا بعض الاعمال ولكنهم لم ينجحوا في شيء لانهم لم يتعودوا الا الازدراء بالاعمال والعمال بخلاف الذين شعروا بوجوب العمل واحترموه وتمرنوا عليه فانهم نجحوا في كل ما تعاطوه من الحرف والصناعات وأفادوا أوطانهم فوائد جمة. ان ملوك الغرب في هذا العصر يبعثون باولادهم وحفدتهم الى دوائر الاعمال المختلفة بعد تخرجهم في المدارس العالية والجامعات الكبرى ليتعلموا الحكمة العملية ويتأهبوا للجلوس على عروش الممالك وذلك دليل على احترامهم العمل وسبب نجاحهم فيه. فعلى الوالدين من عامة الناس ان يقتدوا بأولئك الملوك في تربية اولادهم على حب العمل واحترامه والشعور بانه واجب وضروري لكي ينجحوا في أعمالهم المتنوعة وينفعوا انفسهم واوطانهم.

(٢) : الاقدام بلا تردد ولا خوف من المصاعب لان الاحجام عن العمل دليل الجبن والجبان لا ينجح ومن يتردد في عمله ولا يقتحم كل صعوبة ولا يدوس كل عقبة في سبيل الوصول الى غايته بقدم راسخة تحبط مساعيه ويعود بالخيبة والفشل بخلاف الذي يستسهل كل صعب ويقدم على عمله بعزم شديد وهمة تفري الحديد فلا يكلّ ولا يملّ حتى يكمل سعيه وينال أربه فان نجاحه مؤكد وما أحسن قول الشاعر :

اذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فان فساد الرأي ان تترددا
وان كنت ذا عزم فأنفذه عاجلاً فان فساد العزم ان يتقيدا

(٣) : عدم التأجيل فالذي يؤجل ما يجب عمله اليوم الى الغد لا ينجح لان التأجيل يلد التهاون والغد مجهول امره وله عمل آخر واذا أُجِّل عمل كل يوم الى مابعده تراكمت الاعمال وزادت الصعوبات فتعسر القيام بالواجب او تعذر وانقطع أمل النجاح . سُئل احد وزراء فرنسا وكان ينجز أعمالاً كثيرة في وقت قصير بم تستطيع ان تنجز كل هذه الاعمال فقال بعدم تأجيلي الى الغد ما أقدر ان أعمله اليوم . وكتب احد الشبان الى السيد ولترسكوت يطلب نصحه وكان قد دخل في منصب جديد فأتاه الجواب بهذه الصورة :

« احترس من البطالة ولا تؤخر عملاً يجب القيام به ولكن أوقات الراحة بعد العمل لا قبله فانه اذا سار جيش واضطربت مقدمته قليلاً حدث اضطراب عظيم في ساقته وهكذا الحال في الاعمال فان لم تعمل عمل كل يوم في يومه فعما قليل تزدحم عليك الاعمال فتضيق بها ذرعاً فاحذر التأجيل » .

(٤) : اعتبار قيمة الوقت والمحافظة عليه فالطبيب او المحامي او الاستاذ او الحاكم او الرئيس الذي يسهر مع رفقائه الى ما بعد نصف الليل ويبقى في سريره الى قرب الظهر لا يقدر ان ينجح في عمله لانه اضاع وقته بلا فائدة او في ما يضره وكذلك الذي يقضي ساعات النهار في اماكن اللهو لاعباً بالنرد او الورق او غيره من الملاهي ويقتل وقته بما يضر ولا ينفع هو بعيد عن النجاح . قال الملك لويس الرابع عشر : « المحافظة على الوقت من كمالات الملوك » . والحق انها من واجبات الاشراف والعلماء والعمال أيضاً . ولا شيء يساعد على وجود هذه الصفة في الانسان مثل تعوده انجاز كل عمل في حينه فمن ارتبط في عمل ولم يأخذ فيه بالوقت المعين عدَّ مخلفاً بل مجرماً ما لم يكن له عذر مقبول ومن لا يهتم بالوقت لا يهتم بالعمل ولا يستحق ان يؤتمن على اعمال ذات شأن وبالنتيجة لا ينجح في حياته .

(٥) : الامل او توقع النجاح فاليائس او الخائف او الفاتر الهمة الذي يعتقد انه غير قادر ان ينجح وان ليس امامه الا الخيبة والفشل لا يمكن ان يفلح في عمل

بخلاف الرجل الواثق بنفسه كل الثقة المتوقع الفوز الواضع الفلاح نصب عينيه المتيقن اقتداره على العمل السائر الى غرضه بخطى ثابتة وقلب كبير ونفس عزيزة وهمة عالية فانه ينجح في مسعاه و ينال مناه لان الامل يقويه على اقتحام المصاعب واحتمال المتاعب للفوز بالرغائب ونيل المطالب و يدفعه الى السير في سبيل الواجب ولو كان مملوءاً بالاخطار كما يدفع البخار السفينة الى السير في وسط البحار . والامل ينشئ سروراً في النفس والسرور بالعمل يجعله هيناً . قال كارليل احد فلاسفة الانكليز : « أروني رجلاً يتغنّى في اثناء عمله وانا أضمن انه يعمل في اليوم ضعفي ما يعمله الغضوب العبوس لان من يسير على نغم موسيقي قلما يشعر بالتعب » . فالمسرور بعمله ينجح والذي يذهب الى العمل حزيناً متذمراً منقبض الصدر عابس الوجه كأنه ذاهب الى السجن او الصلب لا يمكن نجاحه .

(٦) الاجتهاد والجد . قال الحكيم : يد المجتهدين تسود فما من احد احرز السيادة او الشرف اوالتقدم اوالشهرة الواسعة الا دفع ثمنها كداً وجداً عظيمين ولا احد استطاع ان ينجح بالكسل والتواني وما احسن قول الشاعر :

تريدين ادراك المعالي رخيصة ولابد دون الشهد من ابر النحل

وقول الآخر :

تروم العز ثم تنام ليلاً ومن طلب العلى سهر الليالي

ان الذين بلغوا اعلى ذرى النجاح بكدهم واجتهادهم لايحصى عددهم فأقتصر على ذكر بعضهم بالاختصار على سبيل التمثيل . فمنهم ابو نصر محمد الفارابي الفيلسوف الشهير الذي اتبع الفلسفة اقصاها وادناها والف فيها كتباً لاتعد لكثرتها مع ما كان عليه من العوز فكان يسهر الليالي للمطالعة والتصنيف و يستضيء بمصباح الحارس و بقي على ذلك الى ان عظم شأنه وظهر فضله واشتهرت تصانيفه و كثرت تلاميذه وصار اوحد زمانه كما جاء في ترجمته المذكورة في كتاب عيون الانباء . ومنهم اسحق نيوتن اكبر فلاسفة الانكليز فقدقال صريحاً: « ان كنت قد خدمت العالم بشيء فباجتهادي وجلدي » . ومنهم دزرائيلي الذي رقي الى اسنى المناصب بجده و كده . فانه لما كانت مساعيه الاولى تحبط لم يفعل ككثيرين من الشبان الذين اذا خابوا مرة وهت

قواهم ووقعوا في لجة اليأس بل ظل يجتهد ويجد حتى نجحت اعماله و بلغ مراده ومنهم بروم الذي خدم شعبه اكثر من ستين سنة وتعاطى الفقه والانشاء والسياسة والعلوم المتنوعة واتقن كل ما اشتغل به · ومنهم نابوليون الاول والقائد ولنتن وسائر الذين اشتهروا في العالم بالسياسة والعلوم والشرائع والصنائع والتآليف وبلغوا اعلى درجات الفوز بجدهم واجتهادهم فلا يطمعن احد في نجاح اعماله ما لم يجتهد كل الاجتهاد اي يصب كل قوته و يضع كل قلبه على كل عمل يأخذ فيه لانه (على قدر اهل العزم تأتي العزائم) · ولا يفيد الانسان علمه ولا ذكاؤه ولا وسائطه ولا مساعدات الاصدقاء له اذا هو لم يجد و يجتهد و يتعب عقله وجسده لانه لا شيء يثمر الا بالتعب والحياة جهاد مستمر · غير انه يجب الاحتراز من الافراط في التعب لئلا تتلف الحياة قبل بلوغ الامل فالاجتهاد غير الاجهاد كما ان الراحة غير الكسل والحكيم من عرف ذلك ولم يفرط في الاجتهاد الى حد الاجهاد ولا في الراحة الى حد الكسل ·

(٢) : الامانة والاستقامة وهما من اهم شروط النجاح في كل الاعمال ولا سيما الطب والصيدلة والقضاء والمحاماة والوظائف المالية فالطبيب الامين المستقيم يكتسب ثقة الناس به و ينجح ولكن الذي يخدع مرضاه ليستنزف اموالهم لا يمكن ان يكسب ثقة الناس به ولا ينجح الا ريثما ينكشف خداعه · ان بعض الاطباء يضمنون الشفاء للعليل وهم على يقين من ان داءه عياء غير قابل الشفاء · وبعضهم يوهمون المريض بان مرضه عضال وحالته تنذر بالخطر مع علمهم بان مرضه بسيط لا شيء فيه من الخطر وكل ذلك الخداع ناشئ عن الاطماع · والصيدلي الصادق الذي يركب الدواء بحسب وصف الطبيب بكل تدقيق ولا يستعمل الغش في ادويته هو الذي يأتمنه الناس و ينجح في عمله ولكن الذي يغير المقادير و يبدل العقاقير الغالية بالرخيصة ليتوفر له الربح يظهر غشه و يبتعد القوم عنه فيخسر ماديا وادبيا · والحاكم العادل الذي يراعي في احكامه الشرائع دون محاباة هو الذي يرضي الله والناس و يكتسب المدح و يرتقي في معارج الفلاح · ولكن الذي يراعي مصلحته وعواطفه دون الحق والعدل لا يمكن ان ينجح نجاحا حقيقيا وان اصبح بالرشوة غنيا لان تذنيب البريء وتبرئة المذنب بغية ابتزاز الجيوب من اكبر

لا ثام واعظم الذنوب واول دواعي الفشل وموجبات الخزي والخجل · والمحامي المستقيم الذي لا يدافع الا عن الحق ولا يقبل وكالة المزورين هو الذي يربح الدعوى وينجح في عمله ولكن المحامي الذي يدافع عن الباطل ويعلم الناس التزوير ويقبل وكالات المزورين بغية تحصيل المال بالحرام لا بالحلال لا يمكنه ان ينجح الا ريثما يتكشف امره ويفتضح سره فيسقط قدره ويكره ذكره ويحسبه الناس من اصحاب الجرائم ويمنع من الدخول الى المحاكم · والكاتب او المحاسب الامين الذي يحافظ على الصدق في اقواله والاخلاص في اعماله هو الذي ينجح ويرتقي ولكن الكاذب او المختلس لا يمكن نجاحه لانه اذا ظهرت خيانته او سرقته طرد من وظيفته وحرم حق الاستخدام · قيل ان مدير مال روكفلر المثري الشهير كان في اول امره كاتباً لصيرفي في ولاية كنساس فأملى يوماً عليه رقماً وامره ان يقدم التاريخ ليخلص من تبعته فابى هذا الكاتب الامتثال لامره باسلوب لطيف فأمره ثانية فابى وحسب نتيجة الكذب شر النتائج فأمره ثالثة فابى وتوقع ان يطرده وقال غير مهتم بالنتيجة لا اقدر ان استخدم قلمي للكذب وان ما تأمرني به هو كأمرك لي بالسرقة · وكانت النتيجة ان الصيرفي بدلاً من ان يطرد ذلك الكاتب زاد اكرامه وضاعف له مرتبه وائتمنه على كل شيء لانه تحقق صدقه وامانته فالامين في عمله هو الذي ينجح ·

(٨) الاكمال فلا يصعب على الانسان ان يقصد الامور السامية ويبتدىء الاعمال العظيمة ولكنه يصعب عليه اتمامها اذا لم يكن من ذوي الرزانة والتعقل والدربة والمثابرة والثبات وما اكثر الذين يبدأون بمشروعات واعمال نافعة ثم يضجرون منها ويتركونها شاهدة عليهم بالطيش والجهل والتقلب والتردد · ان العمل الزهيد المتمم باحكام افضل من الاعمال الكبيرة التي شرع فيها قاصدوها ولم يتمموها · فالكوخ الحقير التام البناء انفع من القصر الذي وضعت أسسه ورفعت جدرانه ولم يكمل · ان كثيرين اشتهروا بالمقاصد السامية والفصاحة والبلاغة وحسن البيان وقوة الحجة ولكنهم لم يفيدوا جاهلاً ولا اصلحوا فاسداً ولا تمموا عملاً كبيراً ولا صغيراً فاين هؤلاء من اهل الدأب العقلاء الذين ماشرعوا في عمل الا اتموه وماقصدوا امراً الا ادركوه · ان خير الاعمال بالاكمال والحازم من تأمل في العمل قبل الشروع فيه فان تيقن انه قادر على اتمامه بدأ به والا

نخير له ان لايبدأ به بل يبدأ بما يقدر عليه و يجتهد في اكماله فلا نجاح في الاعمال الا بحسن الاكمال . ولا اجهل من الذين قادهم الطمع الى اعمال تستلزم اضعاف قدرتهم فقاموا بجزء منها وعجزوا عن اكمالها فتركوها فتولاها غيرهم وانتفع بجهلهم .

(٩) : الاتقان او الاحكام وهو شرط جوهري للنجاح في كل عمل فكما ان النجارين والحدادين والخياطين وغيرهم من اهل الصناعات لا يمكنهم ان ينجحوا ما لم يتقنوا مصنوعاتهم كذلك الاطباء والمحامون والكتاب والمنشئون والمعلمون والمهذبون وسائر المشتغلين بالعلوم والفنون يتعذر عليهم النجاح ما لم يحكموا اعمالهم . ان الاتقان يستلزم التأني والثبات لان العجلة تفسد العمل واحياناً تفسد الحياة ولذلك جاء في الامثال الشرقية قولهم: (في التأني السلامة وفي العجلة الندامة) . فمن شاء ان يتقن عمله فعليه ان لا يسرع فيه ولا يتوقف عنه ولا بد من الانتباه التام الى مواضع النقص بغية اكماله ومواطن الخلل لاجل اصلاحه حتى يكون العمل كامل الاحكام على اجمل ترتيب وأحسن نظام فان من بلغ في عمله الاتقان التام تفوّق على أقرانه ونال المقام الاول بين اهل صناعته وحصل على المجد والكرامة بين من يعرفون فضله ويقدرونه قدره . فالخطيب المتقن صناعة الخطابة اذا ذهب الى لندن وألقى خطاباً في احد أنديتها أعجب به السامعون وتحدث ببلاغته الراوون ورحّب به العلماء والادباء والخطباء والعظماء وذكرته الجرائد بالحمد والثناء . ودعي الى الخطابة في جميع الاندية الادبية وازدحمت عليه الجماهير لتلتقط منه الفوائد العلمية ونشرت خطبه المجلات الانكليزية وربما ترجمت الى غيرها من اللغات الاوربية . وما يناله الخطيب المتقن صناعته يناله الاديب والكاتب والطبيب والمحامي والاستاذ والمخترع وسائر العلماء اذا كان كل منهم متقناً عمله .

(١٠) : التفنن والابداع او التحسين فلا يكفي ان يكون العمل كاملاً متقناً بل يجب ان يتحسن على توالي السنين والايام والتحسين يستلزم الابتكار والاختراع والا لم يتم الارتقاء فان اكتفى العامل بتقليد غيره في عمله ولم يزد عليه شيئاً من مبتكراته بقي عمله في آخر حياته كما كان في اولها بل ربما بات أقل احكاماً في الشيخوخة مما كان عليه في الشبيبة لان مبدأ التقليد والاتباع مبدأ الضعف والتقهقر

وطريقة الابتكار والابداع طريقة القوة والتقدم · ان الطبيب الذي لايزيد معرفته بالمطالعة ولا يحسن اعماله الجراحية بالممارسة لا يلبث ان يحسب في عداد الدجالين وقس عليه غيره من العلماء العاملين الواقفين على درجة واحدة فان وقوفهم هو عين التأخر · وكل أمة تفقد قوة التفنن والابتكار في أعمالها لا بد من سقوطها ·

ان العصر عصر تجدد فلا يحسن البقاء على القديم الا اذا كان مطابقاً للعقل الصحيح وفائدته محققة · ولا يجوز الاستخفاف بالحديث او رفضه الا اذا كان فاسداً واضراره ثابتة · ان العقل الصحيح يقضي بوجوب الارتقاء والارتقاء لا يتم الا بتربية قوة التفنن والابتكار لكي تحسن الاعمال وتصلح الاحوال وحينئذ يتم الفلاح و يزداد النجاح · فعلى المتعلمين ان ينفضوا عنهم غبار الكسل و يجتهدوا في زيادة العلم وصلاح العمل شاعرين بالواجب المترتب عليهم للوطن والامة مظهرين كمال النشاط وعلو الهمة مراعين شروط النجاح في كل الاعمال ساعين للخير في كل حين وحال · والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد · وبيده التوفيق والاعانة ·

لا يرقي البلاد الا علوم تحلى بصالح الاعمال

فاعملوا صالحاً بما قد علمتم فرجال الاعمال خير الرجال

(الجس سلوم)



ارتباط البلاد على اصول الاتحاد [1]

أيها السادة الكرام والاخوان الاعزاء .

دعاني صديقي المحترم رئيس المجمع العلمي الى القاء محاضرة في هذه القاعة وألحّ في الدعوة والطلب حتى لم يترك لي مجالاً للاعتذار و بالرغم من تراخي الزمان بيني و بين منابر الخطابة واستتار الذهن بغشاء من صدإ الجمود ضرب به عليه الترك المتمادي وجدت نفسي تجاه هذا الطلب المقرون بالحزم والتصميم مضطراً الى الاجابة بالقبول والقاء ذاتي الى هذا المأزق الذي اعرف الآن دخولي فيه واجهل كيف يكون خروجي منه فاذا حصلت رغبتي بعدم تبرمكم ورضائكم عني حمدت عقبى امري واذا جاءت النتيجة على خلاف ذلك طلبت عفوكم هذه المرة ووعدتكم ان لا اعود الى مثلها تارة أخرى .

اوقفني هنيهة من الزمن اختيار الموضوع الذي احدثكم به فلم اتعرض لمواضيع اللغة وآدابها ولا للمباحث التاريخية او الاجتماعية لان رفاقي الافاضل اعضاء المجمع لهم في هذه الحلبات اشواط رابحة ابعد من ان تجارى فاخترت موضوعاً ما كنت آمل ان يكون مجلبة للرضى والامتاع لولا ما حصل له مؤخراً من العلاقة بامورنا الاجتماعية والاقتصادية واعني به الاتحاد . ولست اعني به اتحاد الافراد او اتحاد القلوب وتوحيد المساعي في سبيل النفع المشترك وانما هو بحث اداري حقوقي بشأن ارتباط البلاد على اصول الاتحاد فهو اذن يتعلق بالدولة وليس بالفرد .

قبل الدخول في هذا الموضوع لابدلنا من ايماء مختصر الى تعريف الدولة والاشكال التي تتألف منها . فقد عرّفوا الدولة في الحقوق الاساسية بكونها شعباً متضامناً خاضعاً

(١) المحاضرة التي القاها الاستاذ السيد فارس الخوري من اعضاء المجمع المؤازرين يوم الجمعة في ٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٢

لحكومةواحدة ذات قوانين مشتركة وعرفوها في حقوق الدول انها الشخصية الخارجية لشعب مستقل واهم خواصها في معناها التام :

(١) : الحاكمية الداخلية التامة وضعاً التي تستطيع بها ان تحمل الشعب على حفظ العلائق مع الدول الاخرى ذات الحاكمية المماثلة لها ٠

(٢) : الاستقلال التام الذي يجعلها بمعزل عن كل تأثير او سيطرة خارجية ٠

(٣) : السلطة التامة في اراضي ذات حدود معينة ٠ بيد ان هذه الشروط لم تكن على الدوام تامة في الدول المعروفة وكثيراً ما نقص بعضها واختل واحد منها وبقي العرف والتعامل جارياً على اطلاق اسم الدولة مع نقصان الشرط كما دخلت مصر وقبرس في الاحتلال البريطاني وبوسنه والهرسك في الاحتلال النمساوي مع بقائها تابعة للباب العالي زمناً طويلاً فلم تكن سلطة الدولة تامة ضمن الحدود المعينة لها وكما كان الجيش الترانسفالي يجول في اراضي الغير وتجري معه المفاوضة بصفته دولة وليس له ارض يحكمها ٠ وحالة بلغاريا في عهد اتصالها الاسمي بالباب العالي انقاص لسلطة الدولة العلية ضمن حدودها بدون اخلال بحقوقها الدولية ٠

عند الاوربيين لفظة (Etat) توسعوا في استعمالها كثيراً فاطلقوها عند ارادة الدولة بالمعنى الذي ذكرناه واستعملوها بمعنى القوة التي تسن القوانين وتنفذها فاما ان تكون تلك القوة مجتمعة بشخص واحد كما قال لويس الرابع عشر (الدولة انا) واما ان تكون ممثلة باشخاص معدودين يؤلفون القوة الاجرائية والتشريعية كما هي الحال في بريطانيا ٠ وهذه اللفظة لها في كل بلد من بلاد اوربا مفهومان : احدهما المفهوم الداخلي ويراد به الحق العام الذي تمثله الحكومة ٠ والآخر المفهوم الخارجي وهو الحاكمية القومية التي تمثل ذلك الشعب في الخارج ٠ وعندما يعرّفون اللفظة في معاجم اللغة يعرّفونها بكونها شعباً مؤلفاً خاضعاً لحكومة واحدة ٠ وهي عند الالمان معناها مدينة او ناحية من البلاد بدون مراد سياسي او اداري ٠ اما كلمة دولة في العربية فمعناها أضيق من معنى الكلمة الافرنجية ولا يفهم منها العرب الا الدولة المستقلة استقلالاً سياسياً وادارياً فاذا كانت غير متمتعة بهذا الاستقلال فهي ايالة او ولاية او مقاطعة او حكومة فان كان عليها امير فهي امارة والا فهي ولاية او جمهورية ٠

وعلى ذلك فترجمة كلمة (Etat) بالدولة تكون مصيبة في بعض الاحوال ومخطئة في البعض الآخر وترى المترجمين في كتب اللغات يترجمونها في كل مقام بالمعنى المراد منها في ذلك المقام ·

اما اشكال الدول فتندمج في شكلين : احدهما الدول البسيطة او الموحدة او المنفردة · والثاني الدول المركبة · والمراد من الدولة البسيطة الدولة التي فيها حاكمية واحدة تمتد سلطتها المنفردة الى كل فرد من افراد رعيتها ولا يعرف اولئك الافراد سلطة ما لغير تلك الدولة وهذا الشكل هو الاصل في تأليف الدولة وعليه جرت اكثر الدول في التاريخ القديم والحديث ويمثله في العصر الحاضر دول فرنسا وايطاليا واسبانيا وتركيا وغيرها من الدول الجارية على هذا النمط من الدول المركزية ·

والشكل الثاني هو اجتماع دولتين او اكثر ليكون منها دولة واحدة تتخلى لها كل دولة من الدول المجتمعة عن بعض حقوق الحاكمية وتؤلف باجتماعها حكومة مركزية تقوم بتلك الوظائف التي تخلت لها عنها الحكومات المجتمعة وذلك مع بقاء حق السيادة والحاكمية في كل من تلك الحكومات ·

وهذا التركيب الدولي له انواع مختلفة لتنوع بتنوع درجات الارتباط من هذه الدول ودرجة الحقوق الممنوحة للحكومة المركزية ولا يمكن حصر هذه الانواع ضمن قاعدة واحدة لانها تختلف باختلاف مذاهب الدول المركبة من جهة التوسيع والتضييق ولا يوجد دولتان من هذه الدول متشابهتان في قواعد اجتماعها مشابهة تامة وانما يوضع لكل تركيب دولي قواعد خاصة بحسب مصلحة المجتمعين واغراضهم من ذلك الاجتماع ·

ليس من شأننا الآن ان نفصل جميع انواع هذا التركيب لان ذلك يطول شرحه وانما مرادنا ان نبحث عن نوع واحد من انواعه الاوسع انتشاراً وهو نوع الحكومات المتحدة الذي هو اقرب انواع الدول المركبة من شكل الدول البسيطة وهذا الشكل يجيء في الغالب بصورتين احداهما الاتفاق والاخرى الاتحاد ·

اما الاتفاق الدولي (Confederation) فهو انضمام دول مستقلة ذات سيادة تامة الى بعضها واتحادها بموجب معاهدة لاجل بعض المصالح المشتركة مع بقاء السيادة

الداخلية التامة لكل دولة من الدول المتفقة ضمن بلادها ومن ذلك الائتلاف الجرماني الذي تأسس سنة ١٨١٥ بمعاهدة فينا وبقي الى سنة ١٨٦٦ ومنه ائتلاف الرين الذي احدثه نابوليون واخذ على نفسه حمايته ودام من سنة ١٨٠٦ — ١٨١٣ وكذلك كان ائتلاف المقاطعات الاميركية قبل حرب الاستقلال لحد سنة ١٧٨٩ وجرت على القاعدة نفسها الولايات الجنوبية المنشقة في مدة الانشقاق من سنة ١٨٦١ — ١٨٦٣ ومنها ائتلاف النمسا والمجر والقاعدة الضابطة لاصول الائتلاف ان تكون السلطة الاولى والسيادة العليا الداخلية لكل دولة في اراضيها فلا تضع حكومة الائتلاف قانوناً لها مخالفاً لقانون احدى الدول المتفقة وعلى هذا تكون الروابط التي تجمع البلاد المتفقة ضعيفة وسلطة الدولة المركزية على الحكومات المتفقة محدودة ·

والصورة الثانية هي المعروفة بالاتحاد (Fédération) وهي دولة تؤلفها حكومتان او اكثر للقيام بالاعمال التي هي ذات اشتراك دائم بين تلك الحكومات وفيها تتخلى حكومات الولايات المتحدة عن بعض حقوق الادارة والحكم وتتركها لدولة الاتحاد التي تقوم بذلك العمل ويمتد تأثيرها وسلطتها ليس على الولايات المتحدة فقط بل على كل فرد من سكانها ايضاً · وهذه الصفة تميزها عن صورة الائتلاف التي فيها لا يعرف الفرد سوى سلطة واحدة وهي سلطة حكومته وليس لحكومة الائتلاف المركزية سلطة عليه مطلقاً ولا يشعر بوجودها في حياته الاجتماعية والاقتصادية واما في اصول الاتحاد فيكون السكان خاضعين لسلطتين في وقت واحد ومجبرين على العمل بموجب قوانين حكومة الاتحاد وقوانين مقاطعاتهم المحلية ·

والمقاطعات التي تتحد على هذا الوجه اما ان تكون قبل اتحادها دولاً مستقلة ذات كيان وسيادة تامة فتدعوها المصلحة المشتركة الى الاتحاد الاختياري وتسمى عندئذٍ الدول المتحدة · واما ان تكون قبل اتحادها ولايات تابعة لدولة واحدة فتنفصل عنها لسبب من الاسباب فتتحد معاً وتؤلف حكومة واحدة فتكون الولايات المتحدة · واما ان تكون في الاصل ولايات دولة واحدة جرت في ادارتها على قاعدة توسيع المأذونية وتدرجت الى عدم المركزية حتى صارت ولايات متحدة ايضاً · وفي الحالتين الاخيرتين لا يطلق على مثل هذا الاتحاد عنوان الدول المتحدة لان العناصر المؤلفة

لهذا الاتحاد ليست دولاً مستقلة ذات سيادة تامة لا قبل الاتحاد ولا بعده ·

يشترط لتأليف مثل هذا الاتحاد وامكان انفاذه ونجاحه شروط :

اولها — المتاخمة وذلك ان تكون هذه الولايات المتحدة متاخم بعضها البعض لا يفصل بينها اراضي دولة غريبة ·

ثانيها — التجانس الداخلي واهم اركان هذا التجانس الوحدة القومية والوحدة اللسانية فان لم يكن ذلك حاصلاً كان الاتحاد ضعيفاً وبقي الحذر من تحكم احد الجنسين على الآخر وتفوق احد اللسانين على الآخر فينقلب الاتحاد الى الغلبة والحكم ·

ثالثها — سبق الانفصال بحيث لا يتم العهد الاتحادي الا بين قومين يملك كل منهما قياد نفسه ·

رابعها — اشتراك المصالح والمنافع فاذا لم يكن بين البلادين مصلحة مشتركة يستفيد كل منهما بالاتحاد لاجلها لا يكون في ذلك الاتحاد رابطة تجمعهما وتوثق اواصر الاتصال بينهما ·

قلنا ان الاتحاد يتضمن سلطتين في وقت واحد وقد يكون فيه سلطة ثالثة ايضاً وانما هذه السلطة الثالثة عند وجودها ينحصر تأثيرها على الحكومة الاتحادية المركزية فقط ولا يتجاوزها الى حكومات المقاطعات ولا الى الافراد ·

مثال ذلك حكومات استراليا المتحدة ففيها مقاطعات ذات استقلال داخلي في ادارة شؤونها الخاصة تجمعها حكومة اتحادية ذات وظائف معينة تخلت لها المقاطعات عنها فيوجد في البلاد سلطتان احداها للحكومات المحلية والاخرى للحكومة الاتحادية وهناك سلطة ثالثة للامبراطورية البريطانية بصفتها صاحبة حق السيادة والتمثيل الخارجي وانما هذه السلطة لا تمتد الى المقاطعات ولا تؤثر على الافراد · وهذا الشكل من تثليث السلطات انتشر في المستعمرات البريطانية وانما امكن تطبيقه بتجانف الحكومة البريطانية عن التدخل في شؤون المقاطعات الداخلية في غير الامور التي احتفظت بها هذه الدولة لنفسها لتأييد سيادتها ·

تفطن البشر لهذا النوع من الحكومات قديم جداً ولعله كان منتشراً في اكثر البلاد وانما نصادفه لاول مرة في التاريخ القديم بالشكل المكتوب الواضح عند الامة

اليونانية حين انحدت حكومات اثينا او اسبرطا او قورنثيه او ارغوس مع جيرانها لاسباب دفاعية او اقتصادية وكانت هذه الاتحادات تختلف في صميمتها ودرجة التصاقها فبعضها كان شديد الاتصال والبعض الآخر كان شكلاً ظاهرياً فقط لا يلجأ اليه الا عند اقتحام الاخطار الخارجية .

جميع الحكومات في اول عهدها تكون ضيقة النطاق متقاربة الاطراف ضعيفة المواصلات مع جيرانها فترى نفسها مضطرة للاتحاد مع القريبين منها لاجل تقوية كيانها ثم لا يعتم هذا الاتحاد ان ينقلب الى وحدة مائلة الى التوسع والفتح كما جرى لروما عندما اتحد اللاتين مع جيرانهم حول مدينة روما وكما جرى لانكلترا عندما اتحدت مع والس واسكوتلاندا .

الاتحادَ يكون اختيارياً وذلك عندما تتحد المصلحة منه بين مقاطعة وأخرى فيكون نفعاً محضاً لجميع المقاطعات وفي مثل هذه الحال تنضم هذه المقاطعات بعضها الى بعض بدون حاجة الى الاجبار والارهاق . ويكون اجبارياً عند ما تكون الصلات شديدة وروابط الاتصال متينة بين المقاطعات ويعسر على الاكثرية منها تحمل ضرر الافتراق فيحملون على المخالف ويكرهونه على الانضمام الى رأي الجماعة كما حدث في حرب الافتراق التي قامت بين الولايات الشمالية والجنوبية في اميركا المتحدة سنة ١٨٦١ حتى تغلب حزب الاتحاد واكره الولايات الجنوبية المنشقة على الانضمام وكما جرى في المانيا عندما تغلبت بروسيا على النمسا وهانوفر وساكس سنة ١٨٦٦ واكرهت الاخيرتين على قبول شرائط الاتحاد الجرماني الذي رتبه بسمارك .

انتشرت الاصول الاتحادية في الزمن الحاضر وقبلتها حكومات كثيرة من الحكومات المعروفة وبلغت تحت هذا الشكل من الادارة مبلغاً عظيماً من الرقي والنجاح . واوضح الامثلة على هذه الاصول الولايات المتحدة في اميركا الشمالية ودول سويسرا واوستراليا وكندا ومكسيكا والبرازيل والارجانتين وغيرها .

فجمهورية سويسرا مساحتها نحو ١٦ الف ميل مربع وعدد سكانها نحو ثلاثة ملايين وثلث مليون وهي مؤلفة من ٢٢ مقاطعة مستقلة استقلالاً داخلياً (Etat) وكل مقاطعة منقسمة الى اقضية والاقضية الى نواحٍ اودوائر بلدية يزيد عددها او ينقص بالنسبة

الى جسامة المقاطعة وعدد هذه الاقسام ١٨٧ قضاء مقسومة الى ٣١٦٤ دائرة بلدية والوحدات السياسية هي هذه الدوائر البلدية التي ينتخب الشعب اعضاءها وهؤلاء الاعضاء ينتخبون ممثلين للهيئات التشريعية لمراكز مقاطعاتهم وللحكومة الاتحادية في المركز العام. وهذه الحكومة مؤلفة من ثلاث قوى التشريعية والاجرائية والقضائية. فالقوة التشريعية ذات مجلسين احدهما مجلس الشيوخ ويسمونه ايضاً مجلس الدولة وهو مؤلف من نائبين عن كل مقاطعة فيبلغ عدد اعضائه ٤٤ عضواً والثاني مجلس النواب فتنتخب كل ولاية نوابها بنسبة عدد سكانها بمعدل نائب واحد عن كل عشرين الفاً من النفوس لمدة ثلاث سنوات وعند انقضائها يجدد الانتخاب وقد كان عدد هؤلاء النواب في سويسرا قبل الحرب العامة ١٦٧ نائباً وهذان المجلسان يجتمعان معاً عند الايجاب فيتألف منهما المجلس الوطني الكبير ولا يحق لرئيس الحكومة ان يفسخ هذا المجلس قبل انتهاء دورته فينحل من نفسه ويعاد الانتخاب مجدداً . فجميع القوانين يسنها هذا المجلس ويودعها القوة الاجرائية لاجل انفاذها .

اما القوة الاجرائية فهي مؤلفة من لجنة قوامها سبعة اشخاص تسمى مجلس الاتحاد ينتخبهم المجلس الكبير اي الشيوخ والنواب مجتمعين ويشترط في انتخابهم ان لا يكون من ولاية واحدة اكثر من عضو واحد وعند انتخابهم ينتخب المجلس ايضاً رئيس الاتحاد ونائبه لمدة سنة فقط وهذا الرئيس يرأس مجلس الاتحاد ويتولى اعمال الخارجية المسماة عندهم الشعبة السياسية وسلطته محدودة فليس له ان يفعل شيئاً بدون قرار المجلس . واعضاء المجلس الآخرون يتولون ادارة الشعب الاخرى معتمدين في جميع اعمالهم على قرار المجلس ايضاً فهم المنفذون لهذه القرارات فقط وليس لهم ان يفعلوا شيئاً من عند انفسهم .

قسمت حقوق السيادة في سويسرة بين حكومة الاتحاد والحكومات المحلية في الولايات فاختصت الحكومة الاتحادية بوظائف التشريع المتعلق بالقوانين المدنية والجزائية والتجارية والبريد والبرق وضرب النقود والمواصلات والجمارك والخارجية .

القوة القضائية في سويسرا مودعة الى ١٩ عضواً وتسعة معاونين وهؤلاء القضاة الذين تتألف منهم المحكمة العليا ينتخبهم البارلمانت ايضاً لمدة ست سنوات وينتخب الرئيس ونائبه لمدة سنتين . فيظهر من ذلك ان جميع قوى الحكومة تعود الى نواب

الامة اي المجلس التشريعي فهو الذي ينتخب اعضاء القوة الاجرائيـة من بين افراده ورجال القوة القضائية ايضاً ٠

لم يشأ السويسريون ان تكون القوة محتكرة في الحكومة المركزية فحسبوا كل ولاية من ولاياتهم ذات حق بالسيادة والسلطة في الاعمال المختصة بتلك الولاية وجعلوا خضوع سكانهـا الى حكومة البلاد العـامة متعلقاً على منفعتهم وتائداً الى اختيارهم فأصبح سكان كل مقاطعـة اصحاب السيادة الاولى في بلادهم منفردين بالتشريع والقضاء والجباية في الامور التي تعنيهم وحدهم واشتركوا مع سائر المقاطعات في الامور المشتركة التي تعني الجميع وتؤثر على جيرانهم ويكون الاتفاق فيها خيراً من الافتراق وهذا هو الاساس الاصلي لتأليف الاتحاد خصوصاً اذا كان التجانس الداخلي مفقوداً بين المقاطعـات المتجاورة فيحصل الاضطرار لتنوع الادارة وتبدل الاحكام بحسب تبدل الاماكن وطبائع السكان ٠

تختلف الاقوام في تفريق حقوق السيادة بين حكومات الاتحاد وحكومات الولايات فمنهم من يجعل الاصل في حق السيادة للولاية وسكانها وعندنا تكون سيادة الاتحاد فرعاً عنها فالحقوق برمتها تعود لحكومة الولاية في الاصل الا ما أستثني منها وحصل التخلي عنه بالنص الصريح لحكومة الاتحاد فيدرجون في الدستور الاتحادي جميع الوظائف التي اتفقت المقاطعات على تركها للحكومة الاتحادية وما سوى ذلك يبقى من حكومة المقاطعـات بدون حاجة الى ذكر صريح ومن هذا القبيل الاصول الاميركيـة والسويسرية والاسترالية ومنهم من يجعل حكومة الاتحاد اصلاً في حق السيادة والسلطان فيعود اليها حق التشريع برمته ماعدا الجهات التي تذكر بالنص الصريح انها عائدة لحكومات المقاطعات ومن هذا القبيل حكومة كندا الاتحادية ٠ وهذا النوع ينطبق على الدول التي تؤسس في ولاياتها عدم المركزية ٠

ولما كانت الولايات المتحدة الاميركية اعظم حكومة اتحادية في الدنيا أرى من الموافق ان نخصها ببعض التفصيل عن وصف الاصول الجارية فيها فتكون مثالاً واضحاً في هذا الباب خصوصاً وهي أقدم الحكومات الحاضرة من هذا الشكل وعنهـا اخذت اكثر الدول الاتحادية اصولهـا ونسجت على منوالها في اكثر جهات الادارة

ومنهم من تحداها حذو القذة بالقذة مثل جمهوريات اميركا الجنوبية واميركا الوسطى ·
مساحة الولايات المتحدة الاميركية السطحية نحو ٣ ملايين ميل مربع وعدد سكانها نحو مئة مليون نفس وبلغ عدد ولاياتها (٤٨) ولاية في الوقت الحاضر وقد بدأ بثلاث عشرة ولاية فقط منذ نحو ١٤٠ سنة عندما قامت هذه الولايات وحاربت بريطانيا لاجل استقلالها وقد كانت هذه الولايات تابعة لانكلترة وهي مستعمرات لا ارتباط بين الواحدة والاخرى منها الا بواسطة الامبراطورية البريطانية فبعد ان فاز سكانها بهذه الحرب وتقرر لهم الاستقلال لم يوافقوا على الاندماج في دولة واحدة بسيطة وانما احتفظت كل ولاية بحقوق الحاكمية لنفسها في ضمن حدودها واكتفوا باحداث اتفاق بينهم لاجل جمع كلمتهم وقوتهم في الامور الخارجية وبعض المصالح المشتركة مثل مصلحة البريد والبرق وضرب النقود · وبسبب كثرة المهاجرة الى اميركا انتشر المهاجرون في داخل القارة وضربوا في عرضها وطولها واستعمروها رويداً رويداً وكلما عمرت مقاطعة بهم اسسوا فيها حكومة مستقلة بحقوق مساوية لحقوق الولايات الاولى وانضموا الى الاتحاد وهم اليوم باقون على تلك الحالة ولم دائيك الحقوق التي ورثوها عن المقاطعات الاولى ·

لحكومة الولاية اليوم تتمتع بجميع حقوق الحاكمية المستقلة ما عدا المستثنيات التي تخلت عنها لحكومة الاتحاد · وكل ولاية لها قانونها الاساسي المتضمن الحقوق العامة لافراد الشعب تجاه الحكومة وكيفية تشكيل الحكومة ومنابع الخزينة والميزانية · ولها مجلسها التشريعي المؤلف من دائرتين احداها للشيوخ والاخرى للنواب ينتخب اعضاؤها من سكان تلك الولاية بالاقتراع العام وهذا المجلس يسن القوانين ويسيطر على الادارة بجميع اطرافها · ولها حاكمها العام الذي ينتخبه الشعب ايضاً لمدة معينة ويتولى رئاسة القوة الاجرائية · ولها محكمتها العليا حيث تنتهي درجات القضاء فيها · ولها ضرائبها ورسومها واصولها المالية وديونها العامة · ولها قوانينها الخاصة في الامور المدنية والجزائية واصول المحاكمات · ولها قانونها الخاص في قضية الجنسية حتى انك تجد هذا القانون الذي يقتضي الوحدة في جميع اجزاء الدولة مخالفاً في احدى الولايات عما هو في غيرها فترى الحقوق السياسية مثل حق

التصويت والانتخاب ممنوحاً لواحد في ولاية وممنوعاً عن امثاله في غيرها . فالفرد الاميركي قد يعيش دهره ضمن ولايته بدون ان يشعر بوجود الحكومة الاتحادية الا عندما يقدم شكوى من احدى الادارات الاتحادية كادارة البريد والبرق او عندما يدفع مكساً عن البضائع التي يستوردها من الخارج وجميع دعاويه وقضاياه تحل ضمن ولايته وفقاً لقوانين تلك الولاية . والهيئة التشريعية التي تمثل الشعب تستطيع ان تدخل اي تعديل او تحوير كان على قانونها الاساسي المستمد من ارادة الشعب فقط وليس للسلطة الاتحادية حق المراقبة عليهم مطلقاً حتى في امور التشريع سوى ما كان من جهة النص الوارد في الدستور الاساسي من ان القوانين الاساسية للولايات يجب ان تكون جمهورية فلا تستطيع ولاية ان تجعل حكومتها ملكية اوغير جمهورية وفي ماعدا ذلك هي مختارة باتخاذ الشكل الذي تختاره في وضع قانونها الاساسي الذي يتضمن في الغالب ابحاثاً معينة اهمها حدود الولاية وحقوق الشعب العامة وتشكيل حكومة الولاية والمجلس التشريعي وبيان كيفية انتخابه ووظائفه وحقوقه واقامة القوة الاجرائية وكيفية ايجادها ودرجة مسؤوليتها امام نواب الشعب وحق القضاء واصول اجرائه وحرية الانتخاب وشكل حكومة الملحقات في الاقضية وكيفية ادارتها والانتماء الى القوانين والانظمة الموضوعة والواجب وضعها وصيانة الامن الداخلي واصول الضرائب ومنابع الخزينة وكيفية الانفاق والسجون والمستشفيات والاهتمام بالزراعة والمعارف والمواصلات وحقوق العمال وشرائط تعديل القانون الاساسي .

المجلس التشريعي في كل ولاية يتألف من الاعيان والنواب وجميعهم ينتخبهم الشعب بالرأي المشترك فالاعيان ينتخبون لمدة اربع سنوات والنواب لمدة سنتين وقد اخذوا جعل التشريع في مجلسين عن الاصول الانكليزية التي جرى عليها الشعوب الاخرى ايضاً والغرض منه ان يكون احد هذين المجلسين معدّلاً للآخر فيكون ذلك أضمن من الخطإ او التسرّع في سن القوانين فلا يبقى مجال للتحيّز اوالاستئثار او الغلط الذي يرتكبه احد المجلسين .

واما عدد الممثلين في كل من المجلسين فيختلف بالنسبة لعدد السكان في كل ولاية

ولنصوص القانون الاساسي فيها الذي يعين عدد الافراد لانتخاب النائب الواحد .
حاكم الولاية ينتخبه الشعب عندما ينتخبون نواب التشريع ومدته في اكثر الولايات اربع سنوات وفي بعضها ثلاث او سنتان او سنة واحدة وهو يراقب انفاذ القوانين واحكام المحاكم وله حق العفو عن الجرائم وقيادة القوات المحلية في حفظ الامن الداخلي وهو يعين كبار الموظفين بعد ان يوافقه مجلس الاعيان على تعيينهم ولكن هذا الحق محدود جداً لان اكثر كبار الموظفين ينتخبهم الشعب بالتصويت مثل حكام الاقضية الذين ينتخبهم سكان القضاء وكذلك القضاة فان انتخابهم يعود اما للشعب واما للمحكمة العليا التي ينتخب الشعب أعضاءها . وهو يمثل الولاية في المراسلة مع الحكومة الاتحادية وحكام الولايات الأُخر . وللحاكم حق الابطال او حق الرد (Veto) وهذه صلاحية عظيمة جداً للذين يحسنون استعمالها وهي ان الحاكم يستطيع ان يرد كل قانون يسنه المجلس التشريعي وذلك لان الشعب قد جعل الحاكم معدلاً لحرارة الاحزاب ومبطلاً لنتائج التسرع الذي يقع في المجالس في بعض الاحيان فهو ينتخب الحاكم من ذوي الحنكة والاختبار الطويل واصحاب الدم البارد والحزم والروية ليحول دون الاساآت التي تذهب اليها الاحزاب السياسية . فالحاكم بواسطة هذا الحق الممنوح اليه يسيطر على حركات التشريع ويستعمل هذه الصلاحية معتمداً على ثقة الشعب به .

اما القضاة فينتخبهم الشعب او مجلس النواب او يعينهم الحاكم بموافقة الاعيان وهم في الغالب يقلدون وظائف القضاة لمدة طويلة تبلغ العشرين سنة وانما رواتبهم قليلة بالنسبة الى شرف القضاء وغنى الاميركان . والقضاء مستقل في كل ولاية وفيها تنتهي درجات المحاكمة بدون ان يكون لحكومة الاتحاد سيطرة على محاكم الولايات وقوانينها واصولها . الا في الامور العائدة للقانون الاساسي الاتحادي او في القضايا المودعة لحكومة الاتحاد .

في مبدإ الاتحاد الاميركي كانت عواطف الشعب مستقرة في الوطنية الضيقة وكان اهتمام الافراد وتحمسهم منصرفاً نحو مقاطعتهم فلم يكونوا يعبأُون كثيراً بالدولة المركزية التي كانت منقطعة عن الشعب انقطاعاً تاماً غير ان هذه الحالة اخذت تتبدل

في غضون القرن التاسع عشر تبدلاً محسوساً وذلك بسبب الترقي الذي احرزته التجارة والعلائق الخارجية فصارت مصالح كل شعب غير محصورة بالمنطقة الضيقة التي يعيش فيها بل كثرت علائقه مع الخارج وكان غنى الشعب الاميركي واتساع ثروته وانتشار تجارته خادماً لاحداث انقلاب في عواطفه نحو الحكومة الاتحادية التي تمثله في الخارج وتحمي تجارته ومصالحه الواسعة . كما ان انتشار الاحزاب السياسية المؤسسة على اختلاف جهات النظر في الامور السياسية الخارجية والتدابير الاقتصادية العامة جعل كل فرد من السكان مضطراً الى الانتماء لاحد هذه الاحزاب التي جمعت تحت الويتها سكان الولايات كافة ووحدت ميول كل فريق منهم فتكوّن منها فرق منتشرة في جميع انحاء البلاد وانظارها متجهة الى مقاصد معينة وموحّدة بين جملة الافراد المنتسبين الى احدى الفرق فلم يعد للمنطقة الضيقة تأثير على منافع المنطقة الواسعة واصبح الفرد يتساهل في تضحية المصلحة المحدودة في مقاطعته لصيانة مصلحة حزبه وتأييد سياسته الرامية الى المصلحة العامة الواسعة . وكذلك الحرب الاهلية التي احدثها محبو الانفصال في اواسط القرن التاسع عشر آلت الى انخذالهم وانصداع شأنهم وانتهت بنصرة القائلين بالاتصال والاتحاد فقويت كلمتهم واعتزت مكانتهم وكان هذا من جملة الاسباب لخدمة مصلحة الاتحاد . كما ان الحروب الخارجية التي جرت في آخر القرن الماضي مع اسبانيا وفي القرن الحاضر مع دول اوربا آلت لدخول الاميركان في السياسة الخارجية التي تمثلها حكومة الاتحاد وبما ان هذه الحروب ايضاً انتهت بانتصار الاميركان وتعزيز شأنهم فقد قويت بها كلمة الاتحاد وكاد نفوذه يبتلع النفوذ المحلي .

ليس للحكومة الاتحادية الاميركية اراض تديرها رأساً ضمن الولايات سوى منطقة كولومبيا الصغيرة التي فيها العاصمة وانما التوسع السياسي الاخير ألحق بالجمهورية الاميركية جميع اراضي الاسكا الواسعة وجزائر الفيلبين التي اقتنصتها من الاسبان وجزائر هاواي وبورتوريكو وترعة بناما فبقيت هذه البلاد تدار من قبل الحكومة الاتحادية رأساً وبقيت الحكومات المؤسسة في هذه المستملكات تأتمر بامر حكومة واشنطون .

عندما انفصلت الولايات الثلاث عشرة عن بريطانيا اعلنت كل منها استقلالها سنة ١٧٧٦ وارتبطت بعضها مع بعض بروابط ضعيفة جداً واقامت المجلس العمومي (Congrès) الذي لم يكن لديه قوة مطلقاً ولم يكن له النفوذ على المقاطعات بشيء فشعر السكان بحاجة باتحاد امتن من هذا الاتفاق وقام المفكرون منهم يطالبون به حتى اجتمعت لجنة في هذا المجلس ووضعت الدستور الاساسي سنة ١٧٨٧ فقبلته تسع ولايات وانتخبت جورج واشنطون اول رئيس للجمهورية المؤلفة بموجب ذلك الدستور ثم لحقتها بقية الولايات تدريجاً وانضمت الى الجمهورية . وكان لهذا الدستور الاميركي الاول تأثير عظيم ليس على سياسة اميركا فقط بل على سياسة الدنيا ايضاً لانه وضع القاعدة القائلة بالحاكمية الشعبية وان كل قوة اوسلطة اوسيادة ليس لها منبع الا الامة وارادة الشعب فقط وان الامة لا تحكم الا بالصورة التي تريدها . وقد اشتهر هذا الدستور بصراحته واتقانه ومتانته التشريعية حتى قيل انه افضل دستور من نوعه وضعه البشر الى العهد الحاضر وبموجبه تأسست الجمهورية الاميركية الحاضرة .

اما المبادىء التي أسس عليها فهي :

(١) : احترام ارادة الشعب .

(٢) : بقاء السيادة الاصلية للمقاطعات فكل حق من حقوق الحاكمية غير مصرح بمنحه لدولة الاتحاد يبقى لحكومة المقاطعة .

(٣) : اعتبار مجموع المقاطعات الداخلة في الاتحاد دولة واحدة ووطناً واحداً وتأسيس حكومة وطنية اتحادية لمصلحة هذا الوطن الواحد .

(٤) : تخلي المقاطعات لهذه الحكومة الوطنية عن كل وظيفة واجبة لحياة الامة بصفتها شعباً مجتمعاً وهذا يشمل الامور المتعلقة بصلات الامة مع الدول الخارجية ويشمل الامور الداخلية التي ادارتها من قبل دولة الاتحاد انفع لمصلحة الامة من ادارتها من قبل حكومات الولايات . وقد فصل الدستور وظائف الدولة المركزية وحصرها بالامور الآتية :

(١) : تطرح وتجبى التكاليف الواجب اطرادها على نمط واحد في جميع الولايات .

(٢) : تعقد القروض باسم الولايات المتحدة وتكون عقودها ملزمة لجميع الولايات .

(٣) : تنظم التجارة الخارجية والتجارة الداخلية المشتركة بين الولايات ·
(٤) : تضع قواعد مطردة للتابعية وللافلاس تراعى اصولها في جميع الولايات ·
(٥) : تسك النقود وتضع معياراً للمقاييس والمكاييل والموازين ·
(٦) : تؤسس دوائر البريد وتنشئ الطرق البريدية ·
(٧) : تنفرد بصيانة حقوق التأليف والاختراع والعلائم الفارقة والحقوق الصناعية ·
(٨) : تؤسس محاكم تابعة للمحكمة العليا ·
(٩) : تعلن الحرب وتعقد الصلح وتستحوذ على الغنائم الحربية ·
(١٠) : تجمع جيشاً وتنشئ اسطولاً حربياً·
(١١) : تدعو القوى الوطنيـــة المعروفة بالميليس وتجهزها للخدمة اللازمة بحسب ما تقتضيه مصلحة الولايات ·
(١٢) : تتولى الحاكية المنفردة في البقعة المعينة مقراً لحكومة الاتحاد والاماكن المتخذة للاستحكامات الحربية ·
(١٣) : تسن الشرائع اللازمة لانفاذ هذه البنود والقيام بهذه الوظائف ·
(١٤) : تسن القوانين الواجبة لحماية الافراد تجاه اي تشريع كان تصدره مجالس الولايات خلافاً للحقوق العامة المنصوص عنها في الدستور ·

وقد اوجب الدستور على كل ولاية ان توفد مندوبين من قبلها يمثلانها في مجلس الشيوخ العام وان توفد مبعوثين الى مجلس النواب على نسبة عدد سكانها · واوجب عليها ان تنظم القوى الوطنية وتحضرها وتجعلها عند الحاجة رهن امر رئيس الجمهورية ليستخدمها في المصالح الوطنية العامة · ومنح ايضاً للمحكمة العليا التي هي احد اركان دولة الاتحاد حق تفسير مواد الدستور فكل قانون تسنه المقاطعات يعرض على هذه المحكمة حتى اذا رأت فيه مخالفة لروح الدستور تمتنع عن اجازته فلا يكون نافذاً · وقد حفظت حقوق الدولة الاتحادية بما لها من حق الحكم المباشر على الافراد فكل مخالفة للدستور ولانظمة الاتحاد يحاكم اربابها ويعاقبون لدى محاكم الاتحاد رأساً كما ان الاموال التي تجبى لحساب خزينة الاتحاد مثل المكوس ورسوم الاستهلاك يجبيها جباة الدولة

المنتشرون في كل بلد من بلاد الاتحاد الاميركي فلا تحتاج الدولة المركزية الى مراسلة حكومة الولاية وطلب انفاذ قوانينها منها وانما تراسل موظفيها الذين يجرون وظائفهم بدون حاجة لمناصرة من الحكومة المحلية . وقد اباح الدستور للحكومة المحلية ان تطلب المعونة من الدولة عند وقوع عصيان في الولاية او حصول تعدٍ خارجي عليها والدولة تلبي طلبها وتضمن لها ادارة جمهورية حرّة مصونة من العصيان الداخلي والغزو الخارجي .

قلنا ان المجلس التشريعي له دائرتان احداهما الاعيان او الشيوخ والثانية النواب فالشيوخ توفدهم الولايات بمعدل اثنين لكل ولاية مهما كان عدد سكانها فولاية نيويورك مثلاً التي سكانها نحو عشرة ملايين توفد اثنين وولاية نيفادا التي سكانها ٨٢٠٠٠ توفد اثنين ايضاً واما النواب فينتخبون بالنسبة لعدد السكان وهم مخيرون اما بانتخابهم على اساس الناحية بنائب واحد او على اساس الولاية دفعة واحدة وانما جميعهم الآن الا واحدة اختاروا الشكل الاول وقد كان عدد النواب عند تأسيس الاتحاد ٩٥ حتى صار الآن نحو ٤٠٠ نائب .

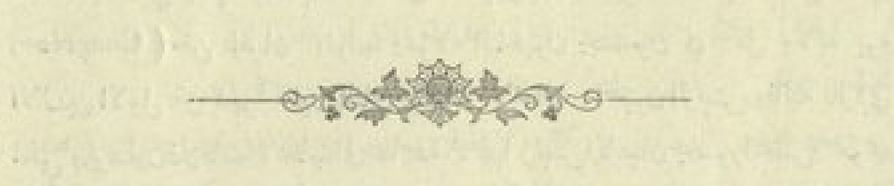
رئيس الولايات المتحدة تنتخبه لمدة اربع سنوات هيئة خاصة تنتخبها الولايات لهذه الغاية فكل ولاية تنتخب عدداً من الناخبين بقدر ما لها اعضاء في المجلس الكبير (Congrès) من اعيان ونواب وهؤلاء الناخبون يجتمعون في كل ولاية يوم الاثنين الاول من شهر كانون الثاني من سنة الانتخاب وينتخبون الرئيس ونائبه بالرأي الخفي و يرسلون غلافات الانتخاب الى العاصمة فيفتحها رئيس الاعيان بحضور المجلس العمومي وتتم الاكثرية من العدد المرتب فاذا لم تتم هذه الاكثرية لاحد ينتخب النواب الرئيس والاعيان نائبه . والرئيس هو رأس القوى الاجرائية في البلاد وله حقوق معادلة لحقوق الملوك في البلاد النيابية ومجموع مخصصاته مئة الف ريال في السنة . وحقوقه تزيد في زمن الحرب حين يصبح مسيطراً على جميع القوى الوطنية وصاحب الامر المطاع في سبيل الدفاع الوطني وصيانة شرف البلاد ومجدها . والاجراء محصور فيه وليس هناك وزراء بل رؤساء الشعب الخارجية والخزينة والحربية والنائب العام والبحرية ورئيس البريد العام في الداخلية والزراعة و (التجارة والعمل) .

القضاء في اميركا مستقل عن سائر القوى وقوامه المحكمة العليا التي تقابل محكمة

التمييز مؤلفة من تسعة قضاة يعينهم الرئيس بموافقة الاعيان لمدة الحياة ويوجد محاكم استئناف وبداية في الولايات لاجل رؤية القضايا المتعلقة بالاتحاد فقط وهي القضايا المتعلقة بالدستور او بالسفراء والوزراء والقناصل او بالبحرية والقضاء البحري اوالتي تكون الدولة فيها احد الخصمين او تكون احدى الولايات خصماً مع ولاية اخرى اومع احد سكان ولاية أخرى · والمحكمة العليا لها تفسير معاني الدستور الاساسي . وانما لا تفعل ذلك الا في معرض الخصومة والقرار الذي تصدره يسري على تلك القضية المحكوم بها ·

وقد نجحت الدولة الاميركية ضمن هذا الاتحاد وجاء موافقاً لمصالحها الداخلية والخارجية وسبباً لازدياد ثروتها وارتقاء عمرانها وان كان الفضل الاول في ذلك لاخلاق الشعب وخصب البلاد ·

فارس الخوري



طُرفة ادب من آداب العرب[1]

أيها الاخوان !

اذا قرأتم مقامات الحريري سمعتموه يقول في فاتحة كل مقامة « حكى الحارث ابن همام » راوياً أخباره عن « ابي زيد السروجي » . واذا قرأتم مقامات « بديع الزمان الهمذاني » ألفيتموه يقول « حدثنا عيسى بن هشام » مخبراً عن « ابي الفتح الاسكندري » وها أنا ذا اليوم أسمعكم مقامة لم يروِها الحارث بن همام . ولم يحدث بها عيسى بن هشام . وانما حدّث بها « ابو المطهّر الازدي » — عن « ابي القاسم البغدادي » .

فموضوع محاضرتي هذه مقامة من مقامات الادب . ابتدعها أحد كتّاب العرب . وافرغها في اسلوب عجب . وقد أعثرَنا عليها الدهر المكنّى ابا العجب .

* * *

المقامة في اللغة معناها المجلس يقوم فيه الناس . ثم أُطلقت مجازاً على الخطبة او الموعظة التي تلقى في المجلس . وبعد ان ألّف (البديع) و(الحريري) مقاماتهما اصبح للمقامة معنى خاص مراعى فيه الوضع والاختراع . فمن ثمّ يصحّ ان نقابل « فنّ المقامات » في آدابنا العربية بـ« فنّ الروايات » في الآداب الافرنجية : من حيث أنّ كلاً منهما يُفرغ في قالب قصةٍ ذاتِ وقائع خيالية . واشخاص او أبطال خياليين . لكنّ « فن المقامات » عندنا ذوى واضمحل . اما فنُ الروايات عند الافرنج فقد أخصب ونما . واصبح شجرة باسقة : اصلها ثابت وفرعها في السماء .

والذي دعا البديع والحريريّ الى انشاء مقاماتهما . وافراغها في هذا القالب المفكِه

---

(١) هي المحاضرة التي القاها الاستاذ (المغربي) في ردهة المجمع في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٢١ .

المسأتي هو ملل أهل عصرهما من حالة الأدب القديمة · ومن طريقة المؤلفين والمنشئين في إيراد الحكم · وسرد الوقائع · ورواية الاخبار المختلفة ·

واذا تأمّلنا في كل تجدّد او نهضة تحدث في الكون سواء أكانت دينية او سياسية او اجتماعية او ادبية نرى معظم السبب المؤثر في حدوثها هو ملل الناس · فيحملهم هذا الملل على تطلّب شيء جديد يناسب حالتهم الاجتماعية والفكرية التي وصلوا أو ارتقوا اليها : واذذاك يظهر النابغون والمصلحون والمجدّدون وزعماء النهضات ·

خذوا مثلاً النهضات المتوالية في آدابنا العربية : فان العرب قبل الاسلام بنحو نصف قرن ملّوا سماع أساليب فصحائهم الكلامية الأولى التي ربما كانت موروثة لهم من عهد حمورابي فنهض (قُسّ بن ساعدة) و (امرء القيس) و (الأعشى) الذي كانوا يسمونه صنّاجة العرب فشقّقوا الكلام وذهبوا فيه مذاهب أطربت العرب · واستهوت أفئدتهم ·

ثم بعد نحو مئة سنة عاد الناس فملّوا طريقة أصحاب المعلّقات وأجمعوها · ومما يُروى في ذلك قولُ بعض العرب يعيِّر بني تغلب :

(ألهى بني تغلبٍ عن كلّ مكرمةٍ قصيدة قالها عمرو بن كلثوم)
(يروونها أبداً مذ كان أوّلهم يا للرجال لشعرٍ غير مسئوم)

فكان من أثر هذا الملل أن نهض في دولة الامويين (عبد الحميد الكاتب) و (جرير) و (الفرزدق) فأحدثوا طريقةً غضّةً كانت أشدّ التحاماً بحالة العرب وأذواقهم وهم في طورهم الاجتماعي الاسلامي الجديد ·

ثم كرّ على ذلك قرابة مئة سنةٍ وكانت قامت دولة بني العباس بخلفائها · ومجالس غنائها وندمائها · وقد ملّ الناس طريقة (جرير) و(الفرزدق) ومناقضاتهما · ويُروى من آثار هذا الملل أن الشاعر كان إذا وقف بين يدي جعفر البرمكي للانشاد قال له : « قُل ولا تُطِل فاني أملّ الأطالة » · وكان المأمون لا يُحبّ أن يسمع سوى البيتين أو الثلاثة في مدحه وشيء من التشبيب والوصف ·

فنهض (عبد الله بن المقفع) و (ابو نواس) و (بشّار بن برد) الذي سماه بعضهم « ابا التجدّد » فأسمعوا الناس عجبا · وأوسعوهم طربا ·

ثم بعد مئة سنة ملَّ الناس وضجروا من تكرير المُعاد فنهض (ابو تمام) و (البحتري) و (الجاحظ) الذي يدعى (مالك الانشاء) . ويكفيني ان اذكر اسماء هؤلاء الثلاثة لتعلموا أيها السادة مبلغ تأثيرهم في تجديد الآداب العربية .

وقد أصبح الناس بتأثير حضارة هذا الزمن يميلون الى الغلوّ في النقد . والتفنّن في الوصف . وذكر أخبار الناس . وما يقع للخلفاء والامراء في مجالس لهوهم . وكل مستملح من الحديث . ومفكِّه من الشعر . حتى قال الجاحظ : إن الناس في عهده ما كانوا يأنفون من إنشاد أغاني المعتوهين وأهازيج اللصوص وأشعار اليهود .

ثم انتقل الناس من القرن الثالث الى القرن الرابع الذي نضجت فيه الحضارة العربية أتمّ نُضج . وبلغ الناس من الترف حداً تطلّبوا معه أقصى ضروب المفكِّهات والمسلّيات . بعد أن كانوا ملّوا ترديد اقوال أدبائهم السابقين . وأحبوا ان يسمعوا غيرها الى حدّ ان كان يلذّ لهم سماع أشعار السقّايين الذين يحملون القِرَب . والمارّين على جسر بغداد . والمسحّرين في رمضان . وأخبار سياحات البرّ والبحر . التي كثرت في ذلك الزمن . وسماع عجائب الهند . وجزائر واق الواق . وما وراء جبل قاف .

وكان حاملا لواء هذا التجدّد أو النهضة التي انتظرها الناس (المتنبي) و (بديع الزمان الهمذاني) فكان أسلوبهما في الشعر والنثر وتفنّنهما فيهما عهداً جديداً في الأدب العربي . والشعر العربي . والتأليف العربي .

وامتدت هذه النهضة الى القرن الخامس الذي مات في أواسطه (أبو العلاء المعرّي) وبها خُتمت نهضات الادب الخمس . ثم كرّت بعدها ثمانية قرون . أخذت تضعف فيها حياتنا الاجتماعية بالتدريج . وفي آخر الامر لم نعد نشعر بملل بل ولا ألم . حتى كانت هذه العصور المتأخرة فأخذ يدبّ فينا دبيبُ الحياة . وعاد الينا الشعور بالملل من أدبنا القديم . ونهض شبابنا يتلمّسون أدباً عربياً جديداً . يناسب مدنية القرن العشرين . ويلتحم مع آداب الامم الراقية التي تعيش فيه .

* * *

وفي النهضة الادبية العربية الخامسة التي قلنا إنها هي الأخيرة عمد الأدباء والكتاب الى وضع تآليف تُحدث في النفوس تسليةً ونشاطاً . موافاةً لرغبة الناس

وسداً لحاجاتهم كما ذكرنا . كذلك فعل البديع الهمذاني في مقاماته المشهورة . والاصفهاني في كتابه الاغاني . وأبو العلاء المعري في رسالته «الغفران» .

لكنَّ بعض المؤلفين والشعراء في هذا الدور تجاوزوا حدود الأدب الى المجون والهزل ويسمونه (إحماضا) . وكانوا يعتذرون عنه أحيانا كما اعتذر الحريري في مقاماته عن بيتي كافات الشتاء مذ قال «وما قصدت بالإحماض فيه . الا تنشيط قارئيه . وتكثير سواد طالبيه» .

والمجون في أدبيات الامم أثر من آثار حضارتها وانغماسها في الترف . فليست الامة العربية بدعاً من سائر الامم : فإنها كلها — قديمها وحديثها — لها في آدابها من ضروب السخف والمجون واختراع وسائل للشهوات ما لم يكن يخطر ببال العرب .

ومن لطيف المصادفات أنني بعد أن وصلت في كتابة المحاضرة الى هنا اطلعت على مقالة في مجلة (Les Annales) الفرنسوية يشكو فيها كاتبها من كتب المجون والخلاعة التي طغا طوفانها على البار يزيين . ولفت الكاتب أنظار الحكومة الى ملافاة هذا الشر . فقلت في نفسي ها إن (باريز) التي هي عروس الحضارة الاوربية اليوم قامت تشكو مما كانت تشكو منه اختها بغداد عروس الحضارة العربية أمس . ولشدَّ ما كان التاريخ يعيد نفسه .

* * *

في هذا الدور الاخير من حضارة بغداد كُتبت مقامة (ابي المطهَّر الازدي) التي جعلناها موضوع محاضرتنا هذه . وهي من الكتب التي تمجَّن فيها كاتبها وتخالع . وأودعها من القول ما لا يحسن ذكره . لكنه والحق يقال كتبها باسلوب لا نظير له في كل ما كُتب واطَّلعنا عليه من نوعه . حتى أعجب به المستشرقون ايما اعجاب . وليس اعجابهم به من حيث بلاغة أسلوبه . وتجويد سبك عبارته فقط . بل من حيث تفننه في وصف شؤون كثيرة من حضارة العرب . وطرق معايشهم في القرن الثالث الى أواسط الخامس .

وهذا ما نحبّ ان نُصغي اليه نحن من هذا الكتاب العجيب . ونعرض عما فيه من المجون الذي لا يحسن ولا يطيب .

وفي الكتاب كلمات وأساليب لا يمكن ان نوفّيها حقها من البحث الآن . فنجتزئ بالاشارة اليها :

من ذلك كلمات استعملها المؤلف منذ ألف سنة ونحن نظن أنها أحدث عهداً : نحو كلمة (تفضّل) في الدعوة الى الطعام و (بقّال) لبائع الجبن والزيتون ونحوها و (شوربا) لنوع من الطعام أظنه غير الحساء المعروف اليوم و (ألحان شجيّة) أي مطربة و (له فرد كمّ) اي كمٌّ واحد و (كأس خمر يدوّخ) أي يورث الدُّوار و (ماء الليمو و حمّاض الليمو) يعني الليمون ولما ذا حذف النون يا ترى ؟ ويظهر ان الليمون كان معروفاً في ذلك العهد كالاترج والنارنج . و (بنّ) لكنهم كانوا يريدون به ضرباً من الكوامخ لا البنّ الاسود المعروف ثم استعاروا كلمة (بنّ) لهذا الذي نعرفه كما استعاروا له كلمة القهوة وهو من اسماء الخمرة . و كلمة (أفّيه) للدلالة على التقزز من الرائحة الخبيثة و (أشه) للدلالة على صوت العطاس .

ومن أغرب كلماته كلمة (شير) واسمها فقال (شيرة) والشير نسمعها في لبنان ويعنون بها الصخرة المشرفة من جبل . هذه الكلمة لم يذكرها علماء اللغة فهي عامية اي مولّدة . ولعلها سريانية عرفها العلماء في زمن العباسيين كما عرفناها بعد الف سنة مذ سمعناها من اللبنانيين . وربما كانت من جملة الكلمات السريانية الباقية في كلامهم وقد فسّرها في (الفرائد الدرية) بقوله : (الشير — Roc près de tomper) .

ومن الكلمات الفصيحة التي كانوا يستعملونها في القرن الرابع وماتت بعد ذلك — كلمة (نفّاط) للسراج الذي يُستضاء به بواسطة زيت النفط اي زيت البترول غير المصفّى . فتصلح لان نسمّي بها مصابيح البترول اليوم . و كلمة (جذور) جمع جَذْر وهي أجور المغنيات و كلمة (مفردات) في وصف الاشياء إذا كانت لانظير لها فيقولون مثلاً (مفردات الاخبار) اي عيونها ونوادرها . و كلمة (متخلّف) و (مدْبِر) يصفون بهما من كان مشئوماً سيّء الحظ غير موفّق في أمور حياته . و يجمعون (مدبر) على (مدابير) .

ومن غريب ما رأيته فيه من الكلمات جمعه (التي) بالتين قياساً على الذين

وابن مالك يقول : (بالألات واللائي التي قد جمعا) وأغرب منه استعماله (تا) بمعنى (حتى) فقال من بيت شعر :

(لم يزل يفعل كذا تا تهورت الخ)

اي حتى تهوّرت . و (تا) اداة تركية كما لايخفى . ولعل وزن الشعر هو الذي اضطره الى استعمالها ؟

* * *

ولنضرب صفحا عن تحليل الكتاب لغوياً ولنعمد الى الكلام على مضامينه اجتماعياً :

قلنا ان الكتاب مقامة اي رواية غريبة . وأن بطلها اسمه (ابو القاسم البغدادي) وهو خيالي كأبي زيد السروجي وعيسى بن هشام بطلي مقامات البديع والحريري .

اما (ابو المطهر الازدي) الذي كتب هذه المقامة فهو — وان لم نظفر بترجمته فيما بين أيدينا من كتب التراجم — أديب من أدباء القرن الرابع . وربما امتدّ عمره الى أواسط القرن الخامس : بيان ذلك ان أبا المطهر المذكور من اصحاب (ابي عبدالله ابن الحجاج) الشاعر المشهور يُفهم ذلك من مقدمة الكتاب التي كتبها ابو المطهر نفسه . وابن الحجاج المذكور مات سنة (٣٩١) فيكون ابو المطهر ولد في أواخر القرن الرابع . ثم ان ابا المطهر ذكر في كتابه بين الأدباء الذين روى شيئاً عنهم (ابن غيلان البزّاز) . وقال المستشرق ناشر كتاب ابي القاسم في المقدمة التي وضعها له — ان (ابن غيلان) مات سنة (٤٤٠) فهذا يدل على ان ابا المطهر عاش الى اواسط القرن الخامس . ولم يمكننا ان نعرف عن الزمن الذي وُلد فيه ابو المطهر ومات فيه اكثر مما ذكرنا .

وابو المطهر عاش في زمن البديع الهمذاني صاحب المقامات الذي مات سنة (٣٩٨) فيكون قد عرفه وعرف مقاماته . كما عرف ابا عبد الله ابن الحجاج وعاشره وسمع مجاناته . و (البديع) هو واضع فن المقامات كما شهد له بذلك الحريري مذ قال : (انه جرى في بعض أندية الادب ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلاّمة همذان) ويعني بقوله ابتدعها اخترعها وسبق غيره الى تصنيفها . وكما أن

البديع كان في ذلك الزمن (نابغة المقامات) كان عبد الله بن الحجاج (نابغة الخلاعات أو المجانات) · وقد عاشرهما (ابو المطهر) كليهما · فلا جرم ان يكون في مقامته التي سمّاها (حكاية ابي قاسم البغدادي) قد جمع بين مااستفاده من النابغتين: التفنّن في سبك وقايع المقامة وتأليف اجزائها وهو أمر استفاده من البديع — والتفنن في السّفه والمجون والخلاعة وهو ما استفاده من ابن الحجاج · فجاءت مقامته في البلاغة آية · وفي المجون نهاية ·

ومما يُستغرب ان (ابا المطهر الازدي) لم يسمّ مقامته (مقامة) بل سماها حكاية مع انه استعمل كلمة (المقامة) في مقدّمتها التي كتبها لها فقال : (أشعار لنفسي دوّنتها · ورسائل سيّرتها · ومقامات حضّرتها) ·

ويُستغرب أيضاً أن احداً من المؤلفين لاسيما كتّاب الفهارس والتراجم وشرّاح المقامات لم يذكر (حكاية ابي القاسم) التي ابتدعها ابو المطهّر مع أنها أعجب أسلوباً · واغزر شؤبوباً · من كل ما كتبه (المقاماتيّون) · وليس ذلك في غالب الظن إلا لما حوته من السّخف والمجون · فلم تتداولها أيدي النسّاخ ولم يُكتب منها سوى النسخة التي ربما كانت نسخة المؤلف نفسه فعلقت بها أيدي المستشرقين فرأوا فيها من وصف الحضارة الاسلامية في القرن الرابع والخامس ما حملهم على طبعها ونشرها ·

(وكنا كتبنا الى العلامة احمد تيمور باشا نسأله رأيه في حكاية (ابي القاسم) فجاءنا منه الجواب قُبيل إلقاء المحاضرة في (ردهة المجمع) فتلونا ما كتبه على الجمهور وهذا نص ما قاله :)

(حكاية أبي القاسم البغدادي) تحتوي على أحاديث مضحكة وضعها مؤلفها على رجل يقال له ابو القاسم البغدادي وقد جاء في (ص ٣) ان اسمه أحمد بن علي التميمي لكن في (ص ١٤٥) انه علي بن محمد التميمي وفي (ص ٨٧) انه كان موجوداً في سنة ٣٠٦ والظاهر انه شخص وهمي جُعل وسيلة لوصف الحالة الاجتماعية ببغداد في ذلك العهد · وقد ضمّن المؤلف هذه الاحاديث اشياء من وصف الخيل والبغال والحمير والأطعمة وأنواع الفاكهة والرياحين والأعطار وأسماء السفن وذكر ألفاظاً

من لغة الملاّحين والعيّارين وغير ذلك · وذكر من كان ببغداد من القينات حوالي السنة المتقدم ذكرها باسمائهن واسماء من كان يعاشرهن وكثيراً ما يستشهد بابيات لابن حجّاج : بعضها نسبها اليه وبعضها أغفل نسبتها · أما زمن المؤلف فلم نقف عليه غير اننا رأيناه ينقل في (ص ٨٠) أبياتاً لابن نباتة السعديّ (المتوفى سنة ٤٠٥) فهو اما ان يكون عصريّه او بعده بقليل لان ما أتى به من الوصف في القصة يدل على انه لم يكن بعيداً عن ذلك العصر اه ·

***

وموضوع مقامة (ابي المطهر) أن رجلاً يدعى (أبا القاسم البغدادي) كان في اصبهان فزار مجلساً لبعض كبرائها وكان في المجلس طائفة من أهل الفضل والادب فأخذوا يداعبونه · ويستنبشون دفائنه وهو يُطرفهم بكل مستملح عجيب من نكته ونوادره · لا سيما تفضيل (بغداد) على بلدهم (أصفهان) وانها كانت أرفع شأناً · وأنضر عمراناً · واكثر استجماعاً لمرافق الحياة · وبُلهنية العيش ·

وكان ابو القاسم هذا أديباً عجيباً في بلاغته · وقوّة عارضته · غزير المادة في اللغة والادب والشعر وصناعة الانشاء والتفنّن في صوغ الكلام وحوكه · ولكنه ويا للاسف كان ماجناً خليعاً مفرطاً في السخف · فلم يكن يتحاشى ذكر شيء منه في ذلك المجلس · وكان يدور الكلام بينه وبين القوم بشكل المحاورة والسؤال والجواب · ولقد طال ذلك الحديث بينهم وامتدّ النَّفَس فيه فكان كتاباً استغرق نحو مئة وخمسين صفحة متوسطة القطع ·

***

اراكم أيها السادة قد ظمئتم الى سماع شيء من تلك المقامة · فدونكم منها مايسعه الوقت · ويليق بمجلسكم الكريم ·

نذهب اولاً الى أصفهان وندخل مجلس ذلك العظيم الاصبهاني · لكننا نقعد في معزل عن الجماعة كي لا تقع علينا عينُ ذلك الماجن البغدادي فيرشقنا بحصاته · ويصيبنا شيء من أذاته التي كانت تصيب الحاضرين · ولم يسلم منها ربُّ الدار المسكين ·

يجري ذكر أصفهان · فيذمّها (ابو القاسم البغدادي) فيقول له : الآخرون (يا ابا القاسم ! قد أسرفت · بعض هذا ! !) فيقول لهم :

أحاكمكم الى شاهد منصف : الى السمع · فأتكلم أولاً في الأسماء · إلى أن نصير إلى حقائق المعاني · فنتكلم فيها ·

ثم يشرع بذكر لهم أسماء أماكن في بغداد : مثل (الرّصافة) (درب الريحان) (سوق العروس) الخ · ثم يقارنها بأسماء اماكن في أصفهان : مثل (كورسان) أي المقابر (موشكاباذ) أي موضع الفار · (كوي كداي) درب الصّم · (كوي كوران) درب العُمي الخ :

ثم يهيج شوقه الى بغداد فيقول : هل أرى والله دجلة مشحونةً بالمراكب والزوارق · محفوفةً بالقصور والجواسق · يرتفع ما بينها أصوات الاغاني · وخفقان النايات والسواني · واصوات الملاّحين · وزعقات المؤذّنين · إن رأيتَ ترَ والله جمالاً وكمالا · وتسمع من ألحانها الشجيّة سحراً حلالا :

(لعمري لقد فارقتهم غير طائع ولا طيّبًا نفسًا بذاك ولا مُقِرّ)

(وقائلةٍ ماذا نأى بك عنهم ؟ فقلت لها : لاعلم لي · فاسألي القدر)

ثم يصف خيل بغداد فيقول وفيه المبالغة :

(مشترف الهادي كأنّ أذنه تصغي الى سرّ حديث السّما)

(فلم يكن يدمرج الا إذا وضعت في حاركه سلّما)

ثم يصف الفرس من خيل أصفهان فيقول : قد نفخ التبن بطنه : فهو كالغرارة · تسبقه عند الركض الحمارة · ويفزعه صوت الفارة · وإما مهزول كالاً لف عجفاً · او كالشنّ البالي دقفا · يعثر بالبعرة · وتقيّده الشعرة · قد أكل الجرب جلدته · وحصّ ذنبه وناصيته ·

(عظامه قد ظهرت كأنها كأنها من حطب يابس)

ووصف الحمار من حميرهم فقال : أسود مثل النِقس · كالقربة البالية او زق الدبس · إن وقفه راكبه على جماعةٍ أدلى · وان تركه أدبر وتولّى · وإن امسكه

أتعب يديه · وان حرّكه خلع رجليه · من مغرز فخذيه · وان غفل عنه قام · وان سلّم على مستقبل جثا تحته ونام ·

ثم قارن بين الدور والاثاث والحصُر والثياب والطيب في البلدين · فقال عن أصبهان : وفتيانكم بالابراد وعمائم القطن الكحليّة · تُعلّق في أهدابها خيوط خضر وحمر · واهل السوق : لو عُصر قميص أحدهم يخرج منه جرّة دهن ·

ووصف الخِوان و صحافه فقال لأهل اصفهان :

ولا أرى بين يدي أحدكم خِواناً قوائمه من خلنج (١) خراساني · بلا وصل ولا كسر · كأنه طبق منثور · او قطعة بلّور · او ثوب وشي · يشتغل الانسان بالنظر اليه · عن الاكل عليه · فوقه رُغفان مخبوزة من دقيق (فائق الهويدي) و (الطنسيري) طحن (العروب) · أبيض فيه صفرة · عجينه مثل الكعك : يمتدّ مثل الكُنْدُر (٢) و يلتزق بالاصابع · يشرب الملّوك منه دجلة · خبزه يصرّ تحت الاضراس · و يتعالك حتى يوجع الفكّ عند مضغه · النظر اليه يُشبع · واللقمة منه تبلغ القلب — وسكاريج (٣) : فيها الجبن الدينوري الحرّيف الذي يفلق الشهوة · ويحرّك المعدة · وز يتون دقوقي (٤) مدخّن · مخلوط باللوز المقشّر والصعتر · تنشطر الزيتونة على الرغيف فتملؤه ز يتا · و يتدحرج كأنه بنادق عنبر · وجبن رومي مقلوّ · تدمعُ عينُ آكله من حرافته · حتى كأنه فارق أحبابه · ابيض مُشْرب صُفرة · أملس · حديث · تأكل القالب منه برغيف · لا ينفخ ولا يُعطّش · ولا تشمّ له سهوكة (٥) · ينقي المعدة · و يلحس البلغم لحسا · و باذنجان مخلّل بماء حبّ الرمان · يصرع بحموضته الطير من جوّ السماء · و يقلع من المعدة الصفراء · وتُشمّ رائحته من فرسخ · يُضرّس قبل أن يؤكل · وصدور البط بماء التفاح · وماء حبّ الرمان والتوت الشامي · وارز بلبن حليب · قد تُرك فيه الزعفران · ورُصّع بالحمّص · وذُرّ عليه سكر مدقوق ···· وقطايف لطايف · مقلوّة مغرّقة في الجلاب · منضودة في جامات البلور المخروط · والصحون الصيني الملوّنة ·

(١) ضرب من الشجر (٢) هو الحصالبان (٣) صحاف المشهّيات (٤) نسبة الى (دقوقا) وهي بلدة بين اوربل وبغداد (٥) رائحة كريهة ·

و يُرفع الطعام و يأتي بعده فرّاش متهلل الوجه · نظيف الثياب · حسن الشمائل · خفيف الروح · بيده خلال سلطاني مقوّم · كأنه مَدَاري [١] الفضّة · من عمل (نجاح الاسود) · فيناول الجماعة منه بتلطّف ·

ثم وصف الطست والابريق والمنديل الذي يتمسّح به وصفا عجيبا ثم قال :

هذه أوصاف موائد العراق التي ماأرى والله شيئًا منها عندكم : انما ارى مائدة بلا خلّ ولا بقل · كشيخ بلا فهم ولا عقل · مبسوطة على سفرة رُوَيْذ شقيّة · بساطُ الارض أنظف منها · عليها عوض البوارد [٢] باذنجان بسته · شلجم بسته · خيار بسته قثّا بسته · زعرور بسته · أحرق الله بسته · فكم بسته ؟! أما الشواء في مائدتكم فهو والله قلوب الحاضرين ·

وأرى قدوراً تُطبخ بلحم البقر الغلاظ · لاينفسخ لحمها باليدين · يأخذ أحدكم قطعة اللحم بيده · و يجذبها باسنانه · فترشّش على وجهه ولحيته وثيابه · ممزوج ذلك اللحم برق · يجري عليه الزورق · تغوص يد الانسان فيه الى المرفق · حتى يجد اللحم · · مما يأكله الوقادون والزبالون · مختوماً ذلك كله بالعنب الاسود · وبحلاوة مدلوكة باليد · ياتي بعد ذلك قروي سوادي [٣] كهل · في قدّ الجمل · بلحية شمطاء كثّة · وحالة رزيّة رثّة · بيده أقطاع حطب · يناولهم للتخلّل · ثم يسوقهم الى صحن الدار · ويجمعهم لغسل الايدي · على بالوعة تُخشّم والله الأنوفَ من روائح القاذوريات المجموعة فيها الخ ·

ولا أرى في فواكهكم عنباً رازقيّا كأنه مخازن البلور · او ظروف النور ·

(ورازقيٍ مُخطّف الخصور كأنه مخازن البلّور)
(قد مُلئت مسكا الى الشطور وفي الاعالي ماء وردٍ جوري)
(لو أنه يَبقى على الدهور قرّط آذانَ الحسانِ الحُورِ)

ولا رمان مرمر · كأنه صُرَر · قد مُلئت بالجوهر · أو الياقوت الأحمر ·

---

(١) جمع مدرى سن من عاج او فضة يخلّص به الشعر وهو غير المشط ذي الاسنان الكثيرة (٢) المشهيّات والمقبّلات · (٣) منسوب الى السواد اي بلاد الفلاحين ·

ولا مشمشاً كأنه زقاق ذهب · قد حُشيت عسلا · ولا الكمثرى الشامي · والسلطاني · والزرجون والنهاوندي الخ ·

انما أرى ساف أمرود · وبهم رود · ونار مرود · وسلم رود · قد أوجعني والله الزود · مما أكل التمرود الخ ·

ثم ذكر مجلس الشراب · فقال : ما أري والله لكم مجلساً مسجوراً بالندّ : فروائحه تبلغ الهواء · وتعبر الى دور الجيران · ولا منارة ملوكية · يزهر سراجها بخمسة فتايل · بزيت شامي · لا تشم فيه زعارة ولا مرارة · يصلح للقدور المطجنات · والقلايا المحرقات ·

ثم وصف الندامى والخمور · فقال عن نبيذ أصفهان : إنما أرى نبيذاً أسود كالدبس أو النقس : (في لون زنجي ونكهة أبخر) ·

(إذا صُبّ مسوده في الزجا ج فكأس النديم به مجبرة)

ثم وصف الساقي فقال :

(يديرها ساقٍ له ركبة كأنه مخلاج نداف)
(في يده باطية ضخمة كأنها مغراة إسكاف)

وربما كان الساقي شيخاً أبيض الرأس واللحية · كأنه بعض المؤذنين أو احد الحجامين · طعمُ الكأس من يده طعمُ الزقوم · والهفاه ! سقى الله ديارات كسكر[1] ومنازل كسرى وقيصر :

(وسلامٌ على مواخير بُصرى وأواناوالقفص والبردان[2])
(ليت شعري مذغبتُ عنها على كم قرّر البائعون سعر الدنان ؟)

قال : ولا أرى في جلسائكم رجلا ظريفاً · مستطاب النوادر · حلواً في القلوب

---

(١) كورة بين البصرة والكوفة (٢) الثلاثة أسماء دساكر ومواطن لهو في ضواحي بغداد و يشبه تشوقه هذا تشوق ذاك الذي قال :

(ليت شعرى متى تخب بي النـ ـاقة بين العذيب فالصيبون)
(محقباً ذكرة وخبز رقاق وحباقاً وقطعة من نون)

و (الحباق) جرزة البقل ·

وانما أرى طفساً [١] بارداً · منفيهقاً متقعراً يشقق الكلام : إمّا في عويص اللغة · او يتبظرم بعلل النحو · سلّط الله عليه العلل · ولا أقاله منها · شجى في الحلق · وشوك بين الأخمص والنعل ·

ثم ذكر المغنّين : فقال لاهل أصفهان : لا أرى والله في مجالسكم مطربا معربا : يقول الشعر الفصيح · ويكسوه اللحن الصحيح · مثل قوله :

(يانسيم الشمال من نحو بصرى | بأبي أنت لانسيم الجنوب)
(انت لما اعتللت داويت جرحي | يانسيم الصبا بعرف الحبيب)
(فتمائلت من ضنى كان يبكي | كل يوم عليّ منه طبيبي)
(يا فتاة شبابها أمتع الله به حسنها عدوّ مشيبي)
(انما أنت ظبية في كناس | ليس ترعى سوى ثمار القلوب)
(انما انت شمس دجن على طا | قة آس مغروسة في كثيب)
(إتقي الله وارحمي ضرّ صبّ | ورث الضرّ فيك عن أيوب)
(وعمي بالبكا فيا يوسف الحسن أما تشتفين من يعقوب ؟)

ثم وصف مغنّيات بغداد ثم قال : هذه أحوال لا أراها باصبهان · انما أرى قردة كأنها مسورة [٢] عرضية · أو غول طالع من برية · بشعر كالعهن المنفوش · ووجه كالميت المنبوش · شعرها فضة · وثغرها ذهب · كأنها طاقة نرجس !!!

فيقال له ياابا القاسم ! أين يذهب بك ؟ فيقول أخطأت أو اصبت ؟ فيقال وكيف أصبت ؟ فيقول نعم : رأسها أبيض · ووجهها أصفر · وساقها أخضر · أأعجبكم هذا ؟! ما من شيء والله حسن محمود · إلا وفيها منه شبه أو معنى موجود : لها من البدر كلفته · ومن الورد شوكته · ومن الحمار نهقته · ومن الطاووس زعقته ·

(ولا تستطيع الكحل من ضيق عينها | وإن عالجته كان فوق المحاجر)

تحت حاجبين ينسج منهما غرائر · ويعقد شعرهما ضفائر ·

---

(١) اي قذراً نجساً (٢) اي مخدة طولها وعرضها سواء ·

(ترى شيبها تحت القناع كأنه جدايل ليف في هدبة ُجاج)

ثم قارن بين غلمان الخدمة هنا وهناك فقال : في غلمان أصفهان : وانما ارى والله دُباً في طول المنارة · وعرض الفوارة · قد خرج عن حدّ الاعتدال · وذهب ذات اليمين وذات الشمال · بارد ثقيل · كأنه روثة فيل · عابس كأنه عضّ على بصلة · أو أكل فجلة · بوجه قمطرير · كأنه أسعط بالخردل · جهم كأنما نفح وجهه بالخل · له وجه كأنما تبرقع بالخنادس · او كُسي قشور الخنافس · اوحش والله من أيام المصائب · وليالي النوائب · وسوء العواقب ·

(خلقته حجة اهل الزندقة صارت به اقوالهم محققة) الخ

(ذو صورة شوهاء ان لم تكن قرداً ففي قالبه مفرغة)
(ثلاثة ليس لها رابع هذا الفتى والحُشّ والمدبغة)

انتن والله من هدهد ميت · في جورب عفن · أثقل من همّ الدين · وامرّ من وجع العين · كأنه صورة على باب حمام ؟ · سطل دمشقي عروته منه ؟ الخ ·

ثم عاد الى وصف مغنيات بغداد · وذكر طرف من نوادرهن · وحسن اجوبتهن ·

فقالوا يا ابا القاسم ! لو تفضلت ببعض تلك النوادر لكنت قد أتممت الانس باحاديثك · فيذكر لهم على سبيل المثال (زادمهر [١]) جارية (ابي علي بن جمهور) وكان ابن جمهور هذا متزوجاً بابنة عمه · فكان منها بين جمرتين : تحرقه هذه بنارها · وتلذعه تلك بأوارها · فأسكن ابنة عمه واسط · وجاريته داره في البصرة · وذهب هو الى بغداد · وبغداد جنة الموسر · وعذاب المعسر · وأقبل على اللهو ومواصلة السرور · فضجرت زادمهر · وكتبت اليه كتباً من البصرة : وها كم نموذجاً منها :

اخبرني على من تركتني في دارك المشؤومة بالبصرة ؟ · عولت بي على ضياعك الخراب · او على وكلائك السفل · والله ما أشبه دارك الا بدير هرقل [٢] وانا

---

(١) اي بنت الشمس وهي كلمة فارسية · (٢) وهو الذي قال فيه الشاعر ايضاً :

(أولى الامور بضيعة وفساد أمر يدبّره ابو عباد)
(وكأنه من دير هرقل مُفلت شرس يجر سلاسل الاقياد)

محبوسة فيه كبعض المجانين · لا يرجع عليَّ شيءٌ الا من أجرة دورك · خمسة وثلاثون درهماً في الشهر · لو شربت بها فُقّاعاً ما كفتني : يا ابن جمهور! عليك بفلانة وفلانة اللواتي يشبهنك · و يفخرن بك و يقلن : كنّا عند (ابي علي) تاجر السلطان العظيم الجليل · أنت يصلح لك مثل الحمارة البلهاء ابنة عمك : تكسر الجوز على رأسها ولا تجسر تكلمك · فهي تظن انك الوزير ابن الزيّات · اوابراهيم ابن المدبّر · فأما (زادمهر) التي تدقّك دقّ الكشك · و تهينك هوان الكتان · فليست من امثالك · خلّصني الله من ذنوبي كما خلّصني منك ومن رؤيتك :

(انا في نعمة ببعدك عني اكّد الله نعمتي بالدوام)

وحياة أنفك المعوّج · وكحلك المذأّب · وشوابيرك [1] المحذّفة · لأُكافينّك صاعاً بصاع : فلا تمضي شهور حتى يجيءُ ممشوطاً مدهوناً · أضع يده في زعفران على الكتاب واوجّه بالكتاب اليك · ويحك يا ابن جمهور كأنّ ملحك على ركبتك [2] · نسيتني واشتغلتَ عني · ابعث لستّك العزيزة نفقة · واحملها اليك الى بغداد · حتى لا يضيق صدرها · واشترلي بحياتي عوداً بحاشية ساج · منقوشاً بعاج · و يكون ظهره ديباج · حتى اجيءُ أغني به ٠٠٠ الخ ·

ثم جعل يسمي جواري بغداد المشهورات واحدةً واحدة · و يذكر شيئاً مما كنّ يغنّين به من الشعر · فيطرب لسماعهن شعراء بغداد وادباؤها · مثل (ابن الحجاج) و (ابن نباتة) وغيرهما · ثم يقول : فلو ترون كيف كان يطرب (ابن غيلان البزّاز) على ترجيعات (ريحانة) جارية (ابن اليزيدي) اذا غنّت :

---

(١) مقلوب شوارب وهي لغة عامة بغداد في ذلك الحين · وعامتنا اليوم يتلاعبون بالالفاظ كذلك فيقولون: تحشّر به واصله تحرش به و يقولون: ربقان مكان يرقان · و (رقعه كف) مكان (قرعه كف) ومعاقة مكان ملعقة وهكذا ·

(٢) كناية عن قلة الوفاء فان الركبة لا تمسك الملح ومنه قوله الآخر :

(لا تلمها إنها من نسوة ملحها موضوعة فوق الرُّكب)

(أعط الشباب نصيبه مادمت تُعذَر بالشباب)
(وأنعَم بأيام الصبا واخلع عذارك في التصابي)

فيقول له قائل : أيش كان يعمل ابن غيلان اذا سمع هذا الغناء فيقول : تنقلب حماليق عينيه ، و يسقط مغشياً عليه ، وهات الكافور ، وماء الورد ، ومن يقرأ في أذنه آية الكرسي ، والمعوذتين ، و يرقيه بشراهيا مراهيا ، أيش يعمل ؟ هكذا يعمل يا بارد ؟

أو لو رأيتم طرب (ابن غسان النصراني) اذا سمع حبابة جارية ابي تمام الزينبي وهي تغني :

(وحياة من أهوى لاني لم اكن أبداً لأحلف كذباً بحياته)
(لاخالفنّ عواذلي في لذتي ولأسعدنّ أخي على لذاته)

فيقولون له : هذا ابن غسان زيادة ! ! اي رجل كان يا ابا القاسم ؟ فيقول : هذا ابن غسان كان فتىً مليحاً ، ظريفاً ، حسن الادب ، محدّثاً فيما بين الاطباء ، وهو الذي يقول في ابي مضر العاقل ، وقد عالجه من علة فلم يقض حقه :

(هب الشعراء تُعطيهم رقاعاً مُزوّرة كلاماً في كلام)
(فلِمْ صفة[1] الطبيب تكون زوراً وقد أهدى الشفاء من السقام)

وكان آخر امر المسكين أنه غرّق نفسه في (كُرداب كلواذا) وذلك لاسباب اجتمعت عليه : من صفر اليد ، وسوء الحال ، وجرب أكل بدنه ، وعشق حرّق قلبه ، حتى جرّ الى نفسه حينها بما اقدم عليه ،

ولا يزال ابو القاسم يذكر المغنين ، و يعدّد الادباء الذين كانوا يطربون بغنائهم حتى يختم هذا بقوله :

ولو ذكرت هذه الاطراب من المستمعين ، والاغاني من الرجال والصبيان والجواري والحرائر لطال و مُلّ ، وكنت كالمزاحم لمن صنّف (كتاب الغناء والالحان) . ولعهدي بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة وقد أحصيتُ انا وجماعةٌ في الكرخ اربعمائة وستين جاريةً في جانبي دجلة ، وعشر حرائر ، وخمسةً وسبعين من الصبيان ،

(١) يريد بصفة الطبيب ما نسميه اليوم (وصفة) أو (راشته)

يجمعون من الحذق والظرف . ما يفوت حدود الوصف . هذا سوى من كنا لا نظفر بهم . ولا نصل اليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم . وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب الا اذا نشط في بعض الاوقات [1] .

ثم يطلب ابو القاسم من صاحب الدار ان يهيء له طعاماً . وقبل القيام اليه يلعب بالشطرنج مع بعض الحاضرين فيجري بينهما وهما يلعبان كلام لا يمكن أن نفهمه نحن اليوم لانه يتعلق بكيفية لعب الشطرنج في ذلك العهد . وقد استغرق وصف ذلك نحو ست صفحات من الكتاب .

ثم يقومون الى المائدة فتقدم اليهم ألوان الطعام واحداً واحداً . وهو يصف كل ذلك . و يورد ما شاء وشاءت براعته من النكت والنوادر . وفي خلال ذلك يذكر الطبّاخ . وما يجب ان يجمعه من الاوصاف فيقول :

والله لقد رأيت ببغداد في دور بني معن طبّاخاً حبشياً اسمه (نارنج) ما اظنّ أني شاهدت مثله : كان والله عنوان النعم . وترجمانَ المروءة . وطبيب الشهوة . أحذق من رؤي من اهل صناعته . وارهفهم سكيناً . واعدلهم تقطيعاً . واذكاهم ناراً . واطيبهم أبزاراً . كأنّ المواائد التي يعبّيها . والثرائد التي يتنوّق فيها . رياض مزخرفة . او برود مفوّفة . كان لايجمع بين لونين . ولا يوالي بين طعمين . يخالف بين طعام الغداء والعشاء . و يباعد بين ألوان الصيف والشتاء . يكتفي باللحظة . ويفهم بالاشارة . كأنه مطّلع على ضمير الضيف والمضيف . كان والله يعالج ما يوقظ شهوة النعسان والثكلان والمغموم . وكان إذا فرغ من إعداد الطعام يقال له (يانارنج الى أي شيء تحتاج ؟) فيقول : الى قوم جياع .

ويجري على المائدة ذكر اثنين من فضلاء بغداد . فيُسأل عن رأيه فيهما وأيهما

(١) وذكر القاضي ابو علي المحسن التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ في كتابه (النشوار) كلاماً عن عمران بغداد فقال : أحصي ما يزرع و ينفق على أهلها من صنف الخس فوجد بخمسين الف دينار . فما ظنك ببلد يؤكل فيه في فصل من فصول السنة صنف واحد من صنوف البقل بخمسين الف دينار ! ! ! .

افضل ؟ فيقول : بينهما من البعاد · مابين النجاد والوهاد · ما بين الناهق والصاهل · والناقص والفاضل · ما بين اللؤلؤ والمرجان · واللفت والباذنجان · من يُسوّي بين رجل اغزر من البحر · واوضحُ من الفجر · و بين آخر أيبس من القفر · وأوحش من القبر · ذا والله أخفّ من النسيم · وذا أثقل من مذمّة اللئيم · ذا أخشن من الخناجر على المناخر · وذا أحسن من المحاجر في المعاجر · ذا سَعْد السعود · وذا سعد الذابح ذا والله أندى من القطر · وذا أجمد من الصخر · ذا أعزّ من التبر وذا أذل من البعر · ذا عُود دُشُقّ لمواضع السجود · وذا عودٌ · مُجمَّر لحُش اليهود ·

ثم يقومون الى مجلس الشراب · فتصف الرياحين · ثم الفواكه · ثم الغناني · فيسأله واحد يا ابا القاسم ! وهل تعرف شيئا من السباحة ؟ فيقول يا أحمق ! وسواديّ لا يحسن أن يركب البقر ؟ وتركي لا يحسن أن ينزع في القوس ؟ انا والله اسبح من الضفدع · ومن التنين أعرف من السباحة انواعاً لم يحسنها قط سمكٌ ولا بط : اعرف منها الشق والموزون والمقرفص والذرع والغمر والاستلقاء والشكابي · والطاووسي والعقربي · وكان أستاذي في جميعها ببغداد (ابن الطوا) و (الزنابيري) ·

ثم يسألونه عن السفن والملاحين · فيعدد لهم انواعها · ويصف لهم ملاحاً سمعه يوماً يخاطب رجاله اثناء الاستعداد للسفر : فذكر من ملابسه وأدوات سفينته واصطلاحات مهنته مالا يتسع الوقت لذكره بل لانفهمه لو سمعناه ·

ثم سأله سائل عن داره فأجابه : ويحك ! أيش تعمل بداري ؟ هي في سكة الجوهري · دار أسست على غير التقوى بحمد الله ·

(فان ترد دار الخنا والحوب ومعدن العصيان والذنوب)
(وموطن العادات والعيوب فاعدل اليها تحظ بالمطلوب)

ثم يأخذ في فنون من الحديث · و يسلك منه مذاهب مختلفة · حتى يسمع حديثاً لبعض الحاضرين فيعجبه و يقول : ذا كلام كبرد الشراب · وبُرد الشباب · قطع الزهر · وعقد السحر · حسن الديباجة · صافي الزجاجة · هو كالبشرى بالولد الكريم · الى سمع الشيخ العقيم ·

ويلتفت الى آخر يتكلم · فيذم كلامه قائلاً : ذا كلام أثقل من الجندل · وامرّ من الحنظل هذيان المحموم · وسوداء المهموم · بمثله يتسلّى الاخرس عن كلامه · ويفرح الاصمّ بصممه · كلام تتعذّر الاسماع من حزونته · وتحير الاوهام من وعورته ·

ثم يمدح بعض الحاضرين فيقول : شجرة طيبة أصلها في الماء · وفرعها في السماء · احلى والله من الوبل · في زمن المحل · الخَلق وَضيء · والخُلق رضي · والفضل مضيء · محاسن انا والله منها في روضة وغدير · بل في جنة وحرير ·

ثم يلتفت الى آخر فيذمّه قائلاً : كالكمأة لا اصل لها ثابت · ولا فرع نابت · لو قُذف والله الليل بلؤمه · لطفئت أنوار نجومه · هو في العين قذاة · وبين النعل والاخمص حصاة · النحسُ يطلُع من جبهته · والخلُّ يقطر من وجنته · ثم يخاطبه قائلاً (رجزاً) :

(يا رفسةَ البغل على الطحال يا صفقةً بالنعل في القذال)

(يا لسعة الزنبور في المآقي يا غُدوة البين على العشاق)
(يا نجعة الحرّة بالطلاق يا نهشة الافعى بلا ترياق)

(يا قبح شيب لاح في نصول يا كلَّ شيءٍ وَحِشٍ مهول)

(يا شوكة في قدم رخصة ليس الى إخراجها من سبيل)
(يا حيرة المكروب في امره و يا صعودَ السعر عند المعيل)
(يا نهضة المحبوب في غفلة يؤذنُ فيها باقتراب الرحيل)
(يا رجعة المحروم من سفرة لم يحظ فيها بنوال المنيل)
(بل يا كتاباً جاء من مخلف للوعد مشحوناً بعذرٍ طويل)

(يا دبلةً في الفؤاد قد تغلت من أسف قاتل ومن كمد)
(يا ورماً في المعى يدلّ على برد مزاج الطحال والكبد)

(يا قرحة في ناظر ... غلطوا عليها بالذرور)
(فتسلخت مع ما يليها ... في الجفون من البثور)
(يا غمة الكناس من ... شم الزرائر[1] والعبير)
(يا سفرة في دجلة ... والريح تلعب بالجسور)
(يا جلسة في شمس آب ... على الصخور بلا حصير)
(تحت السما والشمس تو ... قد نارها حر الهجير)
(يا كل شيء متعب ... متعقد صعب عسير)
(يا شؤم بخت شقية ... قد عمرت عمر النسور)
(شق القوابل صدعها ... عن تسعة مثل البدور)
(حتى إذا شبوا لها ... وتلاحقوا مثل الصقور)
(وقعت عليهم شيرة[2] ... بالطول في يوم مطير)
(فرأتهم ولحومهم ... في الدار تجرف بالمرور)

يا أول ليلة الغريب · اذا بعد الحبيب · يا يوم الاربعاء في آخر صفر · يا ثقل الكابوس في وقت السحر · يا وجه المستخرج[3] في يوم السبت · يا إفطار الصائم على الخبز البحت · يا أثقل من طفيلي يعربد على الندماء · و يقترح انواع الغناء · ويتشهى بعد أكل الغداء · طالباً الوان الصيف في الشتاء · يا أشد على الاحرار من جفاء الحجاب · وعبوس البواب · وسوء المنقلب والاياب · يا أشد من كربة صاحب المتاع الكاسد · ومجوزة المستمع الى المغنى البارد · يا أكره من هجران الصديق · ومن النظر الى زوج الأم على الريق :

(حويت الشؤم حتى الكف عن صنعك قد تنبو)
(وحتى السحب ان جاور تها لم تمطر السحب)
(وحتى لو صحبت الوحش لم ينبت له عشب)
(متى سميت إنسانا فان الناس قد سبوا)

---

(١) الذرائر الطيوب والعطور · (٢) اي صخرة وقد تقدم القول على هذه الكلمة في فاتحة المحاضرة · (٣) هو المحصل اي الجابي و بالتركية (تحصلدار) ·

و يذكر ابو القاسم أصدقاءه فيسأله أحد الحاضرين كالمستهزئ : ومن هم أصدقاؤك ؟ فيقول — وقد جنّ جنونه ، وتوقدت بالغضب عيونه : « والك ! أصدقائي أكثر من خوص البصرة ، وبلوط الجبل ، وخردل مصر ، وعدس الشام ، وحب الجزيرة ، وشوك القاطول وحنطة الموصل ، ونبق الاهواز ، وزيتون فلسطين ، والك ! أصدقائي « سخطة ابن ابي البغل » و « موسى ابن سلحة » و « جعيفر بن الكلبة » و « كردويه بن وردان » و « عاقول الارمني » الخ الخ .

والك ! أتعرفني ام لا ؟ انا الموج الكدر ، انا القفل العسر ، انا الباقعة الشاطر ، انا قلاع القناطر ، والله اني اضمك في جيبي وانساك حتى تعفن ، أقطع رأسك واجعله زرّ قميصي ، استنشقك فلا اعطسك الا في الجحيم ، وابلعك فلا انفطك إلا على الصراط المستقيم .

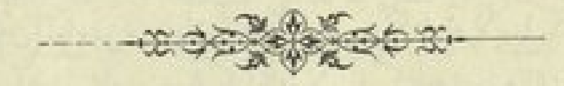
عندها ضحك الحاضرون ضحكاً عاليا ، ثم خافوا ان يغضب ابو القاسم و يبادرهم بالسباب ، ففضلوا الرحيل ، وابتدروا الابواب .

* * *

انتهى ايها السادة ما استحسنت عرضه عليكم من عبارات هذه المقامة ، ومختلف اساليبها في الانشاء ، وحسن التصرف والبراعة في التفنن ، وأرى ان هذا التفنن في النقد هو الذي أجاد فيه من المعاصرين العلامة احمد فارس في كتاباته لاسيما كتابه (الناريات) وكذلك ابراهيم بك المويلحي في كتاباته لاسيا كتابه (ما هنالك) وهو ابو محمد بك المويلحي صاحب الكتاب الخيالي المشهور الذي سماه (عيسى بن هشام) وربما سبقهم في هذا المضمار الفاضل احمد فؤاد المصري صاحب (جريدة الصاعقة) ولا يصح ان نغفل هنا ايضاً ذكر الكاتب المصري المعروف في دمشق (محمود بك زكي) فان هؤلاء في عصرنا الحاضر يشبهون في طريقتهم في النقد — ابا المطهر الازدي صاحب هذا الكتاب ، وهذه الطريقة وصفوا بها (ابا محمد الاعرابي) المعروف بالاسود الذي تصدر في القرن الخامس للرد على العلماء والاخذ على القدماء ، قال ياقوت عنه : كان علامة نسابة عارفاً بايام العرب واشعارها لا يقنعه أن يرد على اهل العلم رداً جميلاً انما يجعله من باب السخرية والتهكم وضرب الامثال ، فالكاتب على هذه الطريقة يستعمل الكنايات والامثال

والتفنن في الوصف والتشقيق في الكلام مفرغاً كل ذلك في قالب التهكم بخصمه والتخجيل له ٠

وللمعري في رسالة الغفران اسلوب في النقد التهكمي يشبه اسلوب (حكاية ابي القاسم)٠ من ذلك قوله يصف كتاب (التاج) الذي وضعه ابن الراوندي معارضاً به القرآن — واما تاجه فلا يصلح ان يكون نعلاً ٠ ثم قال : (وهل تاجه الا كما قالت الكاهنة : أفٌ وتفٌ ٠وجورب وخفٌ ٠ قيل وماجورب وخفٌ ؟ قالت : واديان في جهنم اه ٠ و يعني المعري ان ماذكره ابن الراوندي في كتابه التاج مختلق وصرف للحقائق عن وجهها كما فعلت الكاهنة مذ زعمت ان (الجورب والخفٌ) هما واديان في جهنم ٠ وزعمها كذب صراح ٠ (المغربي)



الكتب والمطالعة [1]

اتى على الانسان حين الدهر لم يكن فيه يعرف الكتابة ولا يفتقر اليها لاقتصاره على بساطة العيش واكتفائه ببعض اشارات والفاظ للدلالة على ما يريده من المعاني . ثم لما تحسنت احوال معيشته وارتقت شؤونه الاجتماعية شعر باحتياجه الى نقل معانيه من مكان الى آخر وتدوين افكاره واعماله وحوادث حياته ليطلع عليها من يأتي بعده واشتدت به الحاجة والحاجة امّ الاختراع فاخترع الكتابة في زمن مجهول لم يستطع العلماء ان يتوصلوا الى معرفته مع كثرة البحث والتنقيب .

وكانت الكتابة في اول امرها صورية اي قائمة بصور تدل على المعاني ثم تحولت على توالي العصور الى صوتية اي قائمة بعلامات تدل على الصوت البشري . اما الصورية فكانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها الصور تشابه مصوراتها مشابهة حقيقية كصور الرجل والمرأة والطفل والجمل والكلب والذئب والزهرة والشجرة والسكين والفأس وغيرها للدلالة على هذه المذكورات بعينها .

والثانية ما كانت فيه الصور تشابه مصوراتها مشابهة مجازية كصورة رأس رجل على بدن اسد للدلالة على الشجاعة . وصورة امرأة حاملة بيدها حمامة للدلالة على الوداعة . وصورة ريش الطاووس في الخط الهيروغليفي للدلالة على الصدق .

والثالثة ما كانت فيها الصور غير مشابهة لمصوراتها وانما هي كنايات عن المعاني التي يراد التعبير عنها كصورة الطائر صاعداً او نازلاً للدلالة على الصعود او النزول . وصورة الساقين للدلالة على المشي او الركض وصورة العين والماء بقربها للدلالة على البكاء . فبهذه الصور الحقيقية والمجازية والرمزية توصل الناس الى التعبير عن الذوات والمعاني والعلاقات التي بينها . ولكنهم وجدوا ان هذا التعبير قاصر كثير

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ السيد انيس سلوم القاها في ردهة المجمع العلمي في ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٢٢ م .

الغموض والالتباس فحاولوا ان يجدوا طريقة اسهل واوضح منه وما زالوا يعملون افكارهم حتى تيسر لهم الانتقال الى الكتابة الصوتية او اللفظية. وهذه ايضاً كانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها كل صورة او علامة تدل على كلمة كاملة فاستلزمت ان تكون العلامات فيها كثيرة على قدر كلمات اللغة كما في الخط الصيني والخط المكسيكي .

والثانية ما كانت فيها كل علامة تدل على مقطع واحد كما في الخط الحبشي والمراد بالمقطع حرف متحرك او حرفان اولهما متحرك والثاني ساكن فقلّ فيها عدد العلامات بحيث لم يتجاوز خمس مئة علامة كانوا يكتبون بها كل كلمات اللغة كما تبين من كتابات قدماء الاشوريين والبابليين .

والثالثة ما كانت فيها العلامات تدل على ابسط الاصوات البشرية لا على المقاطع وهذه العلامات صارت حروفاً سمي مجموعها بحروف الهجاء او حروف المباني وهي التي نستعملها اليوم. وبواسطة الكتابة الصوتية وتسطير الحوادث وانباء محدثيها وزمن حدوثها ابتدأ عصر التاريخ البشري الحقيقي وكان لهذا النوع من الكتابة شأن عظيم في تمدن الجنس السامي مدة اربعين قرناً . اما الحروف الهجائية فلا يعلم بالتحقيق اي الشعوب اخترعها فقد قيل ان مخترعيها المصريون وقد عثر من عهد قريب على كتابات ترجح هذا الرأي وقيل الكلدانيون وقيل الهنود وقيل العرب وقيل الفينيقيون والقول الاخير هو المرجح عند الاكثرين لان الفينيقيين هم الذين نشروها في الشرق والغرب فانهم كانوا اشهر امة باتساع متاجرهم وطول اسفارهم فاشاعوا استعمال هذه الحروف بين العبرانيين والعرب والهنود ثم حملوها الى اليونانيين فشاعت عندهم ثم انتقلت الى الرومانيين والاسبانيين والسلاف القدماء والجرمانيين وغيرهم وكان لها شأن عظيم في تمدن الجنس الآري مدة ثلاث آلاف سنة .

اما المواد التي كان القدماء يكتبون عليها فكانت مختلفة باختلاف الشعوب والازمنة والامكنة والاحوال فالمصريون كانوا يكتبون الحوادث على صفحات الجبال وحجارة الاهرام وغيرها ولما اشتدت حاجتهم الى الكتابة وشعروا بصعوبة النقش في الحجارة اخذوا البردي المعروف بالبابيروس (وهو نبت كان يكثر في المستنقعات

على ضفتي النيل وفروعه) وتالجوه بما يجعله صالحاً للكتابة وكتبوا عليه ما شاؤوا . والاشوريون كانوا يكتبون حوادثهم على الواح من خزف قبل ان يُشوى ثم يشوونه لبيق متيناً على مر الادهار . واهل الهند كانوا يكتبون شؤونهم واغراضهم على نسج من حرير . والصينيون كانوا يطبعون كتبهم على قطع كبيرة من الخشب يصورون على اوجهها الحروف بالنقر . واهل المكسيك كانوا يحفظون تاريخ بلادهم ومعارفها على منسوجات قطنية مصبوغة بالوان مختلفة مرسوم عليها احرف وعلامات غريبة . قال احد المؤرخين « لما فتح الاسبانيون بلاد المكسيك وجدوا فيها كتباً قديمة وكتابات ورسوماً وصوراً في المنسوجات وجلود الحيوانات وقشور الشجر وسجلات قديمة فاتلفوها غير مبقين على شيء منها و يظن انه لو كانت هذه الآثار باقية الآن لتوصل العلماء الى حل رموزها وعرفوا اصل الامة المكسيكية وتاريخها و كيف وصلت الى العالم الجديد» .

واليونانيون والرومانيون والعبرانيون كانوا يكتبون الحوادث على الرقوق المتخذة من جلود الحيوانات وبقيت الرقوق تستعمل للكتابة بعد ظهور الورق النباتي بقرون عديدة وفي مكاتب اوربة سجلات وعقود واحكام وغيرها كتبت على الرق بعد القرن العاشر للميلاد . ويقال ان رق الغزال لا يزال مستعملاً عند بعض الفقهاء لهذا العهد .

اما العرب فكانوا يكتبون على عسيب النخل والواح العظام وبعض انواع الحجارة المصقولة التي كانوا يجدونها في بواديهم (وعرب وادي الفرات وبلاد اليمن كانوا يكتبون على الحجارة الصلبة ايضاً) . ولما انتشروا في البلاد في عهد الخلفاء الراشدين اخذوا عن اهلها اساليب الحضارة واحتاجوا الى التبسط في الكتابة فكتبوا في بغداد على الحرير وفي مصر على البردي ثم استخدموا الجلود بعد ترقيقها ثم لما طما بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاقت الرقوق عن ذلك اشار الفضل ابن يحيى بصناعة الورق وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت وكانوا يسمونه بالكاغد على ما ذكره ابن خلدون ثم سمي بالقرطاس ثم شاع اسمه المستعمل اليوم وهو الورق وما الورق في الاصل الا اسم لما يخرج غالباً على الاغصان ويكون للنبات بمنزلة الرئة للانسان .

قال احد علماء العرب : « الورق لم يوجد في الكلام القديم بل هو اسم لجلود رقاق يكتب فيها وهو مستعار من ورق الشجر » . وقد كثر استعماله وانشئت له معامل في سمرقند وبغداد والقاهرة ودمياط ثم انتشرت صناعته في الشام وشمالي افريقية وانتقلت منها الى بلاد الغرب فضربت فيها اطنابها وارتقت فيها ارتقاء باهراً لهذا العهد . وقد نظر بعضهم في معامل ورق الارض فوجدها نحو اربعة آلاف معمل يصنع فيها كل سنة نحو الف الف وسق انكليزي من ورق الخرق وورق التبن او يبيس العشب وغيره و ينفق نحو نصف ذلك في المطابع و ينفق من هذا النصف نحو ثلاثمائة الف وسق مطبوعاً جرائد مختلفة والنصف الآخر ينفق في اعمال ارباب الحكومة والمدارس والتجارة وغيرها الا ان الفضل في ادخال هذه الصناعة الى بلاد الغرب راجع الى مستنبطيها الاولين وهم العرب كما كان الفضل في ادخال الحروف الهجائية اليها راجعاً الى الفينيقيين سكان هذه البلاد الاقدمين .

واول قلم كتب القدماء به هو الازميل الذي كانوا ينقشون به ما يريدون كتابته نقشاً في صفائح الحجر والخزف والمعادن ثم استعملوا اقلاماً محددة الرؤوس من الحديد والنحاس والفضة والعاج وكانوا يكتبون بها على صفائح الرصاص والخشب والشمع ولما أُبدلت تلك الصفائح بالرقوق المصنوعة من جلود الحيوانات والقراطيس المصنوعة من البردي واوراق الشجر أُبدلت اقلام المعدن باقلام القصب ولم تزل مستعملة في الشرق الى هذا اليوم . اما اهل الغرب فأبدلوها باقلام من ريش الاوز ثم باقلام معدنية ثم تفننوا فيها تفنناً بديعاً حتى اخترعوا آخراً اقلام الحبر وهي التي يوضع الحبر فيها فيستغنى بها عن الدواة وقد سماها بعضهم الاقلام المدّادة اي ذات المداد وهو الحبر . وكان حبر القدماء ماء الصمغ والفحم او الكتن وهو (لطخ الدخان) قيل ان كتبة اليونانيين والرومانيين كفرجيل وزنيفون كانوا يكتبون رواياتهم وقصائدهم بذلك الحبر .

وكانت الكتابة شائعة بين الامم الشرقية القديمة في وادي النيل ووادي الفرات وسورية وبلاد العرب والصين والهند وغيرها وذكرت في اقدم اسفار التوراة وهي

اسفار موسى الكليم وسفر ايوب الصديق باسلوب يدل على انها كانت معروفة منذ زمان قديم ·

واقدم الخطوط التي اكتشفها علماء الآثار الخط المصري المعروف بالهيروغليفي والخط الكلداني المعروف بالاسفيني او المسماري والخط الحميري المعروف بالمسند اما الخط الحثي فهو من نوع الهيروغليفي الا ان معناه لم يكشف الى الآن ·

واول من عني بجمع الكتب سرجون الاول الذي انشأ مملكة بابل القوية قبل المسيح بنحو اربعين قرناً وكان ظهيراً للعلم لجمع كتب العصور الخالية ونقحها ووضعها في المكاتب العظيمة التي شادها او كبرها وهي اقدم المكاتب واتمها · وذكر ديودورس المؤرخ الصقلي ان احد ملوك المصريين من الاسر الاولى انشأ مكتبة في قصره بمدينة طيبة عاصمة ملكه وكتب فوق بابها « هناء دواء النفوس » ·

وفي عهد ملوك الاسرة السادسة في مصر قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف سنة كان احد كتاب الدولة يفتخر بانه تولى ادارة الكتب في المكتبة الملكية وطلب الى ذويه ان ينقشوا ذلك على قبره تنويهاً بفضله واحياء لذكره · وقد عمت العناية بالكتب اكثر الشعوب القديمة كالاشوريين والفينيقيين والحثيين والعبرانيين والعرب والفرس والهنود واليونانيين والرومانيين وغيرهم وبواسطتها حفظت اقوال الفلاسفة في كل العصور فمن المكاتب القديمة المشهورة عند اليونان مكتبة اثينا التي احرقها دارا ملك الفرس حينما اجتاح بلادهم وقيل انه نقل كتبها الى بلاد فارس ·

ومكتبة جزيرة ساموس التي انشأها بوليكرات · ومكتبة ارسطوطاليس التي التي استولى عليها تيوفراستس واشتراها بطليموس فيلادلفوس ونقلها الى الاسكندرية عاصمة ملكه · وكانت مكتبة الاسكندرية اشهر مكاتب العالم بلغ عدد مجلداتها سبعمائة الف مجلد على رواية وتسعمائة الف مجلد على رواية أخرى ·

ومن عجيب ما روي عن بطالسة مصر انهم كانوا ينتسخون كل كتاب يصل اليهم على نفقتهم ويأخذون من كل اجنبي يدخل مصر كتبه وينسخونها بكل ضبط ويعطونه نسخها ويضعون الكتب الاصلية في مكتبة الاسكندرية المار ذكرها ويدفعون الى صاحبها مالاً يرضيه · وكان العرب من اشد الامم الشرقية ولوعاً

بالكتابة وجمع الكتب فتركوا آثاراً كثيرة من كتاباتهم في ارض بابل كشرائع حمورابي الذي انشأ الامبراطورية البابلية القديمة (نحو ٢٢٥٠ ق ٠ م) وكانت هذه الشرائع منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الاسود الصلب وهي من اقدم الكتابات التي وصلت الينا واقدم الشرائع المعروفة لهذا العهد ٠ وكذلك تركوا آثاراً من كتاباتهم في بلاد اليمن وغيرها مما لا تطيل باستيفائه ٠

ولما توفرت لديهم الاسباب المادية والعقليـة ابدعوا في التصنيف واغربوا في التأليف واولعوا بجمع الكتب وتطلبها من كل حدب وصوب واول من اعتنى بذلك الخلفاء الامويون بدمشق فأنشـأوا المكاتب وانفقوا عليهـا الاموال الطائلة ووقفوا لها الاوقاف الكثيرة فانصب اهلهـا على العلم فافلحوا ونبغ منهم عدد وافر من العلماء الاعلام ٠ ثم جاء بعدهم الخلفاء العباسيون فملأوا بغداد بخزائن الكتب النفيسة ونقلوا الى اللغة العربية كثيراً من كتب اليونانيين والهنود والفرس وغيرهم فازهرت فيها اشجار التمدن واينعت اثمار الحضارة ٠ ولولا عنايتهم بجميع مصنفات اليونان والسريان وترجمتها لما بقي منها بقية في الشرق كله الا ما كان في كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق من الكتب اليونانية والسريانية فان المسلمين لم يمسوها عند فتحهم المدينة ٠ ولما حول عبد الملك بن مروان الكنيسـة الى جامع جعل هذه الكتب في قبة مقام النبي يحيى (يوحنا) فبقيت محفوظة لم يفقد منها شيء الى ان فتحهـا الالمان باذن السلطان عبد الحميد وقيل انهم نقلوا كثيراً من كتبها الى برلين ٠

ولم يكن الخلفاء بالاندلس اقل عناية بجمع الكتب من العباسيين بل جمعوا منها مئات الالوف ٠ قيل ان عبد الرحمن الاموي حشد في قرطبـة من افرقية وبلاد فارس ومصر والآفاق العربية نحو اربعمائة الف مجلد وقيل ستمائة الف مجلد كتبت اسماؤها في اربعين مجلداً وكان بالاندلس عدا هذه المكتبة سبعون مكتبة عامة وكان فيها ايضاً مكاتب خاصة بعضها كبيرة جداً ٠ قيل ان احد علماء الاندلس رفض دعوة سلطان بخارا له لان حمل كتبه كان يقتضي اربعمائة جمل ولعل في ذلك مبالغة غير ان فيـه دليلاً على كثرة كتب ذلك العالم واتساع مكتبته وهو رجل واحد فقط فما اكثر عدد الكتب التي كانت عند باقي الناس في قرطبة وغيرها من بلاد الاندلس ٠

وكان في مكتبة الفاطميين بالقاهرة مئة الف مجلد وقيل مئتا الف مجلد وفي قصر الخلافة اربعون خزانة فيها من الكتب انفس النوادر وابهى الذخائر وكان الخليفة الفاطمي يتردد على المكتبة العامة فيجيء اليها راكباً ثم يترجل عندها ويدخل غرفها فيطالع ما يشاء ويجول بين المطالعين يتفقد شؤونهم وبلاطهم فكان احسن مشجع على مطالعة الكتب باقواله ومثاله . وكان بين بغداد والقاهرة مسابقة علمية ادبية اذ كانتا تتباريان الى العلم وتتنافسان في اقتناء الكتب المفيدة استئثاراً بالفضل . ومما يروى ان ابناء العراق اوفدوا رجلاً الى مصر فاتفق مع احد علمائها على ابتياع عشرة آلاف مجلد من نفائس كتب العربية وهي ثلث مجموعته . واتصل الخبر بوزير مصر الافضل فاستكبر الخطب واستنكره وقال كيف تحرم مصر ذخائرها وهل يصح انتقال كنوزها الى غيرها ونحن احق بها واهلها اعرف الناس بقدرها ثم بعث من ماله الخاص الى العالم المصري بجملة الثمن الذي ساومه عليه رسول العراق ونقل الكتب الى خزانته وكتب عليها القابه . وكان في مكتبة ابي الفداء المؤرخ الشهير سلطان حماه ما لا مزيد عليه من الكتب المختلفة النفيسة وكان في خدمته نحو مئتي عالم وفقيه واديب وفيلسوف وكاتب . وكان في مكتبة آل عمار في طرابلس نحو مئة الف مجلد وقيل ثلاثة آلاف الف مجلد ولكن ذلك مما لا يصدق . وبالجملة كان في كل البلاد الشرقية والغربية العربية مكاتب عامة ومكاتب خاصة حوت الوف الالوف من الكتب النفيسة ايام كان اقتناء الكتب يستلزم النفقات الطائلة الصعوبة نسخها قبل اختراع فن الطباعة فاين ذهبت تلك النفائس ! . يحزننا ان نقول ان اكثرها ذهب طعمة للنار وان كثيراً منها نقل الى مكاتب اوربة وبعضها لا نعلم اسماءها ولم يبق في بلادنا الا العدد القليل . ومن ذلك ما في دار الكتب في مصر ودار الكتب بالاستانة ودار الكتب بدمشق وما في بعض المكاتب الخاصة كمكتبة احمد تيمور باشا ومكتبة احمد زكي باشا بمصر ومكتبة الاستاذ السيد محمد كرد علي بدمشق ومكتبة الاستاذ السيد عيسى المعلوف بزحلة وبعض مكاتب في بيروت وحلب وغيرهما من مدن سورية .

اما الغربيون فعنايتهم اليوم بتأليف الكتب وجمعها اوضح من ان توضح ففي فرنسة فقط ثلاثون الف مكتبة وقلما تخلو مدينة فيها من مكتبة او مكتبتين وفي مدينة

باريس وحدها عدد الكتب اربعة اضعاف عدد السكان · وعدد الكتب في برلين مضاعف عدد سكانها وعدد الكتب في لندن مساوٍ لعدد سكانها او يزيد قليلاً · وقد عم الولوع بجمع الكتب كل الاقطار الغربية فلا مملكة فيها ولا مدينة ولا قرية خالية من الكتب وقد اصبح جمع الكتب فرضاً على كل مهذب والمكاتب من لزوميات القصور الفخمة فكل قصر لا توجد فيه مكتبة كبيرة يحسب ناقصاً اهم الرياش والذخائر والنفائس ولم يقتصر الغربيون على العناية بجمع الكتب الغربية بل عنوا ايضاً بجمع الكتب الشرقية ولا سيما العربية فقد زينوا بها مكاتبهم وطبعوا كثيراً من نفائسها النادرة وحرصوا عليها اكثر من حرص العرب في هذا العصر على ما عندهم من آثار اجدادهم · ولم يزل اغنياؤهم يهبون الاموال الطائلة لنشر الكتب وتاسيس المكاتب في اوطانهم وغيرها تعميماً للعلم · ان كارنيجي وحده أسس في سنة واحدة باميركا ٧٥٠ مكتبة وزاد عليها مثل هذا العدد في السنين التالية لها ·

واعظم مكاتب الدنيا اليوم مكاتب لندن وفينا ورومية وبرلين وبطرسبرج وستوكهولم والاسكوريال في مدريد · واغنى المكاتب بالمخطوطات القديمة مكتبة الفاتيكان في رومية ثم مكتبتا باريس ولندن ·

والذي ساعد الغربيين على زيادة نشر الكتب فن الطباعة التي بواسطتها امكنهم ان يطبعوا في ساعة واحدة ما لا يمكن نسخه في شهر بل في سنة · ومن يقدر ان يحصي الكتب التي تطبع كل سنة في انحاء العالم · ففي بلاد الانكليز وحدها طبع في سنة واحدة اكثر من مئة الف الف مجلد · واذا كان نشر الكتب والمجلات والجرائد هو مقياس العمران فالبعد بين عمرانهم وعمراننا شاسع جداً ولكن العمران لا يقاس بكثرة المطبوعات وان كانت احدى مقوماته بل بمقومات أُخرى تفوقها شأناً اهمها التربية التي تثقف العقول وتهذب الاخلاق ·

وهنا لابد لنا من السؤال لماذا عني العلماء في الشرق والغرب قديماً وحديثاً بتأليف الكتب وجمعها في المكاتب الخاصة والعامة وظهرت هذه العناية من ملوك الارض وعظمائها ورجالها ونسائها كبنت الملك العادل وغيرها ممن لا يسعنا ذكرهن في هذا المقام · والجواب لانهم عرفوا قيمتها وشدة الاحتياج اليها فانها هي الاساس الذي

تشاد عليه قواعد الصلاح والركن الذي به تُوثق دعائم الاصلاح والسبيل المؤدي الى الخير والنجاح والمرقاة الموصلة الى ذروة الفوز والفلاح والمصابيح التي تُفضح بها الرموز والآثار والمفاتيح التي تُفتح بها الكنوز والاسرار بل هي مخنطات عقول الحكماء ومرائي تصورات الشعراء وخزائن آراء العلماء وسجلات اقوال الخطباء واثمار افكار العقلاء وحافظة احكام الدنيا والدين وعلوم الاولين والآخرين ·

فلا غرو ان اولع بها اهل الذكاء والفضل وآثروها على كل قنيةٍ فاخرة وحلية ثمينة ·

قال كنفوشيوس الحكيم الصيني كنت لفرط رغبتي في طلب المعرفة بالدرس والمطالعة انسى جسمي فلا اطلب له طعاماً ولشدة سروري بالوصول اليها اسلو احزاني فلا احسبها موجودة بل اني ادركني الكبر وحلَّ بي الهرم ولم احسب لها حساباً · وقال شيشرون الخطيب الروماني (غرفة بلا كتب جسم بلا روح) وقال المتنبي الشاعر المشهور :

اعزّ مكان في الدنى ظهر سابح   وخير جليس في الزمان كتاب

وقال آخر :

حبيبي من الدنيا كتابي فليس بي   الى غيره ما بي اليه من الفقر

وقال آخر :

اذا غاص في بحر التفكر خاطري   على درّة من معضلات المطالب
خفضت ملوك الارض في نيل شهرتي   ونلت المنى بالكتب لا بالكتائب

وقال آخر :

لنا جلساء ما نمل حديثهم   الباء مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى   ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا
فان قلت اموات فلم تعدُ أمرهم   وان قلت احياء فلست مفندا

وقال الجاحظ : من كلام طويل في وصف الكتاب « هو الجليس الذي لا يطرئك والجار الذي لا يستبطئك والصديق الذي لا يقليك والمستميح الذي لا يؤذيك والرفيق الذي لا يملّك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق

ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق يطيعك في الليل طاعته في النهار وفي السفر طاعته في الحضر . وهو المعلم الذي ان افتقرت اليه لم يحقرك وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة . ولا اعلم نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه . يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن اثمان العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمعه كتاب . ولولا الحكم المخطوطة والكتب المدونة لبطل اكثر العلم ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر» .

وقال فنلون : « لو وضعت تيجان ملوك اوربة كلها عند قدمي بدلاً من كتبي لرفضتها » .

وقال كارليل الكاتب المشهور : « اهم ما يصنعه الانسان في الدنيا وابقاه واثمنه هو الكتب » .

وقال مكولي الكاتب الانتقادي المعروف : « أفضل ان اكون فقيراً في كوخ وعندي كثير من الكتب على ان اكون ملكاً في قصر بلا كتب » .

وقال ادورد كبن المؤرخ : « أفضل كتبي على كل كنوز الهند لان التلذذ بها بهجة حياتي وتاج مجدي » .

وقال ملتن الشاعر : « الكتب ليست جماداً بل اجسام ذات حياة . فانها حياة مؤلفيها والمذكورين فيها فمن يتلف كتاباً كمن يقتل نفساً بل قد يكون اعظم إثماً لان من الناس من في قتلهم راحة للعالم ولكن اتلاف الكتاب المفيد فيه ضرر للعالم» .

وقال تيلر : « الكتاب دليل الشباب الى سبيل الصواب وسلوة الشيخوخة عن قوة الشباب .

وقال هرشل الفلكي ما معناه : « ان غاية ما أتمناه في هذه الحياة واطلبه من ربي في الصلاة ليكون لي ينبوع سرور وهناء وترساً يقيني سهام البلاء وسيفاً اغلب به جيوش الارزاء كتابٌ ينفعني في السراء والضراء ويرافقني حيث اشاء .

وقد شبه بعضهم الكتب بالاساتذة وشبهها بعضهم بالاصدقاء والحق انها افضل

من الاساتذة والاصدقاء باعتبارات كثيرة لا يتسع الوقت لبيانها وهي افضل من كل ما يقتنيه الانسان من التحف والطرائف والجواهر والنفائس حتى قال بعضهم انها الغنى كله وتمتاز على كل ما يخلّفه الانسان من الآثار الدالة على عظمته وقدرته كالمبا كل الجميلة والمدن الحصينة والقلاع المنيعة وغيرها مما يبقى قروناً عديدة شاهداً بمجد من بنوه ولكنه يفقد رونقه الاصلي على تمادي السنين بل قد يزول ولا يبقى له اثر . وكم من مدينة تهدمت وقلعة دُكّت وهيكل اصبح ركاماً مركوماً .

اما الكتب النفيسة فاذا لم تمسها يد الانسان بالاذى بقيت قروناً عديدة برونقها وجمالها وفائدتها وتأثيرها في نفوس قارئيها . وهي خير ميراث يتركه العلماء للجنس البشري وافضل واسطة لاحياء الذكر الى الابد .

ان هوميروس وارسطو وافلاطون وسقراط والمتنبي وابن سينا والفارابي وغيرهم من الشعراء والحكماء يبقى ذكرهم حياً ما دامت كتبهم بين ايدي الناس . والملوك والعظماء الذين لم يتركوا اثراً نافعاً قد باد ذكرهم . ان الكتب تتجدد وتتعدد بالنسخ والطبع على توالي العصور كلما تقدمت نسخها الاصلية ومع ذلك تبقى قيمتها وفائدتها كما كانت في عصر مؤلفيها بخلاف الآثار القديمة فان قيمتها تزول بتجديدها فتحسب مزورة وكفى بذلك دليلاً على عظمة شأن الكتب وامتيازها على كل مصنوعات الانسان .

وهنا وصلنا الى القسم الثاني من موضوعنا وهو المطالعة التي هي الغاية العظمى من تأليف الكتب وجمعها . ان كثيرين يرغبون في اقتناء الكتب وجمعها اما بقصد المتاجرة او بقصد المفاخرة فهؤلاء لا يستفيدون منها علماً ولا ادباً فلا ينالون الغاية من وضعها مثلهم الا كمثل من يملك مزرعة واسعة ولا يذوق شيئاً من غلاتها او يجمع مالاً كثيراً ولا ينفق منه فلساً على قوته فيموت جوعاً واهراؤه مملوءة قمحاً وصناديقه طافحة ذهباً . ان المطالعة ضرورية لتغذية العقل كما ان الخبز ضروري لتغذية الجسد فكل الناس مفتقرون الى المطالعة لانماء عقولهم بالعلم واحياء نفوسهم بالادب والفضيلة فالذي لم يتيسر له التخرج في المدارس في صغره يستطيع ان يكتسب بالمطالعة ما خسره من الفوائد بعدم دخوله المدارس . ومن الحماقة ان يتخذ عدم درسه في الصغر حجة لعدم المطالعة في الشباب وما بعده من اطوار الحياة بل أحرِ بذلك ان

يكون بحجة للمطالعة لتدارك ما فات · والذي وفق الى دخول المدارس في صغره ونال حظاً صالحاً من العلم لم يزل محتاجاً الى زيادة المعرفة والحكمة وتوسيع المدارك ومن الخطإ الواضح بل الغرور الفاضح ان يكتفي الكتاب والخطباء والمحامون والاطباء وغيرهم من ارباب الصناعات والفنون بما حصلوه في المدارس ويهملوا المطالعة النافعة بحجة انهم قد اكملوا دروسهم ونالوا شهاداتهم فلم تبق بهم حاجة الى المراجعة اوالدرس ولذلك يهملون الكتب ويستخفون بالمجلات ولا يبالون بتوسيع معارفهم حتى تتناقص رويداً رويداً وتضمحل في النهاية فيعجزون عن القيام بوظائفهم ويخسرون كرامتهم ومنزلتهم بين العلماء ويفقدون ثقة الناس بهم لان الطبيب الذي لا يكتسب في كل يوم معارف جديدة ولا يقف على سير الطب الاكتشافات المتعلقة به لا يلبث ان يصبح دجالاً والمحامي الذي لا يطالع المجلات الحقوقية ولا يطلع على القوانين والزيادات والتفاسير الجديدة لا يلبث ان يصبح محتالاً لانه لا يكون له غرض سوى كسب المال فيقبل كل دعوى وهو يجهل نتيجتها · والجهل قد يكون سبباً للاحتيال على الرزق لان من جهل صناعةً وادعى العلم بها واتخذها وسيلة للكسب كان خليقاً بان يسمى محتالاً · اما العالم بصناعته الذي يأخذ اجرته بحق عمله فلا لوم عليه ·

ان الذين اشتهروا بالعلوم والفنون وحازوا قصب السبق في ميادين الفضل لم يبلغوا ما بلغوه من الشهرة والتفوق الا بكثرة المطالعة وتكرار المراجعة لا بما حصلوه في المدارس فقط ولا بمجرد الذكاء الفطري ·

قال احد الخطباء : « ينسب الناس اليّ ذكاء ممتازاً والحقيقة اني لست اوفر ذكاء من غيري وانما انا رجل مجتهد في اتقان صناعتي فاذا أردت ان اخطب في موضوع ما طالعت كل ماوصلت اليه يدي من الكتب المتعلقة به وملأت ذهني بكل حقائقه واحطت علماً بكل تفاصيله فيأتي خطابي محكماً · فما يسميه الناس ذكاء ممتازاً وحذقاً عظيماً انما هو ثمر درسي ونتيجة تعبي واجتهادي ·

وقال الشيخ ناصيف اليازجي في خاتمة مقاماته : « اني قد تلقيت هذه الصناعة من باب التطفل والهجوم اذ لم أقف على استاذ قط في علم من العلوم وانما تلقفت ما تلقفته بجهد المطالعة وادركت ما ادركته بتكرار المراجعة ·

وقال الاستاذ ابراهيم الحوراني في آخر حياته : « ما زلت منذ حداثتي أطالع واتعلم الى هذه الساعة فاستفدت من تعليم نفسي اضعاف ما استفدته من معلمي » .

وينتج من ذلك ان المطالعة ضرورية لانماء القوى العقلية وتهذيب الاخلاق الغريزية واكتساب الفضائل النفسية ومعرفة الحقوق الاجتماعية والتأهب لاعمال الحياة الجوهرية . ولا تكون المطالعة نافعة الا اذا روعيت شروطها وهي :

(١) : الرغبة الشديدة في الحصول على المعرفة الصحيحة والارادة الثابتة في طلب الوصول اليها فمن لم يرغب في المطالعة ولم يقصد الاستفادة بكل قواه لم يمكنه الحصول على العلم ولا النجاح في طلبه لان الرغبة القلبية هي سر النجاح في كل عمل يعمله المرء عقلياً كان او يدوياً وكل الذين نجحوا في العالم وبلغوا درجة سامية في الصناعة او العلم كانوا من الراغبين في ما اشتهروا به . ان الرغبة في الشيء تهون الصعوبات الشديدة وتقرب المسافات البعيدة وتجعل المستحيل عند بعض الناس ممكناً عند غيرهم . فمن اراد ان يتعلم لغة تعلمها ولو كان شيخاً طاعناً في السن ومن رغب في اتقان علم اتقنه ولو كان فقيراً سيء الحال .

اما الذين لا يرغبون في المطالعة فلا يمكنهم ان يستفيدوا شيئاً ولو قرأوا الوفاً من الكتب ودخلوا أعظم المدارس .

(٢) : الاقتصار على الكتب الصالحة المفيدة لان مطالعة الكتب الرديئة ليست عديمة النفع فقط بل هي كثيرة الضرر ويحزننا ان نقول ان هذه الكتب منتشرة انتشاراً تصعب ازالته ومنها الكتب الكفرية التي تفسد الايمان وتقود الى التعطيل . والكتب المجونية التي تفسد الاخلاق وتعلم الخلاعة والسفاهة والكلام البذيء . والكتب الخرافية التي لا تتضمن غير الاوهام والخزعبلات والسفاسف والحكايات الكاذبة التي لا يسلم بها عقل . والروايات الغرامية الخيالية التي تضيع الاوقات بتلاوتها ويكتسب مطالعوها منها العادات السيئة والاخلاق الذميمة كالاحتيال والمبارزة والانتحار وطلب المحال وغير ذلك من الامور التي يكثر ورودها في تلك القصص . فكل هذه الكتب وامثالها لا تجوز مطالعتها لانها تفسد المبادئ وتحشو الدماغ بالاوهام وتقود الى أعظم الرذائل والخسائر المادية والمعنوية فيجب على

العاقل ان يبتعد عنها ولا يسمح بدخولها البيت ووضعها بين ايدي الصغار ولا يقرأها ولا يسمعها بل يمزقها او يحرقها ·

ويا ليت الحكومة تهتم بهذا الامر كما تهتم بامر الصحة فتمنع طبع هذه الكتب ونشرها وبيعها وتعاقب مؤلفيها وناشريها وبائعيها كما تمنع الدجالين من ممارسة التطبيب والعطارين من بيع السموم وتعاقب بائعيها ·

ان اختيار الكتب النافعة لا يقل خطورة عن اختيار الاصدقاء الصادقين فكما انه لا يحسن الاعتماد على صديق الا بعد اختباره وتحقق صدقه ووفائه كذلك لا يحسن الاعتماد على كتاب الا بعد تحقق نفاسته وفائدته · ان انفع الكتب هو الذي يترك في نفوس قارئيه افضل تأثير صالح ويفعل في الحياة العقلية ما يفعله نور الشمس في الحياة النباتية والحيوانيـة فينبه القوى والمدارك وينمي العواطف والسجايا ويحسن الاخلاق والمبادئ ·

اننا في عصر كثرت فيه الكتب المفيدة المؤلفة باللغة العربية والمترجمة من اللغات الغربية فضلاً عما كان عندنا من الكتب الادبية والعلمية القديمة فلا يصعب علينا وجدان ما نحتاج اليه من المواضيع المختلفة واختيار احسن الكتب التي نبحث عنها · ومما نفيد مطالعته المجلات العلمية كالمقتطف والهلال وغيرهما ومن كان ضليعاً من لغة اجنبية كالفرنسية والانكليزية والالمانية استطاع ان يجد ما لا يحصى من الكتب والمجلات النافعـة التي تشتمل على احدث الاكتشافات العلميـة وافضل الاختراعات العصرية · ويحسن بالراغب في المطالعة ان يستشير اهل الفضل ليرشدوه الى الكتب والمجلات الغزيرة الفوائد فيكون على بينة من نفعها قبل ان يقرأها ولا يبادر الى قراءة اي كتاب كان لجدته وحسن ظاهره فما كل جديد حسن الظاهر بنـافع · وما اكثر الذين تخدعهم الكتب بحسن ورقهـا وجمال تجليدها وطول عناوينها فيضيعون اوقاتهم بتلاوتها و يتناولون السم من دسمها وهم لا يشعرون ·

(٣) : مراعاة الميل الخاص والذوق والحال والسن في ما يختار من الكتب النـافعة فبعضهم يميل الى التاريخ ولا يستفيد من العلوم الرياضية وبعضهم يحب الرياضيات ولا يميل الى العلوم الطبيعية · وما يناسب البسطاء لا يناسب الاذكياء

وما يفهمه الكبار لا يفهمه الصغار فيجب على كل راغب في المطالعة ان يختار من الكتب الجيدة ما يلائم ذوقه و يناسب حاله ودرجة فهمه لان الكتب كالأطعمة منها ما هو لذيذ الطعم سهل الهضم كثير الغذاء ومنها ما هو تافه عسر الهضم قليل الغذاء وكذلك العقول كالمعد منها ما هو قوي يهضم كل نوع من الطعام ومنها ما هو ضعيف لا يهضم سوى اللبن · والحكيم من اختار لنفسه ولاولاده الاطعمة التي تناسب اذواقهم وتلائم معدهم ومن فعل خلاف ذلك خسر الفائدة المطلوبة وعرض نفسه واولاده للامراض القتالة ·

(٤) : عدم الاقتصار على نوع واحد من الكتب لان الانسان يحتاج الى معرفة اشياء كثيرة لا شيء واحد فقط فيجب على المطالع ان يجتهد في معرفة كل ما يمكنه من العلوم وبعبارة أخرى ان يعرف شيئاً من كل علم فيطالع كتب الفلسفة العقلية لمعرفة حاجات العقل ومرقياته وكتب الفلسفة الطبيعية لمعرفة سنن الكون ونواميس الطبيعة وكتب التاريخ لمعرفة احوال البشر وكتب حفظ الصحة لمعرفة قوانين المعيشة الصحية وتجنب اسباب الامراض وكتب المنطق والبيان ليحسن التعبير عن افكاره بجلاء وقوة وبالجملة يجب ان يلمّ بما يمكن الالمام به من المعارف المتنوعة وان كان اختصاصياً بنوع واحد منها ·

(٥) : تخصيص وقت كافٍ للمطالعة ولو ساعة كل يوم وهذا لا يصعب على من يريد ان يجد وقتاً وان كانت أعماله كثيرة تستغرق معظم أوقاته لانه اذا أراد تخصيص ساعة للقراءة استطاع ان يختلسها من وقت فراغه او وقت راحته او وقت زياراته او وقت نومه او وقت طعامه او من مجموع هذه الاوقات كلها · والغرض من تخصيص وقت كافٍ كل يوم للمطالعة المداومة عليها لكي ترسخ فوائدها في العقل فاذا قرأ الانسان خمس ساعات في يوم واحد ثم أهمل القراءة شهراً او اسبوعاً نسي ما قرأ وأضاع فائدته ولكن اذا اعتاد ان يطالع كل يوم صباحاً قبل ان يذهب الى عمله فصلاً من كتاب علمي او ادبي او اجتماعي او تاريخي استنار عقله وتنبهت افكاره واغتذت نفسه وأصبح قادراً على القيام باعماله بكل نشاط وترتيب ونجاح لانه قد استمد من معاني ذلك الفصل ومن روح مؤلفه الشريفة قوة معنوية عجيبة ترافقه كل ذلك

النهار · فكما انه لا يجوز للمرء ان يخرج من بيته باكراً بدون ان يتناول طعاماً يقوي جسده كذلك لا يجوز له ان يخرج من بيته بدون ان يتناول طعاماً عقلياً يقوي نفسه ·

(٦) : قصد الاستفادة فلا فائدة من المطالعة بقصد التسلي او النوم او الجدل او الانتقاد او الاعتراض ولا بقصد التسليم الاعمى بكل ما يطالع ولست اعني بذلك انه لا تجوز المطالعة بقصد التسلية على الاطلاق فان في التسلية احياناً فائدة ولكنها اذا كانت هي الغاية من المطالعة انشأت البلادة ومنعت من الاستفادة ولا انه لايجوز الانتقاد بتاتاً لانه اذا روعيت قواعده افاد فائدة عظيمة وانما اعني ان تكون غاية المطالع الاولى ان يستفيد مما يطالعه علماً او أدباً او تاريخاً او غير ذلك من الفوائد الجوهرية فان لم تكن غايته الاستفادة أضاع وقته سدى او ربما اضر بنفسه وبغيره اذ يتمرن على المماحكة والمجادلة ويقوده الغرور الى مجادلة من هم أوسع منه علماً واغزر فضلاً تبجحاً بما توهمه في نفسه من قوة الحجة وبلاغة المنطق و براعة الانشاء ·

(٧) اتباع الترتيب اذ لا فائدة من المطالعة بدونه ونعني بالترتيب ان يقرأ المطالع الكتاب الذي يختاره من أوله الى آخره على التوالي فصلاً فصلاً ويقرأ الفصل من أوله الى آخره سطراً سطراً بالتأمل والانتباه فيجد لذة عظيمة وفائدة جسيمة · اما الذين يقرأون بضعة كتب في وقت واحد قراءة بلا ترتيب مقتصرين على بضع صفحات من كل كتاب وبضعة اسطر من كل صفحة فلا يجدون فائدة ولا لذة لانهم لايفقهون شيئاً مما يقرأونه لعدم ارتباط المعاني التي يقفون عليها بعضهم ببعض وما مثلهم الا كمثل من يخبط في الظلماء خبط عشواء فلا يرون السداد ولا يهتدون الى المراد ·

(٨) : فهم الالفاظ والمعاني التي يعثرون عليها في الكتب التي يطالعونها لان فائدة المطالعة لاتتوقف على كثرة الكتب التي تقرأ بل على فهم ما يقرأ منها كما ان فائدة الطعام لاتتوقف على كثرة ما يؤكل منه بل على ما يهضم منه وربما حصل ضرر من كثرة القراءة بدون فهم كما يحصل ضرر من كثرة الأكل بدون هضم · فخير للانسان ان يقرأ قليلاً ويفهم من ان يقرأ كثيراً و ينسى لعدم الفهم ·

(٩) : وعي الفوائد التي يفهمها المطالع في ذهنه او كتابتها في دفتر خاص حتى يرجع اليها عند الحاجة لان الذهن قد لايسع كل ما يعثر عليه القارئ في اثناء مطالعته فاذا لم يدونه في مذكرة تحفظ عنده اضاع تعبه بالمطالعة وتعسر عليه التفتيش عما يريده في الكتب التي كان قد قرأها . الا ان الاعتماد الكثير على المذكرات يضعف الذاكرة فلا يحسن الاكتفاء بها بل يجب الاعتماد التام على الذاكرة لانها هبة ثمينة تقوى بالاستعمال كسائر المواهب فلا يجوز اهمالها ولا عدم الثقة بها الا اذا كانت المواد المطلوب حفظها فوق طاقتها فحينئذ يحسن استعمال المذكرات . ومما يفيد المطالع ان يدون ايضاً كل كلمة او عبارة لم يفهمها لكي يبحث عنها في مظانها و يقف على تفسيرها فتتم بذلك الفائدة التي يتوخاها .

(١٠) : استيفاء البحث عن الموضوع المراد العلم به في الكتب المختصة به وذلك بالابتداء من النقطة المركزية فيه وتتبع كل الفروع المتصلة به والاحاطة بجميع اطرافه فاذا اراد المطالع ان يبحث عن قطر من الاقطار كسورية مثلاً وجب عليه ان يطلع على مصورها (خريطتها) و يقرأ تاريخها في كتب متنوعة بحيث يحيط علماً بمدنها وقراها وسهولها وجبالها واوديتها وانهارها واجناس سكانها والدول التي تعاقبت عليها ومذاهب اهلها ونوع حكومتها والنهضة العلمية فيها وآثارها القديمة وصادراتها وغلاتها وسائر ما يتعلق بها و باقليمها وشعوبها القديمة والحديثة وعددهم واديانهم وعاداتهم وعلومهم وصناعاتهم ولغاتهم في كل الادوار التاريخية وحينئذ يستطيع ان يكتب مقالة وافية عن سورية او يلقي محاضرة ممتعة في تاريخها واذا اراد ان يعرف ترجمة احد العظماء او الشعراء كأبي العلاء المعري مثلاً وجب ان يبحث عنها في تراجم الشعراء الموجودة بين يديه و يتتبع اقوال المؤرخين وغيرهم ممن ذكروا هذا النابغة العربي المشهور في كتاباتهم و يقابل بين تلك الاقوال ويمحصها ثم يستخرج منها ترجمة صحيحة لذلك الشاعر الحكيم . وجملة القول انه يجب على الباحث عن المسائل التاريخية او العلمية او اللغوية او غيرها ان يستوفي بحثه و يتتبع كل التفاصيل المتعلقة بموضوعه بالتدقيق والتحقيق الى ان يمتلئ عقله به فيحصل على الفائدة التي يتوخاها . ولابد من الاعتدال في المطالعة وتجنب الافراط فيها الى حد نسيان الطعام واهمال شروط

الصحة كما كان كنفوشيوس يفعل · فان اجهاد العقل وتحميله فوق طاقته وعدم الاعتناء بالجسد مما تضيع به فائدة الدرس فليحذر طلاب العلم ومحبو المطالعة من ارتكاب هذا الخطإ ·

اما الفوائد الناشئة عن المطالعة القانونية فكثيرة اذكر بعضها :

(١) : تسهيل الوصول الى معرفة الحقائق المتنوعة من كل المباحث والتدرج في مراتب الحضارة واجتناء ثمار العلوم بدون مشقة فلا يحتاج الانسان في هذه الايام الى السياحة حول الارض لمعرفة احوال الاقاليم والممالك والبلدان وغيرها ولا الى بناء المراصد واقتناء المراقب ومراقبة النجوم لمعرفة علم الفلك ولا الى بناء السفن وقطع البحار لمعرفة علم الملاحة ولا الى غير ذلك من الاعمال الشاقة التي تستغرق السنين الطوال لمعرفة العلوم الاخرى بل يمكنه ان يجد كل ما يريده من هذه المباحث وغيرها في الكتب المختصة بها فيقف على افكار الحكماء المتقدمين والمتأخرين والعلماء المحققين والشعراء المفلقين والنوابغ المخترعين والسياح المكتشفين وهو جالس في غرفته لايبرح مكانه فيكون كل يوم من حياته بمثابة اعوام وكل عام بمثابة قرون كأنه وجد منذ وجود الانسان الاول ولم يزل حياً لهذا العهد وكأنه خالط كل الامم ورأى كل البلدان وجالس كل العلماء وسمع كل الخطباء وعاش في كل عصر وسكن في كل مصر وكل ذلك بتعب يسير ووقت قصير فما اعظم فائدة المطالعة وما اجهل من يستخف بها ويهملها ·

(٢) : تثقيف العقل وتهذيبه وتمرينه وشحذه لان القوى العقلية كالنباتات التي تحتاج الى التشذيب لزيادة نموها واثمارها ولا شيء يهذبها مثل المطالعة فالتاريخ يملأ العقل حكمة ودربة واختباراً والرياضيات تقوي الادراك والاستدلال والحجة والطبيعيات ترقي الافكار والشعر يرقق الشعور والمنطق والبيان يعصمان عن الخطإ في الذهن واللسان ·

تحسين الاخلاق فلا شيء يمنع الانسان من فساد الاخلاق بعشرة الاردياء ويصون فيه الفضيلة مثل المطالعة لانها تزجره عما ينهك القوى وتشغله عن البطالة والملاهي التي هي اصل المعاصي وتمنعه من التهافت على اللذات المحرمة والاعمال المنكرة

وتكسبه الفائدة واللذة معاً فيعيش مبتعداً عن الرذائل متمسكاً بالفضائل طيب السريرة ممدوح السيرة ٠

(٤ٌ) : توفير المال لان الانصباب على المطالعة يمنع الانسان من انفاق دراهمه في غير وجهها و يعلمه قيمة الوقت وطرق الاقتصاد و يبعده عن المبذرين اخوان الشياطين٠ قال احدهم : « ان لم يكن اشتغالي بالعلم قد زاد دخلي فانه لاشك قد ساعدني على الاقتصاد في نفقاتي لان انصبابي على المطالعة منعني من تبذير دراهمي بما لاخير فيه» ٠

(٥ٌ) : الابهاج في حالة الحزن او المرض او التعب او الشيخوخة لاشيء يعزي الانسان ويخفف عنه الآلام ويعينه على احتمال الاسقام و يسليه في بلائه و يسعده في شقائه مثل المطالعة فانها الوسيلة الوحيدة التي بها يذخر الشاب كنوز العلم الثمينة الى زمن الشيخوخة ولا شيء يحببه الشيخ اكبر داعٍ الى الشكر مثل تعوده المطالعة واعظم موجب للاسف خسارة الشيخ هذه النعمة ٠

(٦ٌ) انشاء محبة الوطن وجعل ابنائه اكثر استعداداً لخدمته فالذي يطالع اخبار المخلصين لاوطانهم الباذلين نفوسهم في سبيل تعزيزها وترقيتها يتولد في قلبه الحبّ لوطنه و يتأهب لخدمته بما يذخره من المعرفة التي ملأت عقله وأثرت في نفسه وهاجت خاطره ونبهته الى الواجب ودعته الى العمل فما اعظم الفوائد الناجمة عن المطالعة الحقة وما اجهل الذين يهملونها مع كثرة انتشار الكتب ورخص اثمانها وسهولة الحصول عليها وخفة حملها بالنسبة الى ما كانت عليه في الازمنة السالفة ٠ ان الشاب يقدر اليوم ان يشتري كتاباً يقضي بمطالعته شهراً بثمن علبة لفائف للتدخين او بثمن (اوقية شكولات) وهذه نعمة لم يعرفها المتقدمون فقد كانت الكتب في اول امرها باهظة الاثمان ونادرة كل الندور ٠ قيل ان الملك الفرد بذل ولاية عظيمة في مجلد واحد ٠ و بيعت مقالة واحدة بمئتي غنمة واربعين مد حنطة ٠ وبيعت نسخة من الكتاب المقدس باربع مئة ليرة انكليزية فليعتبر المستخفون بالكتب والمطالعة من شبان هذا العصر الذين يؤثرون زجاجة من الراح على لسان العرب والمصباح ولا بدلي في الختام من ذكر بعض مبادئ عملية وهي :

(١ٌ) : على الآباء ان ينفقوا جزءاً من دخلهم في ابتياع الكتب والمجلات

والجرائد المفيدة ويضعوها بين ايدي اولادهم ليعتادوا التلذذ بقراءتها من الصغر وتصبح ملكة فيهم زمن الشيخوخة وقسماً كبيراً من مطالب حياتهم . ان اكثر الآباء مقصرون في هذا الواجب فاذا دخلنا بيوت اهل دمشق ولاسيما الاغنياء وجدنا فيها رياشاً فاخراً وتحفاً ونفائس متنوعة ولم نجد في اكثرها كتاباً مفيداً ويندر ان يوجد فيها مكتبة على حين ان الكتب من لوازم البيت الضرورية كالطعام والاثاث .

(٢) : على رؤساء المدارس ومعلميها ان يحببوا المطالعة الى تلاميذهم ويربوا فيهم الميل الشديد اليها ويشجعوهم عليها ويساعدوهم على فهم ما لم يفهموه مما يطالعونه ويسهلوا لهم الحصول على الكتب النافعة ويهتموا بانشاء مكتبة كافية في كل مدرسة . ان اكثر معلمي المدارس لا يهمهم سوى قبض الرواتب وقضاء ساعات الدروس بالحكايات التافهة وربما تذمروا بحضور التلاميذ من قلة الرواتب وعدم فائدة العلم فبغضوا اليهم الدرس والتحصيل وولدوا فيهم الكسل والاهمال .

(٣) : على العلماء والاغنياء ان يتعاونوا على تأسيس مكاتب جديدة وجمع كتب مفيدة لكل الطبقات في احياء المدينة ليجتني فوائدها العامل والتاجر والموظف والشاب والشيخ في اوقات فراغهم بدلاً من ان يدخلوا بيوت القهوة ويقتلوا اوقاتهم بلعب النرد وغيره . ان الحانات والملاهي وبيوت القهوة في دمشق تعد بالمئات ولكن المكاتب تعد على الاصابع . واللوم في ذلك على العلماء والاغنياء الذين ينفقون الاموال الطائلة على لذاتهم ولا يجودون بالقليل من ثروتهم لعمل مفيد للجمهور . ان بعض الشبان الاغنياء النجباء اظهروا رغبة في معاضدة العلماء وتنشيط الكتاب فليت الباقين يقتدون بهم فتصبح دمشق زاهية بعلومها كما هي زاهية بحدائقها .

(٤) على الحكومة ان تشجع الشعب على هذه الاعمال وتمد له يد المساعدة كما فعلت الحكومة المنتدبة اذ وهبت مبلغاً كبيراً من المال لمكتبة بيروت الكبرى وكما فعلت الحكومة الوطنية بامدادها المجمع العلمي بشيء من المال لاقتناء ما يحتاج اليه من الكتب لفائدة الذين يقصدون المطالعة في المكتبة العامة وهذا مما استحقت عليه الثناء الطيب . الا اننا نرجو منها ان تزيد الاهتمام بهذا الامر الحيوي لكي تتعدد المكاتب العامة وغرف

القراءة في البلاد السورية فان في تنوير الاذهان وتعليم الجهال ترقية للبلاد وتقليلاً للجرائم واسعاداً للامة ٠

(٥) على الشبان الذين لم تمكنهم الاحوال من دخول المدارس والطلاب الذين نالوا حظاً صالحاً من العلم ان يثابروا على المطالعة في بيوتهم وفي المكاتب العامة وغرف القراءة كلما سنحت لهم فرصة لكي ينشأوا رجال فضل وادب ويخدموا بلادهم وامتهم احسن خدمة و يعيدوا الى وطنهم ما كان له في سالف الازمان من العز والعمران بفضل انتشار العلم والعرفان والله المسؤول ان يهديهم وايانا أقوم سبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ٠

بني العرب زيدوا علمكم ما استطعتم ... لكي ترجعوا المجد الاثيل الى العرب
ولا تهملوا الكتب التي جلَّ نفعها ... فافضل ما يعلي مطالعة الكتب

انيس سلوم



صناعات دمشق القديمة (١)

تمهيد — ما هي الصناعة ؟ — الصناعة عند القدماء — كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟ — صناعة السيوف — القيانة وسبك الحديد والفولاذ — القاشاني — الميناء — الفسيفساء — الترصيع او التزبل في المعدن والخشب — نقش البيوت والجدران — النسيج او الحياكة — الزجاج — البناء — الوراقة وما يتعلق بها — الصناعات الأُخر — الختام .

تمهيد

بزراعة وصناعة وتجارة تجد البلاد تقدماً وفلاحا
اركان عمران فشيد صرحها وخذ العلوم لنيلها مفتاحا

لاخفاء ان اسباب المعايش او العمران هي الامارة والزراعة والصناعة والتجارة وقد افاض كثير من مؤلفي الافرنج والعرب في اخص تلك الاسباب التي هي بعد الامارة وكان ابن خلدون الملقب (سبنسر العرب) بمباحثه الفلسفية والعمرانية والتاريخية في مقدمة الذين حضوا على اتقان هذه الاركان وتوطيد دعائمها لرفع شأن البلاد مما لامحل الآن لتفصيله .

على انني افردت الصناعة من بين تلك الاسباب الآن لما كان لها من الشأن العظيم والقدر الجليل في هذه المدينة العريقة في القدم والشهرة . فكانت اعمالها ذائعة في الخافقين واتصلت بالاندلس واوربة والعجم حتى اغنتها بنفائسها . وملأت خزائن متاحفها بذخائرها فضعف شأنها عندنا على اثر ما انتابنا من النكبات والغزوات

---

(١) محاضرة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف التي القاها في ردهة المجمع في ٢٢ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م .

والفواجع الطبيعية الى ان جدد بعضها في القرن الماضي وبقي الآخر منحطاً عن درجته الأولى ولكنه يبشر باستعادة النهضة في ظل الحكومة وعنايتها ان شاء الله .

ماهي الصناعة ؟

الصناعة هي كل ما اشتغل به الانسان ومارسه حتى صار ملكة فيه . فالصناعة هي العلم المتعلق بكيفية العمل . والملكة هي الكيفية الراسخة في الذدن . ومن اسمائها الحرفة لان الانسان ينحرف اليها اي يميل . ولقد فرق بعضهم بينهما . فقال الصناعة ما حصلت بالممارسة والتمرن فهي اخص من الحرفة التي لاتحتاج اليها . وقيل ان الصناعة ما كانت بالاعمال اليدوية حتى قيل فلان صناع اليـدين بخلاف الحرفة فانها تكون بدون ذلك . اما المهنة فهي الخدمة .

واسم الصناعة عند الاوربيين مشتق من كلمة (Industria) اللاتينيـة ومعناها (العمل مطلقاً) ثم خصصت ومنها اخذت اسماؤها في لغاتهم .

فالصناعة والعلم متلازمان لاينفك احدهما عن الآخر والصناعات التي أسست على مبادئ علمية اشتهرت بدقتها وفوائدها .

ولقد قسمت الصناعات الى ضرورية وغير ضرورية فالضرورية قسمان منها ماهي عامة الفوائد كالفلاحة والبناء والخياطة والحياكة والتجـارة . ومنها ما هي شريفة بموضوعها وخاصة بفوائدها كالتوليد والكتابة والوراقة والطب والغناء والموسيقى . ومنها ما هي ممتهنة كبعض المهن التي يضطر اليها بعضهم ليرتزق منها ولا يأنف من ممارستها . وكلها في نظر العمران ضرورية له ونافعة وبدونها تكون الاعمال ناقصة وما احسن قول الشاعر :

وليس على عبد تقي نقيصة اذا صحح التقوى وان حاك او حجم

الصناعة عند القدماء

لقد نظر القدماء الى الصناعة نظرة غريبة فألهوها واعتقدوا انها هبطت عليهم من العالم الآخر فأله المصريون الحراثة وعبدوا العجل ابيس . وفعل كثير من الامم التي عاصرتهم او جاءت بعدهم مثلهم بتكريمها وعدها من مواهب الآلهة . ولاسيما

اليونانيون فانهم عدوها موهبة من اثينة او مينرفه الهة الحكمة فاشتهروا بالصناعات والفنون . بخلاف الاسبرطيين الذين شغلتهم الحروب عنها فلذلك كان فلاسفة اليونان مشهورين بصناعات وفنون بديعة وكذلك حكماء الرومان فوضع كل من سولون اليوناني ونوما الروماني المشترعين دستوراً لامتيهما بشأن الصناعات وانظمتها . فارتقت في ايامهما الى عصر الاسكندر المكدوني بنحو ثلاثة قرون قبل الميلاد المسيحي .

وكان الفرق بين اليونانيين والرومانيين ان الاولين اعتنوا بالفنون فارتقت في عهدهم . ولكن الرومانيين اشتغلوا بالحروب مئات قرون كان الارقاء فيها هم الصناع فلم يتقنوها لان الحروب آفة الصناعات فاحتاجوا الى صناعات الشرق النفيسة . ولا سيما صناعات الصين والهند وما اتصل بهما وانتقل عنهما الى بقية الاقطار الشرقية وعرف العرب كثيراً منها ولاسيما في هذه الحاضرة العريقة في القدم وعنها نقل أمرى الصليبيين وتجار سواحل البحر الرومي الاوربيون كثيراً منها الى بلادهم . فاشتهر من القدماء المصريون بفن الحراثة ونسج القطن والكتان للكهنة وغيره لغيرهم والنقش وعمل الزجاج والبناء والتعدين والادوات الخزفية والمعدنية وهندسة المياه وفتح الترع والتحنيط وجر الاثقال وغيرها .

وعرف البابليون بالنسج والتطريز والحفر والصياغة والحجارة الكريمة والتماثيل والنقش على الغضار (الآجر) .

والفينيقيون بالنقش والحفر وعمل الطنافس ونسج الحرير والابنية العظيمة المتينة والتعدين وصبغ الارجوان وبناء السفن وعمل الزجاج والتجارة .

والصينيون بالخزف المنسوب اليهم وتربية دود الحرير والوراقة والتعدين والاسلحة وعمل الحجارة الكريمة والبناء وكفى بسورهم العظيم شاهداً على براعتهم به .

والهنود بالانسجة الرقيقة والصناعات المتقنة ولا سيما الاسلحة والفولاذ المشهورين الى اليوم باسمهم ولا يزال فولاذ بنجوب من بلادهم متميزاً على غيره ولا سيما نوابض (زنبلكات) الساعات .

فانتقلت هذه الصناعات الى الامم الأخرى فاقتبس اليونان من صناعات المصريين البناء والنحت والنقش ومن الفينيقيين الزجاج والملاحة والارجوان . واخذ العرب

عن الصينيين الابرة المغناطيسية وعن العجم الورق والقاشاني الى غير ذلك مما ستراه مفصلاً في ما يأتي :

وكل من طالع الياذة هوميروس كبير شعراء اليونان المنقولة الى العربية يجد فيها وصف المناضد المتحركة · والحداد هيفست اله النار · ومعادن قبرس الحديدية · والحدادة · وكوب نسطور والخراطة وصبغ العاج والبرفير ·وصياغة الفضة في صيداء والنجارة وعمل المركبات والصيقلة والغزل والنسج الفينيقي وبناء السفن واشباهها حتى انه صورها بقلمه العالي وصفاً كأنه يمثلها بنقاش المصور · فمن ذلك قوله يصف هيلانة تطرز بابرتها :

وجدتها بالصرح تنسج ثوبا بحواشي البرفير والارجوان
وبرأس الخياط ترسم فيه واقعات ابلت بها الفئتان

ومن ابدع اوصافه تصويره لترس اخيل من موشحة قال فيها :

اودعه نقشاً به تحارُ لحسنه الانظارُ والافكارُ
فالارضُ والسماء والبحارُ منهن لاحت فوقه الآثارُ
وساطع الشمس وتم البدرُ

فذكرني جمال هذا الوصف بقول المعتمد بن عباد ملك الاندلس يصف مجناً اسے ترساً فيه كواكب فضة وقد امره ابوه المعتضد بذلك فابدع وهو :

مجن حكى صانعوه السما لتقصر عنه طوال الرماح
وقد صوروا فيه شبه الثريا كواكب تقضي له بالنجاح

ولو انفسح لي الوقت لسردت كثيراً من اوصاف الصناعات عند الافرنج والعرب·

كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟

لما احتك العرب بمجاوريهم ومحاربيهم من الامم استفادوا منهم صناعات كثيرة برعوا باتقانها فوق ما كان عندهم من الصناعات الوطنية في العراق وبلاد العرب والاقطار الاخرى التي تفوقوا فيها ومن أقدمها بناء السدود مثل سد العرم وطبع السيوف

البنائية وبناء القصور وعمل الاسلحة والخزف والقاشاني والزجاج وبناء السفن والنسج والحفر والنقش وعمل الورق واشباه ذلك مما لا يدخل تحت حصر فنشير الى اهمه ·

ولما كانت دمشق وما يجاورها من ايام الجاهلية وما بعدها قطباً لرحلات الاقوام ومحطاً لرحالهم ومقراً لهم اجتمعت فيها الصناعات المختلفة وترقت بحسب الحاجة اليها بل تفوقت بها على غيرها لاسباب كثيرة أهمها رواج سوقها واتقان آدابها ووضع انظمة لها وروابط وثيقة العرى · وانحصر كثير منها في أسر خاصة كتمت أسرارها واحتكرت آثارها فألف بعض العلماء في كشف تلك الاسرار كتباً بينوا فيها غش الصناعات وحيل اربابها على اختلاف عملهم وتزويرهم وتقليدهم للشيء الطبيعي بالصناعي وتلاعبهم بالموازين ونحو ذلك · منها كتاب (كشف الدك وايضاح الشك) لابن شهيد المغربي · و (ارخاء الستور والكلل في كشف الدكات والحيل) لسعيد النيسابوري وهما مخطوطان · و (المختار في كشف الاسرار) للشيخ عبد الرحيم الجوبري الدمشقي وهذا طبع في دمشق منذ اربعين سنة وغيرها ·

وللصناعات الدمشقية اصول تعرف بالشد لها آداب وانظمة وموظفون بقواعد معلومة عندهم يتناقلها الخلف عن السلف · وقفت على وصف اهمها في بعض التعاليق والمخطوطات الموجودة في خزانتي وغيرها وطالعت مقالة فيها لرصيفي الياس بك القدسي الدمشقي مطبوعة في اعمال مؤتمر ليدن (هولندة) الذي عقده المستشرقون سنة ١٨٨٣ ·

فمن كل هذه المصادر استفدت انه كان للصناعات رئيس أعظم يسمى شيخ المشايخ وكان هذا المنصب يتوارثه سادة بني العجلاني [1] الحسينيون من آل البيت النبوي الكريم خلفاً عن سلف وصاحبه يعين المشايخ لاكثر من مائتي حرفة في المدينة ويفصل الخلافات ويحسم المشاكل التي تقع بين ارباب الحرف آمراً وناهياً ومقاصاً للمخالفين · وبالجملة فانه الحاكم العام الذي لا ينتخب بل ينال منصبه

(١) قال المحبي في (خلاصة الاثر ٤ : ١٥٤) : « السيد محمد العجلاني شيخ مشايخ الحرف الذي يعقد الشد والعهد لأهل الصنائع · وكان صاحب هذا المنصب قديماً يعرف (بسلطان الحرافيش) ثم كني احتشاماً بشيخ المشايخ » اه ·

بالارث عن اسلافه ولا يعزل ولا يترك منصبه الا بالموت او الاستقالة وبقيت سلطته هذه مرعية الجانب الى ان اعلن السلطان عبد المجيد العثماني التنظيمات الخيرية فبقي له من وظيفته التصديق على نصب شيخ الحرفة الذي ينتخبه معلوها واحترام نسبه الشريف وشخصه الجليل · و يشارك شيخ المشايخ النقيب و ينوب عنه · والجاويش ينفذ الاوامر · وآدابهم مع آداب المعلم والصانع والمبتدئ وشد الصانع حتى يصير معلماً هي آداب مرعية تقال فيها أدعية وتؤخذ عهود غريبة الاسرار كثيرة التفصيل لا يسمح المقام باكثر من الاشارة اليها ولكنها تدل على احترام الصناعة كما احترمها القدماء وترقيها بهذه الاصول المتبعة ·

فأهملت بكساد الصناعات وكثرة المصادرات وبقيت بعض آثارها في قليل من الامر مثل بني القصار الذين يبيضون الثياب قبل صبغها فلهم آداب خاصة بهم يحافظون عليها الى يومنا · وبني الحصري الذين يضفرون الحصر وبني المنجد ونحوهم ·

صناعة السيوف

اتفق ذكر اليمنيين بصناعة الشفار والنصال · وكذلك الهنود فقيل سيف يماني وحسام هندي وهندواني او مهند · فلما قدمت قبائل اليمن الى مشارف الشام نقلت معها تلك الصناعة فانتشرت واتقنت فقيل لسيوفها المشرفية والشامية · ولما كثر الحديد في سورية وجبال لبنان كدار يا والفرزل ودوما والشوير ومشغرة عمل منها الفولاذ وطبعت منه السيوف المحددة والشفار المجوهرة · وكان الفولاذ الهندي الذي فيه قليل من الالومين والسلكا ينقل من الهند الى بلاد الشام منذ زمن بعيد فيتخذ للشفار والنصال والجوارح ·

فاشتهرت مصانع دمشق بعمل القواطع كالشفار والنصال والسهام والحراب والمدى وكانت هذه تخرج من بين أيدي الصياقلة شديدة الصلابة مرهفة الغرار كثيفة مرنة ذات فرند او جوهر بديع التلوين والرسوم يغطي سطوحها الصقيلة بخطوط دقيقة كأنها عروق سوداء وبيضاء فضية اللون متحاذية او متقاطعة ذات اشكال مختلفة · فمنها ما هو كالالياف المتعارضة في زوايا كثيرة · او كالعقود

منظمة او كالعناقيد المنضدة . ولقد اكتشف الدمشقيون اسرار هذه الصناعة متفوقين فيها حتى أُغلقت عن سواهم فلم يهتدوا اليها حتى يومنا مع كثرة تفننهم وتجاربهم ومهارتهم .

واما هذا الجوهر الدمشقي او الفرند او الاثر فهو طرائق السيف التي هي على سطحه شبه الغبار او كدب النمل . وقد امتاز على الجوهرين العجمي والهندي بروائعه وتموجاته وعدم تطرق الصدإ اليه ولينه . فلذلك لا تقبل السيوف الدمشقية الكسر عند الضرب بها مثل غيرها . وسمي جوهرها الخناوي او الخنوث . واتخذ الدمشقيون لكل نصل كتلة واحدة من الفولاذ . واما الاعاجم فيتخذون له اكثر من كتلة . فتميز النصل الدمشقي بثبات جوهره وتحسينه عند تخضيره اي احمائه بالنار . او عند تطريقه . وبالتحليل عرف ان فولاذه كان ممزوجاً بمعدن آخر يسمى التيتان او الحزوم وهو موجود الآن في نواحي دوما . ومنه اخذ ابراهيم باشا المصري كميات لمعمل الاسلحة عندما استولى على البلاد سنة ١٨٣٠ .

فلذلك اشتهرت السيوف الدمشقية بجودة صقلها ومرونتها ومتانة فولاذها . وكانت صناعتها مشهورة بزمن الرومانيين وفي عهد العرب . ومنها انتقلت الى طليطلة في الاندلس ومن هذه الى ميلانو في ايطاليا . وفي المتحف البريطاني وغيره سيوف دمشقية بديعة الصنع وفي متحفنا بعضها ايضاً .

وصارت الناس تغالى بالسيوف وبقية الاسلحة كالنصال والحراب والسهام والمدى والدروع والخوذ والبنادق الدمشقية حتى ان السلطان بيبرس البندقداري لما اراد تقديم هدايا سياسية لباراق سلطان المغول في تركستان اختار الاسلحة الدمشقية لنفاستها ورونقها وندرتها .

وقال الجواليقي في المعرب : وبصرى موضع بالشام وقد تكلمت به العرب واحسبه دخيلاً ونسبوا اليه السيوف فقالوا : سيف بصروي . وقال الحصين بن الحمام :

صفائح بصرى اخلصتها قيونها ومطرداً من نسج داوود محكما

ومن آثار هذه الصناعة النفيسة اسلحة وادوات وصفها بريس دافين

(Prisse d'Avennes) في كتابه الافرنسي (الفن العربي) (L'art Arabe) صفحة ٢٨٠ بما معربه :

« اسلحة طومان باي الاشرف اعني خوذته ونبله وخنجره وفاسه وجوكانه (اي عصاه المعوج) ودبوسه بتاريخ سنة ٩١٧ ﻫ و٩٢١ﻫ مصنوعة من الفولاذ الخراساني ومرصعة بالذهب ترصيعاً دمشقياً بذوق لطيف جداً . فالخوذة شكلها شرقي اي مستديرة وهي من الفولاذ الدمشقي ضاربة الى السواد ومرصعة بالذهب ترصيع دمشق وأطال في وصف اجزائها وسلاسلها وشعارها والآيات القرآنية والعبارات الدينية التي على عصابتها مثل : لا اله الا الله . وعظمة عرشه تمتد على كل الكائنات ولا يمكن لحكومة ان تغيرها . ثم ادعية أخرى مثل امنح النصر للمؤمنين الحقيقيين الخ .. والدبوس كانت قبضته موشاة بالمخمل القرمزي وعلاقتها فولاذية مرصعة بالذهب بالصناعة الدمشقية .. ثم تطرق الى وصف درع لرأس الحصان مصنوعة من فولاذ دمشقي مرصع بالذهب بالصناعة الدمشقية .. » اه

وبقيت هذه الصناعة رائجة الاسواق بديعة الطراز الى ان غزا تيمورلنك (الاعرج الحديدي) سورية ودخل دمشق سنة ٨٠٣ ﻫ (١٤٠٠ م) فسبى كثيراً من صناعها والماهرين في غيرها فتصوحت ازهارها وذوت نضارتها منتقلة الى بلاد فارس مزهرة فيها . ويقال انه اسر مائة وخمسين الفا من دمشق بينهم الاطباء والصناع والبناؤون والحاكة والتجار وارباب الصناعات الاخر ولا سيما الصياقلة المشهورين الى سمرقند فبنوا في بلادهم مصانع خراسان الشهيرة واشتهرت بصناعاتها .

ومن الصناعات التي تحفظ اليوم اسم دمشق « صناعة السيوف الدمشقية » في مدينة فاس المراكشية في المغرب .

اما اصناف السيوف الجيدة الفولاذ المشهورة فمنها اليمنية والهندية والسلمانية والدمشقية والخراسانية وتتميز سيوف اليمن بجفرها وثقوبها ونقوشها ولكنها لينة الغرار تنفل سريعاً بخلاف الدمشقية فانها صلبة المضارب لينة الشفار حتى يمكن ليها بسهولة دون ان تنكسر ولا تزال آثار صناعة السيوف باقية في اسماء بعض الاسر الدمشقية

مثل بني السيوفي والصيقلي والسكاكيني وجوهر وبولاد · وفي مجلة المشرق مقالة مفيدة في السيوف الشرقية المجوهرة (٣:٥٧٧ و ٧٠٠)

و يظهر ان القدماء الفوا في الجوهر والصيقلة فذكر ابن ابي اصيبعة في تاريخ الاطباء رسالتين للفيلسوف الكندي الشهير (الاولى) في المعادن والجواهر وانواع الحديد والسيوف وجيدها وموضع انتسابها · و (الثانية) في ما يطرح على الحديد والسيوف حتى لاتنثلم ولاتكل · ولانعلم محل وجودهما الان · ومن الطف ما وصف به العرب جوهر السيف ما نظمه اسحاق بن خلف كما قال المبرد :

الفى بجانب خصره امضى من الاجل المتاح
وكأنما ذر الهباء — عليه انفاس الرياح

ومثل ذلك قول عبد الله بن المعتز العباسي :

وجرد من اغماده كل مرهف اذا ما نضته الكف كاد يسيلُ
جرى فوق متنيه فرند كأنما تنفس فيه القين وهو صقيلُ

القيانة وسبك الحديد وعمل الفولاذ

القين الحداد الذي يشتغل بالمبرد و يعرف عند عامتنا بالبندقجي والقردحجي والقرداحي وصنعته القيانة المعروفة عندهم بالقردحة ·

ولقد اشتهر الدمشقيون بهذه الصناعات واستخرجوا المعادن الحديدية من جوار دمشق كما مر ومن مشارف حوران ولبنان والقلمون · ولا تزال آثار خبث الحديد الذي تسميه العامة (الكشته) تدل على اماكن المسابك وكذلك اسم المسبكين الجواني والبراني في دمشق · وكانت تقطع اشجار السنديان لتذويب الحديد واستخراج الفولاذ فتعرت الجبال من حلاها النباتية وبقيت جرداء الى يومنا ومن التسميات بهذه الصناعات اسماء بيت بولاد وابي حديد والحداد · ولعل اسم قرية حلبون قرب دمشق من اليونانية بمعنى الفولاذ لاستخراجه منها ·

ومما يروى ان أسرة الحدادين التي كانت مشهورة في اذرع (حوران) منذ القديم بهذه الصناعة نبت بها حوران فتفرقت في مطاوي القرن السادس عشر في

بلاد الشام ونقلت صناعتها اليها وفي دمشق اشتغل ابناؤها بعمل البنادق او البواريد فصادرتهم الحكومة وفروا الى جبل القلمون ولهم بقية في ديرعطيه و يبرود وكان احدهم المسمى عبوداً قد اشتهر بعمل البنادق المتقنة فنسبت اليه وقيل لها (العبودية) وكذلك اشتهر بعمل الاجراس الحديدية فنسبت اليه ايضاً وقيل لها (الاجراس العبودية) و بقي حدادو ديرعطيه يشتغلون البنادق سراً بعقود تحت الارض الى زمن قريب ·

ومما يتعلق بالحدادة عمل ادوات كثيرة كان لها في دمشق شأن كبير مثل عمل الابر والمسلات والقبابين ولا تزال سوق الابارين خارج باب الفرج تدل على ذلك ومثلها سوق المرادنية لعمل المرادن وهي قضبان حديدية لدواليب الردن المتخذ للنسج · وسوق الحدادين ايضاً ·

على انه لما جلب الحديد السويدي من اسوج واشتهر استعماله بطل استخراج الحديد لوطني الذي كان شائعاً هنا وفي انحاء سورية ولبنان ولهم في اعداده طرق جميلة وتفننات عديدة لامحل لتفصيلها الآن ·

القاشاني

وهو نوع من الخزف الصلب المموه بالوان واصباغ بديعة ونقوش رائعة منسوب الى بلدة قاشان على ثلاث مراحل من اصفهان في بلاد فارس · قال ياقوت في معجم البلدان : منها تجلب غضائر القاشاني والعامة تقول القاشي اه · وعامتنا اليوم تقول القيشاني ·

وهذه الصناعة اتقنها البابليون وعرفها الكنعانيون كما دلت الآثار وتناولها الفرس واليونان والرومان واتصلت بالعرب في صدر الاسلام وتدرجوا بهـا فاتقنوها في بلاد فارس وزين الملوك الاخمانيون قصورهم بنقوشها الرائعة التي توجد بعض قطع منها في متحف اللوفر الباريسي · وابدعها في بلاد فارس ابنية إصفهان ولاسيما في زمن الشاه عباس الاول · وفي قونيه و بورصه آثار القاشاني السلجوقية · وبمتحف الاستانة ناووس بابلي مطلي بميناء اخضر · وانتقلت هذه الصناعة الى دمشق

وعرفت فيها بصناعة (الغضائر القاشانية) ومن الواحها المؤرخة قبرية في بيت انطون افندي ميخائيل السيوفي في دمشق بتاريخ ٦٥٩هـ (١٢٦٠ م) ٠

والقاشاني صنفان صنف بسيط من الخزف الممزوج بالحديد يحمر عند شيه ويموه بمركب قصديري ابيض سميك ٠ وصنف من مواد انقى اذا شوي ابيض وصلح لصبغه بالوان شفافة رائعة تأخذ بمجامع الابصار ٠

ولقد كانت في دمشق معامل كثيرة لهذه الصناعة النفيسة منها ما اكتشف امام الباب الشرقي خارج السور سنة ١٨٨٧ م اذ حفر هناك الطبيب النمسوي اورديشيانو قبلاً واستاش دي لوري الاثري الافرنسي نزيل دمشق الآن اخيراً فوجدا معامل له وآثاراً منه ٠

ومما عرف من هذه المعامل مصنع بين آخر القيمرية واول الجورة من احياء دمشق فيه اجران حجرية لسحق الزجاج والتمويه به وله نوافذ لخروج الدخان عند ايقاد النار للتذويب والشي ٠ وقد بقيت فيه قطع قاشانية بيعت منذ ربع قرن اواكثر وكذلك ظهرت آثار معامل في محل بيت المرحوم جبران اسبر حيث الآن مشغل في الآسية بجوار الكنيسة المريمية والدار البطريركية الارثوذكسية ٠

وقرأت في ديوان العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي المخطوط انه ارخ عمارة مدرسة في القسطنطينية بناها الوزير ابراهيم باشا فجاء من قبله رجب آغا القبجي الى دمشق ليأخذ منها معلمين يصنعون له القاشاني وطلب من النابلسي عمل تاريخ يكتب على القاشاني لسنة ١٠٩٢ هـ (١٦٨١ م) فنظمه واخذوه معهم وهذا يدل على بقاء هذه الصناعة في ذلك العهد مشهورة ٠

وقد فقدت هذه الصناعة منذ قرن ونصف ٠ وفي المعامل التي اكتشفت امام الباب الشرقي في حديقة الطبيب النمسوي ما يدل على ترك العمال اشغالهم فجأة وتخريب أتاتين الشي بحادث فجائي لعله بالزلزلة العظيمة التي ارتجفت منها اعطاف دمشق مراراً في سنة ١٧٥٩ م و (١١٧٣ هـ) فهدمت مآذنها وقوضت كثيراً من ابنيتها فترك العمال اعمالهم وطمر المحل ٠

ومن اسباب انقراض تلك الصناعة ايضاً انحصارها بأسر خاصة فتقلص ظلها

بها . وفي حلب الى اليوم اسرة القاشاني التي يقال انها انحصرت فيها هذه الصناعة ثم انقرضت الصناعة وبقيت الاسرة جاهلة اسرارها منسوبة اليها بالاسم فقط . وربما كانت منسوبة الى بلدة قاشان المذكورة او الى الاتجار بالقاشاني .

ولطالما تنافس الدمشقيون باقتناء هذه الآثار الفاخرة فعملت منها الصهاريج والسلسبيلات والباذهنجات والقماقم والزهريات والقلل[1] واشباهها . ورصفت بصفائحه جدران البيوت ومرافقها حتى انها بعد حادثة سنة ١٨٦٠ م صار السكان ينتزعونها من البيوت و يستعيضون عنها بالرخام فانتقلت تلك الالواح النفيسة الى اوربة وقل وجودها عندنا ولا سيما بعد تكرار الحرائق والتدمير .

وكان اشهر قاشاني في الجامع الاموي في دمشق وفي جامع المسجد الاقصى في القدس الشريف . ففقده الاموي بالحرائق المتوالية عليه . وتجد في بعض المساجد والحمامات والبيوت آثاراً نفيسة منه اهمها ما في جامع الشيخ محيي الدين بن العربي الذي جدده السلطان سليم الفاتح العثماني وفي حمام القاشاني المصفحة جدرانه بالواحه وقد حول الآن الى سوق . وفي التكيتين السليمية والسليمانية . وفي قاعة القاشاني التي بناها البطريرك مكاريوس ابن الزعيم في دار البطريركية الارثوذكسية فاحترقت سنة ١٨٦٠م . وفي سلسبيل جامع الدرويشية المؤرخ في سنة ٩٨٢ﻫ (١٥٧٤ م) وفي جامع سنان آغا في المناخلية . وفي دار اسعد باشا العظم . وما في متحف الوطن من بقاياه المختلفة الاشكال وبعضها نقش عليه كتابات ومنها ادوات كالمرايا وغيرها . وكلها بديعة الالوان والنقوش والطراز .

ومن قرأ وصف الرحالة والمؤرخين للجامع الاموي الكبير قبل ان نكب بالحرائق الكثيرة ولا سيما الاخيرة منها . عرف ما كان عليه من الرؤاء النادر والزخرف النفيس .

---

(١) الصهاريج البرك والبحرات في وسط الدور . والسلسبيلات هي المياه التي تحصر بانبوب للاستقاء . والباذهنجات هي انابيب كأنبوب المدخنة او البخيري تستعمل للتهوية . والقماقم آنية لرش ماء الورد في الحفلات ونحوها . والزهريات اوان لزرع الزهور او وضعها فيها . والقلل جمع قلة وهي الجرة العظيمة .

واشتهر الاندلسيون بمعاملهم القاشانية في مدينة مالقة سنة ١٣٥٠م ومنها نقلت الصناعة الى ايطالية فعرفت اولاً في فلورنسة ثم اشتهرت بها مدينة فاينسة فنسبت القطع القاشانية اليهما فقيل المالقي (Mayolca) والفاينسي (Faiences) واقتبسها منهم الفرنسيون وتفوقوا في معامل مدينة (روان) ثم اقتفى اثرهم الالمان والانكليز ·

ووصف ابن بطوطة وغيره من المؤلفين والسياح هذه الصناعة وذكر الادريسي خزف دمشق المطلي بالميناء ·

ومما عرف من آخر اسرار هذه الصناعة انه كان يعمل آجر مختلف الاشكال والحجوم والزوايا مجبول من الرمل الابيض والجص مفرغ بقوالب حسب الحاجة فيكتب على سطوحها آيات واشعار وترقم نقوش معدنية وصور بمواد ثابتة · و بعدان تجفف يذر عليها مسحوق الزجاج الدقيق جداً او تطلى به ممدوداً عليها بسائل غروي وتشوى في وطيس (تنور) معد لها فيذوب الزجاج ويغشي تلك السطوح بطبقة رقيقة مناسبة لماعة تشف عما تحتها من الالوان والاصباغ ·

الميناء

الميناء كلمة فارسيتها (مينه) اي جوهر الزجاج وهي (أكاسيد) معدنية تصير بمادة زجاجية وتطلى بها الاواني المعدنية والادوات لاظهار رونق نقوشها وجمال رسومها · فهي في المعدن كالقاشاني في الخزف ولذلك يسمى القاشاني بالميناء أحياناً ·

وصناعة الميناء عرفها الطورانيون وتفوقوا فيها واشتهرت في اشور ومصر وفنيقية ثم في الصين والهند قبل الميلاد بقرون · ثم عرفها الفرس ونقلها عنهم البزنطيون والدمشقيون واتجروا بها من فارس ثم اتقنوا عملها ولكنها لم تكن من صناعاتهم الوطنية الشائعة مثل غيرها ونقلها الصليبيون في القرن الحادي عشر للميلاد الى اوربة فبلغت كمالها عندهم في القرن السادس عشر المسيحي ·

ولا يزال اهل الهند وفارس والارناؤوط ولا سيما الشركس متفوقين فيها الى

يومنا حتى يقال (ميناء شركسية) وهي من الطبقة الاولى من الصناعات الاخرى عند غيرهم ٠

وكان الفرنسيون يتغالون باقتنائها فذكرها المؤرخون كثيراً في زمن الصليبيين ٠ وقال المؤرخ راي : ان المسيو (بيو) وجد سنة ١٨٧٢ م انقاض معمل لهذه الآنية قرب مدفن اللاتين في دمشق ٠

واشتهرت معامل جزيرة ميورقة في الاندلس بهذه الصناعة قبل اشتهار اوربة بها ٠ وعنها وعما عرفه الصليبيون منها نقلوا صناعاتها الى بلادهم واتقنوها ٠

الفسيفساء

ان كلمة فسيفساء يونانية اما تعريب (بسيبسوس — Psipsos) او من كلمتين هما (بسيفي — Psifi) اي قطع و (ذوتو — Zoto) بمعنى مرتبطة ٠ فيكون معناها قطع صغيرة مرتبط بعضها ببعض وقد عربتها العرب بلفظ (الفسفس) ٠ قال ابن بن خزيم في بشر بن مروان :

وبنيت عند مقام ربك قبة   خضراء كُلّل تاجها بالفسفس

فسماؤها ذهب واسفل ارضها   ورق تلألأ في البهيم الحندس

ومنها كلمة (الفص) و (الفصوص) للقطع الصغيرة العظمية ونحوها ٠ وتعرف ايضاً بالزليج ومنها قال الاسبانيون (Azulejo) و يرى دوزي في تكملة المعجمات العربية انها محرفة عن لازورد الفارسية ومنها الواح القيشاني (فايئس) وهي ملونة ومطلية بالرونق (الفرنيش) ٠ والخزفيون كانوا يعملونها الواحاً مطلية اسمها (Zelis) تتخذ لتغشية الجدران الداخلية ذات لونين ابيض واسود [1] (اه) ٠

اما الافرنج فيسمونها موزاييك (Mosaïque) نسبة الى (موزه) إلهة الفنون ومنها اسمها في اللغات الاوربية ٠

والفسيفساء افلاذ مربعة غالباً من الزجاج الملون او الذهب او الحجارة الرخامية ونحوها ترصف على الجدران والسموك (السقوف الداخلية او الطوانات) وارض

(١) راجع تكملة المعجمات لدوزي (١ : ٥٩٨) ٠

البيوت ونحوها بطبقة من الجبص (الجفصين) فتؤلف اشكالاً هندسية رائعة من نقوش ورسوم وكتابات ٠

ولقد عرف هذه الصناعة الاشوريون والبابليون والفنيقيون وزينوا بها قصورهم ومعابدهم ثم عرفها اليونان والرومان فنفوقوا بها ورصفوا بها جدرانهم وارض قصورهم ٠ واشتهر بها البزنطيون وهم الروم الذين كانوا في الاستانة فلا عجب اذا سموها بلغتهم ٠ ولقد عملوا الفسيفساء البلورية مثل القاشاني وهي نقوش من الزجاج الملون والمذهب ترصف على طبقة من الجبص

ونقلوها الى دمشق ايام استقدم الوليد بن عبد الملك الاموي اثني عشر الف صانع منهم لبناء هيكل رامون او المشتري بعد نقضه وتحويله الى كنيسة ثم الى الجامع الكبير المنسوب اليهم فزينوا بانواعها جدران الجامع وسموكه حتى كان آية في الابداع والاتقان وبقيت الى اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد ٠ مع ما نابها من الحرائق مراراً كثيرة ٠ ولقد وصف ابو الفداء ملك حماة المؤرخ تأثير حريق سنة (٤٦١ هـ ١٠٦٨ م) في الجامع فقال : « فاتى الحريق على الجامع فدثرت محاسنه وزال ما كان فيه من الاعمال النفيسة » ٠ ووصفه ابن جبير الكناني الرحالة بقوله : « وانزلت جدره كلها بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء وخلطت بها انواع من الاصبغة الغريبة قد مثلت أشجاراً وفرعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببديع الصنعة المعجزة وصف كل واصف فجاء يغشي العيون وميضاً وبصيصاً » ٠

وقال الجاحظ في وصفه : « وهو مبني على أعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي فوقها صغار في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب الاخضر والاصفر وفي قبليه القبة المعروفة (بقبة النسر) ليس في دمشق شيء اعلى ولا أبهى منظراً منها » ٠

وقال الرحالة ابن بطوطة : « انه زين بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها انواع الاصبغة الغريبة الحسن » ٠

وانفق على الجامع أموال كثيرة لعمل هذه الفسيفساء وغيرها من الزخارف والبدائع والروائع فقال الامام عمر بن عبد العزيز : « اني ارى في اموال مسجد

دمشق كثيرة أنفقت في غير حقها فلو استدركت ما انا مستدرك منها فيرد الى بيت المال لكنت انزع الرخام والفسيفساء وانزع هذه السلاسل واعيد بدلها حبالاً » .
فلما جاء وفد ملك الروم ودهش من محاسن الجامع ونقوشه قال عمر : « اني ارى مسجدكم هذا غيظاً على اعدائكم وترك ما هم به » .

وبعض الفسيفساء باقية في قبة الجامع الاقصى في القدس الشريف وفي كنيسة بيت لحم الكبرى وفي قصر الحمراء في الاندلس لان عبد الرحمن الاموي ملكها أخذ صناعاً من الروم الى قرطبة لتزيين مسجدها وهو من الاتقان بمكان سام . ومنها مخطط (خارطة) مادبا في فلسطين ونقوش قصر جرش . ومساجد القاهرة وفارس والهند وسوريه وفلسطين .

ومما بقي من الفسيفساء بعض قطع في الجدار الشمالي من حرم الجامع الاموي في دمشق وبعضها غشي بالكلس . وانفس ما هو باق منها برونقه القديم ما ازدانت به قبة الملك الظاهر بيبرس البندقداري من الداخل ومعظمها من الحجارة المذهبة الملونة البديعة الاشكال والهندام تمثل أشجاراً وأبنية وأشكالاً هندسية ورقوماً رائعة .

قال المسيو غوسطاف لي بون الفرنسي (Gustave le bon) في كتابه (حضارة العرب) ما معربه محصلاً : « فضل العرب النقوش القاشانية على الفسيفساء في اول عهدهم بالزخارف . فاستعملوا نوعين من الفسيفساء . (الاول) ما كانوا يرصفون به ارض الغرف واسافل الجدران الرخامية والآجر بة بالوان كثيرة وحجوم مختلفة . و (الثاني) ما كانوا يغشون به الجدران ولا سيما جدران المحاريب وهذا من الطرز البزنطي الذي اقتبسه العرب عن صانعيه » اه .

وعلى عهد السلطان سليمان القانوني العثماني استعيض عن قطع الفسيفساء بالقاشاني المحلى بالمبناء . وبقيت هذه الصناعة في دمشق الى اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد . وكتب المستشرق رينو الفرنسي (Reinaud) المتوفى سنة ١٨٦٧ م رسالة في (فن الفسيفساء عند العرب) ضمنها فوائد جديرة بالمطالعة .

وقد اندثرت هذه الصناعة في سورية واستعيض عنها بالفسيفساء المعدنية او الخشبية المعروفة بالتطعيم والترصيع . وهي مشهورة بتفنن فيها صانعوها .

الترصيع او التنزيل في المعدن والخشب

روى المؤرخ هيرودوتوس ان مخترع هذه الصناعة غلوسبوس من ساقص وقيل اصلها من الموصل انتقلت الى سورية لكثرة نحاسها القديم واشتهرت بها دمشق . حتى اوصلها الدمشقيون الى اقصى درجة من الكمال .

وصناعة الترصيع او التنزيل هي نقش الحديد او الفولاذ بالذهب او الفضة او معدن آخر واسمها الافرنجي (Damasquiné) والايطالي (Damaschina) الى يومنا . وهي نسبة الى دمشق لانهم اخذوها منها لتزيين ادواتهم واوانيهم واسلحتهم . وطريقة عملها : ان تحفر اثلام عميقة او اخاديد في المعادن ثم تحشى باسلاك ذهبية او فضية وهذا افخر انواع الترصيع وأجودها .

ويوجد ترصيع آخر بسيط يكون سطحياً اذ يحمى المعدن الى ان يزرق ثم تحفر فيه خطوط دقيقة بسكين ويرسم الشكل المطلوب بمنقش حاد يعرف بقلم الحفر ثم يمد خيط ذهبي او فضي ويثبت في الثلم باعتناء بآلة نحاسية . واما النقش فيتم بمنقش حاد يحفر اشكالاً هندسية ورسوماً وصوراً تبقى فارغة الاثلام ومعظمه على النحاس

وكانت صناعة النحاس والترصيع بالغة حد الاتقان في زمن الملك الظاهر بيبرس البندقداري في تضاعيف القرن السابع للهجرة والرابع عشر للميلاد فنسبت اليه وقيل لها (الصناعة الظاهرية) وفي متحفنا العربي الدمشقي قنديلان عليهما تاريخ سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٤ م) من هذا النوع البديع مع الاغطية المخرمة المعروفة (بكسرجفت) ومع الزجاج الذي يستصبح به وكلها من الصناعات الدمشقية المتقنة .

ولقد وصف المسيو بريس دافن (Prisse d'Avennes) الفرنسي في كتابه (الفن العربي) الذي مر ذكره بعض ادوات من هذه الصناعات مثل كاسات الصفر اي النحاس الاصفر وآنية الشبه اي البرونز المغشاة بالنقوش الرائعة والكتابات العربية . وقال : ان أمراً خاصة كانت هذه الصناعات محصورة بها فتتقن عملها للخلفاء والسلاطين والامراء في دمشق ومصر والموصل . وكانوا يصنعون الاباريق والطسوت والاقداح والمصابيح مزينة بالرسوم واوراق الشجر والدوائر الهندسية

المشابكة التي يسميها الافرنج باسم (الصناعة الدمشقية) اي دماسكينه ... وقال انهم كانوا يحفرون اسماءهم على صناعاتهم في القرن الثالث عشر للميلاد ... ونقلت هذه الصناعة الى ايطالية في القرون المتوسطة ·

وذكر ترصيع الاواني بخيوط ذهبيـة وفضيـة وتغشية الخشب البسيط بخشب نفيس كالجوز وغيره مما يعرف لعهدنا « بالتلبيس » او « التغشية » عند ارباب هذه الصناعات ·

ثم قال : ولقد رحلت أسر دمشقية الى ايطالية وتديرت بيزه وفلورنسه وجنوى والبندقية · واشتهرت فيهـا معاملهـا حتى تفوقت بهـا على معامل بغداد وصقلية (Sicili) · الى ان قال : ان اتخـاذ تلك الاكواب المنقوشة في الحفلات كان للتنافس بهذه الصناعة الرائعة ... ولكنه انتقد الكتابات المتشابكة التي كانت كلها ادعية لا يمكن حل الغازها » انتهى قول دافن ·

ومن الآثار الباقية من هذه الصناعة الدمشقية ما في كاتدرائية بايّو (Bayeux) وهو قنديل مرصع ومنزل بالفضة · وعلى قبر السلطان بيبرس الثـاني قنديل شبهي اي برونزي مذهب مزين وهو بغاية الاتقان عمله احد خاصة ذلك السلطان تذكاراً له · وفي بعض الجامع الصناعية في اوربة جام من الشبه « البرونز » الدمشقي المرصع بديع الصنع والنقش ·

وبما ان هذه الصناعة تتعلق بالنحاس ايضاً رأيت ان اقول كلمة في تعدينـه من مناجم كثيرة حول دمشق · منهـا مدينة كالثيس او خلقيس وهو اسم يوناني بمعنى مدينة النحاس وتسمى اليوم « عنجر » في اول وادي الحرير المؤدي الى مدينة دمشق هذه بطريق الشام القديم وقرب عنجر قرية « جرن النحاس » · وكذلك في محال أخرى آثار معادن نحاسية عدنت قديماً ·

وفي دمشق سوق النحـاسين المسمى قديماً (البريص) التي ربما كانت تحريف (بارازيسوس) اي الفردوس · ولعل اسم برزه منها ايضاً · وتوجد اسماء أسر كثيرة منسوبة اليه منها بيت النحاس على اختلاف مذاهبها ومواطنها واصولها ·

ومما رواه المؤرخون : ان علي بن عريف النحاسين الدمشقي طبخ ادوية مع

النفط في قدور من النحاس حتى صارت كأنها جمرة نار وخرب بها الابراج التي صنعها الصليبيون من خشب وحديد مغشاة بجلود مطلية بالخل حتى لا تنفذها النيران. وكان كل منها يسع نحو خمسمائة من الزراقين والنفاطين وذلك في حصار عكاء سنة (٥٨٦ هـ ١١٩٠ م).

وكان النحاس يصنع سكيناً او طرقاً وتعمل منه ادوات كثيرة لا يزال بعضها في المتاحف والبيوت والجوامع والكنائس. وفي متحفنا الدمشقي امثلة كثيرة منها. ومن معامل النحاس ما اكتشف في بيت سكر في محلة باب توما عند ترميمه اخيراً.

نقش البيوت والجدران

هي صناعة شرقية قديمة اشتهر بها الفرس والبزنطيون فشاعت في مصر وسورية ونقلها السلجوقيون الى بلاد أخري. ولكن الدمشقيين تفوقوا فيها فزخرفوا بيوتهم باصباغ والوان ورسوم دقيقة بديعة واشتهر بها الاندلسيون في قصورهم المشهورة. وكانت تحتاج الى الذهب فاشتغلت به أسرة خاصة في دمشق تعرف ببني الذهبي الى يومنا لانها كانت تتجر بالذهب وانواعه من محلول ومسحوق مما يصلح للدهان والنقش لتزيين الجدران والاخشاب بالنقوش والكتابات وكانت صنعتهم ايضاً التذهيب به.

ولقد فقدت هذه الصناعة منذ أقل من قرن ولها بقية صالحة عندنا وعرف بعض الذين مارسوها بالقاب الدهان والنقاش والمراش والذهبي والرسام والمصور ومن بقاياها الماثلة لنا اليوم ما في الدار العظمية في البزورية. وغرفة حماة العظمية ايضاً. وفي بعض البيوت مثل الغرفة التي بيد آل مردم بك قرب سوق الحميدية في زقاق الفخر الرازي المسماة (خركاه) وهي لفظة فارسية بمعنى المثلثة سميت بذلك لتثليثها ومثل بيت القوتلي وشمعايا الاسرائيلي وبيوت أخرى معروفة وبعضها مرت عليه ثلاثة قرون وهي لا تزال برونقها وروائها الجميل. ومن هذا النوع نقوش سقف الجامع الاموي الحديثة بعد تجديده على اثر احراقه الاخير فبعضها قديم الطراز

والآخر عجميه واحدثها ما في موقف (محطة) السكة الحجازية في آخر شارع جمال باشا الى جنوبي المرجة الغربي .

ومما يتعلق بهذه الصناعة النجارة لعمل الابواب والنوافذ والخزائن وما شاكلها مما يدهن و ينقش و يجصص بزخرف نفيس . ولقد اشتهر بها كثيرون فنسبوا اليها وقيل لهم بنو النجار وهم من طوائف واصول مختلفة حتى لا يكون احدها من انسباء الآخر .

واشتهر منهم بدر الدين بن حسام الدين التبريزي المعروف بالحسن الجوهري الذي صنع القماري الثلاث العظيمات التي فوق محراب الجامع الاموي الكبير بالمقصورة . كان في زمن السلطان سليم العثماني الفاتح وممن استقبله عند دخوله هذه الحاضرة . وهو من سلالة المنلا محمد الشهير بشيخ زاده الذي جاء من جهة اصفهان الى دمشق سنة (٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م) وحمل معه جواهر ومعادن فلقب بالجوهري وبقي الاسم متعاقباً في سلالته كما ذكر الشيخ حسن البوريني في تاريخه من مخطوطات خزانة مجمعنا العلمي الدمشقي .

ونشأ بين المسيحيين أسرة بني النجار واصلها من بني البلدي فنسبت الى صناعتها النفيسة واشتهر منها وهبه النجار والد المرحوم صفرونيوس مطران طرابلس للروم الارثوذكس وله اعمال في القواطع (الايقونسطاسات) الكنسية منها قاطع كاتدرائية الروم الارثوذكس في بيروت وهو من خشب بديع ونقش رائع وتلوين يأخذ بمجامع القلوب وهندسة انيقة وقد كتب عليه اسمه بتاريخ سنة ١٧٨٣ م . ومثل ذلك منابر وقواطع كثيرة في كنائس لبنان ودمشق وسورية وفلسطين ومصر ونحوها .

ولا تزال بعض الدور الدمشقية عند جميع الطوائف من هذه الصناعات الانيقة التي أهملت منذ نصف قرن . وفي متحفنا اشياء منها . ومن ذلك التغشية بصفائح الجوز الخشبية وللدمشقيين افتنان بديعة فيه وفي نقوشه .

* * *

النسج او الحياكة

اشتهرت دمشق قديماً بالنسج الى ان فتحها العرب فحاكوا اقمشتهم على طراز ساساني فارسي اوقبطي او رومي فكانت ترقم عليه صور الطرائد والوقائع والفرسان والقناص وما يتعلق بهـا و يضاف اليهـا من الرسوم البديعة والرقوم الجميلة . واشتهرت بلاد فارس بعد ذلك بالاطلس والقطيفـة (المخمل) والديباج الحريري الموشى فصـار يرقم بصور الاثمار والازهار والحقول المدبجة بالالوان والحيوانات السارحة في الغابات والحدائق وكلها من المشجر الغريب الهندسة والاشتباك فسماه الايطاليون (Damasco) لانهم اول من تناولوه عن الدمشقيين فسموه باسمهم (الدمشقي) ومنه اسمه الافرنسي (Damas) والانكليزي (Damask) .

اما كلمة (ديما) للنسج القطني المعروف فارجح انهـا مأخوذة من هذه الكلمة . او انها يونانية من (انديما) بمعنى كساء اوثوب . واول من اخذها الى اوربة الهولنديون ونقلت الى انكلترة سنة ١٥٧٢ م من هولندة .

واری ان كلمة دمقس ودمقاس ودمقس التي أطلقت على الحرير المنسوج ربما كانت محرفة عن كلمة دمشق هذه . وقيل انها معرب (دمـه) اي الحرير الابيض بالفارسية . ومن الالفاظ التي قال البرتغاليون انها عربية الاصل (Adereçar) وهي اقرب من كلمة طرز او درز ومعناها عندهم الوشي .

ولقد اشتهر الوشي والديباج في زمن الدولة الاموية وتفاخر به ملوكهم حتى روي انه كان عند هشام بن عبد الملك اثنا عشر الف قميص موشى واتخذ معاوية بن ابي سفيان (دار الطراز) [1] في قصره المعروف بالخضراء [2] لنسج الحرير

(١) كان (ديوان الطراز) و (صاحب الطراز) المسميان بزمن الفاطميين (دار الكسوة) و (صاحب الكسوة) من شعار الملوك لعمل اثواب الخلفاء .

(٢) لايزال محل هذا القصر اي دار الخلفاء الامويين في جنوبي الجامع الاموي الى الشرق يعرف بمصبغة الخضراء الى يومنا وكان فسيحاً تحدق به ابنية الامويين التي أدخل بعضها في دار اسعد باشا العظم عند تشييدها .

المطرز ووشي الثياب الملكية المذهبة وبقيت دكاكين البزاز بن الي زمن ابن بطوطة وما بعده فذكرها في شوارع دمشق ٠ وكانت على عهد الصليبيين حافلة بالانوال التي تنسج الحرير وانواعه البديعة ٠ ولقد ذكر الشريف الادريسي رواجه في البلدان البعيدة في ايامه وما كان له من المقام الرفيع والمحاسن الرائعة ٠

ووصف بريس دافن الافرنسي الآنف ذكره هذه الصناعة في كتابه (الفن العربي) بما ملخصه معربًا فقال : ان النسيج الدمشقي باقية آثار روائه وبدائع زخرفه في المتاحف فصنع اولاً على اطرزة مختلفة مزركشًا بصور الطرائد والحروب ولكن الفرس تطرقوا الى رسم الاشخاص فيه اه ٠

وذكر كثير من مؤرخي العرب وكتبة التراجم ما كان للنسيج من المنزلة ٠ فقالوا : ان العنابات اسم قماش حريري نسب اليه بعض العلماء لاشتغالهم به وكذلك الحرير فقيل العناباتي والحريري ٠ وذكروا ان بني الفلاقنسي في دمشق منسوبون الى بلدة فلاقنس من نواحي حمص اذ جاء جدهم السيد محمود منها الى محلة القيمرية بنسج الآلاجه واشتهرت فيها صنعته ونشأ من حفدته السيد احمد الكاتب الشاعر في القرن الثاني عشر للهجرة ٠ واشتهر كثير من العلماء بنسج هذا القماش ومنهم احد الامراء الحرافشه في دمشق فلقب بالحريري ٠

وكانت الاسر الكثيرة تنسب الى صناعات النسج وما يتعلق بها مثل القتال والرباط والطباع والرسام والمطرز والطراز والعقاد والغزال والغزولي والقطان والحلاج والكبابة والحائك والكتاني والمنير ومسديه والخوام والطوا ٠ وبعضها ينسب الى آلات النسج مثل النوبلاتي والمكوكجي والمشاطي ٠

ولقد جلب معهم كثير من الوزراء العثمانيين الذين تولوا دمشق خياطيهم وخدمتهم وارباب بعض الصناعات التي كانوا يحتاجون اليها وتديروا دمشق ونشروا فيها صناعات جديدة تركية او وطنية نسب بعضهم اليها مثل الترزي والفرا والفرابه وكركوكجي والزنانيري والكبراني ٠

ومما يتعلق بالنسج الصباغة ولقد اشتهرت بها هذه الحاضرة منذ القديم ومن اشهر مصابغها مصبغة الخضرا محل دار معاوية الاموي كما سبق ٠ والى الصباغة نسب بنو

الصباغ . ومنها القصارة واليها نسب بنو القصار . ومنها طبع القماش اوالطباعة واليها نسب بنو الطباع والبصمجي .

ومما ضربت به هذه الصناعة سبي تيمورلنك لكثير من ساجيها ومع ذلك فقد بقيت الى عهد قريب بغاية الاتقان ولطالما كانت شائعة في انحاء سورية حتى ان كثيراً من تماثيل التدمريات في دار التحف العربية عندنا نرى في ايديها المغازل والغزل وهما شارة هذه الصناعة عند النساء الشرقيات .

الزجاج

نقلت هذه الصناعة من صور الفينيقية الى دمشق الارامية فأنشئت فيها المعامل واشتهر الزجاج الدمشقي مثل غيره من الصناعات الدمشقية ولاسيما في زمن الصليبيين ولقد قال ابن بطوطة لما نزل دمشق ما نصه : « وفيها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع اواني الزجاج العجيبة » . وقال الرحالة بوجيبومي سنة ١٣٤٦ م : « انه رأى معامل الزجاج في دمشق تشتغل على طول الجامع الاموي » . ومن ذلك الزجاج الملون المتخذ للقماري وله بقايا في بعض الدور القديمة . ونقلت هذه الصناعة الى الاندلس مع الدمشقيين واشتهرت بها مرسية ومالقة والمرية .

وممن اشتهر في دمشق من الزجاجين ابو اسحق ابراهيم بن محمد النحوي الملقب بالزجاج لانه كان في اول امره يخرط الزجاج فنسب اليه واشتهر بالادب وتوفي سنة ٣١٦ ﻫ ولما صحبه ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق النحوي البغدادي نسب اليه لا الى الصناعة فقيل له (الزجاجي) فتأمل الفرق في التسمية .

ولقد ضعف شأن هذه الصناعة فجددت منذ نحو اربعة قرون بعض التجديد اذ جاء نفر من (بني الدالي) من خليل الرحمن في فلسطين المشهورة بزجاجها فجددوا معالم الصناعة وهم المعروفون اليوم باسم بني (القزاز على لغة العامة في لفظ الزجاج) في محلة الشاغور .

البناء

اشتهر الشرقيون بالبناء وهندسته فتميزت كل أمة فيه بمزايا خاصة منها الطراز

الساساني واليوناني باشكاله الثلاثة الدوري واليوني والكورنثي · ثم وجد في بزنطيه الشكل البزنطي · واخذ العرب طرازاً من الساساني والبزنطي اشتهروا به فجاءت ابنيتهم بينهما وتميزت القناطر العربية بشكل نصف قوسين والقوطية بنصف دائرة · وعرف العرب بعقودهم المستطيلة وتزيين القباب باشكال هندسية مجسمة فبنوا قبابهم مثمنة الاضلاع ثم مربعتها ثم ذات ست عشرة ضلعاً فانتقلوا تدريجاً من المربع الى المدور وكانوا لا يحفلون بالتزيين الخارجي ثم مالوا اليه بعد زمن ومن مميزاتهم الشكل (المقرنص) مثل ما هو فوق مدخل الظاهرية في دمشق وغيرها من الابنية القديمة · واما الكتابات على جدران الابنيـة فكانت بالكوفي والنسخي والمشبك على ابواب المدينة والسور والقلعة وابراجها والابنية الأخرى كالمساجد والمدارس فمنها ما هو آيات قرآنيـة كريمـة ومنه وصف اوقاف كانت للجوامع والمدارس فنقشت اسماؤها واماكنها ومقاديرها لتحفظ من عبث الايدي بها · وذكر ابن طولون الصالحي في (رسالة المزة) المخطوطة : انه عندما يبطل الحاكم طرح ضريبـة على الناس ينقش ذلك في الجامع والقلعة ودار السعادة اه · وكانت تنقش اسماء البانين ايضاً والمهندسين ونحو ذلك وقد جمعت كثيراً من هذه الكتابات لانشرها · وقد نشر كثير منها في كتب الافرنج ورحلاتهم ولا سيما بالالمانية ولكنها لا تخلو من مزالق ومغامز ولهم في هندسة ابنيتهم اشكال كثيرة مختلفة [1] ·

ولما امتزج السوريون بالعثمانيين اقتبسوا شيئاً من طرازهم · وشاع في اوربة الطراز القوطي مقتبساً من الطراز العربي في الاندلس ·

ومن أعجب الهندسة القديمة هيكل رمون (محل الجامع الاموي الآن) بزمن الاراميين ثم الرومانيين واسواق دمشق بزمن الرومانيين والكنيسة المريميـة بزمن اليونانيين والجامع الاموي ودور الامويين والمدارس والقلعة وبعض القصور بزمن العرب وعلى بعضهـا اسماء مهندسيها مثل ابراهيم بن غنائم المهندس على باب الظاهرية وهو دمشقي · وكان لبعض ملوك دمشق شعار (رنك) خاص مثل (صورة الاسد)

(١) بين المسيو غايه في كتابه (صناعات العرب) اختلاف هذه الاشكال بين دمشق وبغداد وحلب والبصرة وغيرها ·

للملك الظاهر بيبرس البندقداري · وزهرة الزنبق بين اسدين لنور الدين الشهيد وغير ذلك مما نراه في خارج الابنية الباقية وفي داخلها· والآخر ذهب بذهاب المباني منذ عهد العباسيين الى ايامنا بالتخريب والاحراق والزلازل والاهمال ·

وكان نحت التماثيل معروفاً لان مؤرخي الروم ذكروا تماثيل كثيرة بديعة النحت والرواء في قصور الخلفاء بدمشق والعراق ومصر والاندلس ولقد اشتهر الدمشقيون بنحت الحجارة ونقشها وتصويرها ولهم سوق تدعى (سوق النحاتين) الى عهدنا ·

ومن بديع الابنية المتأخرة طراز التكيتين السليمية والسليمانية وفيهما القاشاني النفيس والنقوش الرائعة · وكذلك ابنية سنان باشا ومراد باشا من حكام هذه المدينة ومنها قبة باب البريد · والقاعة المحكية التي وصفها الشيخ حسن البوريني في تاريخه المخطوط في خزانة مجمعنا العلمي العربي الدمشقي بقوله : انها ليس لها نظير بناها امير الامراء محمد المحكي في دارهم لصيق الجامع الاموي من الشرق ·

وفي الصالحية (بسفح جبل قاسيون) في باب السوق المواجهة لجامع التابتية محلة (بين المدارس) وعلى ابوابها نقوش عربية بالحجر ذات رونق والقان وداخلها غرفتان الى الشرق وفيهما مدفن · وقبة مجصصة بنقوش رائعة · واما التي على يسار الداخل فهي بديعة النقوش والكتابات مجصصة الجدران قد اقتلع من جدرانها كثير من قطع القاشاني الثمينة ونقوشها على علو نحو مترين وهي من أهم آثار دمشق الداخلية في نحو سنة (٨٠٠ هـ ١٣٩٧ م)· وقد زرتها مع رصفائي اعضاء المجمع العلمي اول مرة (في شهر حزيران سنة ١٩١٩ م) وحرضنا الحكومة على تنظيفها وحفظها لتكون مباءة للسياح وروام الآثار · ومن تلك المباني دار اسعد باشا العظم قرب الدار الخضراء التي كانت قصر الخلفاء الامويين وكان الراز فيها اي رئيس البنائين والعملة معظمهم من مسيحيي دمشق · قال الشيخ احمد البديري الحلاق في تاريخه المخطوط ما محصله بلغته الاصلية : جاء محصل من قبل السلطان لتحصيل المال من سليمان باشا العظم · فأرسل خلف المعامرية (اي البنائين) الذين عمروا السرايا وكانوا نصارى وكان معلم نصراني يقال له ابن سياج فأمر القبجي اي المحصل بتعذيبهم ··· الخ وكان المعلم يطلق على رئيس البنائين · وفي ذيل القرماني من

مخطوطات خزانة مجمعنا : ان بانيه انفق عليه اربعمائة كيس والكيس خمسمائة غرش اجرة العمال . واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من بساتينه وارزاقه . وبقي العمال يشتغلون في دار الحريم سنتين وما كملت . وعدد العمال من غير ضبط ثمانمائة . وحاصل الامر نقلوا عمن ساح في البلاد ورأى ابنيتها ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراية الملك المعظم اه .

واخبرني احد المعمرين من بضع عشرة سنة اخباراً غريبة عن بناء هذه الدار وما جرى للبنائين الحلبيين الذين استقدموا لمساعدة الدمشقيين وغلبة الدمشقيين اياهم بفن الهندسة البنائية ... وان اجرة المعلم اليومية كانت نحو عشرة قروش واجرة الفاعل نحو ثلاثة . وهذه الدار جامعة لآخر فنون الهندسة والصناعات الدمشقية فهي احسن مثال لها وعندي وصف لها قبل خرابها الاخير . وكذلك كانت القيسارية العظمية المعروفة (بخان العظم) .

ومن محاسن الابنية الدمشقية ايضاً قاعة في زقاق الفخر الرازي من دور آل مردم بك الآن بديعة الهندسة والنقوش في السمك والجدران من نوع (الخركاه) اي المثلثة واصلها لآل الكيلاني المشهورين في دمشق وحماه . الى كثير من امثلة البناء الدمشقي في بعض الدور الباقية على رونقها القديم واكثرها رم ففقد طرازه . وعندنا اسر باسم البنّاء والنحات والحفار والدهان والرسام والنقاش تدل على صناعات البناء وما يتعلق بها .

ومما يدخل في صناعة البناء هندسة المياه وتوزيعها في الاقنية الحلوة والمالحة الى الطوالع (اي محل توزيع مياه القنوات) والبيوت والمجاري بطرق فنية ولها مخططات (خارتات) لمعرفتها وتوزيعها واصلاحها . ولقد ذكر التاج السبكي في كتابه (معيد النعم) شروط صاحبها . والذي يقسمها يعرف بالفرضي واشتهرت اخيراً اسرة آل الشطي الدمشقية بتقسيمها وعندهم اصول توزيعها والذين يتعاطون امرها يقال لهم القنباطي (واراها تحريف القناباتي) والشاوي .

***

الوراقة وما يتعلق بها

ان صناعة الورق تناولها العرب عن الفرس كما يظهر من اسماء كثير منها مثل الكاغد والمهرق · فعرفوها اولاً واتخذوا الورق من الحرير ثم من القطن وانشأوا له المعامل الكبيرة في هذه المدينة وعنها نقلت الى الاندلس واوربه · ولقد كان عند المؤلفين وراقون وهم الذين يستحضرون الورق و يصقلونه بمصاقل من العاج و يقطعونه اذا لم يتخذوه مدرجات صفحات صفحات ثم يعدونه للنسخ ويصنعون الحبر بالوانه الثابتة الجميلة ولا سيما الاحمر والاسود والضفدعي وهو اكثرها شيوعاً وقد يكتبون بالاصفر الزعفراني · و يبرون الاقلام و يرسمون النقوش فينسخون الكتب بخطوط مختلفة اهمها النسخي وهو المعروف عند النصارى بالكنسي لأن كتب الكنائس تنسخ به و يجلدونها بالفن و يبيعونها · فالوراقون هم الكتبيون اليوم · ولهم بهذه الصناعة اعمال بديعة تدل على حسن ذوق ودقة تفنن وكثير من اعمالهم في دور الكتب ولا سيما الظاهرية ·

ومن الكتب المؤلفة بهذا الفن (نظم تدبير التسفير)في صناعة الكتب اي تجليدها و (عمدة الكتاب) في صنعة الحبر والاقلام والخط للامير المعز بن باديس المتوفى سنة ٤٥٤ هـ وقيل انه الف باسمه فقط و (رسالة في صناعة الاحبار) و (النجوم الشارقات في عمل الليقات) لمحمد بن ابي الخير الحسيني و (رسالة في الخط وبري الاقلام) لابن الصائغ و (الاقلام القديمة) لابن الدالي وصف فيه مائة وخمسين قلماً اي نوعاً من الخط و (شرح ابن وحيد على منظومة ابن البواب) في صناعة الخط و (مقدمة في صناعة الخط) لابي علي بن مقلة مخرومة الآخر و (ارجوزة لمحمد بن حسن السنجاري) في الخط ايضاً وكلها في الخزانة التيمورية في القاهرة عدا رسائل أخرى فيها وفي غيرها ومنها (تنويق النطاقة في علم الوراقة) لابن مسك السخاوي من اهل القرن الحادي عشر للهجرة ·

ووصف مؤرخو اليونان الورق الدمشقي القطني المعروف عند الافرنج باسم (كرتاداماسينا Carta Damascena) وانتقلت صناعته الى شاطبة و بلنسية وطليطلة

في الاندلس ومن معاملها المشهورة انتقلت الى اوربة كما ذكر سيديليو · ووصف ابن بطوطة الرحالة سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغدوالاقلام والمداد في دمشق ·

وكان اسرى الصليبيين يؤتى بهم الى دمشق فيشتغلون في معاملها الصناعية · وقد نشرت جريدة الف باء بتاريخ ١٥ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م · ان جد الجنرال غوابه الافرنسي نقل الصناعة من دمشق الى فرنسه في ذلك العهد على اثر اطلاقه من اسره في الحروب الصليبية سنة ١١٤٧ م واسس لها معامل في بلاده وتفنن الافرنسيون بالورق ·

وسنة ١٣٣٩ م احترق في شرقي الجامع الاموي سوق اللبادين وسوق الوراقين · وقال ابن طولون الصالحي مؤرخ دمشق في رسالته في (المزه) ما نصه : « وكانت سوق الكتب في دمشق تحت شباك المدرسة الفاضلية بالكلاسة » اه وقوله يدل على ان اسواق الوراقة كانت حول الجامع الكبير ·

ولقد اشتهرت دمشق بدور كتبها الكثيرة ومخطوطاتها النفيسة وخطاطيها المتفننين ووراقيها البارعين ولن تزال اثار الوراقة عندنا ولا سيما في كتب الظاهرية فضلاً عما نقل منها الى مكاتب اوربة والاستانة ومصر ·

وممن اشتهر من الخطاطين المتأخرين المقدسيون ذكرهم الشيخ حسن البوريني في تاريخه بقوله : « منهم الشيخ ابراهيم المقدسي كاتب المصاحف التي يتغالى بثمنها الناس لا سيما اهل دمشق وذلك لحسن الخط ودقة الضبط وقد كتب منها ما يزيد على مائة مصحف · ومنهم الشيخ خليل وعندي مصحف مسبع كتبه بخطه سنة ٨٠٩ هـ » انتهى قول البوريني ·

وممن عرفناهم من الخطاطين بين المسلمين بنو الحموي وفي مكتبتي نسخة من المقامات الحريرية بديعة الخط والضبط والنقش والتذهيب صغيرة الحجم كتبها احمد بن محمد بن عبد الله الحموي الدمشقي سنة ١١٤٨ (١٧٣٥ م) ·

ومن الخطاطين المسيحيين في دمشق بنو عطايا الاطباء وفي الظاهرية كتاب (تذكرة داود البصير) نسخه ميخائيل بن يوحنا بن عطايا الطيب الشامي سنة ١٠٨٢ هـ

في ٨٨٠ صفحة بقطع نصف كبير . ومنهم بنو صروف وجبارة واليازجي والميداني وغيرهم ولهم مخطوطات بديعة في خزائن مختلفة احرزت بعضها .

الصناعات الأُخر

وهناك صناعات احتاج في وصفها الى مجلد كبير فاجتزئ بالاشارة اليها :

منها (السباق والفروسية والمراحة والمسايفه) = اشتهرت هذه الالعاب منذ القديم واولع بها الامويون حتى ان هشام بن عبد الملك كان في مربطه اربعة آلاف فرس اشتهر كثير منها بالسباق الذي كان يقوم في الميدان الباقي اسمه الى عهدنا في الغرب الجنوبي من مدينة دمشق ومن خيوله المشهورة بالسباق (الزائد) وذكر المسعودي : « ان رصافة الشام كانت مضمار السباق وكانوا يخرجون الى الحلبة باوقات معينة ويجيزون السابق ولا سيما في زمن الخليفة معاوية ابن ابي سفيان » وما الطف قول المعري في السباق :

اذا وقي الانسان لم يخش حادثاً	وان قيل هجام على الحرب اهوجُ
وان بلغ المقدار لم ينجُ سابح	ولو انه في كبة[1] الخيل اعوج[2]
فلا تشهرن سيفاً لتطلب دولة	فافضل ما نلت اليسير المروج

واشتهروا بترويض الخيول والفروسية وعمل السروج وما يتعلق بها وصانعها السراج والعامة تقول السروجي والدكديجي لما تحت السرج . وفي التواريخ أمثلة كثيرة تدل على عنايتهم بها . وكذلك التمرن بفنون الحرب والمسايفة (اللعب بالسيف) والمراحة (اللعب بالرمح) والمثاقفة (لعب الحكم) . ومما يحضرني من ذلك ما رواه الشيخ حسن البوريني في تاريخه المخطوط وهو : « ان الحافظ الثاني امر جميع العسكر الدمشقي بالخروج الى الميدان الاخضر في الجانب الغربي منها وان يحمل كل منهم بندقية المكحلة لانها سلاح مماليك آل عثمان . وان يرموا البندق على الغرض

(١) الكبة بالضم جماعة من الخيل . والكبة بالفتح افلات الخيل على المقوس (خيط السباق) للجري او للحملة والصدمة بين الخيلين (٢) هو الفرس المطهّم المعروف عندنا بالكحيلان .

فأحرز الجائزة كنعان بلوكباشي الجركسي وهي عشرة دنانير من الذهب . فلما تم ضرب البندق امر بلعب الخيل في الميدان فاصطفت الخيل فريقين فكان كل من يصيب بضرب الجريدة يعطيه الوزير ملء كفه دراهم » اه .

وقال احمد البديري الحلاق في وصف احدى الحفلات : « وركب أهل الملاعب والاغوات والشربجية والاكابر والانكشارية ومثلوا شجعان العرب بملاعبهم وحركاتهم » وكذلك وصف شمس الدين بن طولون الصالحي مثل هذه التمارين والالعاب مفصلاً في الجري على الخيل ورمي النشاب من على ظهورها وما اشبه ذلك [1] . والاوجاقي من يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة عند العرب .

ومنها (عمل الآلات الفلكية) = مثل المزاول اي الساعات الشمسية والساعات الاخرى والارباع الفلكية والاسطرلابات ونحوها . فاشتهرت دمشق بساعاتها وبنكاماتها وبقية هذه الآلات التي صنعها كثير من سكانها . ومن ساعاتها القديمة واحدة عليها عصافير من نحاس ووجه حية وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة ثم تتجدد تلك الحركات على هذا النمط كلما تجددت الاوقات .

ومن تلك الساعات ما وصفه الرحالة والمؤرخون ولا يزال (باب الساعات) في الجامع او باب الزيادة دالاً على ذلك وهو الذي ذكر ابن بطوطة انه عن يمين الخارج من باب جيرون محدثاً عنها وكذلك ابن جبير فانه وصفها بدقة . وذكر ابن ابي اصيبعة : ان مهذب الدين احمد بن الحاضب الدمشقي كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع في دمشق . وقال : ان فخر الدين الساعاتي هو الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي في دمشق وفي متحفنا بعض آلات منها صنعت في دمشق . الى غير ذلك من الاعمال الهندسية . وفي الخزانة التيمورية بالقاهرة (كتاب علم الساعات والعمل بها) وهو في الساعات المائية وفيه رسوم ألفه في القرن السادس للهجرة الشيخ رضوان بن محمد الخراساني وعندي مؤلفات فيها .

---

(١) راجع هذا الوصف في مجلة مجمعنا العلمي العربي « ٢ : ١٤٩ » .

ومنها (صك النقود)= وهو قديم وعرفه العرب في زمن الامويين . وذكر ابن عساكر ان رجلاً اسمه دواس رثى يده التي قطعت لضربه دراهم زغلاً . وآخر ما عرفنا من امر صك النقود ما رواه احمد البديري انه سنة ١١٥٧ هـ بطلت الفلوس الرملية التي كانت ضرب الشام . وقال في محل آخر : ان كل ٣١ فلساً رملياً بمصرية . وذكر ايضاً تشهير بعض الذين زيفوا الفلوس الرملية .

ومن النقود المضروبة في دمشق ما هو محفوظ في متحفنا العربي : مثل قطعة فضية باسم المعتصم بن هرون الرشيد صكت سنة ٢٢٦ هـ وقطع فضية ونحاسية مختلفة منها ما صك باسم محمود بن زنكي سنة ٥٧٠ هـ وصلاح الدين يوسف بن ايوب سنة ٥٨٦ هـ والملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل محمود زنكي سنة ٥٩٦ هـ وقطع أخرى كثيرة في زمن الدولة الاتابكية وغيرها .

ومنها (الغناء والموسيقى والضرب على الآلات)= لقد عرفت هذه الفنون منذ القديم في دمشق كما تذكر التواريخ اخبارها من ذلك ما ذكره الكتبي في (فوات الوفيات) من ان ابن المسجف الدمشقي قال يصف (الكمال) وضربه على القانون :

لو انت أبصرت الكمال وجسه أوتار قانون له في المجلس
لرأيت مفتاح السرور بكفه اليسرى وفي اليمنى حياة الانفس

وقال الشيخ حسن البوريني في تاريخه : انه حضر بعض المجالس وكان فيها عواد يقال له (سالم) وله عبد اسمه (سرور) يضرب بالدف . وروي عن جمال الدين ابن فرفور انه كان موسيقياً خطاطاً . وقال عن نسيبه عبد الرحمن بن فرفور : انه كان عارفاً بالنغمة باصطلاح الموسيقى حتى انه كان يخلو بنفسه و يدفع عنه الوحشة بصوته الرخيم .

ومنها (استقطار العطور)= وهي صناعة قديمة لكثرة ما في دمشق وغوطتها من الرياحين والنباتات . ولقد وصف شيخ الربوة الدمشقي [1] : طرق استقطارها في قرية (المزة) قرب دمشق حيث كثرت معاملها وصور المقاطر (الكركات) والانابيق والقرعات . وأطال في ذكر طرق الاستقطار بها في عصره اي القرن

(١) راجع (نخبة الدهر) طبع اوربة صفحة ١٩٤ .

الثامن للهجرة ووصف الرياحين وانواعها · ومما قاله عنها : « ويحمل الورد المستخرج بالمزة الى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك · ويسمى هناك الزهر · ومما ارخوه : انه كان لقاضي قضاة الحنفية ولاخيه الحريري قطعة بارض تسمى (شور الزهر) طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة باع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين الف درهم · وذلك سنة خمس وستين وستمائة وهذا لم يسمع بمثله » اه ·

ومن اسماء المشتغلين بهذه الصناعة الى الآن بنو الزهر اوالزهوراتي والعطوري اما بائع العطور والمتجر بها فيسمى العطار ·

قلت هذا وصف اهم صناعات دمشق وقد بقيت هناك صناعات أخر كإدارة المطاحن المائية والحمامات والمدارس والمستشفيات والتعليم والجراحة والطب والكحالة والصيدلة والدباغة وعمل الادوات والحلويات ··· الخ مما يملأ مجلدات فاجتزأت عن وصفه الآن لضيق المقام ·

ولا تزال اسماء أسر كثيرة تدل على هذه الصناعات الى يومنا لانها اشتهرت بها مثل الطحان والبزاك والحمامي والمدرس والمعلم والجرائحي والحكيم والطبيب والكحال والصيدلي والدباغ والحلواني والسكري او السكاكري · وفي كثير من الصناعات مؤلفات ورسائل أحرزت بعضها لا محل الآن لوصفها ·

الختام

لقد راجت مصنوعات دمشق كما رأيتم في مطاوي هذا البحث رواجاً غريباً وكانت دور الخلفاء الامويين مصانع لها وكذلك دور من جاء بعدهم من الملوك والامراء والاعيان الى ان ضربت الصناعات بالكساد فكثرت عليها الضرائب ونافستها المدن الاخرى ولا سيما تدمر وصور وحلب · وانتقل صناعها الى بلاد أخرى وسبي الحاذقون منهم الى اقطار بعيدة · وتشتت شمل الامر في النكبات الطبيعية كالزلازل · وفي الحروب الداخلية · والمصادرات والمهاجرة والتجارة الخ · و بالتالي كان انحصار بعضها في أسر خاصة وكتم اسرارها بين عمال معروفين

غير متجاوزة الى غيرهم من اهم اسباب انقراضها كما كانت هذه الشؤون في القديم من اهم ذرائع ارتقائها ·

فسبحان من يبدل الاحوال ولا يتبدل · على ان النهضة الحديثة في استعادة بعضها وانشاء معامل لها منذ نحو قرن قد بشرت باستئناف تجديدها ·

وارجئ ذلك البحث الى محاضرة ثانية في (صناعات دمشق الحديثة) ألقيها عليكم في فرصة قريبة وفيها التفصيل الكافي عن اصولها وطرق تجديدها وتحسينها · ولاسيما الشد الذي هو من أهم اسباب نجاحها · والسلام خير ختام ·

عيسى اسكندر المعلوف



صفحة من تاريخنا الاجتماعي [1]

أيها السادة !

موضوع محاضرتي اليوم (صفحة من تاريخنا الاجتماعي) . وقد أردتُ بقولي (صفحة) ان البحث فيها يقتصر على وصف حالتنا الاجتماعية في بعض أزمنة التاريخ اي في خلال السنة الواقعة بين (٢٥٠) و (٣٥٠) للهجرة اعني قبل الف سنة من وقتنا الحاضر .

واردت بقولي (تاريخنا) أموراً وحوادث كانت تقع في بغداد بين رجال الطبقة العالية من وزراء وقضاة وعلماء واعيان .

اما قولي (الاجتماعي) بعد قولي تاريخنا فلاجل صرف الذهن من اول الأمر عن تاريخنا السياسي الذي انما يتضمن ذكر اخبار الملوك وقيام الدول والمنازعات حول العروش . وما يثور بسبب ذلك من الحروب .

وهنا موضع العتب على كتابنا او مؤرخينا العرب الذين كانوا اذا كتبوا في التاريخ شحنوا المجلدات بما ذكرنا من اخبار الحروب والملوك . حتى كأن الملوك هم البشر . واما الأمم فقطعان بقر .

فكتاب تاريخنا لم يصفوا لنا كيف كانت أصول الادارة في الدول الاسلامية ولا طرائق تأليف مجالس الحكم . وضبط الأمن . وجباية الاموال . ولا أنماط التربية والتعليم في المدارس . ولا طُرُز المعيشة العائلية والتدبير المنزلي . ولا طُرُق المعاملات المالية وتوزيع الثروة واساليب التجارة والزراعة . ولا غير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية التي يتألف منها تاريخنا الاجتماعي .

---

(١) للاستاذ المغربي ألقاها في ردهة المجمع العلمي في ١٥ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م .

وانكم لتعلمون ان هذه الابحاث والموضوعات هي المادة التي تتألف منها كتب المطالعة ثم تُعطى الأحداث والطلاب فيدرسونها ويستفيدون منها عقلاً وتجربة ٠ وان مكتبتنا العربية لفي حاجة الى أمثال هذه الكتب المفرغة في قالب كتب المطالعة الافرنجية المعروفة باسم (Lecture) ٠

ومن مواضع الاسف اننا نرى المتعلمين من شباننا ملمين بالشؤون الاجتماعية عند الاوربيين وبسيرها في كل دور من أدوارهم التاريخية أكثر من معرفتهم ذلك عن أمتهم العربية :

فهم يعرفون ان اهل المملكة الفلانية الاوربية في عهد ملكها الفلاني في قرنها الرابع عشر مثلاً — كانوا يفعلون كذا ٠ أو كانت عاداتهم كذا ٠ او حالتهم العائلية او المعاشية كذا ٠ بينما هم اذا سُئلوا عن الحالة الاجتماعية في أحد عصورنا التاريخية قالوا ان السلطة فيه كانت بيد الدولة الفلانية ٠ أو الأسرة الفلانية ٠ وقد جرى من الحروب في ذلك العصر كيت وكيت ٠

وليس هذا وحده كل ما يلزم من التاريخ لابنائنا وطلاب مدارسنا كما لا يخفى ٠

وقد يستثنى من كتب التاريخ عندنا ما كتبه ابن خلدون في مقدمته ٠ والمقريزي في خططه ٠ والقلقشندي في كتابه (صبح الاعشى) ٠ وعبد اللطيف البغدادي فيما وصف من الآثار ٠ ومواطن الاعتبار ٠

بل ما يدرينا أن يكون لعلمائنا السالفين اشباهُ هذه المصنّفات الممتعة في وصف احوالنا الاجتماعية ثم أبادتها التعصّبات الدينيّة ٠ والحروب الطائفيّة ٠ وما بقي منها انتقل الى مكتبات اوروبا ٠ وخزائن علمائها المستشرقين ٠

وقد انتبه هؤلاء العلماء المستشرقون في المدّة الاخيرة الى ما ينقص مطبوعاتنا العربية الحديثة من المصنّفات في تاريخنا الاجتماعي فأخذوا ينبشون تلك المصنّفات من مكامنها ويطبعونها ويعلقون عليها شروحاً وهوامش ممتعة جداً ٠ وقد جلب مجمعنا العلمي الى مكتبته طائفةً من هذه الكتب ٠ أذكر منها عجائب الهند للرامهرمزي ونشوار المحاضرة للقاضي ابي علي المحسّن التنوخي وطوق الحمامة لابن حزم والموشى لأبي الطيب محمد بن اسحق وكتاب الولاة والقضاة لابي عمر الكندي

ولا تنسوا (مقامة ابي القاسم البغدادي) لابي المطهر الازدي التي كانت موضوع محاضرتي السابقة ·

اذن يحسن بنا ان نخفف لهجة اللوم والعتاب على أسلافنا : فانهم رحمهم الله تركوا لنا ثروة عظيمة من التآليف في كل فن من فنون العلم والادب · لكننا نحن أحفادهم أضعنا الثروة · وقصرنا في حفظ التركة ·

قلتُ ان موضوع محاضرتي التاريخ الاجتماعي لكن لا تحسبوا أنني سأخوض من هذا التاريخ في قواعده التي وضعها علماء الاجتماع · ولا في نظرياته الدقيقة التي كثر الخصام حولها بين أفلاطون وأرسطو وشيشرون في التاريخ القديم · وبين مونتسكيو وسبنسر ونيتشه وشوبنهور في التاريخ الحديث · لا أخوض في ذلك كله اذ هو من دروس طلاب الجامعات العالية · وليس هو من مواضيع المحاضرات العامة ·

وانما سأتخطى تلك القواعد والنظريات العقلية الى وقائع وجزئيات تاريخية جديدة لم تتناقلها الافواه بعد : يلتذ بها محب التاريخ — وكلكم ايها السادة تحبون التاريخ — فتقارنون بينها وبين ما يقع من اشباهها في زمننا الحاضر · كما يستفيد منها اخواننا الصحافيون والكتاب الاجتماعيون وطلاب المكاتب العالية من حيث يرون فيها مادة لمقالاتهم · ونموذجات اجتماعية يستشهدون بها في مباحثهم ومناظراتهم ·

هذه الاخبار والحوادث التي أرويها لكم منسقة على هذه الصورة هي مفهوم كلمة « المحاضرة » اي هو معناها الذي كان يفهمه علماء الادب · عندنا معشر العرب : فمحاضراتُ الراغب الاصفهاني · وحسن المحاضرة للسيوطي · ونشوار المحاضرة للقاضي ابن علي المحسن التنوخي — لم تسم كذلك الا لأنها جمعت أخباراً مختلفة تفيد القارئين · وتلذ السامعين · وها انا في محاضرتي هذه أحذو حذوهم · واسلك طريقتهم ·

ومعظم ما أرويه لكم فيها مقتبس من كتاب (نشوار المحاضرة) للقاضي التنوخي المذكور مع تصرف قليل أو كثير حسب ما يستدعيه المقام ·

طالت المقدمة فلنجتزئ بما مر · ولنقبل على الموضوع فنقول :

* * *

يؤلفون اليوم كتباً في وصف أحوال المدن وإحصاء ما فيها من آثار الحضارة ومقوّمات العمران لتكون دليلاً للسياح ومحبي الاستطلاع · ومن ذلك الكتب التي يصدرها (محل بيدكر) عند الاوربيين · وقد قلدهم فيها كتاب العرب وسمّوها (دليلاً) فيقولون : دليل الاستانة ودليل القاهرة · ويظهر ان العرب في العهد العباسي ألّفوا مثل هذه الكتب : فان (احمد بن الطيب) ألّف كتاباً عن بغداد وما فيها· وقد توفي أحمد هذا سنة (٢٨٦) هـ · وكذلك (يزدجرد الكسروي) فانه ألف كتاباً بأمر ركن الدولة ابن بويه وصف فيه (بغداد) في عهد الخليفة المقتدر المتوفى سنة (٣٢٠) وقد أحصى ما فيها من الابنية والشوارع والدروب والحمامات والسكان والسفن والملاّحين وما يُنفق فيها من الحنطة والشعير وسائر الاقوات ·

ومما ذكروه على سبيل النموذج ان اصحاب المعابر كانوا يأخذون من الملاّحين في كل يوم ثلاثين أو اربعين الف درهم وهي تبلغ من نقود زماننا نحو مائتي الف قرش · والظاهر ان مرادهم باصحاب المعابر ارباب المكس الذين يقعدون على فوهات الطرق فيأخذون (مروريه) على الثلج الوارد الى بغداد ·

وقدّروا ما يأكله أهل بغداد من صنف الخس في زمن موسمه بنحو خمسين الف دينار اي نحو عشرين الف ليره من نقودنا ·

وأحصوا ما ينفقونه من سويق الحمص في كل سنة فبلغ نحو (٨٤٠٠) قفيز والقفيز اربعة ارطال او اكثر · فمجموع ذلك بالقناطير نحو (٣٣٦) قنطاراً من الحمص السويق ·

والسويق دقيق الحنطة والشعير ولكن بعد تحميصها على النار : يضعه المسافر في جرابه فيسفه سفّاً او يجدحه (يخلطه) بالماء او اللبن فيشربه أو يأكله · قال أعرابي : «السويق» عدة المسافر وطعام العجلان وبُلغة المريض ·

ويظهر ان اهل بغداد في ذلك العهد اتخذوا سويقاً من الحمص كما سمعتم : فكانوا يحمّصون الحمص ويطحنونه ويأكلون طحينه سفّاً أو بصورة أخرى ·

ونحن اليوم ليس عندنا من سويق الحنطة والشعير · ولكن عندنا من سويق الحمص كما كان يصنع اهل بغداد : فاننا نحمّص الحمص ونسميه (قضامة) ثم نطحن

القضامة حتى تصبح ناعمة وتمزجها بالسكر وهذا هو السويق بعينه كما لا يخفى ·

وجرى في بعض مجالس بغداد ذكر دخل دولة الخلافة العباسية وخرجها والنقصان الذي طرأ عليها · فحدثهم القاضي ابو الحسن علي بن بهلول قال : اختبأ في دارنا الوزير ابو الفتح المعروف بابن حنزابه وكنت يومئذ حدثاً صغير السن فكان يناديني فنتحدث ونلعب بالشطرنج · فجرى يوماً بيني وبينه ذكر الخليفة المقتدر ونقصان دخله عن خرجه بسبب كثرة إسرافه وتبذيره · فشرح لي ذلك شرحاً وافياً (على أصول البودجه) · ثم قال : ان مزارع عمي ومزارعنا كان دخلها يوم صادرونا فيها مبلغ كذا وكذا ثم أخذ بالنقصان حتى بلغ ثلث ذلك المبلغ · قال ولو مكنوني من إدارة ضياعنا وحدها لعمرتها وعاد دخلها الى ما كان عليه · وان فرق ما بين دخلها الآن ودخلها اذا سلموني اياها بعجز الدنيا كلها · وليست أملاكنا سوى شقص يسير من الارض · فكيف لو كان للدنيا من يهتم بعمارتها كلها ؟ اه ·

هذا ما قاله الوزير وهو مختبئ خائف من الخليفة · وياليته يجيء اليوم فيرى بعينه كيف تُستثمر الدنيا وتستعمر · فيخف أسفه قليلاً على ما فاته من أمر عمارتها واستثمارها بحسب طريقته الاقتصادية المدهشة ·

وكانوا يحتفلون في أيام المواسم ويُقيمون الزين والمهرجانات لاسيما يوم النيروز · واصل النيروز عيد للفرس قلّدهم العباسيون والمصريون في الاحتفال له · وكانوا يُهدون فيه للخليفة النفائس والطُرَف كما يهدي بعضهم الى بعض · ويشعلون النيران · ويضعون على شُرُفات الدور والقصور مجامر طين · ويأتون بحب القطن (اي جوزه) فيشربونه دهن البلسان وغيره من الادهان الطيبة الفاخرة · ويشعلون هذه الحبّات فتفوح رائحتها · وتتلألأ في الظلمة أنوارها ·

ولما حان زمن النيروز في بعض السنين أرسلت السيدة أم الخليفة المقتدر الى عميلها التاجر ابن اسحق الشيرازي أن يشتري لها من الآفاق ألف شقّة زهرية خفاق جداً · وبعد طويل عناء في البحث عنها جُلبت · فاستدعت الخياطين الى القصر وأمرت ان يفصّلوا من هذه الشُقَق أزراراً على هيأة حبّات القطن

و يحشونها خِرَقاً و يخيطونها و يُشربونها دهن البلسان و يشعلونها مكان حبات القطن ومجامر الطين .

ومن جملة لهوهم في موسم النيروز اتخاذهم لُعَباً بطول الصبيان يزينونها بالحلي وفاخر الثياب . و يسمي المصريون اليوم لعبهم هذه عرائس و يصنعونها من سكر . و يسمّون في بغداد هذه اللعبة (دوبارَكه) وهي كلمة فارسية . واظن انها مركبة من (دوباره) حيلة مكر . و (كه) من كَيْمك وهو اللبس اي حيلة مستترة مغطاة بالثياب . و يُخرجون (الدوباركه) وأمامها مشاعل النيران والطبول والزمور . ومن اللطائف ان (عائدة بنت محمد الجهنّية) نظمت أبياتاً هجت بها الوزير أبا جعفر الكرخي فشبهته بالدوباركه قصره وجمال ثيابه فقالت :

(شاورني الكرخيّ لما أتى النيروز . والسنّ له ضاحكه)
(فقال ما نُهدي لسلطاننا من خيرما الكفُّ له مالكه ؟)
(قلتُ له : كل الهدايا سوى مشورتي ضائعة هالكه)
(أهْدِ له نفسك حتى اذا أشعل ناراً كنت دوباركه)

وهكذا كان اهل المناصب في ذلك العهد يتأنّقون في الثياب و يقتنون فاخر اللباس والرياش والاثاث و يسمون ذلك مروءة .

و بالغ أحد اهل الانبار في اتخاذ الثياب فكان يضع كل ضرب من ضروب الثياب في صندوق : دراريع الديباج في صندوق والدراريع الدبيقية [1] كذلك والقمص والسراويلات والجباب والطيالس والعمائم — كل ضرب في صندوق خاص . وكانت للانباري سرّية تزوجها فلم تلد له . وكان له أبناء عم فلما مرض وأشرف على الموت أسرعت فأخرجت من الدار جميع أمتعته وصناديقه سوى قليل منها تركته . لكنها نسيت صناديق السراويلات فلم تخرجها . ثم مات زوجها وجاء ابناء عمه فختموا خزائن الدار بواسطة المحكمة . ولما انقضى العزاء فتحوها فوجدوها (أفرغ من فؤاد أم موسى) ولم يجدوا سوى صندوق السراويلات فرفعوا أمرهم الى القاضي (ابي جعفر البهلول) فأحضر الجارية (وافتتحت الجلسه) فقالوا له : انت تعرف مبلغ عناية ابن

(١) نسبة الى دبيق قرية في مصر .

عمنا بالاثاث والرياش والالبوس فأين ذهبت كلها ؟ ولماذا لم يوجد من ثيابه الاهذه السراويلات الكثيرة ؟ ولماذا لم يوجد على نسبتها من الدراريع والجباب والطيالس؟ قال فأقبلت الجارية على القاضي محدّقة كأنها أعدّت الجواب وقالت : (أعز الله مولانا القاضي! أما سمعت ما حكاه الجاحظ من ان رجلاً كان يعشق الهواوين فجمع منها مائتي هاون . وابن عمهم كان يعشق السراويلات مثله) فضحك القاضي وانفضّ المجلس من غير شيء . وكسبت الجارية الدعوى لقراءتها كتب الجاحظ .

اما الوزير (علي بن عيسى) فكان يتخذ من الملابس الأليق بالوقار والتقشّف وكان يُحب ان يبين فضله في ذلك على كل احد . فدخل عليه يوماً القاضي ابو عمر وعليه قميص دبيقي فاخر . فأراد الوزير ان يخجله فقال له : (يا مولانا بكم اشتريت شقّة هذا القميص) قال بمائتي دينار [1] . فقال الوزير ولكنني اشتريت شقة هذه الدرّاعة والقميص الذي تحتها بعشرين ديناراً . فأجابه القاضي على الفور : الوزير أعزّه الله يُجمّل الثياب ولا يحتاج الى التأنق فيها . اما نحن فنتجمل بثيابنا . ونتأنّق فيها . والفرق بيننا اننا نخالط العامة وغيرهم ممن يلزم ان نقيم الهيبة لنا في نفوسهم . والوزير لا يدخل عليه العوام . وانما يخدمه الخواص الذين يعلمون انه يترك التأنق بالثياب عن قدرة . فسكت الوزير مغلوباً .

هكذا كان شأن قضاتهم من حيث التجمل ومراعاة اخلاق العامة والمحافظة على الوقار والسمت : فقد حدث ابو الحسن ابن البهلول قال كنت وانا صبي اجيء لألعب بقرب جدي القاضي (ابي جعفر ابن البهلول) فيصيح عليّ . والسبب في ذلك انني كنت اذا دخلت عليه وهو مكشوف الرأس أخذ قلنسوته من خلفه ولبسها وجلس متوقّراً عليّ . وسني اذ ذاك نحو عشر سنين . ويبقى على تلك الجلسة الى ان انصرف . فأراه اذا بعدت عنه رفع القلنسوة عن رأسه ووضعها حيث كانت .

سمعتم وقار هذا القاضي (ابي جعفر ابن البهلول) فاسمعوا متانته في الحق : دعته السيدة ام المقتدر يوماً اليها . وكلفته إحضار بعض سجلات المحكمة وحك احد الصكوك فابى عليها وقال : هذا والله لا طريق اليه أبداً ولو عرضت على السيف : انا خازن المسلمين على

(١) نحو مئة ليره من نقود زماننا .

ديوان الحكم : فإما مكنتموني من حزنه والا فاعزلوني وغيّروا و بدّلوا ما شئتم . واخذ السجل وانصرف وهو لايشك انه معزول . فشكته السيدة الى ابنها الخليفة المقتدر : ففي يوم الموكب سأله عن الخبر . فحكى له الواقعة وانه يفضّل ان يُعزل على ان يرتكب مثل هذا العمل . فقال المقتدر (مثلك يا ابا جعفر من يُقلّد القضاء . أقم على ماانت عليه . بارك الله فيك . ولا تخف ان يثلم ذلك عرضك عندنا) ثم عادت السيدة فتذمّرت امام ابنها من القاضي فقال لها : (الاحكام مالا طريق الى اللعب به . وابن البهلول مأمون عندنا محب لدولتنا . وهو شيخ ديّن مستجاب الدعوة . ولو كان ماطلبته منه شيء يجوز ما منعك اياه) فسكتت على مضض لكنها عادت فحدّثت به رئيس كتّابها وكان شيخاً صالحاً . فلما سمع منها ما فعله القاضي بكي . وقال لها (الآن علمت ان دولتكم تدوم اذا كان فيها مثل هذا القاضي الصالح الذي يُقيم الحق على السيدة أم الخليفة ولا يخاف لومة لائم [1] .

و بقدر اتساع دائرة الحضارة في ذلك الدور كانت دائرة الحرية الفكرية والدينية متسعة : فكان اهل كل مذهب يناضلون عن مذهبهم . و يعقدون المجالس في المساجد لنصرته وتأييده . وكانت تكثر بسبب ذلك المنازعات بينهم . وتتحول الى فتن أحياناً كمثل ما كان يقع بين الحنابلة والشيعة : فان الشيعة كانوا يجتمعون في الحاير لندب الحسين فكان الحنابلة يثورون ويمنعون الناس عن المضيّ الى الحاير .

وكان قوم يتعصبون لسيدنا علي وآخرون لسيدنا معاوية . فاغتنم الفرصة صديقان أعميان من الشحّاذين فكانا يقعدان على جسر بغداد : هذا في طرف . وذاك في طرف . و يتسوّلان و يتوسلان باسم الصحابيين الجليلين علي ومعاوية . فكان يتعصّب لكل واحد منهما فريقه . وتتساقط عليهما الدراهم . وفي المساء يجتمعان و يقتسمان غلة يومهما وهكذا .

اما المعتزلة فكان لهم شأن ونفوذ يومئذ : منهم وزراء وقضاة وأمراء وكانوا يشنّعون على القصّاص لكثرة مايروون من الاساطير . كما يشنعون على الذين يصدّقون

(١) وفي تمام الخبر ان السيدة ام المقتدر كانت تجهل أن ما كلفت به القاضي من تغيير الصك وحكمه حرام حتى أخبرها كاتبها بذلك فكفت وارعوت .

بكل شيء مما لا يدخل تحت العقل • ويفتخرون بانهم هم لا يصدقون الا مايؤيده العقل الصحيح • وكانوا يعيبون السادة الصوفية واهل السنة لكونهم يصدقون بالكرامات التي كانوا يسمونها (المعونات) : فإما لانهم يبخلون عليها باسم (الكرامة) او لان كلمة (الكرامة) لم تكن تولدت في أوائل القرن الرابع • وكانوا يفتخرون بان فرقتهم لاتعوّل على شيء من ذلك جميعه حتى قال أحدهم : (إن من بركة مذهبنا أن صبياننا لا يخافون الجن) وتباهوا بعجوز منهم كثيرة الصلاة والصيام وقيام الليل : كان لها ابن مسرف على نفسه في الليل و يتعاطى الكسب في النهار فكان يأتي مساء كل يوم بكيس دراهمه فيسلمه الى امه ثم ينصرف الى لهوه • وكانت أمه تقوم طول الليل تتهجد في الغرفة التي فيها الكيس • فعلم بقضية الكيس والصبي احد اللصوص فطرق العجوز ليلاً وانتظرها لتنام فلم تفعل • ثم اعياه الامر فعمد الى الحيلة وفتش في البيت عما يساعده على حيلته • فالتحف بازار ابيض وأوقد مجمرة بخور ونزل في السلم وهو يتكلم بصوت أجش موهماً العجوز انه ملك سماوي • قال المعتزلي راوي الخبر • ولكن العجوز كانت معتزلية جلدة ففطنت للحيلة فتظاهرت بالخوف وسألته من انت ? قال : ملك وقد جئت انتقم من ابنك لعصيانه • فتضرعت اليه أن يرفق بوحيدها • فقال لابد من تأديبه : فانا اكتفي بأخذ دراهمه ليتوب قالت : لك ذلك وتنحّت له عن الباب حتى اذا دخل الحجرة اوصدت بابها عليه فاستغاث بها فلم تجبه وقالت انت ملك يمكنك ان تنفذ من السقف • واقبلت على صلاتها • وجعل طول الليل يستعطفها وهي لا ترق ولا ترحم حتى سلمته في الصباح الى الشرطة •

ولكن المعتزلة ما كانوا اهل جلادة في عقولهم الى هذا الحد كما كانوا يدّعون : فانهم كانوا يعتقدون بالتنجيم والطالع • وقد نهى عنهما الشارع • وكان عالمهم ابو علي الجبائي يصدق المنجمين ويمارس التنجيم بنفسه • ومن الغريب ان احد [1] قضاتهم أخذ طالع مولده فعيّن سنة وفاته و يومها • وتهيأ للموت فنغّص عيش اهله واصدقائه وتعبوا في صرفه عن هذه الفكرة الملعونة فلم يطعهم حتى مات — كما رووا — في نفس اليوم • لكن من تأثير الوهم • لا من روحانية النجم • واعتقاد ذلك كفر لانه دين الصابئة عباد النجوم •

(١) هو القاضي علي بن محمد التنوخي والد القاضي ابي علي المحسّن التنوخي مؤلف كتاب (نشوار المحاضرة) الذي لخصنا منه هذه الاخبار •

وكان المسلمون في ذلك العصر يعنون فضل عناية بطلاب العلم : فكانوا يوازرونهم باغداق الرزق عليهم ثم لما اشتدت الضائقة المالية أخيراً في بغداد وغلب البخل على اهلها وتجارها حتى ان بعضهم كان يسمي البخل (احتياطاً) وبعضهم يسميه (اصلاحاً) وكانوا يتواصون به . ويحذر بعضهم بعضاً من الانفاق — أمسكوا عن الاحسان الا قليلاً . وكانوا قبل ذلك اذا جاءهم أحد من اهل العلم يمنحونه بالالف درهم معونة له على التحصيل .

قال احمد بن يوسف : قدم على بغداد شاب أردنا ان ترتبطه ليتعلم لجودة قريحته [1] وكان يحتاج الى مئة درهم في الشهر . فكلمت ابن خفيف صاحب ديوان النفقات ورجلاً آخر من اصحابنا . فاجريا عليه مئة [2] درهم في الشهر . فبقي يأخذها الى ان خرج من بغداد . قال : وشكا اليّ بعض الفقهاء ان الطلاب الذين يحضرون حلقة ابي الحسن الكرخي احتاجوا الى اكسية اذ قد قرس البرد . ففكرت فيمن اقصد ثم اجتزت في طريقي بدار . فقال لي بعض من كان معي : هذه دار تاجر موسر من اهل الخير فخاطبه . ولم اكن اعرفه . فدخلت عليه فقام واكرم وسألني حاجتي فذكرتها له فقال كم كساء تريدون ؟ قلت خمسين فحملها معي في الحال . ففرقتها على الطلبة . قال ثم تقلبت الاحوال . وشحت النفوس بالاموال . حتى جاءني رجل من اهل البيوتات فشكا من حاجته ما أبكاني . وقال ان صلاح امره في نحو ثلاثين درهماً . ففكرت فما عرفت احداً يعطنيها اذا سألته اياها . قال ولعل السبب في ذلك الشح كلب الزمان وقلة المال : فقد حسبت يوماً ما يملكه سكان (درب مهرويه) فبلغ اربعة آلاف [3] الف دينار . أما سكان هذا الدرب اليوم فلا يوجد فيهم احد يملك وحده اربعة آلاف درهم اللهم الا (ابو العربان)

وكما كانوا يهتمون بطلاب العلوم وإدرار الرزق عليهم كانوا يهتمون بالاسارى الذين يقعون في بلاد الروم من وقت الى آخر . ومن طريف ما حكاه أسير مسلم عن

---

(١) يعني انه كان نابغة في الطلاب لكنه فقير . ومثله يجب الانفاق عليه لينتفع بنبوغه (٢) نحو خمسين ريالاً مجيدياً من نقود زماننا (٣) اي اربعة ملايين دينار نحو مليون ونصف او مليوني ليرة .

نفسه قال : لما حملنا الى بلاد الروم مرّت بنا شدائد واهوال فكنا لا نقدر ان ننام من شدة البرد حتى كدنا نتلف . ثم دخلنا قرية فجاءنا راهب بأكسية وقطف (حرامات) ثقيلة دفيئة . فغطى جميع الاسارى . كل واحد بكساء . فسألنا عن السبب فقالوا ان رجلاً من تجار بغداد اسمه (ابن رزق الله) أرسل هذه الاكسية الى الراهب وسأله ان يغطي بها من يصل الى قريته من أسارى المسلمين . وضمن له في مقابل ذلك ان ينفق من ماله على كنيسة معينة في بغداد مادامت الاكسية محفوظة للاسارى فالراهب يعطي بالاسارى كلما وصلوا الى القرية كما رأيت . قال الاسير فكنا نتمنى لو نصادف في كل قرية ما صادفناه في تلك القرية على يد ذلك الراهب . وكان كلما لفحنا البرد تذكرنا (ابن رزق الله) واحسانه ودعونا له ونحن لا نعرفه .

لا جرم ان هذا التاجر المسلم والكاهن المسيحي كانا مثالين حسنين لابناء ملتيهما في عمل البرّ والتسامح وحسن التفاهم .

وحدّث القاضي ابن مكرم قال : دخلتُ على الوزير (علي بن عيسى) فرأيته مغموماً . قلتُ مالك ؟ نالك ما تكره من الخليفة ؟ قال الامر أشدّ : كتب عامل الثغور الينا يقول : ان أسرانا في القسطنطينية كانوا على احسن حال حتى تولّى مملكة الروم شابّ طايش فاضطهدهم وأجاعهم وأعراهم . ولقد أحببت ان أجهز جيشاً ينقذهم فلم يطاوعني الخليفة المقتدر .

فقلتُ أصلح الله الوزير هنا رأي أحسن من هذا . قال وما هو يا مبارك ؟ قلت ان البطريرك الانطاكي وبطريرك القدس محترمان لدى ملك الروم وقولهما نافذ عليه بحيث يحرمانه ويحلانه ولا يمكن ان يجلس على العرش من دون موافقتهما والبطريركان في عهدنا وبلادنا . فعرّفهما الخبر . وانظر ما يكون من جوابهما . فقال قد سرّيت عن قلبي قليلاً جزيتَ خيراً . ثم افترقنا وبعد شهرين طلبني فجئته وقد نسيت خبر الاسارى . فوجدته مسروراً فقال يا هذا أحسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعني . قلت : وما الخبر ؟ قال كان رأيك في الاسارى أبرك رأي . وهذا رسولنا عاد من القسطنطينية . وأشار الى رجل في المجلس ثم أمره أن يحدثنا بما وقع : فقال اخذت رسالة البطريركين الى ملك الروم وقد كتبا له : « انك خرجت

عن ملة المسيح بما فعلته بأسارى المسلمين . فإما ان تكفَّ عن الظلم والا لعناك وحرمناك » . فلما قرأ الملك الكتاب حجبني اياماً ثم دعاني وقال ما بلغ ملككم من أمر الاسارى كذبٌ . وها هم أُدخل عليهم في دار البلاط وشاهد حسن حالهم . قال فدخلتُ فاذا عليهم ثيابٌ جددٌ لكن وجوههم كأنها وجوه أموات . فقالوا نحن للملك شاكرون . جزاه الله خيراً . ثم أشاروا لي برموز من حواجبهم ان الامر على العكس . وانني إنما أُخرت عن الاجتماع بهم ليرفهوا من حالهم . وسألوني من أين علمتم خبرنا؟ فذكرتُ لهم ما كان من اهتمام الوزير (علي بن عيسى) فضجوا بالدعاء له . وقالت امرأة كانت بين الاسارى (إمضِ يا علي بن عيسى لا نسي الله لك هذا الفضل) فلما سمع الوزير قول الرسول أجهش بالبكاء . وسجد لله شكراً .

* * *

وكان المرشحون للوزارات والوظائف الكبرى يجتهدون في الحصول عليها ولكنهم كانوا يتعرَّضون للاخطار بسببها : حتى كان العامل اذا عزل صادروه في أمواله وعذَّبوه لاستخراجها منه . ولم يصِفْ أحد هذه الحالة بمثل ما وصفها به (ابو الحسين ابن عياش) مذ حكى عن نفسه قال :

كان لي اختصاص بسليمان بن الحسن قبل ان يتولى الوزارة . فلما وليها قصدته يوم الموكب . واذا ببابه عظماء المملكة محجوبون . فلما رآني حاجبه ادخلني على الوزير وهو في حجرة خلوته . يريد الركوب الى المقتدر . فطاولني في الحديث الى ان فرغ وشد سيفه ومنطقة وتخزّ والقى عليه سواده [1] وخرج وانا معه . فتلقاه الناس بالتبجيل وساروا خلفه واختلطت بهم . واذا واحد من اصدقاء ابي يجذبني من طيلساني . فالتفتُّ اليه . فاشار عليَّ ان اتبعه خارج الموكب . وقال يا فلان أفي بيتك خمسون الف دينار ؟ قلت لا والله . قال : أتقوى على خمسين الف مقرعة وصفعة ؟ قلت لا . قال : فلم تدخل الى الوزير وعلى بابه العظماء أمثال فلان وفلان محجوبون يتمنون الوصول اليه . ثم تخرج معه من خلوته وليس معه غيرك وغدا اذا نُكب نُكبت معه

(١) سواده اي لباسه الرسمي ويكون اسود عادة لان شعار بني العباس السواد وعنهم اخذه العثمانيون .

بداعي انك من خواصه . وليس معك خمسون الف دينار تفدي نفسك بها . ولا تطيق خمسين الف مقرعة . فقلت : يا عم ! لم أعلم . انا رجل فقيه . ومن اولاد التجار ولا عادة لي بالتردد على هؤلاء العظماء . فقال يابني لاتعاود . فان هذا يجرّ عليك نقما . قال فمن يومئذ جعلت أتجنب الدخول على صديقي الوزير في مواكبه العامة .

ولكن كانوا مع هذه المخاطرة في طلب المناصب لايضيعون فرص الاستفادة وجرّ المغانم .

ومن شواهد ذلك ان ابا بكر الشافعي كان من أخصاء (علي بن عيسى) الوزير فلما عزل عن الوزارة وتولاها ابن الفرات أمسك ابا بكر المذكور ونكل به . ثم عاد صاحبه علي بن عيسى الى الوزارة فكانت له عنده منزلة عظيمة بسبب ما وقع به من التنكيل . وجعل ابو بكر يستثمر تلك المنزلة . ويتوسط لدى الوزير بالشفاعات وتقديم رقاع أصحاب الحاجات . فكان يوقع فيها . و يغض عن كثرتها . الى أن قدّم اليه يوماً رقاعاً كثيرة جداً أضجرت الوزير وظهر الضجر في وجهه . قال ابو بكر : فقلت له (ايها الوزير ! اذا كان حظنا من اعدائك في ايام نكبتك الصّفع . وحظّنا منك في ايام وزارتك المنع . فمتى يا ترى يكون النفع ؟) قال فضحك الوزير . ولم يعد يضجر منه مهما كثرت الرقاع .

وهكذا كان العاقل منهم يستفيد بجاه صديقه بعد ان يكون أخلص في خدمته . ومساعدته في نيل بغيته : فقد حدث ابن ابي عوف قال : اختبأ عندي (عبيد الله ابن سليمان) فمازحته يوما قائلاً : خبئ لي هذا المعروف الى وقت انتفع به . و بعد ايام استوزره المعتضد . فقال لي اهلي اذهب اليه . قلت كلا لا اطلب ثمن معروف صنعته . ولو كان في الوزير خير لدعاني اليه . فلما كان يوم الاحتفال بالخلع طلبني فدخلت عليه فقام اليّ وعانقني أمام جمهور المحتفلين وقال في أذني : هذا وقت تنتفع فيه بقيامي لك . ثم أجلسني على طرف الدست [1] فقبلت يده وهنأته . لكن لم ألبث ان رأيت حاجب الخليفة يطلبه اليه . فذهب . وامتدت اليّ عيون الناس وخاطبوني باجلّ خطاب ثم عاد الوزير ضاحكا واخذ بيدي الى دار الخلوة . وقال : و يحك يافلان!

---

(١) الدست للوزير كالعرش للملك والمنبر للخطيب .

ان الخليفة استدعاني بسببك وذلك أنه كوتب [1] بخبر قيامي لك في مجلس الوزارة وقال لي: لتبذل مجلس الوزارة بالقيام لتاجر !! ولو كان قيامك لاحد عمال الاطراف لكان محظورا بل لو كان لولي العهد لكان كثيرا » فقلت اعرف هذا يا امير المؤمنين ولكن حكايتي مع الرجل مذ استترت بداره كيت وكيت . وقد قال لي وقلت له كيت وكيت . فقال اما الآن فقد عذرتك واما بعد ذلك فلا تعاود . فقلت نعم وانصرفت . ومع هذا فقد بقي الوزير يحسن الى صديقه .

وكانوا يذهبون كل مذهب في الوصول الى أغراضهم من طريق الشفاعات . وأخذ كتب التوصيات . ولكن كان بعض المتهورين لايبالي تزوير كتب على لسان الوزراء لاجل نيل الأبانة وقضاء الوطر . ورووا في ذلك حكايات عجيبة :

منها ما حكاه القاضي ابو الحسن بن عياش . قال : رأيت صديقاً لي جالساً على زورق مربوط بجانب جسر بغداد على نهر الدجلة في يوم ريح شديدة . وهو يكتب فقلتُ له ويحك !! أفي مثل هذا الموضع ؟ ومثل هذا الوقت ؟ فقال أريد ان أزوّر كتاباً على رجل مرتعش الايدي . ويدي لا تساعدني . فتعمّدت الجلوس ههنا لتحرك الزورق بالموج في هذه الريح فيجيء خطي مرتعشاً يشبه خطه .

ومع هذا التدليس والتزوير الذي كان يقع في تقليد الوظائف كان الوزراء وكبار القضاة يشدّدون في انتقاء العمال ويبذلون الوسع في البحث عنهم : فكان القضاة مثلاً لايقبلون شهادة كل أحد . فهم يعينون من قبلهم اشخاصاً مزكّين لديهم . ويعلنون أنه من أراد ان يعقد عقداً من عقود المبايعات وسائر المعاملات فعليه ان يُشهد احد هؤلاء : لئلا يشهد غيرهم فلا يكون مزكّى عدلاً . وتسمى هذه الطائفة المعينة للشهادة بالشهود والعدول . ولكن ما أشدّ عناية قضاة ذلك الزمن بانتخاب هؤلاء العدول .

قال ابو القاسم الهاشمي : قبل القاضي ابو عمر شهادتي وأعلن انني من العدول . ثم بعد ذلك خلوت به مرة . فجاء ذكر الملاهي . فقلت : ان فلاناً يضرب بالرباب

---

[1] اي انه كان للخليفة في مجلس الوزير عيون وجواسيس ينقلون اليه الاخبار حتى خبر هشاشة الوزير وحفاوته بصديقه . وكان هؤلاء الجواسيس يسمون (اصحاب الاخبار)

فصاح قائلاً : هو ذا يهزأ بنا! هو ذا تمس [1] علينا ! ما هذا الكلام ؟ قلتُ ما الخبر ايّدالله القاضي ؟ قال : تقول (يضرب الرباب) كأنك لا تعلم ان الرباب يُجر جرّاً ولا يُضرب ضرباً (يعني انك تتظاهر أمامي بورعك وانك لا تسمع الملاهي) . فحلفت له بأيمان مغلّظة أني ما رأيت الرباب قط . فقال : ان هذا آفة وسبيل الصالح ان يعلم طرق الفساد ليجتنبها على بصيرة لا على جهل [2]. قال فعدتُ الى داري وقلت لسائس دابتي : ويلك! اطلب لي رباباً . فجاء به فجرّه بين يدي . فاذا هو كما قال مولانا القاضي . يجرّ جرّاً . ولا يُضرب ضرباً .

الى هذا الحدّ بلغ نظرهم في الامور . ودقّتهم في ادارة الاعمال . فالمحتسب [3] مثلاً كان يدور في الاسواق بنفسه ويهتمّ جد الاهتمام بايفاء وظيفته .

ولما تولى (ابو القاسم الجهني) الحسبة في البصرة قال المسنّون من أهلها إنهم ما رأوا ولا سمعوا مَنْ بلغ مبلغه في ضبط العامة . ورفع الغش . وتفحص البضائع والامتعة . وقد طالب الناس بمطالبات صعبة . فانتشر له حديث جميل في البلد . وهيبة في قلوب العامة . ومما اتفق له ان اجتاز يوماً في بعض السكك . وبين يديه أعوانه . وكان هناك مؤذّن يؤذّن . فتصارخ الناس الجُهني الجُهني !! فتطلّع المؤذّن فرآه فقال : (الحمد لله الذي لم يجعل لك عليّ طريقاً ولا بيننا معاملة) . وأقبل على أذانه . لكن الجُهني كان سمع قوله . فقال لرجاله خذوه الى الدار (دائرة الحسبة) ففزع المسكين وضجّ جيرانه . وذهبوا معه الى الدار . وقالوا للجهني : أمرتَ باحضار هذا المؤذن المسكين فاي طريق لك عليه ؟ فلم يرد عليهم . والتفت الى المؤذن وقال : (أريد أن تحلف لي انك لا تدخل المسجد بالنعل الذي تدخل به

---

(١) التمس التلبيس والخداع . (٢) على حد قول الشاعر :

(عرفت الشرّ لا للـ ـشر لكن لتوّقيه)

(ومن لم يعرف الخـ ـير من الشر يقع فيه)

(٣) وهو الذي يتولى الحسبة أعني ملاحظة ما يقع في الاسواق من أمور المبايعات والمكاييل والموازين والاسعار وحمل العامة على التزام الحدود الشرعية والادبية وتشبه هذه الوظيفة قديماً أعمال المجلس البلدي اليوم .

الكنيف . وان لا تؤذن الا بطهارة —«ولا تطلع الى الجيران من فوق المنارة» . فتضرع اليه المؤذن ان يعفيه من هذا الشرط . قال لا ! أو انك لا تؤذن . فمازال الجهني به حتى حلف . فلما اراد الانصراف قال له : يا شيخ أعلمت ان لي اليك طريقاً؟ وان بيننا معاملة ؟ فقال : أخطأتُ أيدك الله ولا أعلم هذا . فقال : لا تعاود الكلام في لا تحتاج اليه . فان الفضول مضرّة . والثرثرة معرّة .

لكن في مقابل هذه الشدة على الناس . والتشدُّد في ضبط العامة نجد من وزراء ذلك العهد و كبرائه كرماً وسخاء وتواضعاً وحياء : فقد وقفت يوماً امرأة في طريق الوزير (حامد بن العباس) وشكت اليه الفقر ودفعت اليه قصة (اي استدعاء)فوقع لها فيها بمأتي دينار . ولما ذهبت الى (الجهبذ) [1] انكر المبلغ واستكثره(لانه قريب من مئة ليرة وهي ترضى باقل من ذلك) وراجع الجهبذ الوزير . فقال الوزير هو ماذكرت . لكنني لما اردت ان اوقع لها بمأتي درهم جرى قلمي بمأتي دينار . ولن أرجع . فأعطها الدنانير . فاعطاها اياها . وبعد ايام رفع رجل الى الوزير قصة . يقول فيها : إني وامرأتي فقيران . ومنذ ايام جاءتني امرأتي بمأتي دينار تقول ان الوزير حفظه الله وهبها إياها . واخذت من يومئذ تستطيل عليّ وتتكبر وتقول انها هي غنية وانا فقير معدم لا أصلح لها بعلا وكلفتني طلاقها إذ لم يعد يطيب لها العيش ولا العشرة مع مسكين مثلي . فان رأى الوزير ان يكتب الى القاضي يأمره بجلب زوجتي وزجرها والتصح لها بطاعتي فعل . فضحك الوزير ثم وقّع له بمأتي دينار أخرى . وقال له الآن صرت غنياً مثلها فلم يعد حاجة للقاضي . فاستلم الرجل دنانير الذهب . ثم ودع القوم وذهب .

(المغربي)

---

(١) كلمة فارسية كانوا يريدون منها ما نريده نحن اليوم بكلمة الصراف او المحاسب

مصانع الشام (١)

« منذ عرف التاريخ »

ان قطراً كهذا القطر البديع ، تعاقب الحكمَ عليه الحثيون والمصريون والبابليون والاشوريون والفرس والفينيقيون والاسرائيليون والرومان واليونان والعرب والترك والتتر والجركس ، وأعجب الفاتحون بخيراته ، واغتبطوا بالاستيلاء عليه ، لموقعه الممتاز بين الاقطار والقارات ، فجعلوه محط رحالهم ، ومجازاً الى فتوحهم ، لا يستغرب منه اذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانيها بسلامة الذوق ، وجودة الابداع ، وعظمة الباني . ان الشعوب التي انشأت مصانع البتراء « وادي موسى » وجرش وعمان ومادبا وبعلبك وتدمر والرقة وأفاميا ودمشق وحلب والقدس كانت ذات معرفة بالهندسة لا تقل عن اهل هذا العصر بها ، لان ما شادوه صارع الايام وصرعها ، وبقيت منه هذه البقايا على كثرة ما تناولها من الهدم والتحريق بايدي المخربين من الظالمين والمظلومين ، وسطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية .

يتناول بحثنا الآن آثار الشام قبل الاسلام وبعده . ونعني بالشام ما عرفه العرب من البلاد الممتدة من عريش مصر الى نهر الفرات ومن سفوح جبال طوروس او الدروب الى البادية . وتنقسم هذه المصانع قسمين : مدني وديني فالمدني كالقلاع والحصون والابراج والمناور والمراصد والقصور والجسور والسكور والاقنية والموافي والطرق والدور والقبور والمستشفيات . والديني كالمعابد والبيع والاديار والكنائس والجوامع والمساجد والمدارس والربط والخانقاهات والملاجئ وما شاكلها . نتكلم على الهندسة المتبعة في هذا القطر السعيد اجمالاً بحسب ما انتهى الينا من كتابات العرب والافرنج . ولا نستنتج الا حيث يصح الاستنتاج ، وندعم القول بنصوص العلماء من اهل

---

(١) أُلقيت في ردهة المجمع العلمي يوم ٢٩ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م .

الاخصاء في العاديات والبناء ، ونقف عند حد ما رسموه لانهم المرجع وعلى كلامهم الفتوى ·

لم يحدثنا التاريخ والحثيون والاسرائيليون من أقدم الشعوب السورية انه كان لهاتين الامتين هندسة خاصة ، بل كان الحثيون يقتبسون عن جيرانهم الاشوريين اصول بنائهم وليس فيه ما هو خارق للعادة في اشكاله ووضعه ، بل هو محرف عن الطراز الاشوري تحريفاً مهزعاً · ولم يتمكن الاثريون الى اليوم من العثور على عاديات حثية حقيقية ليقفوا حق الوقوف على اصول هندستهم وبنائهم · وما اكتشف من هذا القبيل من الصور النصفية وغيرها لا ينمُّ عن ذوق سليم ولا عن إبداع في حسن الهندسة ·

ولقد انشأ الحثيون قلعة لهم على الفرات في كركميش (جرابلس) بقيت حسكة في حلق نينوى الى نحو سنة ٧١٠ ق · م حتى استولى الاشوريون عليها وكانت هندسة مصانعهم على مثال مصانع الاشوريين والبابليين مقتبسة اقتباساً رديئاً لا تخلو من جفاء وسذاجة ·

وبنو اسرائيل كالحثيين لم يتركوا في فلسطين منبتهم ومطلعهم ، سوى آثار ضئيلة ساروا في صنعها على تقليد الاشوريين والمصريين ، وقلدوا المصريين في الاكثر لقرب فلسطين من مصر ، بل لان مصر استولت زمناً على فلسطين · وأهم ما بقي من آثارهم معبدهم في القدس او معبد سليمان الذي جمع اليه الصناع والمهندسين من صور بمساعدة الملك حيرام سنة ١٠١٣ ق · م وقد حرق هذا المعبد فرمم غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ٥٨٨ ق · م ولما عاد اليهود بعد اثنين وخمسين سنة من أسرهم في بابل جددوا المعبد على مثال الاول في الجملة وكانت دثرت محاسنه الاولى ثم وقع ترميمه في ادوار مختلفة ولم يُصب هذا المعبد باذىً على عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المقدوني في الشام ولا في زمن بومبيوس الروماني لانه كان من عادة اليونان والرومان ولا سيما الرومان ان لا يقاتلوا الامم التي يدوخونها على اربابها · وربما اقتبسوا ممن غلبوهم على امرهم عباداتهم من غير نكير ·

وسع هيرودوس ملك اليهود الذي نصبه الرومان معبد سليمان ، وانتهى على عهد

نيرون ، وكان عمل فيه الف كاهن والوف من العملة دهراً طويلاً · وقد قيل ان سليمان خزن من غنائمه لبناء معبده مئة الف وزنة من الذهب ومليون وزنة من الفضة قُدرت بسكة زماننا بثمانمائة وتسعة وثمانين مليوناً ونصف مليون جنيه ، وذلك ماعدا الحديد والنحاس والخشب فكمل بناؤه سنة ١٠٠٥ ق · م وكان فخر أورشليم واجمل بناء في العالم · وقد شيد بجانب الهيكل الشرقي رواق من السواري اي العمد فادار الملوك المتأخرون هذا الرواق حول جميع البناء وبقي هيكل سليمان ٤٢٤ سنة الى ان خربه ملك بابل · والهيكل الذي رممه هيرودوس في محل الحرم الشريف تحيط به عدة دور منها دار الامم وهي الدار الخارجية ثم دار النساء ثم دار اسرائيل ثم دار الكهنة ثم الهيكل · وهدم الرومان هذا الهيكل سنة ٧٠ م ولا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون ينقبون عن كل ما له علاقة بهذا المعبد وكان غاصاً بالخشب الثمين الذي جيء به من ارز لبنان وغيره ومموهاً بالذهب والفضة ومحلىً بالعاج والاحجار الكريمة وفيه من الاواني الثمينة والمدى والاحواض وادوات البيوت ما صحَّ ان يعدَّ خلاصة علم الفينيقيين بالصنائع والفنون النفيسة · والفينيقيون هم في الحقيقة البانون للهيكل ولا غرو فمدينة صور مسقط رأس أقليدس المهندس كما ان دمشق مسقط رأس بولودر المهندس الذي اقام عمود تراجان في رومية وبنى جسراً هائلاً على الدانوب (الطونة) · هذا مع انه لم يشتهر الفينيقيون بانهم عنوا بالبناء والهندسة عنايتهم بالربح والكسب وارتياد القاصية ، وكانوا كالاسرائيليين والكنعانيين والحثيين ينقلون هندسة مصانعهم عن الاشوريين والمصريين · ولقد اعجب الغربيون لعهدنا بالمكاتب التجارية التي اقامها الفينيقيون في شواطئ يونان وايطاليا وصقلية وغاليا وايبريا وافريقية ، بيد ان هذا الشعب لم يخلف من آثار مدنيته ادنى ما خلفته الشعوب القديمة · وربما كان الباقي منها بل ما ثبت قيامه على عهد حضارتهم ، اقل مما خلفته تدمر والبتراء · ولم يثبت ان بقي للفينيقيين معبد من معابدهم الى عهدنا على كثرة ما بنوا منها كما يقول التاريخ ·

اما آثار الفينيقيين المدنية كالحصون والقبور وغيرها فان الباقي من اساس حصن صور الذي اعجز اقتحامه قدماء الفاتحين كسراغون وبختنصر والاسكندر لا يدل

على كبير امر ، وقد بنى الاسكندر بين البر والجزيرة فيهما سدّه الغريب ، وكان بناء صور الى عصر ابن بطوطة « ليس في الدنيا اعجب واغرب شأناً منه » وقال ابن جبير : انه يضرب المثل بحصانتها وذلك انها راجعة الى بابين احدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها من جهة واحدة ، فالذي في البر يفضي اليه بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب ، اما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد البحرية اعجب وضعاً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب و يحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص ٠

ولا يزال سور بانياس بين طرطوس واللاذقية قائماً ولكن لا يعرف اذا كان من صنع الفينيقيين او البلاسجيين لانه اشبه بعمل البلاسجيين سكان ايطاليا و يونان القدماء ٠ وهكذا يقال في اسوار بيروت وصيدا وجزيرة ارواد وعمريت ومعبد هذه على رأي رنان اقدم معبد بل يكاد يكون المعبد الوحيد الذي بقي من آثار العنصر السامي اما قبور الفينيقيين فهي اهم ما اكتشفت في بلادهم ، وكلها تقريباً نقرت في الصخر وهي مثلها في بلاد يهوذا والعرب ، اي عبارة عن عقود كبرى جعلت فيها النواويس لأسرة برأسها ٠ والقبور التي ظهرت في عمريت هي اهم ما عرف من نوعها وكذلك ما ظهر في جبيل وصيدا ولا سيما النواويس الاربعة التي وجدت في هذه المدينة ولا تزال محفوظة في متحف الاستانة ٠

قلنا ان المصريين والاشوريين ادخلوا ايام استيلائهم على فينيقية عاداتهم واصول هندستهم ومصانعهم وكل ما هو من خصائص مدنيتهم ، فكانوا اساتذة الفينيقيين ولكن هؤلاء لم يحسنوا التقليد ، وعلى عهد الاسكندر فقط دخل في البلاد روح جديد في البناء اي اصول الهندسة اليونانية ٠

ولقد بحث الاثريون في فلسطين عن المعاهد الدينية في الاكثر وامتدوا في حفرياتهم الى بلاد العرب للعثور على مدنية يعتدّ بها سبقت الرومان واليونان ، وكل ما عثروا عليه تافه في الحقيقة ٠ وقد تبين لهم ان البيوت كانت كقصور الملوك تحتوي على دائرتين : دائرة الرجال او الثويّ وهو المكان المعدّ للضيف « السلاملك » ودائرة الحريم شأن قصور الشرق الاسلامي لهذا العهد ٠ وما قصر هركان في عراق

الامير ، وحصون القدس ، وبرج انطونيتا ، الا من بقايا الهندسة اليونانية الرومانية . ونقل في فلسطين وشمالي غربي بلاد العرب القبور التي يرد عهدها الى الزمن الذي يسبق العصر اليوناني . وقبور مدائن صالح التي نحتت في الصخر ، لا يستدل منها الا انها مثال من امثلة البناء الاشوري . وقد اختلفت الظنون في هذا الشأن والاثريون يوالون حفرياتهم ليكشفوا شيئاً يستدلون منه على مدنية اقدم امة نزلت الارض المقدسة .

***

وأقيمت عدة انصاب في الشام لملوك الرومان منها ماعثر عليه الاثريون فقد ذكر وادنكتون كتابة وجدها في السويداء كأنها كتبت تحت نصب اقيم لاحد ملوك الرومان فيه « للملك اليوس قيصر ادريانوس انطونينوس بيوس العاهل » ووجد مع كتابة في قرية ام الجمال في حوران كتب فيها « للعاهل القيصر مرقس اوريليوس انطونينوس اغسطس قاهر الارمن والبرتيين » . ولهذا القيصر كتابة أخرى في سهوة الخضر من جبل حوران وأخرى في الشهبة المسماة فيليبولي نسبة الى الملك فيلبس العربي ووجد في السويداء ايضاً كتابة يونانية مؤذنة باقامة اثر تكرمة للملك كومود اقامه له دوميتيوس بروكستر والي العربية ذكرى جلب الماء الى المدينة وضواحيها سنة ١٨٧ ووجد في جنوبي اللاذقية على مقربة من عدوة النهر الكبير كتابة تدل على محطة عسكرية . وفي دير القلعة في لبنان على الصخر الذي في جانب البئر كتابة فيها « بسلامة مولانا القيصر لوسيوس سبتيموس ساو يروس برتينكس اغسطس اقام هذا النصب بومبابوس اليجيوس نذراً للمشتري .

وبعد فان البحث في مصانع الشام وحدها يحتاج الى مجلد قد يضطر مؤلفه الى ان يرمي الكلام على عواهنه لصعوبة الحكم على كل اثر بعينه ونسبة كل بناء الى الامة التي اقامته وكل واحدة منها تركت على الاغلب اثراً مخلداً متلداً تفاخر به . فالطرق الرومانية التي أنشئت من القدس الى بلاد النبط جنوبي بحيرة لوط ومن شمالها وطريق مادبا الى البتراء والعقبة حتى البحر الاحمر وطريق جرش — وادي موسى والطريق المبلط شرقي صرخد الممتد الى العراق وكان يسمى بالرصيف هي من الآثار المهمة كالمعسكر

الروماني في أذرح قرب معان وآثار قنوات وشهبة وسالة ودامية العليا ولبن .

عدت البتراء في الجنوب رصيفة لتدمر تباريها بضروب مرافقها ومنها الهياكل الجليلة والدور الفخمة والاندية والمجالس والقصور والحمامات والمسارح والمدافن والمسلات وقد رأى فيها دومازفسكي آثار الهندسة المصرية واليونانية والرومانية والسورية . واهل البتراء عرب من النبط شيدوها حوالى القرن السادس ق.م وارتقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين الى ان زاحمتها تدمر في القرن الثالث للميلاد . ومن اجمل ما في وادي موسى اليوم خزنة فرعون وهي دار الحكم نقرت في الصخر وجعلت ثلاث قاعات وبهواً . ومن مفاخرها الملعب العظيم المنحوت في الصخر قطره ١١٧ قدماً وفيه ٣٣ صفاً من المجالس يسع من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ من المتفرجين ولكن الملعب الروماني في عمان اي ربة عمون هو اكبر الملاعب في الشام وهو مركب من ثلاثة مراتب جعلت المرتبة الاولى خمسة صنوف من المقاعد والمرتبة الوسطى اربعة عشر صفاً من المقاعد وللمرتبة الثالثة ستة وعشرون صفاً من المجالس وهو يسع اربعة آلاف ناظر ايضاً . وفي اسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الأسود والنمورة والتماسيح .

ويرد تاريخ ارتقاء جرش الى القرون الاولى للمسيح وتاريخ ابنيتها الى امبراطرة القرنين الاول والثاني وهي شاهدة بتأثيرات الطراز الروماني حتى في الاصقاع البعيدة . وكانت جرش من جملة المدن المهمة للغاية من بين مدن بلاد العرب وعمدها الماثلة للعيان ومنها ما بلغ طوله ١٤ متراً وقطره خمسة اقدام وملاعبها وهياكلها وساحاتها وحماماتها تذكر بما كان للرومان من مثلها في بعض البلاد المهمة التي تولوا الحكم عليها . وصف شيخ الربوة خرائب جرش وعمان في القرن الثامن بقوله : « ذكروا ان بدمنة مدينتي عمان وجرش بالشام ملعبين ، فاما جرش فمنها تلال وجبال وحجارة منقولة ، وبعض بناء ابوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعاً ، وبهذه الدمنة موضع كصورة نصف دائرة مقطوعة بحائط وذلك الحائط به مجلس للملك ، واما النصف المستدير فانه مدرّج درج بعضها فوق بعض ، وهي دوائر وكل دائرة فوقانية اوسع من السفلى ، وبين هذه الدرج الدائرة ابواب ومسالك وكل درجة وعليها مرتبة من الناس وكلهم ينظرون الى الملك وهو ينظر اليهم كلهم لايحجبون عنه ولا يحجب عنهم في ذلك

المجلس وكأنما هو ليوم الحكم العام فقط ، و بالقرب من هذا الملعب ايضاً ملعب وفيه عمد طوال قائمات وفي كل منهن بكرة وهن مستديرات المراكز كصورة دائرة وكأنما كان على رؤوسها من الحجارة عتبات من عمود الى عمود وفوق ذلك ابنية لاهلها وآثار شاهدة ولا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين الا بمدينة بعلبك وباب البريد بدمشق اه».

وذكر بعض الاثريين ان مدينة تدمر بناها سليمان ليأمن على طريق التجارة حتى اصبحت في اوائل النصرانية احدى المدينتين اللتين جمعتا بين تجارة اوربا وآسيا واعني البتراء وتدمر . قال ياقوت واهل تدمر يزعمون ان ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليه السلام باكثر مما بيننا وبين سليمان ولكن الناس اذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه اضافوه الى سليمان والى الجن . قلنا وكان القدماء يعتقدون ان بعض مدن ساحل سورية بناها الآلهة قال المعري :

وقد كان ارباب الفصاحة كلما … رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

وقال النابغة الذبياني :

الا سليمان اذ قال الاله له … قم في البرية فاحددها عن الفند

وخيّس الجن اني قد امرتهم … يبنون تدمر بالصُفّاح والعَمَد

وقد كان من جملة التصاوير التي بتدمر صورة جاريتين من حجارة من بقية صوَر كانت هناك فمر بها اوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصر اوس الذي في البصرة فنظر الى الصورتين فاستحسنهما فقال :

فتاتي اهل تدمر خبراني … ألما تسأما طول القيام

قيامكما على غير الحشايا … على جبل اصمّ من الرخام

فكم قد مرّ من عدد الليالي … لعصركما وعام بعد عام

وانكما على مر الليالي … لابقى من فروع ابني شمام

وقال محمد بن الحاجب يذكرها :

اتدمر صورتاك هما بقلبي … غرام ليس يشبهه غرام

افكر فيكما فيطير نومي … اذا اخذت مضاجعها النيام

اقول من التعجب اي شيء اقامها فقد طال القيام
أَمُلكتا قيام الدهر طبعاً فذلك ليس يملكه الانام
كأنهما معاً قرنان قاما ألحّا لدى قاض خصام
يمر الدهر يوماً بعد يوم ويمضي عامه يتلوه عام
ومكثهما يزيدهما جمالاً جمال الدر زينه النظام
وما تعدوهما بكتاب دهر سجيته اصطلام واخترام

وقد اقام الرومان بين دمشق وتدمر الى الفرات اثنين وخمسين حصناً او قلعة يبعد كل منها عن الاخرى ثلاث ساعات ولا شك في ان الحرس الروماني كان في بعضها و بنى الرومان عدة حصون على الطريق الممتد بين بصرى ودمشق ليأمنوا عيث البادية و بعد ان فتحت الزباء او زينب او زنوبيا سلطانة تدمر المشهورة القطر المصري عمرت الابنية التي جلبت اليها الامم من اقطار الارض ولا سيما اليونان وما كان من الامبراطور اورليانوس الروماني الا ان داهمها سنة ٢٧٢ وخربها و بعثر ابنيتها وقوض هيا كلها ودك اسوارها وهدم قلاعها فاصبحت كأن لم تغن بالامس الى ان جاء يوستنيانوس سنة ٥٢٧ فجدد بناء الاخربة وشيد ابنية أخرى فيها وجعل لها سوراً ثم سطت عليها الزلازل كثيراً وما يرى اليوم من الاثر الضئيل الباقي من عادياتها شاهد على ما كان هناك من عمران ممتد الرواق وما استخرج ولا يزال يستخرج من ارضها من التماثيل والانصاب والشواهد يدل على فضل ذوق وحسن هندسة وقد كان لهؤلاء الرومان اغراب كما قال الثعالبي في خرط التماثيل والابداع في عمل النقوش والتصاوير حتى ان مصورهم يصور الانسان ولا يغادر شيئاً الا الروح ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكاً ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل وبين المتبسم والمستغرب وبين ضحك المسرور وضحك المهازئ فيركب صورة في صورة وصورة في صورة . او كما وصف الارجاني شبذير وعلى مثل هذه التماثيل يصدق وصفه :

ومن كل انواع الانام مصور شباب وشمط يمرحون وشيب
ومجلس انس يفسح الطرف ملؤه قيان تغني وسطه وشُروب

ومصرعي وقتلى في قتال عساكر تحول حصون دونهم ودروب
فمن جانب اضحت تصب مدامة ومن جانب اضحت تشب حروب
خليطان هذا للقراع معبس يصول وهذا للسماع طروب
وقد حققوا التصوير حتى وجوههم يبين لنا بشر بها وقطوب
وكل يعاني شغله غير انه على فمه دون الكلام رقيب
ملاعب فيها الملك رام بطرفه وكل ابن دنيا ان نظرت لعوب
وعاشوا طويلاً ثم فرق شملهم زمان اكول للانام شروب
فلولا مكان الدين قل لفقدهم بكاء لنا في اثرهم ونحيب
ملوك اقاموا ما اقاموا اعزة وقد شعبتهم بعد ذاك شعوب
وخيل للرائي ليذكر عهدهم خيال لعمري ان رأيت عجيب
خيال لهم يهدى الى كل امة لقصد اعتبار ان رآه لبيب .

***

وان بقايا هيكل الشمس او المشتري وهيكل الزهرة وهيكل باخوس ودار المذبح او البهو الكبير الماثلة الى اليوم في قلعة بعلبك لأكبر دليل على ارتقاء فن الهندسة حتى في العصور التي سبقت الرومان واليونان . وفي بعلبك هيكلان كبيران طول اصغرهما ٢٢٥ قدماً وعرضه ١٢٠ قدماً وكان محاطاً باعمدة كبيرة الحجم طول الواحد منها ٤٥ قدماً وطول هيكل الشمس ٣٢٤ قدماً وكان محاطاً باربعة وخمسين عموداً يبلغ قطر الواحد منها ٧ اقدام وعلوه من قاعدته الى قمته ٨٩ قدماً وقد بلغ طول بعض الحجارة المبني منها الهيكل ٦٤ قدماً وسمكه ١٢ قالوا وكانت هياكل بعلبك تضاهي هياكل اليونان بعظمة بنائها ولكنها دونها بالترتيب والزخرفة .

قال شيخ الربوة وبقلعة بعلبك بيت محكم من الحجر طوله خمسون ذراعاً وهو من كل جهة ثلاثون ذراعاً وسقفه حجر وفي وسط السقف نسر حجر فارش اجنحته وفي اربع قرن السقف اربعة اصنام واسماؤها ودّ وسواع ويغوث ويعوق وبمقطع الحجارة حجر رابع للثلاثة التي بالقلعة متروك الى وقتنا هذا والى ما يشاء الله مثال للناس يعني ان من ههنا حملنا الاحجار الثلاثة المبنية بالقلعة — وهو الحجر المعروف اليوم بحجر الحبلى —

و بالحصن ايضاً عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعاً وفي الارض منها نحو اربعة اذرع ودوره نحو ذراعين واكثر وعددها نحو ستين عمودا وكان على رؤوسها عتبات وفوق العتبات البناء المحكم اه . وان آثار بعلبك بما فيها من العمد الضخمة ومنها من النوع المعروف بالمحبب الذي جلب من بلاد السودان على ما يظهر وما جاء عليها من القرون ولم تنته تدل دلالة صريحة على ان كل هذا من صنع الرومان و بايدي مئات الالوف من العملة المسخرين المستعبدين و كهذا قامت جميع آثار الرومان بارهاق الانسان للانسان .

و يصدق على قلعة بعلبك في الوصف ما قاله عبد اللطيف البغدادي في اهرام مصر انها صبرت على ممر الازمان بل على ممرها صبر الزمان ، فانك اذا تبحرتها وجدت الاذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد افرغت عليها مجهودها والانفس النيرة قد افاضت عليها اشرف ما عندها لها، والملكات الهندسية قد اخرجتها الى الفعل مثلاً هي غاية احكامها حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم واذهانهم وتترجم عن سيرهم واخبارهم . او ماقاله في برابي مصر : فالحكاية عن عظمها واتقان صنعتها واحكام صورها وعجائب ما فيها من الاشكال والنقوش والتصاوير والخطوط مع احكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر . ومن اجمل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة :

خرب حارت البرية فيها فتنة السامعين والنظار
معجزات من البناء كبار لاناس ملء الزمان كبار
البستها الشموس تفويف در وعقيق على رداء نضار
وتحلت من الليالي بشاما ت كتنقيط عنبر في بهار
وسقاها الندى رشاش دموع شربتها ظوامئ الانوار
زدها الشيب حرمة وجلالاً توجتها به يد الأعصار
رب شيب اتم حسناً واولى واهن العزم صولة الجبار
معبد للامراء قام ولكن صنعه كان اعظم الاسرار
مثل القوم كل شيء عجيب فيه تمثيل حكمة واقتدار
صنعوا من جماده ثمراً يجـ ـنى ولكن بالعقل والابصار

وضروباً من كل زهر انيق | لم تفتها نضارة الازهار
وشموساً مضيئة وشعاعاً | باهرات لكنها من حجار
وطيوراً ذواهباً آيبات | خالدات الغدو والإبكار
في جنان معلقات زواه | بصنوف النجوم والانوار
وأسوداً يخشى التحفز منها | و يروع السكوت كالتزآر
عابدات الوجوه غير غضاب | بادبات الانياب غير ضواري
في عرانينها دخان مثار | و بالحاظها سيول شرار
تلك آياتهم وما يوحت في | كل آن روائع الزوار
ضمنها كلها بديعُ نظام | دقَّ حتى كأنها في انتثار
في مقام للحسن يعبد بعد ال | ـعقل فيه والعقل بعد الباري
منتهى ما يجاد رسماً وابهى | ما تحج القلوب في الانظار

هذا اجمال في المصانع الكبرى في هذه الديار وهندستها ومن أهم آثارها انطاكية التي بناها انطيغنوس وا كمل زخرفها سلوقس سنة ٣٠٠ ق . م وكان فيها عجائب من الهندسة اليونانية مالم يكتب ليونان ان تعمل مثله في ارضها ولولا ان الزلازل تحيفتها في ادوار مختلفة لكانت اليوم من أهم ما يقصد للزيارة . وكانت انطاكية عاصمة الشرق ايام اغسطس قيصر كما كانت رومية عاصمة الغرب . ومن يدخل انطاكية ويذكر ما كان فيها من القصور والدور والمعابد والهياكل والحمامات والاقنية ودور التمثيل يبكي لبلد انفقت الآفات السماوية والارضية على تخريبه ولم يبق من عظمته التاريخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة .

ومن جملة آثار الهندسة الرومانية او اليونانية بحيرة قدس او خزان حمص وقناة سلمية وجسر قنوات وآثار سبسطية ومنها مصانع حلب وهي صورة تامة من نشوء الهندسة وقد غنيت هذه المدينة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية والدينية والمدنية وما برح معظمها بحاله . ومن أهم ما في شمالي سورية ملعب أفامية (قلعة المضيق) وملعب دفنة وكان فيها معبد ابولون رب الشمس والنور والصنائع والآداب والطب عند قدماء اليونان ونصب فيها بر ياكسيس المهندس الآثيني تمثالاً للرب

اشتهر بين العارفين بالصنائع الجميلة وهو قابض بيده على قيثارة وقد صورت صورته على نقود انطاكية وفيها معبد ديان والزهرة وغيرها من الارباب . ومن اهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذي كان يخرقها من الشرق الى الغرب اي من الباب الشرقي الى باب الجابية وطوله ١٦٠٠ متر وعلى جانبيه رواقان من العمد وهو اليوم مستور مردوم قامت عليه الدور والحوانيت وكان مقسوماً الى ثلاثة اقسام الوسط للدواب والعجلات والرصيفان بجانبه للذاهبين والجائين والباب الشرقي اليوم على مايرى هو احد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك ان الشارع لم يكن عرضه اقل من خمسة وثلاثين متراً .

ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران واحصن مدن باشان ومعقل الرومان شرقي الاردن شاهدة بما كان في تلك المدينة من الفخامة والعظمة وكان طولها داخل السور كما قال بورتر ميلاً وربع ميل وعرضها ميلاً ويحيط بالسور ربض كثير المباني ومحيطها خمسة اميال لها سور عالي الجدران وثيق البنيان وقلعة لااحصن منها في عامة بلاد الشام ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفيه وشوارع رحبة وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة وبدائع البناء واساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح وركام الانقاض وبيوت الاقدمين وقوس نصر أقيم للقائد فيليبس الذي صار امبراطوراً وهو من اهالي بصرى والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧١ قدماً وهو مكشوف من الاعلى مثل كل المشاهد الرومانية وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس او عشرة مساجد عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات واقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة وبعضها ما يصلح ان تزدان به اعظم عواصم اوربا الآن .

ولقد شوهد في معظم المدن التي بناها الرومان في هذه الديار وفي غيرها انها متشابهة في مرافقها الا قليلاً ففي كل مدينة ساحة عامة (فوروم) وما يتبعها من المرافق ومعبد الكابتول او معبد المشتري وجونون ومينرفا (ربة الحكمة والفنون والحرب) وكانت في المدن الرومانية بمثابة البيع الكاتدرائية في مدن اوربا الحديثة وفيها اسواق ذات نضائد من الحجر وفوارات ومقاسم ماء ذات اقنية لا تزال ترى

الى اليوم آثارها ومراحيض عامة وخاصة واماكن للاستحمام فيها مغاطس باردة وحارة وبيوت للتعريق وقاعات للرياضة والمحادثة وممَاشٍ للتنزه وافران واقواس نصر وابواب تغلق ليلاً ودور تمثيل لا يزال في اكثرها مصاطبها المدرجة ومساكن خاصة ·

ومن أهم الآثار في سورية جسر المعاملتين وجسر جبيل بين البلدة ومدافنها القديمة ومنها قناتان تمتدان بين نهر الكلب وجونيه والثانية القناة الكبرى التي كانت تنقل مياه الجبل الى بيروت وهي من عجائب الآثار القديمة · ومنها هيكل دير القلعة بالقرب من بيت مري في لبنان وهيكل افقا عند منبع نهر ابراهيم وهيكل فقرا فوق مزرعة كفر ذبيان في سفح جبل صنين وفي لبنان هياكل رومانية أخرى كهيكل بزيزا وناوس في جهات اميون قرب طرابلس وتماثيل كثيرة مبعثرة وفي البترون حصن منيع وملعب · وفي بيروت مسرح ومن قلاعهم قلعة صربا وفقرا وبحمور ومن اجمل حماماتهم حمام شهبة الذي يذكر بخرائبه الفخمة كما قال دي بحمامات كارا كالا في رومية وكنيسة السويداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في رومية قال ولا شك انها اجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية في جميع بلاد حوران ·

* * *

لما انتشرت النصرانية في هذه الديار اخذ من دانوا بها في بناء الكنائس والاديار على اسلوب الابنية القديمة ومالت الهندسة السورية الى السذاجة واجتناب كل زينة زائدة لتؤثر بمتانة البناء المعمول بالحجارة الضخمة وجمال الحجم وترتيب الاجسام · وقد نشأت بين القرن الرابع والقرن السادس للميلاد في الشام هندسة متينة راقية مختلفة عن الهندسات الاخرى تعرف حالتها من خرائب المدن العديدة في سورية العليا وحوران · قال جلايرت : ومن المصانع المنوعة في الهندسة السورية شيئان يلفتان النظر خاصة وهما البيع والابنية ذات السطوح وكان المهندسون السوريون فيها عالة على الشرق ويسترشدون بآراء مهندسي فارس وقد أثرت الهندسة السورية اذ ذاك في هندسة كثير من الامم ولا سيما في بيزنطية واخذت بيزنطية من سورية او من طريق مصر عن سورية اصول كثير من الابنية · وقال ايضاً والحق يقال

ان في سورية الوسطى مجالاً واسعاً للابحاث العلمية ودرس العاديات فان فيها ما لا يحصى من الابنية العادية كالهياكل الوثنية والكنائس المسيحية ودور الخاصة والاندية العمومية من اواخر القرن الاول قبل المسيح والقرن السابع للميلاد ولا كثرها كتابات تاريخية تزيل الريب في زمانها وهذه الآثار تتوالى سنة بعد سنة حتى لو جعلت على سياق متواصل لما وجدت عشرة اعشار من السنين خالية من أثر او آثار جمة ومجمل رأي بوتلر احد اعضاء البعثة الاميركية التي بحثت في آثار سورية الوسطى بين عامي ١٨٩٩ — ١٩٠٠ بعد معاينة كل هذه الآثار المتعددة واتخاذ اقيستها وتدوين رسومها انه كان لاهالي شمالي سورية الوسطى هندسة قائمة بذاتها مباينة لفن البناء الذي اشاعه الرومان في سورية وهو بناء قد يدعى بالطرز السوري لا اثر فيه للطرائق البنائية الرومانية والشرقية المحضة لكن له علاقة ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة في انطاكية وهذه العلاقة أبين وأظهر في اول استعمالها ثم امتزجت به على توالي الاجيال عناصر شرقية حتى نجم اخيراً عن اختلاطها طرز مركب شاع في القرون الاخيرة · واذا حولت رائد البصر الى الجنوب وامعنت النظر في ابنية حوران وجدت طرائقها البنائية مختلفة اختلافاً عظيماً عن الهندسة الشمالية نعم ان فن البناء الروماني ليس بمتغلب على ابنية تلك الانحاء الا ان آثار نفوذ الفنون البنائية الشرقية اوفر واعظم وبذلك قد تألف طرز وطني سبق عهد دخول حوران في اقليم سورية مع مباينة للطرز اليوناني الذي ادخله السلوقيون ·

***

عدّ ابن خرداذبة من عجائب البنيان ملعب فاميه وتدمر وبعلبك ولدّ و باب جيرون قال والروم تقول : ما من بناء بالحجارة ابهى من كنيسة الرُّها (اورفة) ولا من بناء بالخشب ابهى من كنيسة منبج لانها بطاقات من خشب العناب ولا بناء بالرخام ابهى من قسيان انطاكية ولا بناء بطاقات الحجارة ابهى من كنيسة حمص · وبيعة القسيان في انطاكية هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على اساطين وكان بدور الهيكل اروقة يجلس عليها القضاة للحكومة والطلبة للدرس وعلى احد ابواب هذه الكنيسة فنجان للساعات يعمل ليلاً ونهاراً اثنتي عشرة ساعة وفي

اعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات وبساتين ومناظر حسنة تخرّ منها المياه وهناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع . وكنيسة حمص كما قال المسعودي من بناء هيلانة وهي احدى عجائب العالم . ومن العجائب آثار عسقلان واشتهرت الشام بطرابلها اي صوامعها وكان في الشام اديار كثيرة ذكر بعضها ياقوت منها دير باعنتل من جوسية على مرحلة من حمص وفيه عجائب منها أزَج — بيت بني طولاً — فيه صور الانبياء محفورة منقوشة فيها وهيكل مفروش بالمرمر وصورة مريم في حائط منتصبة كلما ملت الى ناحية كانت عينتها اليك . وبظاهر انطاكية دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد وكان له من الارتفاع في كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة . وكان دير مران المطل على دمشق من جهة حدائق الصبار مبنياً بالجص واكثر فرشه بالبلاط الملوّن وهو دير كبير في هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني وفي الجبل المشرف على كفرطاب قرب معرة النعمان دير آخر اسمه دير مران وبقرب المعرة ديرالنقيرة . ودير مار مارون شرقي حماة وشيزر كان ذا بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة كان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم .

قال ابن بطريق : ان كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون ينزلونها ويسكنون فيها . وفي الشام اديار وبيع كثيرة لم يحدث التاريخ عنها الا اجمالاً . ومن اهم الكنائس كنيسة القيامة بالقدس وكنيسة بيت لحم ومنها كنائس الناصرة وفي لبنان اديار كثيرة قديمة واقدمها على الغالب لا يرتقي الى اكثر من مائتي سنة تراها كما قال لامنس اشبه ببيوت القرى لا تختلف عنها الا بسعتها وليس لها طرز هندسي وكان للبنان في القديم طريقة هندسية لبناء كنائسه الا انها دثرت والنقوش والتصاوير فيها كلها من الشكل البيزنطي . وقال ان الهندسة والتصوير والنقش وفنون الزينة اخذت تسير في طرق مستقلة عن النموذجات اليونانية والرومانية التي كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة في جميع الصنائع النفيسة وانشأ المهندس السوري يرفض استعمال الملاط بين الاحجار ويكتفي بحسن وضعها على صورة متوازنة تقوى بها بدون لحمة بين اجزائها واستعاض عن الآجر المألوف على عهد الرومان واليونان

بالحجر النحيت وبنى الكنائس ذات قباب فكثرت في البلاد البيع البديعة التي يعجب بخرائبها العظيمة اليوم الاثريون وعنها اخذ بناة الكنائس الرومانية ·

ومن الكنائس المهمة كنيسة مريم في دمشق كانت ذات شأن قال ابن جبير في القرن السادس ان لها عند الروم في دمشق شأناً عظيماً وليس بعد بيت المقدس عندهم افضل منها وهي حفيلة البناء تتضمن من التصاوير امراً عجيباً تبهت الافكار وتستوقف الابصار ومرآها عجيب · وليس في دمشق الآن كنيسة اقدم من ستين سنة لانها حرقت كلها في حادثة سنة ١٨٦٠ م وكذلك لا ترى في حلب كنيسة يرد عهد بنائها الى اكثر من خمس وسبعين وفي الشام اديار كثيرة وبيع مثل اديار جبل الكرمل والطور واريحا وطبرية ودير الروم والروس وكنيسة الالمان في القدس وديرصيدنايا ومعلولا في جبل قلمون وكلها حديثة الا قليلاً ليست ذات شأن معه وكذلك الحال في اديار شمالي الشام وسواحلها ·

* * *

كان العرب قبل الاسلام يختلفون الى بلاد الشام ينزلونها ويتجرون مع اهلها ويقتنون المزارع والقرى فيها بل كان النبط وهم عرب هم الذين انشأوا آثار جرش والبتراء والغسانيون واليهم تنسب آثار كثيرة في الشام الوسطى ومنها قصر النعمان ابن المنذر في السويداء وفي حارب · وبنى جفنة اول ملوكها جلق والقرية وعدة مصانع وبنى ابنه عمرو ديرحالي ودير ايوب ودير الدهناء وبنى ثعلبة بن عمرو عقة وصرح الغدير في اطراف حوران مما يلي البلقاء · وبنى جبلة بن الحارث من ملوكهم القناطر واذرح والقسطل وبنى الحارث بن جبلة وكان مسكنه البلقاء -- الحفير في البلقاء ومصنعه بين دعجان وقصر ابير · وبنى المنذر بن الحرث صربا ووزقا قريباً من الغدير وبنى جبلة بن الحرث قصر حارب وكان منزله بحارب ومحاربا زمنيعة وبنى الايهم بن الحارث الاديار دير ضخم ودير النبوة وسعف وبنى عمرو بن الحارث قصر الفضا وصفاة العجلات وقصر منار وكان منزل جبلة بن النعمان بصفين وهو صاحب عين اباغ واصلح النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة وكان بعض ملوك لخم خربها وكان الضجاعم قبل الغسانيين ملوك الشام وهم عرب ايضاً · وحكم التنوخيون شمالي

سورية قبل ان يجيئها جيوش العرب بقرون ولم نعرف للضجاعم والتنوخيين آثاراً تذكر . وآثار الصفا ولغتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ وآثار بني سميذع العرب في السويداء من جملة الشواهد على ذلك . قال البكري : ان اهل ثلاث بيوتات من العرب كانوا يتبارون في البيع وزيها : آل المنذر بالحيرة وغسان بالشام وبنو الحارث بن كعب بنجران ويعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه وكانوا يجعلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب . وقد نسب دوسو عدة ابنية في سيف البادية الى الغسانيين . كتب ايليا بطريرك بيت المقدس الى انسطاس ملك الروم قد بعثت اليك بجماعة عبدالله ورؤساء رهبان بريتنا وفيهم سابا الفاضل الذي قد صير بريتنا مدائن واعمرها وهو نجم فلسطين . وفي سنة احدى وعشرين من ملك يوستنيانوس الملك ثار بفلسطين اهل السامرة وهدموا الكنائس كلها واحرقوها وقتلوا النصارى وعذبوهم عذاباً شديداً فاعاد يوستنيانوس الكنائس وكتب الى عُمّاله في فلسطين ان يعفي اهلها من الخراج ويعمر بها الكنائس والديارات وبنى بيمارستاناً للغرباء في القدس

قال هوار : « ان القوافل عند عودتها الى الحجاز من سورية وقد سرحت الطرف في المصانع العظيمة على العهد الامبراطوري كانت تقص احاديث عجيبة مما رأت فأشربت النفوس تلك القصص وكان منها ان انشؤا في صحاري شمال بلاد اليمن جنات النعيم وارم ذات العماد الغريبة وقد بنيت في غالب الظن على مثال دمشق وتدمر وبعلبك » . على انه من الثابت انه كان لحمير سكان اليمن الخضراء هندسة محكمة قبل العهد الامبراطوري فان قصر غمدان في صنعاء من اعجب القصور انشأه ازال ابن قحطان بامر اخيه يعرب عشرين طبقة بعشرين سقفاً بين كل سقف عشرون ذراعاً وجعل فيه مائة مسكن وكان اعلى غرفه ممرداً بالزجاج وقد بني على اربعة اوجه وجه احمر ووجه اصفر ووجه ابيض ووجه اخضر وقيل بني في داخله قصر على سبعة سقوف بين كل سقفين منها اربعون ذراعاً وجعل في اعلاه مجلس بالرخام الملون وجعل سقفه رخامة واحدة وصير على كل ركن من اركانه تمثال اسد من شبه كأعظم ما يكون . فالامة التي تبني هذا كانت لها ولا جرم عناية بلغة بالبناء وبراعة في

تقديرها وهندستها وسواء اخذت العرب عن سورية الهندسة واخذ السوريون عن عرب الحيرة واليمن فان المهم ان يعرف ان العرب ليسوا كلهم بادية بل كان منهم من يشيد المدن امثال اليمانيين والى اليوم ظاهرة آثارهم البديعة على الانحطاط الذي طرأ على ذاك القطر العجيب بعادياته وخيراته ·

جاء العرب المسلمون الى الشام ولم يكن لهم هندسة خاصة واختاروا بادئ بدء ان يسكن جيوشهم في الخيام وكان جمهور من الروم في دمشق تخلوا عن دورهم ولحقوا بهرقل فنزلها الفاتحون ثم اخذوا في كل بلد ينزلونه يرمون ما عور من بنائه وربما بنوا بالمدر اي باللبن والطين اولاً ولكن عادوا الى استعمال الحجر فقد روي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه ان سعداً واصحابه بنوا بالمدر كتب : اكره لكم البنيان بالمدر فاما اذا فعلتم فعرضوا الحيطان واطيلوا السمك وقاربوا بين الخشب وقد كان لبعض الصحابة الكرام ممن فتحوا دمشق دور وقصور منتشرة في انحاء المدينة مثل دار ابي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وفضالة بن عبيد والعباس بن مرداس وابي العزيز الازدي ووابصة بن معبد وطلحة بن عمرو وخالد بن اسيد والنعمان بن بشير الانصاري وواثلة بن اسقع وهبار بن الاسود وعمرو بن العاص واوس بن اوس ويزيد بن نبيشة وعبد الله بن عامر الى امثالهم ولا نعرف الا مكان دار ابي عبيدة وكان في محلة حجر الذهب اي المحلة التي تعرف اليوم بالبيمارستان وكانت اجمل حيّ في دمشق وقد اقام بعضهم مساجد في جوارهم · وكان معاوية يقيم احياناً في غوطة دمشق وينصب الابنية والاروقة والفساطيط قال اليعقوبي كان معاوية اول من بنى وشيد البناء وسخر الناس في بنائه ولم يسخر احد قبله · ولما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء لقبة خضراء بناها عليها عرفت الدار بها وذلك قبلي الجامع الاموي دخلها وفد الروم فقالوا: ما احسن ما بناها للعصافير وفي رواية اما اعلاه فللعصافير واما اسفله فللنار فهدمها وبناها بالحجر · والغالب انها ظلت عامرة الى القرن الثالث بدليل ما قاله ابن واضح من ان في دمشق خضراء معاوية وهي دار الامارة · ولما استخلف عبدالملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء وهي دار الامارة بدمشق فاشتراها باربعين الف دينار واشترى منه اربع ضياع باربعة اجناد الشام اختارهن فاختار من فلسطين

عمواس ومن الاردن قصر خالد ومن دمشق الاندر ومن حمص ديركا ·

وقد بنى الامويون بعده بيوتاً لهم كانت بجوار الجامع ومنها دار عمر بن عبدالعزيز مكان المدرسة السميساطية الآن ودار هشام مكان تربة نور الدين وقصر سليمان بن عبد الملك مكان سقاية جيرون ودار مسلمة بن هشام بباب البريد قال الذهبي بنى سليمان ابن عبد الملك دار السلطنة وعمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز وكان لعاتكة ابنة يزيد بن معاوية قصر خارج باب الجابية بدمشق وقال ابن عساكر كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي · وقصر حجاج منسوب الى الحجاج بن عبد الملك بن مروان وقد بنى الامويون قصوراً لهم في الغوطة لانهم كانوا يملكون جانباً عظيماً منها ولكن لم يظهر لها اثر ولا خبر ·

وفي ايام الوليد بن عبد الملك كانت الناس تتكلم في البنايات والعمائر لزيادة رغبته في البناء فبنت الناس المجالس الحسان وذلك لان الخليفة كان يرغب في البنايات واتقان المصانع وفي عهده دخلت دمشق في طور العواصم والناس على دين ملوكهم ·

قال احد المؤرخين وكان الوليد عند اهل الشام محبوباً لانه صاحب عمارة وبناء عمر الضياع ووضع النار في الطرقات واعطى المجذومين واقردهم وقال لا تسألوا واخدم كل مقعد خادماً واعطى كل ضرير قائداً وكتب الى جميع البلاد بهدم المساجد والزيادة فيها وتسهيل الطرق وحفر الانهار وان تعمل البيمارستانات التي تعالج فيها المرضى وهو اول من فعل ذلك وهو اول من اجرى على القراء وقوام المساجد الارزاق ·

كان الامويون اذا ارادوا اقامة بناء عظيم تقدم مملكة بيزنطية الصناع والرسوم التي يراد النقل عنها · ذكروا ان الوليد لما اراد في القرن الاول ان يعمر جامعي بيت المقدس ودمشق استقدم روماً من القسطنطينية للقيام بهذا الغرض فبدأت الهندسة العربية بالاقتباس عن الامم الاخرى فلم تأت بابداع جوهري في مبادئ البناء وقد استخدم العرب بادئ بدء من المهندسين وارباب الصنائع من وجدوهم في البلاد التي افتتحوها فكان أسلوب البناء الاسلامي في اول الامر سورياً في الشام وقبطياً في مصر ·

قال سنيوبوس لم يكن للعرب كما للرومان صناعات وطنية خاصة بهم فكانوا اذا احتاجوا الى قصور او جوامع يعمرونها اولاً على الطرز الفارسي او البيزنطي مثل جامع دمشق ولكن ما لبثت الصناعات الفارسية والبيزنطية ان اختلطت ونشأ منهما صناعة جديدة هي الصناعة العربية واجمل هذه الصناعات الجوامع والقصور · وقال احد علماء الافرنج ان التقليد في الحضارة الاسلامية محسوس بيد انه تقليد غير اعمى لان تأثيرات الاساتذة الاقدمين لا تمنع من البحث العلمي والاختراع الحديث كما ان مشهد البدائع القديمة ودرسها لا يحولان دون التفنن ولطافة الابداع والاختراع · وفي الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق احدى مراكزها ومنبعث انوارها ولم يخلف العرب في النقش ولا الرسم آثاراً خارقة للعادة وما بقي مع هذا من آثارهم وعادياتهم الحجرية وانواطهم المنقوشة وعاجهم ومجوهراتهم يشهد باستعدادهم الفني اه·

وقال هوار: كان بذخ ملوك المسلمين من الدواعي للصناع ان يرقوا الاساليب التي كانوا يأخذونها تقليداً عن اجدادهم شفاهاً فجددوها وتفننوا فيها فارتقت مع عدة اشكال قديمة بعضها من اصل بيزنطي وهي وارثة اليونان ورومية والآخر ساساني من احلاف الدولة الاخمانية او اشوري او بابلي فارتقت عدة فروع من الصنائع الاسلامية وهي ليست من اصل بيزنطي ولا فارسي ·

ولقد تفنن العرب في التزيين الجميل في كل اجزاء البناء · وحسن الصناعة عند العرب يبدو في جوامعهم · فان ما يتجلى على الجدران والسقوف من ضروب الزخرف والخطوط الملوية قد دعا الافرنج الى تسميته باسم ارابسك اي النقوش التي تمثل النباتات والاشجار ونسبوها للعرب حتى ان حروف الكتابات التي زينت على الاحجار والعاديات تشبه صورة من صور الزينة اكثر مما تدل على اصل من اصول الخط · ولم يكتفوا بتصوير الاشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك في الجامع الاموي بل صوروا البلدان والاقاليم ·

***

ومن اهم الآثار التي تنم عن ذوق عربي في هذه الديار المسجد الاقصى وقد جرى ترميمه في اوقات مختلفة والقليل الذي بقي من آثار نقش العرب وتصويرهم

يدل على ما كان هناك من فكرة وقادة ويد صناع . وقد غشّى الوليد قبة الاقصى بالنحاس اخذه من كنيسة في بعلبك وكذلك فعل مروان في قبة الصخرة مدة ولايته وكان صناع هذه القبة من الروم . فهندسة الجامع الاموي والمسجد الاقصى مقتبسة اذاً من الهندسة اليونانية وممزوجة باشياء اسلامية .

بعث ملك الروم الى الوليد كثيراً من البنائين والمقدرين اي المهندسين مع ما بعث اليه من المفصص اي الفسيفساء والذهب قال المقدسي : ان الوليد جمع لبنائه حذاق فارس والهند والمغرب والروم . وروى ابن شداد : ان الوليد اقتلع من كنيسة انطاكية عمداً عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق حملت في البحر الى ساحلها . ولما كان البناء من صنع بنائين مختلفين ساغ ان نقول انه جمع اجمل ما في الهند وفارس وآثينة ورومية . اما طرز البناء فالغالب ان بعض الجدر بقيت بحالها كما كانت يوم كونها بيعة او معبداً للصابئة . ومساجد الشام ومصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ اوسابيوس انها ذات افنية وزاوين وفناق ومساكن للقس .

ولقد بلغ من تفنن الوليد بزخرفة الجامع الاموي ونقشه وتصويره ما يعجب منه ولا يكاد يكون له نظير في هذه الديار فقد قال ابن كثير : ان ارض الجامع الاموي كانت مفصصة كلها وان الرخام كان في جدرانه الى قامات وفوق ذلك كرمة عظيمة من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض وسقفه مقرنص بالذهب والسلاسل المعلقة فيه من ذهب وفضة . وقد أنفق فيه خراج الشام سنتين وفي رواية اربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار وكان خراج الشام على عهد بني أمية الف الف دينار ومائتي الف دينار . وذكر بعضهم ان الوليد اخذ ربع أعطيات اهل دمشق تسع سنين وكانوا خمسة واربعين الفاً يستعين بها على عمارة جامع دمشق . قال المقدسي والجامع جامع دمشق احسن شيء للمسلمين اليوم ولا يعلم لهم مال مجتمع اكثر منه ومن اعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة الى اختها ولو ان رجلاً من اهل الحكمة اختلف اليه سنة لافاد كل يوم صنعة . وقال المقدسي : رأى الوليد الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعاً حسنة قد

فتن زخارفها وانتشر ذكرها كالقمامة وبيعة لد والرُّها فاتخذ للمسلمين مسجداً في دمشق شغلهم به عنهن وجعله احدى عجائب الدنيا ·

ومما رواه صاحب مطالع البدور ان اليونان لم يزالوا يعمرون دمشق و يبنون فيها وفي معاملاتها من حوران وغيرها البنايات الغريبة العجيبة حتى كان بعد المسيح عليه السلام بمدة نحو من ثلثمائة سنة فتنصرت اهل الشام على يد قسطنطين بن قسطنطين الذي بنى المدينة المشهورة في بلاد الروم و بنى لهم هذا الملك التي تنسب اليه الطائفة الملكية منهم كنائس كثيرة بدمشق وغيرها حتى يقال انه بنى في زمانه اثني عشرة الف كنيسة · وقد غلب حب البناء على بني امية فكان منزل سليمان بن عبد الملك قبل الخلافة الرملة وهو انشأ مسجد جامعها ونقل الناس اليها من لد وكانت المدينة التي ينزلها الناس فاخذ يهدم منازلهم بلد والبنيان بالرملة وعاقب من امتنع من ذلك وهدم منازلهم وقطع الميرة عنهم حتى انتقلوا وخرب لد ·

دخل المأمون مرة جامع دمشق ومعه اخوه المعتصم ويحيى بن اكثم فازدادا عجباً فقال المأمون لهما : اي شيء يعجبكما من هذا المسجد فقال المعتصم : ذهبه فانا نقعه في قصورنا فلا تمضي عليه عشرون سنة حتى يحول وهذا بحاله مع طول الزمن كأن الصانع فرغ منه الآن · فقال المأمون : ما أعجبني هذا · فقال يحيى بن اكثم الذي اعجب امير المؤمنين تأليف زخارفه فان فيه عقوداً ما يرى مثلها · فقال المأمون : كلا بل اعجبني انه بني على غير مثال شوهد ·

ومع ان تلك الاثارات الجميلة في الجامع ذهبت في الحريق الاول سنة ٤٦١ هـ ثم الحرائق الخمس التي حدثت في اوقات مختلفة وآخرها سنة ١٣١٠هـ فقد بقي في الغالب سوره الاول · وصف ابن جبير قبة الرصاص في الجامع الاموي فقال انها من اعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغريبة وهيا كلها الهائلة البنيان وقال انها مستديرة كالكرة وظاهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب اعلاها وداخل هذه القبة وهو مما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالاً عجيباً وهي كلها مذهبة بابدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين

بديعة القرنصة وفي الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطير ،قنطرة لا تنقلها الفيلة فضلاً عن غيرها فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة اه ·

اما المسجد الاقصى في القدس فقد كاد المؤرخون والجغرافيون من العرب يجمعون على انه احسن من جامع دمشق عمّر عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ الحرم والقبة الكبرى التي فوق الصخرة على اسلوب جميل لم يسبق اليه · قال بعضهم ان شكل قبة الصخرة مستعار من الهندسة البيزنطية ثم هدم الكنيسة التي كان شيدها يستنيانس وبنى موضعها المسجد الاقصى وتنوق في تنميقه واكمل البناء سنة ٧٢ وقالوا ان اساس المسجد الاقصى من عمل داود وهو على غاية الحسن والإحكام كما قال ياقوت مبني على الاعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي ليس في الدنيا احسن منه لا جامع دمشق ولا غيره · وروى ابن العديم ان جامع حلب كان يضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء وان سليمان بن عبدالملك هو الذي بناه وتأنق في بنائه ليضاهي به ما عمله اخوه الوليد في جامع دمشق ·

***

وصف يزيد بن المهلب دار ولي عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال : دخلتها فاذا هي دار مجصصة حيطانها وسقوفها وفيها وصفاء ووصائف عليهم ثياب صفر وحلي الذهب ثم أُدخلتُ داراً أخرى فاذا حيطانها وسقوفها خضر واذا وصفاؤها ووصيفاتها عليهم ثياب خضر وحلي الزمرد وان ولي العهد قاعد على سرير معه امرأته · ووصف حماد الراوية دار هشام بن عبد الملك في دمشق فقال انها دار قوراء مفروشة بالرخام وهو في مجلس مفروش بالرخام وبين كل رخامتين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب حمر من الخز وقد تضمخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في اواني ذهب يقلبه بين يديه فتفوح رائحته وفي المجلس جاريتان لم ير مثلها قط · والله اعلم أكان ذلك حقيقة ام خيالاً ·

وقد ادعت ميس بل انه لولا حوادث القرن السابع اي لولا دخول العرب

الفاتحين لبلغ السوريون طريقة في هندسة الابنية خاصة بهم مستقلة عن غيرهم وان امتزج بها شيءٌ من هندسة الامم الاخرى فردٌّ عليها لامنس بان هذه المدينة مدينة دمشق لم تمس عاصمة كبرى الا في عهد بني أمية وبهمتهم . قلنا ولو لم يُعفِ بنو العباس آثار بني أمية في الشام لرأينا فيه احسن صورة تامة من صور بنائهم . وكان منه ما هو في المدن ومنه ما هو في البادية او ما يقرب منها لان الامويين كانوا على الاغلب يتحامون نزول دمشق لرطوبتها وحمياتها فمنهم من نزل قصر الموقر او المقور وقصر المشتّى والزيزاء والقدين والازرق والاغدف والبخراء والابيض والقسطل والرصافة والزيتونة والجابية وحُوَّارين والصنبرة ودابق وبطنان حبيب وأباير في البلقاء وشمالي سورية وشرقيها وبنى هشام حصن المثقب على يد حسان بن ماهون الانطاكي وحوله خندقاً وحصن بوقا من اعمال انطاكية وبعض هذه القصور لاتزال أسسه ماثلة للعيان مثل قصر الموقر والمشتى لم ينسفها العباسيون كما نسفوا آثار المدن ونقضوا مثلاً سور دمشق يوم فتحوها حجراً حجراً واخربوا ايضاً قصور الامويين في حلب مثل قصر سليمان بن عبد الملك بالحاضر وقصر مسلمة بن عبد الملك بالناعورة بحلب ومنازل هشام بن عبد الملك في القطيفة من جبل سنير وقصري هشام في الرصافة وابقوا في الغالب على قصر خناصرة من ارض الاحص لعمر بن عبد العزيز لانهم احترموه ولم يبقوا على غير قبره من قبور بني أمية . والظاهر من كلام المقدسي المعروف بالبناء الذي ولد سنة ٣٣٦ ان آثار بني أمية كانت موجودة في عهده خلافاً لما هو المعروف من ان العباسيين اتوا عليها كلها والغالب ان بعض الابنية لم تعور كثيراً ورمّت فاطلق عليها اسمها الاصلي ونسبت الى بانيها الاول .

قال الجاحظ : من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار من قبلهم وان يميتوا ذكر اعدائهم فقد هدموا بذلك السبب المدن واكثر الحصون كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية وعلى ذلك هم في الاسلام كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الآطام (الحصون) التي كانت بالمدينة وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر وكما هدم اصحابنا (يعني العباسيين) بناء مدن الشامات (قد تسمى الشام بالشامات)

اما بنو العباس فلم تبق الايام من آثارهم مصنعاً يعتدُّ به في الشام لنحكم على عظمتهم

وكان من اهمها قناة قرية منين التي جرها المأمون الى معسكره بدير مران في جبل قاسيون · وهذا عمل مهم مما بلغنا خبره لان الطريق من منين الى قاسيون يحتوي على اودية وشعاب ونجاد كثيرة ذكر ذلك ابن عساكر · وقد بنى المتوكل العباسي قصر بين داريا ودمشق فلم يعثر له على اثر وفي سنة ٢٦٢ هـ بنى الامير النعمان داراً عظيمة في بيروت وحصن سور المدينة وقلعتها اما المتغلبة على الملك في زمن العباسيين مثل الفاطميين والطولونيين والحمدانيين والسلجوقيين فاننا لانعرف عن آثارهم كبير امر ايضاً ولاسيما بنوطولون وبنوعبيد فانهم آثروا ان يجعلوا مصانعهم في مصر مقر ملكهم كما آثر العباسيون ان يجعلوها في العراق وخراسان ومما بناه ختكين والي دمشق للحاكم بامر الله جسر الحديد تحت القلعة قلعة دمشق على نهر بردى وسخر الناس لاجل عمله واخذ اموالهم ·

ومن اجمل ابنية دمشق دير مران كان عامراً الى القرن الثالث وكان فيه قصر خماروية وفيه قتل وللشعراء فيه قصائد جميلة · ذكر ابن عساكر ان حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضي دمشق من قبل الفاطميين جدد في دمشق مساجد ومنابر وقنوات واجرى القوارة التي في جيرون · وذكر انه وجد في تذكرته سبعة آلاف دينار صدقة في كل سنة وهو الذي انشأ القيسارية المعروفة بالفخرية توفي سنة ٤٣٤ وكان لشمس الدين بن المقدم من كبار امراء الدولتين النوريه والصلاحية (٥٨٤) دار كبيرة بدمشق الى جانب المدرسة المقدمية ثم صارت لصاحب حماة ثم صارت لقراسنقر المنصوري ثم للسلطان الملك الناصر وله تربة ومسجد وخان وكان الملك الامجد صاحب بعلبك يقيم بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب ولعلها دار المشيرية اليوم ·

وقد نشأت في القرن الرابع وما بعده في سورية حركة مباركة في العمران قام بها مهندسون من العرب انتهت الينا تراجم بعضهم وقليل من اعمالهم مثل ابي بكر البناء المهندس الذي ابتنى ميناء عكا لابن طولون · قال المقدسي ولم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على ميناها فاحب ان يتخذ لعكا مثل ذلك المينا فجمع صناع الكورة وعرض عليهم

ذلك فقيل لايهتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان ثم ذكر له جدنا ابو بكر البناء وقيل ان كان عند احد علم هذا فعنده فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى انهضه اليه فلما صار اليه وذكر له ذلك قال هذا امر هين عليّ فلق الجميز الغليظة فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البري وخيط بعضها ببعض وجعل لها باباً من الغرب عظيماً ثم بنى عليها بالحجارة والشيد وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها باعمدة غلاظ ليشتد البناء وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت حتى اذا علم انها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى اخذت قرارها ثم عاد فبنى من حيث ترك وكلما بلغ البناء الى الحائط القديم داخله فيه وخيطه به ثم جعل على الباب قنطرة فالمراكب في كل ليلة تدخل المينا وتجر السلسلة مثل صور اه · قلنا وبنى احمد بن طولون قلعة يافا ولم يكن لها قلعة من قبل ·

ومن المهندسين الذين رأينا اسماءهم مكتوبة على المصانع التي عمروها ابراهيم ابن غنائم المهندس الذي بنى القصر الابلق في الميدان القبلي بدمشق وهو قصر عظيم مبني من اسفله الى اعلاه بالحجر الاسود والاصفر بتأليف غريب وإحكام عجيب بناه الظاهر بيبرس البندقداري وعلى مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الابلق بقلعة الجبل بمصر · قال ابن فضل الله : وامام هذا القصر اي ابلق دمشق دركاه[1] يدخل منها الى دهليز القصر وهو دهليز فسيح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن المؤزر بالرخام المفصل بالصدف والفص المذهب الى سجف السقف وبالدار الكبرى به ايوانان متقابلان تطل شبابيك شرقيها على الميدان الاخضر وغربيها على شاطىء واد اخضر يجري فيه نهر وله رفارف عالية تناغي السحب تشرف من جهاتها الاربع على جميع المدينة والغوطة · قال شيخ الربوة

(١) الدركاه البيت المستطيل امام الدار يرتفق به وهو فارسي اخذه العرب من الفرس كما اخذوا لفظ الهنداز بمعنى الحد عن اندازه ومنه المهندس المقدّر مجاري القُني والابنية واخذوا البركار ايضاً كما اخذوا الشاذروان للفوارة تشتق منها فوارات كثيرة والايوان والدهليز والبازار والخركاه والبيمارستان والخانقاه وكثيراً غيرها ومن ذلك يستدل على كثرة تأثير الاوضاع والهندسة الفارسية في الاوضاع والهندسة العربية ·

سمي بالقصر الابلق لكونه مبنياً بالحجارة البيض والحجارة السود . وقد بقي هذا القصر عامراً الى عهد العثمانيين رآه ابن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ وقرأ تاريخه ٦٦٨ وقال ان على أسكفته ضرباً من رخام ابيض وسطه مكتوب عمل ابراهيم بن غنائم المهندس . وقد قال العارفون ان التكية السليمانية قامت على انقاض ذاك القصر . وابراهيم بن غنائم هذا هو الذي هندس ايضاً المدرسة الظاهرية بدمشق ونقش اسمه على يسار الداخل من الباب في الزواية الشمالية هكذا «عمل ابراهيم بن غنائم المهندس» . ولا تُزال اسماء بعض المهندسين ظاهرة في بعض آثار طرابلس على عهد المماليك منهم المعلم محمد بن ابراهيم المهندس والمعلم عمر بن نجيم والمعلم محمد الصفدي . وممن بلغنا خبره علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف المهندس بنى للملك المظفر في حماة ابراجاً وطاحوناً على العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعاونه في عملها المهندس القاضي جمال الدين بن واصل .

وصف بهاء الدين الموصلي قصر الابلق بدمشق فقال : وقصرها الابلق ليس بالعقوق من شاهد بديع معانيه سها عن العاشق والمعشوق قد شام في عمده مشهور غمدان، واسبل على ايوان كسرى ستر النسيان، يبهر الناظر حسن معناه، ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه ، الماء مرفوع في اقطاره ونواحيه ، فنصب في فوار بركه لتمييز ناظريه ، يتكسر جمعه على شاذروانانه مجروراً باضافته الى مجاريه ، فقد اجتمع لقاطنه اضافة المعنى والحسن الباهر ، ولم يكمل ذلك البهاء الا بكمال جمال الظاهر ، اعين شبابيكه الى ميدانه الاخضر ناظرة ، قد جمع الصادح والباغم واللافظ والطاعم به الظباء الاوانس ، والمها الكوانس ، اقطاره عريضة طويلة لا ترجع الابصار من السفر في دمنه الا كليلة ، اخجلت خمائله الأيك والغصون ، ولاذ القائف بالسلوان عن اقتفاء اثر السلوك في معانيه التي كلها عيون ، وقف الابلق حين جرى الى منتهاه ، وادرك الاعياء فسكن باقصاه ، وشاهد الشقراء تمرح في ميدان واديها فاراد الوصول اليه فعاوده الاضطراب ، فقطعت عليه الانهار الطريق وضرب بينهما بسور له باب .

ولما قويت حركة العمران في عهد الدولتين النورية والصلاحية بدمشق وحلب والقدس وحماة وطرابلس والمعرة وبعلبك وغيرها واخذوا ينشئون فيها المدارس

والجوامع والرُّبُط والمستشفيات والقلاع والجسور كان منها ما هو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء هذه المدرسة العادلية التي شرع ببنائها نور الدين ولم يتمها ولما ولي العادل ازال ما بناه نور الدين وبناها كما قال صاحب الروضتين هذا البناء المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس . ومن البدائع واجهة مدخل المستشفى القيمري في صالحية دمشق وهندسة مدرسة الصهيبية في حلب وكذلك المدرسة التي كانت بجوار الشهباء وصفها ابن جبير قال ومن اظرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتح كله بيوتاً وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً امامها فيمد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة . وقد قيل ان منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الاسلامية .

ولقد بنى الملك الاشرف بن الملك العادل بدمشق قصوراً ومنتزهات حسنة وكانت عمارة اللاذقية في الحروب الصليبية من احسن الابنية واكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف انواعه كما قال ابن الاثير فخرب المسلمون كثيراً منها ونقلوا رخامها الى دمشق وغيرها وخربوا البيع التي قد غرم على كل واحدة منها الاموال الجليلة المقدار ولما تسلمها تقي الدين عمر حصن قلعتها وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة .

* * *

وبعد ان كانت دمشق في القرن السادس اكثر مدن الارض سكاناً كما قال ابن جبير وكانت في القرن الثامن كما قال ابن تغري بردي اجمل مدينة في العالم بل اغنى مدينة احرق تيمورلنك بعض احيائها ومدارسها وغرمها ملايين من الدنانير وحمل معه المهندسين والبنائين والنقاشين في جملة من حمل من ارباب الصنائع الى سمرقند كما فعل السلطان سليم العثماني في مصر لما فتحها في الربع الاول من القرن العاشر فحمل الى القسطنطينية كل صاحب صنعة وعمل نافع وجردها من بدائعها وصناعاتها النفيسة .

وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام افردها ابن عبد الهادي في رسالة

كما كان في عصره الف جامع ومسجد في دمشق وضاحيتها وناهيك ببلدة فيها هذا القدر من آثار العمران ولا غرو بعد هذا ان قال فينا ابو الفضل بن منقذ الكناني يوم كان لنا القدح المعلى في العمائر :

واذا مررت على المنازل معرضاً عنها قضى لك حسنها ان تقبلا
ان كنت لا تستطيع ان تتمثل الفر ـ دوس فانظرها تكن متمثلا
واذا عنان اللحظ اطلقه الفتى لم يلق الا جنة او جدولا
او روضة او غيضة او قبة او بركة او ربوة او هيكلا
او وادياً او نادياً او ملعباً او مذنباً او مجدلا او موئلا
او شارعاً يزهو بربع قد غدا فيه الرخام مجزّعاً ومفصلا

ومن قصور حلب في القرن الثالث دار واليها زكا الاعور ودار حاجبه فيروز ودار سيما الطويل ودار كورة الخراساني ومنها قصر السلطنة بدمشق · قال ابن الجوزي: هدم اهل دمشق قصر السلطنة في القرن الخامس ودرسوه وكان عظيماً يسع الوفا من الناس · وقصر بطناس في حلب كان عامراً الى عهد ابن العديم في القرن السادس · وقد خربت محلة الفراديس المعروفة اليوم بمحلة العمارة في فتنة القرامطة سنة ٣٦٣ وكان فيها على رواية ابن القلانسي من البنيان الرفيع في الحسن والبهاء ما لم ير مثله وهو احسن مكان كان بظاهر دمشق · وقال ابن شاكر: ان اللؤلؤتين كانتا منظرتين ظاهر دمشق مما يلي باب الحديد غرباً وكانتا من أعجب البناء · احرقهما المصريون لما حاصروا دمشق · وقنطرة سنجة التي قال فيها ابن حوقل ليس في الاسلام قنطرة احسن منها و يقال انها من العجائب وسنجة بالقرب من منبج · وقال ابن القلانسي من اقتراحات شمس الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزيمته ومضاء همته ومستحسن ابتدائه ما احدثه من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة بدمشق الاوسط منها و باب جسر الخندق الشرقي منهما وهو الثالث لما انشئ ذلك في سنة ٥٢٧ مع دار المسرة بالقلعة والحمام المحدثة على قضية اخترعها وبنية اقترحها وصفة آثرها فجاءت في نهاية الحسن والطيبة والتقويم والاعتدال ·

من المدن ما نبه ذكره بعد خموله في عهد الدولة الاتابكية والايوبية مثل حماة

فلم يكن لها في القديم نباهة ذكر وكان الصيت لحمص دونها فلما آلت الى ملك بني ايوب مصروها بالابنية العظيمة والقصور الفائقة والمساكن الفاخرة وفي جوامعها اثر من آثار الصنائع في القرون الوسطى وما قبلها . ومنها ما قام على انقاض الكاتدرائية القديمة ومنها ما حرق وخرب واستعيض عنه مكاناً آخر مثل طرابلس ففي سنة ٦٨٨ فتحت طرابلس واخرب سورها وكان من الاسوار العظيمة وامر السلطان بتجديد مدينة على مثل طرابلس فبنيت ثم سكنها الناس وكانت في يد الفرنج من سنة ٥٠٣ ومثل ذلك يقال في غزة فقد قال الظاهري في القرن التاسع للهجرة : ان فيها من الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة مايورث العجب وتسمى دهليز الملك . وكان سور عسقلان عظيم البناء بحيث كان عرضه في مواضع تسع اذرع وفي مواضع عشر اذرع . وقال ابن فضل الله في بعلبك : انها مختصرة من دمشق في كمال محاسنها وحسن بنائها وترتيبها بها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستانات والاسواق الحسنة . وقال آخر وبقلعة بعلبك من عمارة من نزل بها من الملوك الايوبية آثار ملوكية جليلة . وكانت منبج ذات مدارس وربط عليها سور بالحجارة المهندسة حصينة جداً . ومن هذه المدن ما اصبح الآن كالقرى مثل قيسارية التي قال فيها المقدسي ليس على بحر الروم بلد اجل ولا اكثر خيرات منها ومثل المعرة معرة النعمان التي ترى الى اليوم مسافة ما بين ابوابها ساعة على السائر .

وقد انشأ جامع طرابلس الاشرف خليل ٦٨٩ — ٦٩٣ على عهد حكومة عز الدين ايبك الخزنه دار وازهرت طرابلس على عهد سيف الدين اسندمر الذي بني القلعة وحماماً وسوقاً وانشأ فيها مجاري المياه الغريبة في تقسيمها الى جميع طبقات الدور ليأمن ساكنوها من الحمى في الطبقات الارضية وقد عمر فيها هذا الملك سنة ٧٠٩ حماماً عظيماً اجمع من رأوه انه ما عمر مثله في البلدان وعمر قيسارية وطاحوناً وانشأ لمماليكه بها مساكن حسنة البناء تجري المياه اليها بالقنوات ومنها ما يطلع الى اعلاها وتجري في طباقها وعمر ايضاً بعض القلعة وأقام ابراجاً وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس — قاله النويري .

***

في بر الشام كثير من القلاع من بناء القرن الخامس والسادس والذي بعده مثل قلعة صرخد . قال ابن تغري بردي : في حوادث سنة ٤٦٦ وفيها بنى حسان ابن مسمار الكلبي قلعة صرخد وكتب على بابها أمر بعمارة هذا الحصن المبارك الامير الاجل مقدم العرب عزالدين فخر الدولة عدة امير المؤمنين يعني المستنصر صاحب مصر وذكر عليها اسمه ونسبه ومثل قلعة حلب وان كان تاريخها يردّ الى ابعد من هذا القرن والمهم من ابنيتها بدأ في عهد الاسلام .

وكذلك قلعة دمشق التي سميت « الاسد الرابض » وهي من بناء تاج الدولة تتش سنة ٤٧١ هـ جعل بها دار امارة وسكنها ثم زاد الملوك بعده فيها وسكنها كثير منهم . وكانت دار الامارة قبله تسمى « القصر » بناها العباسيون بعد ان دكوا الخضراء وقصور الأُمو بين تخرب القصر في بعض فتن الفاطميين .

وفي سنة ٦٩١ كمل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبة الزرقاء في قلعة دمشق فجاءت في غاية الحسن والكمال والارتفاع والشيء فيها قاعة اسمها قاعة الذهب وفرغ من جميع ذلك في سبعة اشهر وجاء في غاية الحسن . وصف ابن حجة الحموي قلعة دمشق عندما حوصرت في الوقعة المشهورة : ونظرت بعد ذلك الى القلعة المحروسة وقد قامت قيامة حربها حتى قلنا أزفت الآزفة وقد ستروا بروجها من الطارق وهم يتلون : (ليس لها من دون الله كاشفة) واستجليت عروس الطارمة عند زفتها وقد تحجزت للحرب ولم ترض بغير الارواح مهراً وقد عقدت على رأسها تلك العصائب وقد توشحت بتلك الطوارق وادارت على معصمها الابيض سوار النهر وغازلت بحواجب قسيها ورمت القلوب من عيون مراميها بالنبال واهدت الى العيون من مكاحل نارها اكحالاً كانت السهام لها اميال وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب وشمخ وهو على فرسه بنفسه الغالية وراموا كشفها وهم في رقعة الارض كأنهم لم يعلموا بان الطارمة عالية وتالله لقد حرست بقوم لم يتورعوا بغير آية الحرس في الاسحار وقد استيقظوا لحمل قسيهم ولم تنم اعينهم عن الاوتار فاعيذ رواسيها التي كالجبال الشامخة بمن اسس المحجوج واحصنها قلعة بالسماء ذات البروج .

واشتهرت في القرن الخامس دار ابن بني عقيل صاحب صور (٤٦٥) دخلها أسامة ابن منقذ فرآها وقد تهدمت وتغير زخرفها فكتب على لوح من رخام هذه الابيات :

احذر من الدنيا ولا تغتر بالعمر القصير

وانظر الى آثار من صرعته منا بالغرور

عمروا وشادوا ما ترا ه من المنازل والقصور

وتحولوا من بعد سكناها الى سكنى القبور

وذكر سبط ابن الجوزي ان أسامة الحلبي بنى داراً بدمشق بانقاض بيوت الناس فخربت على يد ايوب بن الكامل محمد في سنة ٦٤٧ وكان أسامة قد غرّم عليها اموالاً عظيمة واخذ اراضي الناس والآلات بدون الطفيف وصح فيه قول القائل الحجر المغصوب في البناء اساس الخراب وكانت هذه الدار سبب هلاك أسامة ·

ومن جملة قصور الحكومة في الدولة الجركسية دار السعادة وكانت مكان دائرة المشيرية امس ودار حكومة دمشق اليوم · ومن القلاع المحكمة قلعة بصرى بنيت على مثال قلعة دمشق · وهي اقدم من الاسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد في ادوار مختلفة دع القلاع والحصون الكثيرة في الشمال والجنوب مثل شقيف ارنون وشقيف تيرون وهونين وتبنين وكوكب وعجلون وقاقون والصبيبة والصلت والمارونية وبيت لاها وحصن ابي قبيس وصافيتا وعريمة ولوقا وتل باشر وعكار وحارم وصهيون وبغراس ودربساك ودركوش واسفونا وبسرفوت وبلاطنس وحصن الاكراد وشيزر والمنيطرة والشغر وبكاس وارسوف وبيت جبرين وحبرون وارتاح والاثارب وبارين وبارة واعزاز وصرفند وعدلون وبرج الرصاص وحصن الاسكندرونة والتينات وحلبا وعرقة وبرزيه وخناصرة وقسطون وتل اعدى وحصن الحبس والقدموس ومصيات والكهف والعليقة والخوابي وغيرها من القلاع المعروفة بقلاع الدعوة اي الدعوة الباطنية او الاسماعيلية · هذا الى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس وقلعة حماة وحمص وعكا والكرك والشوبك وصرخد وصفد وشميميس · ومعظمها تناطح السحاب بعلوها وتشبه الجبال بمتانتها وما احلى ما قاله القاضي الفاضل في وصف حصن كوكب : ووردنا حصن كوكب وهو نجم في سحاب ، وعقاب في عقاب ، وهامة ، لها الغمامة عمامة ،

والمثلة ، اذا اخضبها الاصيل كان الهلال لها قلامة . ووصف شهاب الدين محمود حصناً فقال : حصن قد تفرط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه الى السماء ورسا اصله الى التخوم ، تخال الشمس اذا علت انها تنتقل في ابراجه ، و يظن من سها الى اليها انها ذبالة في سراجه ، لا يعلوه من نسر السما غير نسر السما وزمامه ، ولا يرمق متبرجات بروجه غير عين الشمس والمقل التي تطرف من انجمه ، وحوله كل شامخ تهيب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف الريح حسرى اذا تعرقلت في هضابه ، تخفق العيون اذا رمقته سلوك مادونه من المحاجر ، و يحيل الفكر صورة الترقي اليه لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر ، وحوله من الاودية خنادق لا تعلم منها الشهور الا بانصافها ، ولا تعرف فيها الاهلة الا باوصافها .

وبدأ منذ القرن الخامس الغرام ببناء القلاع والحصون لان المدينة او الموقع الحربي اذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين ان يجتاحها ومن كتاب فاضلي في وصف حصن بيت الاحزان : « وقد عرض حائطه الى ان زاد على عشر اذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع اذرع الى ما فوقها وما دونها وعدتها تزيد على عشرين الف حجر لا يستقر الحجر في مكانه ولا يستقل في بنيانه الا باربعة دنانير فما فوقها وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها انوف الجبال الشم وقد جعلت سقيته بالكلس واحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه وصاحبه باوثق واصلب من جرمه واوعز الى خصمه من الحديد بان لا يتعرض لهدمه »

وكثيراً ما كان سلاطين هذه الديار منذ استولى عليها الاتابك زنكي الى اواخر عهد المماليك يخربون الحصون التي استولوا عليها او التي كانوا بنوها لئلا يعود اعداؤهم فيستولوا عليها و يتقدموا في داخلية البلاد . وقد ألف جمهور الناس ان ينقضوا البنيان القديم و يعمروا به بناءهم الحديث ولهذا امثلة كثيرة في تاريخ العمران في هذه البلاد خاصة . فقد ذكر العماد الكاتب ان اللاذقية لما استخلصت من ايدي الصليبيين وقع من عدة من الامراء الزحام على الرخام ونقلوا منه احمالاً الى منازلهم بالشام « فشوهوا وجوه الاماكن ومحوا سنا المحاسن » و بظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة باجزاء الاجزاع مرصعة و بالوان الرخام مجزعة واجناس تصاويرها متنوعة ولما دخلها الناس اخرجوا رخامها وشوهوا اعلامها .

وذكروا ان سيباي كافل الشام في الدولة الجركسية لما اراد بناء جامعه في باب الجابية بدمشق خرب عدة جوامع ومدارس واتى باحجارها فسمى العلماء ما بناه « جمع الجوامع » ولما ارادوا في اواخر القرن الماضي بناء رصيف على طول نهر بردى من صدر الباز الى داخل مدينة دمشق حملوا اليه من ضخام الاحجار التي كانت في قلعتها. وربما هدم بمثل هذا العامل ما كان في اكثر مدن الشام من دور الضيافة التي ابتدعها عمر بن عبد العزيز وهو اول من اتخذ من الخلفاء الخانات للمسافرين كما اتخذ دار ضيافة وانشأ معاوية قبله البريد . وقصر الفقراء الذي بناه نور الدين في ربوة دمشق ووقف عليه قرية داريا ليصطاف الفقراء الى جانب الاغنياء ، ودار العدل التي بناها نور الدين ايضاً في دمشق وهي اول واحدة من نوعها بناها لكشف الظلامات وسماها دار العدل كان يجلس فيها لفصل الخصومات مرتين في الاسبوع وعنده القاضي والفقهاء وبنى نور الدين جسر كامد اللوز في سهل البقاع (على الليطاني) كما جدد كثيراً من الجسور والخانات وقنوات السبل في اعمال دمشق وغيرها . وما كان في قمم الجبال من المناور التي كانت توقد فيها النيران للاعلام بحركات العدو في الليل وما كان شيد في البلاد من ابراج حمام الزاجل لنقل الاخبار في النهار . ومن ذلك دمنة القبتين الماثلتين في قنة جبل قاسيون وكان فيه مرصد فلكي بناه المأمون فدثر في جملة ما دثر . ومما اشتهر جسر منبج اتخذ في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه للصوائف ويقال بل كان له رسم قديم .

* * *

دخلت سورية في القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية وغيرها وهي هندسة الصليبيين للقلاع والحصون والدور والكنائس ولا سيما في طرابلس وبيروت وعكا واهتم الصليبيون ببناء القلاع والكنائس في البلاد التي احتلوها من ارض الشام ولا سيما طرابلس وصور وانطاكية وعكا والقدس حتى قال بعض الباحثين : اذا استثنينا الدور الروماني فانه لم يأت على الشام زمن توفرت الهمم فيه على البناء مثل عهد الصليبيين فان كل مستعمرة تجارية في الموانئ البحرية كانت تحاول ان يكون لها على الاقل كنيسة وخانات وحمامات ومن ذلك العهد يرد تاريخ الكنائس الكثيرة وبعضها عظيم

ثم القلاع التي غصت بها البلاد وهي احسن نموذج للهندسة الحربية في القرون الوسطى . وانشاء الكنائس في الشام يرد الى عهد قسطنطين في سنة ٣٣٠ م فكثرت بكثرة عنايته ورفعه من شأن الكنيسة وقال فان برشم ان على طرابلس صبغة المدن الايطالية اثرت فيها منذ الحروب الصليبية كما اثرت هندسة المدن الايطالية الكبرى على جميع الموانئ البحرية في سورية وكان للطراز الايطالي التقدم على غيره لان الطليان اهل البندقية و بيزة وجنوة وطسقانا كانوا اسبق امم الغرب الى الاختلاط بسكان الشام للقرب وللعلاقة الدينية بين رومية ونصارى الشرق العربي قبل الحروب الصليبية وكان عدد الصليبيين من جمهوريات ايطاليا اكثر من غيرهم من الامم قال الاثري فان برشم : لما كانت سواحل سورية محط رحال الصليبيين ونقطة حركاتهم الحربية تشبعت ابنيتها بالروح الايطالي خصوصاً لان الطليان كانوا اذ ذاك اكثر عدداً في هذه الحملات من العنصر الفرنساوي . ومن هذه المدن ما دثر مثل طرطوس وصيدا وصور وقيسارية وعسقلان ومنها ما هو باق مثل انطاكية و بيروت واللاذقية وعكا . وفي مدينة طرابلس من بين المدن كلها يتجلى الروح الايطالي الباقي من القرون الوسطى في ابنيتها وهندستها ولا تزال قلعة الحصن او حصن الاكراد والكرك كما يدعوها فرسان الصليبيين محفوظة منذ عهد الصليبيين على ما هي عليه وهي آية في باب الهندسة العسكرية في القرون الوسطى ناطقة بلسان حالها بان الصليبيين نزلوا الارض المقدسة .

قلنا فاذا كان الطليان يبيعون هندستهم في البناء ونقشهم ورسمهم من الامم الغربية حتى اليوم فاحر بهم ان يبيعوها من اهل القرون الوسطى هنا . ومن هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن وجامع بيروت وطرطوس الكبير وارواد وصور وصيدا ودير البلمند قرب طرابلس وكنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار شربل في معاد وكنيسة انفة هذا الى غير ذلك من البيع في شمالي لبنان وجوار البترون وقد بنوا نحو خمسين قلعة وحصناً في البلاد التي احتلوها .

قال رنان الظاهر ان البنايات المربعة الشكل الضخمة الحجم هي من عمل الطليان وفرسان الهيكليين . وان البنايات ذات البرج المدور هي من صنع الفرنسويين وفرسان الاسبتاليين وكثيراً ما كان تأثير هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم — وكانت

البلاد خاصة بها — تعدل ذوق الافرنج الخاص في هذا المعنى . قال وفي طرطوس قامت اهم هذه الآثار واستدل مما فيها ان منزل الصليبيين في هذه البلاد لم يكن منزل قلعة بل وطدوا انفسهم على احتلالها احتلالاً دائماً وان في طرطوس بيعة هي اجمل مصنع من المصانع التي بنيت على الطراز الغوتي في هذه الديار .

وتجلت الهندسة الايطالية في الابنية الحديثة التي أنشئت منذ ستين سنة في بيروت ولبنان وطرابلس وحيفا و يافا وصيدا وغيرها من مدن الساحل فان معظمها من الطراز الايطالي لا تحوي شيئاً من روح الهندسة العربية الا كونها قامت في صميم بلاد العرب . لا جرم ان علاقة سورية بايطاليا اقدم من الاسلام . علاقتها ببلادنا منذ كنا ولاية رومانية تحكمنا رومية عاصمة تلك الامة العظيمة .

***

برع مهندسو العرب في هذه الديار في علم عقود الابنية وهي ما يتعرف منه احوال اوضاع الابنية و كيفية شق الانهار وتنقية القني وسد البثوق وتنضيد المساكن ولو لم يبرعوا في كيفية ايجاد الآلات الثقيلة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن والقلاع والمنازل والجوامع والمدارس هذا التمكن الذي يبهرنا اليوم مع علمنا بقلة الآلات المحركة في عهدهم وفقدان وسائط التفنن . ولو كان مؤلفو التراجم يعنون باخبار المهندسين والفلكيين والكيماويين مثلاً عنايتهم بالتقاط اخبار الشعراء والمتأدبين والمتزهدين لجاءتنا منهم سلسلة طويلة ولعلمنا من اسباب تفننهم وعلومهم الشيء الكثير وما ندري ان كانت هذه الموضوعات افردت بالتأليف فضاعت في جملة ما ضاع في الفتن في بغداد ودمشق وغرناطة .

لم يبلغنا ان في البلاد دوراً يرد تاريخها الى الف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن في عهد ارتقاء البلاد على عهد الحكومات العربية كما بقيت مثلاً بعض دور قنوات في جبل حوران محفوظة كما كانت بنوافذها وابوابها الحجرية . ولكننا على مثل اليقين من ان طرز البناء في دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين وقبلهم بعصور وان هذا الطراز في بناء بيوت دمشق خلاصة أسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ في القرون الاخيرة

ومنه مثال حي من مدارس المذاهب الاربعة ودور القرآن والحديث والمستشفيات والرُبُط وغيرها في دمشق · وعن هذا المثال نقل الأُمويون أُسلوبهم في بناء البيوت بقرطبة وغرناطة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الاندلس اقتبسوا أُسلوب بناء الدور من دمشق على ما يظهر كأن لا تكون الدار اكثر من طابقين احدهما شتوي وهو الاعلى والآخر صيفي وهو الادنى وللدار مدخل او دهليز يتصل بفناء واسع فيه حوض ماء وفي صحن الدار اشجار وازهار وفوارات · قال احد المهندسين المعاصرين ان التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة ودار عربية فقد كانت الدور تشاد ولا تجعل لها نافذة على الشارع ويكتفى بطيقان للتهوية ولها فناء داخلي تحف به غرف ومخادع وفي وسط الفناء او الصحن فوارة او حوض ماء · لا جرم ان المسلمين قد اخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط ولا تزال نجد فيه مثالاً في اسبانيا حيث يسمى الفناء الداخلي باسم « باتيو » او الفناء المبلط ·

وكانت دمشق تعتمد في ابنيتها على الحجر غالباً · وزاد الاعتماد على الخشب والطين في الادوار الاخيرة · قال المقدسي : ان منازل دمشق ضيقة وازقتها غامة واكثر أُسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف لا ترى احسن من حماماتها ولا اعجب من فواراتها · هذا في القرن الرابع للهجرة · وقال ابن جبير في القرن السادس ان اكثر ابنيتها بالقصب والطين · وقال ابن فضل الله في الثامن ان غالب بناء دمشق بالحجر ودورها اصغر مقادير من دور مصر لكنها اكثر زخرفة منها وان كان الرخام بها اقلَّ وانما هو احسن انواعاً قال وعناية اهل دمشق بالمباني كثيرة ولهم في بساتينهم منها ما تتوق به وتحسن باوضاعه وان كانت حلب اجلّ بناء لعنايتهم بالحجر فدمشق ازين واكثر رونقاً لتحكم الماء على مدينتها وتسليطه على جميع نواحيها ويستعمل في عمارتها خشب الحور بدلاً من خشب النخل الا انه لا يغشى بالبياض ويكتفى بحسن ظاهره واشرف دورها ما قرب واجل حاضرتها ما هو في جانبها اه ·

قلنا وهذا ينافي ما كان يراه العرب في تخير اماكن بيوتهم فقد كانوا اصطلحوا على ان الاطراف منازل الاشراف قال البحتري :

عجب الناس لاعتزالي وفي الاطـ راف تلفى منازل الاشراف

ولذلك كنت ترى في سفح جبل الصالحية والربوة والشرف الاعلى الشمالي والشرف الادنى الجنوبي من ظاهر دمشق قصوراً انيقة ينزلها القضاة والحكام و كبار ارباب الاملاك والاشراف ولكنها دثرت بالفتن المتواترة ولم تقو على عوادي الايام حتى نحكم على ما عمله الدمشقيون وأسلوبهم في هندسة مصانعهم على العهد الاسلامي الاوسط وقد خربت هذه كلها في عهد العثمانيين . ويقول كاتب جلبي : انه كان في المرجة بدمشق قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى ايفاؤها حقها من الوصف لا سيما ابنية البرامكة وآثارهم فانها لم تزل باقية الى هذا العهد (القرن الحادي عشر) وروى الظاهري : ان دمشق تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة وبها طارمة مشرفة على المدينة بها تخت الملك مغطى لا يكشف الا اذا جلس السلطان عليه وقال ايضاً : ان ما في الميدان الاخضر في دمشق من القصور الحسنة عجيبة من العجائب وهذا في القرن العاشر .

وآثار العثمانيين في هذه العاصمة التكيتان السليمانية والسليمية والجامعان السنانية والدرويشية . بنوها على الاسلوب التركي البيزنطي ولهم مثل ذلك في حلب ومنها المدرستان البديعتان مدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية . قال سوبرنهيم الاثري ان عدداً عظيما من مصانع حلب يرد الى زمن المماليك والعثمانيين وما عدا الجوامع الكثيرة مثل جامع الاطروش والطون بغا والطواشي ومناراتها المختلفة الهندسة — وبفضلها تذكر حلب بصورة القاهرة في هذا المعنى — فان حلب قد احتفظت بالمستشفى الجميل الذي بناه ارغون سنة ٧٥٥ وبكثير من المخازن والخانات والحمامات والدور والسلسبيلات . وفي هذا المستشفى افاريز ونقوش من اجمل مانقش النقاشون تزينه فتجعله بهجة للناظرين . ومدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة ومنها العسكري والديني والمدني وكلها بما زبر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد ان يتصور اصول الهندسة لا في حلب فقط بل في شمالي سورية اهـ . ومن اجمل آثار الهندسة في حلب محراب مدرسة الفردوس التي بنتها ضيفة خاتون التي ملكت حلب ست سنين وهي ابنة ابي بكر بن ايوب الملك العادل ولو كتب البقاء على الاقل للقصر

الذي بناه بقرية بطياس من ضواحي حلب صالح بن علي العباسي وقصر الدارين الذي بناه عبد الملك بن صالح خارج باب انطاكية وقصر مرتضى الدولة احد موالي بني حمدان وقصر سيف الدولة بن حمدان الذي بناه بالحلبة من ضواحي حلب وتناهى في حسنه وعمل له اسواراً وقد احرقه الروم في احدى غزواتهم فلم يعمر بعد ذلك ٠ او قصر آخر من قصور الحمدانيين — لو كتبت الاقدار ذلك لساغ لنا ان نحكم حكماً صحيحاً على هندسة دور الشهباء في القديم ٠ والغالب ان هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال في دمشق عن الطراز القديم ٠ و يقول الظاهري ان الميدان الاخضر في دمشق كان فيه من القصور الحسنة ماهو عجيبة من العجائب ٠ وفي سنة ٦٩٢ كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذي شرع ببنائه سيف الدين ارقطاي المنصور الناصري كافل السلطنة ايام الملك المنصور بن قلاوون وكان بناؤه بعدما خرب الجسر الذي اقامه السلطان انطونيوس الحليم الذي تملك على رومية بعد المسيح بمائة واربعين سنة وهو الذي قطع الصخور و بنى البرج ومشى في الطريق الذي على شاطئ البحر الموصل الى مدينة بيروت كما هو مكتوب على الصخر قبال الجسر القديم مما يلي قبليه على هذه الصورة مكتوب: الامير ادوار قيصر ماركوس اورليوس انطونيوس الحليم السعيد اغسطس كبير الجرمانيين الحبر الاعظم قطع الجبال المشتملة على نهر ليقا ونهج الطريق مهلاً ولقبه بالطريق الانطونياني وهذا النهر تلقب بالكلب لكونه بعدما اصلحه انطونيوس الملك نصب به قائمة (نصباً) من حجر كبير على صورة الكلب وقيده بسلسلة حديد في الصخر وجعلوا قدامه نقيراً لاجل الطعام ٠

لما اراد نائب الشام في اواخر النصف الاول من القرن الثامن عمارة جسر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت بعد ان لم يبق في السواحل مثل هذا النهر بغير جسر وكان عُمّر مرة فاقام سنتين فاخذه السيل ثم عمّر ولم يقم الا بعض الشتاء لضعف الاساس انتدبوا لذلك مهندساً خبيراً بالاعمال الا الحلية يقال له ابو بكر بن البصيص البعلبكي وهو الذي عمر جسر نهر الكلب وله غير ذلك من الاعمال الثقال ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة ٠ وكذلك جسر الظاهر برقوق الذي بناه على نهر الأردن اي الشريعة وطوله مائة وعشرون ذراعاً وعرضه عشرون ٠ وقالت فيه

السيدة عائشه الباعونية الدمشقية :

بنى سلطاننا برقوق جسراً بامر والانام له مطيعه
مجاز في الحقيقة للبرايا وامر بالمرور على الشريعه

وعمر قاضي دمشق سنة ٩٣٢ سوقاً تجاه باب جيرون بدمشق فبنى اقواساً يحملون فيها قباب مبنية بالآجر اذ رآه احكم في البناء لانه لا يحتاج الى طين و يؤمن من حرقه ٠

***

من القاعات في دمشق وحلب ما يرجع تاريخه الى القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر ومنها نعرف كيف كانت هندسة القوم فمنها القاعة المشهورة بباب جيرون و باب السلسلة انشأها الامير محمد بن منجك الذي عمر العمارات الفائقة بدمشق فانه تأنق في عمارتها بالقاشان والرخام وعمر القصر المعروف به في الوادي الاخضر (١٠١١) ومنها عمارات الامير منصور بن الفريخ امير البقاع المقتول سنة ١٠٠٢ بقرية قب الياس وكانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلي دار السعادة قال المحبي لم يرسم مثلها جعل بابها بالرخام الابيض والحجر الاحمر المعدني ونقل لها الرخام من بلاد السواحل والحجارة من البقاع واستعمل فيها العملة بالسخرة ٠ وفي سنة ١٠٣٤ بنى الامير منذر بن الامير سليمان بن علم الدين بن محمد التنوخي سرايا عظيمة في قرية عبيه في الشحار من الغرب في لبنان و بقي مدة اربعين سنة ولم يكملها لزيادة اتساعها وكان البناؤون من اسلامبول ٠ وامر الوزير احمد باشا الكوبرلي الذي ولي دمشق سنة ١٠٧١ بعمارة قاعة معظمة داخل دار الامارة بدمشق فبنيت كما قال المحبي على اسلوب عجيب ووضع غريب ٠ وقال المؤرخون ان الامير بشير الشهابي كان كالامير فخر الدين المعني يحب البذخ والرفاهية وتنظيم اصطبلاته و بيطرته حتى اصبح مضرب الامثال في ذلك وعمر في بيت الدين قصراً ملوكيا وجاب اليه الماء في ساقية طولها ثلاثة فراسخ ٠ قال بعض المؤرخين جر الامير بشير بواسطة رجل دمشقي قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب نهر الصفا الى منزله في بيت الدين من بعد ثلاث ساعات وغرم على ذلك زهاء مائتي الف درهم و كانت جميع اهل البلاد تحضر في كل سنة يومين تعمل في هذه القناة

بغير اجرة اكراماً له ومدة العمل اثنان وعشرون شهراً وعمر الامير بشير بايعاز من والي ٠ يدا جسراً على نهر الدامور في طريق صيدا الى بيروت فجمع اهل الصناعة اليه فكانوا اكثر من مائة وخمسين رجلاً فاتمه في شهرين وغرّم عليه نحو مائة الف درهم · ومن الابنية التي اشتهرت في عصرها قاعة حسين بن قرنق في صالحية دمشق عمرت سنة ١٠٧٧ وكان يضرب بها المثل وهي على الارجح في رأس العقبة مكان دار بني الشريف دثرت في القرن الماضي · ومن محاسن دمشق في هذا القرن الداران اللتان عمرهما في القنوات الامير المنصور الشهابي اميروادي التيم وابن عمه الامير علي وذلك على اسلوب متقن محكم وزخرفاهما بانواع الزخارف والنقوش وجلبا اليهما الرخام من بلادهما قال المحبي : ولعمري انهما ابدعا ونوعا واجادا في صنعهما ·

وذكر المؤرخون ان الامير فخر الدين المعني جلب مهندسين من الغرب ولعلهم من ايطاليا ليضعوا له خطط قصوره في بيروت وصيدا وذكروا ايضاً انه بنى عدة بنايات وقلاعاً وحصوناً كثيرة ولما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفا واتى بنو سيفا اصحاب طرابلس فاحرقوا ونهبوا الشوف قيل انه اقسم هكذا : وحق زمزم والنبي المختار لاعمرك يادير بحجر عكار · وهكذا لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحصن واخذها وهدمها جعل الجمال بالالوف تحمل الحجارة من قلعة عكار الى دير القمر وبنى جميع الدور القديمة في دير القمر ووزع في جدرانها من حجارة عكار وهي الحجارة الصفراء الموجودة في الخرج وفي جميع بنايات بيت معن القديمة وهي باقية الى الآن · ومن امثلة البناء الجميل دار اسعد باشا العظم في جوار جامع بني أمية بدمشق شرع بانشائها سنة ١١٦٣ وانتهت سنة ١١٧٤ قيل ان ما انفق عليها اربعمائة كيس كل كيس بخمسمائة قرش وهذا اجور العملة واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من املاكه وبساتينه عدا من سخرهم للبناء من الناس وكان عدد العملة ثمانمائة قيل ان داخل الدار اماكن عديدة لاتشبه الواحدة الاخرى وجميعها بماء الفضة والذهب واللازورد والبلاط والرخام العظيم ونقل بعض السائحين ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراي الملك المعظم · وهذه الدار بما حوت من الفناء والقاعات والردهات والابهاء والفساقي والنوارات والحمام من الطف ما هندس المهندسون في

ذاك القرن وكذلك يقال في قصره في حماه وهو على مثال داره في دمشق على صورة مصغرة · والنقوش وانواع الزينة فيها فارسية فاستدل من ذلك ان النقاشين كانوا فرساً او تأثروا بالاسلوب الفارسي ومن اجمل ما فيه صورة حماة في القرن الثاني عشر تبين منها انها كانت عامرة اكثر من اليوم · ودار اسعدباشا العظم في دمشق اشترتها فرنسا ورممتها وجعلتها متحفاً وداره في حماه اشترتها جمعية وجعلتها مدرسة وهي عامرة ايضاً · ومن اجمل الآثار في دمشق ايضاً خان اسعدباشا العظم وواجهته ورتاجه «بوابته» وقد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس الى الرأس وعرضه ومن اجمل آثار ذاك القرن جامع الجزار في عكا وداره في البهجة على مقربة منها نسج فيها على مثال الهندسة المصرية في ذاك القرن · وسراي بيت الدين انشئت في اوائل القرن التاسع عشر ومهندسوها ايطاليون والبناؤون دمشقيون وحلبيون واتراك من الاستانة وهي على الطرز التركي الممتزج بالطرز الايطالي · ومن البيوت الجميلة قصور بني جنبلاط في المختارة في لبنان وفي الملالية قرب صيدا وقصر بني شهاب في حاصبيا وسرايهم في راشيا · فان هذه القصور مثال من تفنن اعيان ذاك الزمان في تجميد بيوتهم وحسن هندستها · وقد تبين مما سلف ان الهندسة في الشام اصبحت في القرون الاخيرة سورية عربية وانت اذا شاهدت ماشادوا ونضدوا ونقشوا ورصعوا رأيتهم يبنون كما قيل بناء الجبابرة و ينقشون نقش الصياغ ·

وانا اذا تأملنا الابنية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة في مدن الشام نراها طرزاً طليانياً في الاكثر قد لا ينطبق مع روح البلاد ومصطلحها في اشادة البيوت منذ القرون الاولى وقد انتشر هذا الطراز في مدينة بيروت ولبنان اولاً ثم امتد الى طرابلس و يافا وحيفا والقدس ودمشق وحلب وحمص وغيرها من المدن وما دور بني سرسق في بيروت وصوفر ودور بني بسترس والتويني وغيرها في بيروت والدور المعلقة في مدينة طرابلس ودور الجميلية والعزيزية في حلب ومصايف لبنان في عاليه وصوفر وبكفيا وغيرهما وبعض الدور المحدثة في دمشق الامثال منها ومن اهم ابنية الشام المحدثة دير الكازانوفا في الناصرة ودير الالمان ودير الروس في القدس ومدرسة اليسوعيين والجامعة الاميركية ودار المفوضية العليا في بيروت ومحطة السكة الحجازية في دمشق ومحطة سكة بغداد في حلب وغير ذلك من القصور الخاصة

والفنادق والمدارس والملاجئ والمياتم والمستشفيات في القدس وطبرية و بيروت ولبنان وغيرها ومن اهم دور القرن الماضي في دمشق دار القوتلي وشامية وعنبر وشمعايا واستانبولي والحلبوني و يسرع البلى الى ما كان بناؤه منها من الخشب والطين او بعضها منها على الاغلب واكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها تنبو عنه العين والزخرف في داخلها قال البحتري :

وتأملت ان تظل ركابي بين لبنان طلعاً والسنير
مشرفات على دمشق وقداعــ ـرض منها بياض تلك القصور

ومع ان المقالع قريبة من دمشق وفيها ضروب الحجر الجميل من ابيض ومائل الى الصفرة او الحمرة فان القوم يستسهلون او يسترخصون البناء بالخشب واللبن او الحجر الاسود الناري فيبنون به كما يبني اهل حمص · واجمل الحجر الحجر الرملي في بيروت وحجر حلب ولم يزل بناء بيت المقدس — كما قال القاضي الفاضل — من الرخام الذي يطرد ماؤه ولا يطرد لألاؤه قد لطف الحديد في تجزيعه ، وتفنن في توسيعه ، الى ان صار الحديد الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد ، فما ترى الا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق ، كالاشجار لها من النبت اوراق · وان بعض القاعات اذا كتب لها البقاء فلانها بنيت بالحجر الصلب وتعاورتها ايدي العقلاء فرمتها يوم احتاجت الى الترميم بطارىء طرأ عليها ·

قلّت في الشام قصور افراد الناس من التجار والصناع والزراع كما تشاهد في الغرب مثلاً لان اهل البلاد كانوا يفنون في كبرائهم فلم يكن شأن من مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير ارباب الدولة او من كان يعد في جملتهم وكان سائر الناس يحاذرون ان تنشأ لهم شهرة في الثروة والثروة تتجلى في الدار والفرش والدابة واللباس فيتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال الذين كانت مصادرة الاموال اسهل شيء عليهم وقتل من يريدون استصفاء ارضهم وعقارهم وعروضهم من المباحات · ولذلك كان ذو الغنى كثيراً ما يدفن امواله في مكان مجهول من داره ودكانه وربما خاف من زوجه وولده فكتم عنهم ما يملك وقد يموت وتبقى دفينته مجهولة حتى يجيء بعد دهر طويل من ينبش الارض او الجدار و يعثر بالعرض على ما جمعه ذاك الغني المحروم · والناظر الى مدارس دمشق وصالحيتها وهي لا تقل عن زهاء ثلثمائة مدرسة

ومدارس حلب وهي تربو على مئة يدرك انها من عمل السلاطين والعمال وقليل من التجار واهل الخير وكان منهم من يتوخى منها ان تكون توليتها لبنيه من بعده ليعيشوا منها اذا صودرت املاكهم . وقلَّ ان رأينا جماعة اتفقوا على اقامة عمل من هذا القبيل اللهم الا قليل من المساجد ولو فعلوا لامنت اعمال الجماعات من اعتداء المعتدين ولما استصفيت واستحل هدمها او تغيير معالمها من لا يخافون الله ولا عباده ولجاءت ممثلة العظمة الحقيقية في الامة . انشأ المسلمون هذا القدر من المدارس في اكبر مدن القطر دع مدارس حماة وطرابلس وبعلبك والقدس والمعرة ومنبج بدأُوا في القرن السادس وانتهوا في القرن التاسع فجاء من بعدهم من ينسفها واحدة تلو الاخرى فتداعت واكلوا اوقافها فاخرجوها عن الغاية الشريفة التي وضعت لها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

هكذا كان حظ المدارس والجوامع فما بالك في غيرها من المصانع . وكم ادركنا وادرك آباؤنا واجدادنا في هذه الديار من اثر بديع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته وكم من كتابة تاريخية عفي اثرها جهلاً وغباوة . اجتاز القاضي ابو يعلى المعري ببلدة شياث ظاهر معرة النعمان والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر فقال :

مررت برسم في شياث فراعني به زجل الاحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأَنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
اتتلفها شلت يمينك خلها لمعتبر او زائر او مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم ار احلى من حديث المنازل

وبعد فقد علمنا بما مرَّ بنا من العبر ان الشام لا يحتفظ بآثاره ويحميها الا يوم تنشأُ فيه ادارة للعاديات يكون سلطانها نافذاً على الكبير والصغير كما فعلت مصر منذ امد فاحتفظت بالبقية الباقية من اعمال الغابرين وخدمت احباب الآثار وغلاة الهندسة من المحدثين . واهم من هذا ان يتربى في الامة الذوق في الجمال و ينتشر العلم بالصنائع النفيسة حتى بين الاطفال و يعرف كل وطني معنى هذه التذكارات المطبوعة بطابع الاجداد والاجيال وعندئذ يصبح الشام كله متحفاً نفيساً دونه اجمل المتاحف وانفم بيوت المفاخر والمآثر .

محمد كرد علي

فهارس كتاب المحاضرات

«الجزء الاول»

الفهرس الاول في اسماء المحاضرات

الفهرس الثاني في اسماء المحاضرين

الفهرس الثالث في موضوع المحاضرات

﴿ اصلاح أهم الخطأ المطبعي ﴾

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	١٨	التجرد	المجرّد
١٠	٢١	لا ينفذ	لا ينفد
١١	١٠	أخمل	أخمُل
١١	١٩	الصيّد	المصيّد
١٣	١٢	فهم	هم
٣٠	٢٤	غارة وجه الحجر	غاب وجه الحجر
٧٨	١٥	صبقي	صيفي
٧٩	١	واليمين على ادعى	... من ادعى
٨٢	١	واجتهاد	واجتهاده
٨٣	٨	والمذاهب	المذاهب
٨٣	٨	رضيها	رضيتها
٨٤	السطر (٢) من الحاشية (١)	يرثح	يرجح
٩٣	١٧	ومع هذا في فقد قضي عليه خصومة	ومع هذا فقد قضي عليه في خصومة
٩٥	آخر سطر	ملخم	ملجم
١٠٠	١٤	او الحق الالهي	الحق الالهي
١٠٢	آخر سطر	بين امر المتنازعين	بين المتنازعين
١٠٣	٢٢	ضرب الاول	ضرب للاول
١٠٥	٧	في	تفي
١٠٦	١٦	لا يكون مداراً	لا يكون الاقرار بالاكراه مداراً
١٠٦	٢٤	واوجبوا في	واوجبوا التبرئة في
١٠٨	٥	يجنس	يحبس
١٠٨	٢٤	يقام له الحد	يقام الحد
١١٣	١	جميع	جمع

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١٥	٢١	منا	مناب
١١٦	١٤	يمكن	ممكن
١١٦	١٥	ممن	من
١٢٤	٢٢	والحديد من	والحديد اقل من
١٢٦	٢٣	عليهم	عليهم
١٢٨	٢	وتنشيط	وتنشط
١٢٨	٢٣	يراسلون	يرسلون
١٨١	قبل الاخير بسطر	بيروسيوس	بروشيوس
١٨٢	١	ما علامة الآثار	ما علاقة الآثار
١٩٩	٨	شؤونها	شؤوننا
٢٠٢	٤	حيلة	حلية
٢٠٥	٢٢	يكون	يكونوا
٢٠٦	١٩	الفريقين	الغربيين
٢٥٢	١٠	لاخافين	لاخالفين
٢٥٩	١	حين الدهر	حين من الدهر
٢٦٤	١٢	بجميع	بجمع
٢٦٩	١٩	مثلها	وما مثلها
٢٧٢	١٢	المزلفة	المؤلفة
٢٧٤	١٨	بعضهم	بعضها
٢٧٧	٨	عند	عنه
٢٧٨	٢٢	وهنت	وهبت
٢٩١	١١	ابن العربي	ابن عربي
٣١٨	٩	قصره	لقصره

هذا عدا حروف ونقط ساقطة او زائدة مما لا يخفى امره عن اللبيب ·



